ماريو بارغاس يوسا



قصة مايتا

ترجمة

صالح علماني

روايات عالمية « ٧٥ »

الإشراف الفني زهير الحمو

إهــــــــداء ٢٠٠٧
مديرية المطبوعات والنشر - وزارة الثقافة
الجمهورية العربية السورية

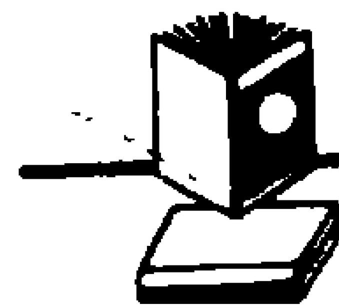
ماريو بارغاس يوسا

قِصَّة مايتا

رواية عالمية

ترجمة

صالح علماني



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ١٩٩٩

العنوان الأصلي للكتاب :

HISTORIA DE MAYTA

Mario Vargas Liosa (1984)

قصة مايتا : رواية عالمية = Historia de Mayta / ماريو بارغاس يوسا ؛
ترجمة صالح علماني . - دمشق : وزارة الثقافة، ١٩٩٩ . -
٤٠٠ص ؛ ٢٤ سم . - (روايات عالمية ؛ ٧٥) .

١- ٨٦٩ ي و س ت ٢- العنوان ٣- العنوان الموازي
٤- يوسا ٥- علماني ٦- السلسلة
مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع-١/٢٣٤١/ ١٢/ ١٩٩٩

روايــات عالميــة
« ٧٥ »

الفصل الأول

الجري في الصباح على كورنيش بارانكو، حين تكون رطوبة الليل ما تزال تضمخ الهواء وتكون الدروب زلقة وبراقة، هو طريقة جيدة لبدء النهار. السماء رمادية حتى في الصيف، فالشمس لا تظهر مطلقاً فوق الحي قبل الساعة العاشرة، ويشوش الضباب حدود الأشياء وهيئة النوارس والبجعات التي تحلق مجتازة خط وهدة الساحل المتكسر. البحر يبدو رصاصياً، أخضر قاتماً، مدخنكاً جامحاً، فيه لطخات من الزبد وأمواج تتقدم نحو الشاطئ تفصل بينها مسافات متساوية، قد يتأرجح أحياناً زورق صيادين بين التموجات؛ وتزيح الغيوم في أحيان أخرى ضربة ريح فتظهر من بعيد لابونت وجزر سان لورينثو الترابية والفرونتون. إنه منظر جميل، شريطة تركيز البصر على عناصر الطبيعة والطيور. لأن ما صنعه البشر بالمقابل، قبيح.

قبيحة هذه البيوت.. إنها تقليد لتقليد آخر، الخوف يخنقها بشِباك حديدية، بجدران، بصفارات إنذار وأنوار كاشفة. وهوائيات التلفزيون تشكل غابة شبحية. قبيحة هذه القمامة التي تتراكم وراء حافة الكورنيش وتتبعثر في الوهدة. ما الذي جعل المزابل تنبثق في هذا المكان من المدينة، المكان الأفضل منظراً؟ إنه الإهمال. لماذا لا يمنع السادة خدمهم من إلقاء الفضلات تحت أنوفهم عملياً؟ لأنهم يعلمون عندئذ أن خادمات الجيران سيفعلن ذلك، أو سيفعله بستانيو حديقة بارانكو، أو حتى رجال شاحنة القمامة الذين يُفرغون دلاء

الفضلات عند حافة الوهدة بدلاً من نقلها إلى المزبلة البلدية. ولهذا فقد تنازلوا للنسور والصراصير والجرذان والعفونة عن هذه المزابل التي رأيتها تولد، وتنمو، بينما أنا أجري في الأصباح، إنها رؤية دقيقة لكلاب متشردة تنبش المزابل وسط سحابة من الذباب. وقد اعتدت كذلك، في هذه السنوات الأخيرة، أن أرى إلى جانب الكلاب المتشردة، أطفالاً متشردين، وشيوخاً متشردين، ونساء متشردات، وجميعهم ينبشون الفضلات بهمة بحثاً عن شيء يؤكل أو يباع أو يُلبس. مشهد البؤس الذي كان يقتصر فيما مضى على الضواحي،ثم بعد ذلك على مركز المدينة، صار الآن يغطي المدينة بأسرها، بما في ذلك هذه الأحياء ميرافلوريس، وبارانكو، وسان ايسيدرو ـ السكنية والراقية. إذا كان المرء يعيش في ليما فعليه أن يعتاد على البؤس والقذارة أو أن يصاب بالجنون أو ينتحر.

ولكنني واثق من أن مايتا لم يعتد على ذلك مطلقاً. فلدى الخروج من مدرسة ساليسيانو، وقبل الصعود إلى الحافلة التي تقلنا إلى مجدلينا، حيث كنا نعيش كلانا، كان يركض نحو دون ميداردو، وهو شيخ ضرير ذو أسمال كان يرابط مع كمانه النشاز عند باب كنيسة ماريا اوكسيليادورا، ليقدم إليه قطعة الخبز مع الجبن التي كان يوزعها علينا الرهبان في الفسحة الأخيرة لوجبة العصر. وكان يقدم له في أيام الاثنين ريالاً، يدخره من مصروفه ليوم الأحد. وفي مجادلة جرت عندما كنا نعد العدة لحفل مناولتنا الأولى، جعل مايتا الأبَ لويس يرتعش حين سأله وهو يضع راحتيه حول فمه: «لماذا يوجد فقراء وأغنياء يا أبتاه؟ ألسنا جميعنا أبناء الرب؟» كان دائم الحديث عن الفقراء، عن العميان، عن المقعدين، عن الأيتام، عن مجانين الأزقة، وفي المرة الأخيرة التي رأيته فيها، بعد سنوات طويلة من زمالتي له في مدرسة ساليسيانو، عاد إلى

موضوعه القديم، بينما نحن نتناول فنجان قهوة في ساحة سان مارتين: «أرأيت أعداد المتسولين في ليما؟ إنهم ألوف مؤلفة.» وحتى قبل إضرابه الشهير عن الطعام، كنا نحن معظم تلاميذ الصف نعتقد بأنه سيصبح راهباً. فالاهتمام بالبؤساء في ذلك الحين كان يبدو لنا من شؤون المتطلعين إلى أن يُقبلوا في صفوف الإكليروس، وليس من شؤون الثوريين. فقد كنا نعرف آنذاك الكثير عن الدين، والقليل عن السياسة ولا نعرف شيئاً على الإطلاق عن الثورة. كان مايتا صبياً بديناً أجعد الشعر، له قدمان مسطحتان، وأسنان متفرقة، وطريقة في المشي كأنها تشير إلى الثانية إلا عشر دقائق. وكان يرتدي على الدوام سروالاً قصيراً، وكنزة ذات بقع خضراء ولفاعاً للوقاية من البرد كان يبقيه حول رقبته خلال الدروس. وكنا نضايقه كثيراً لاهتمامه بالفقراء، ولمساعدته في القداس، ولأنه يصلي ويصلّب بورع شديد، ولأنه كان لاعب كرة قدم سيئاً، وكنا نضايقه خصوصاً بسبب اسمه "مايتا". فكان يقول لنا: «كلوا مخاطكم».

ومهما كان تواضع أسرته، فإنه لم يكن أفقر تلاميذ المدرسة. لقد كنا نحن تلاميذ ساليسيانو أقرب إلى تلاميذ المدارس العامة، لأن مدرستنا لم تكن مدرسة بيض صغار مثلما هي مدرسة سانتا مارتا أو مدرسة لاإنماكولادا، وإنما مدرسة صبيان الشرائح الفقيرة من الطبقة الوسطى، أبناء موظفين، ومستخدمين، وعسكريين، ومهنيين لا يتمتعون بحظ كبير من النجاح، وحرفيين وحتى أبناء عمال مؤهلين. وكان الهجينون بيننا أكثر من البيض: فهناك خلاسيون، وزامبيتو، وصينيون، ونيسيس وساكالاغواس وأكوام من الهنود[1]. ومع أن كثيرين من التلاميذ كانوا من ذوي الجلود النحاسية ، وجناهم بارزة،

---

(١)ـ بعض التسميات للتشكيلة العرقية الواسعة في بلدان أميركا اللاتينية. فالزمبيتو هو من يولد لأبوين أحدهما زنجي والآخر هندي. والساكالاغواس هو الخلاسي ذو البشرة الأقرب إلى البياض.

وأنوفهم فطس، وشعرهم شوكي، إلا أن الوحيد الذي كان له اسم هندي على ما أذكر، هو مايتا. وباستثناء الاسم، لم يكن في عروقه من الدماء الهندية أكثر مما في عروق أي واحد منا، أما بشرته الشاحبة المائلة إلى الخضرة، وشعره المجعد، وتقاطيعه فكانت كلها مثلما هي في البيرويّ العادي: الميستيثو[1]. كان يعيش عند منعطف كنيسة لامجدلينا، في بيت ضيق، كالح الطلاء ودون حديقة، وهو بيت عرفته جيداً، لأنني واظبت على الذهاب إليه كل مساء طوال شهر بكامله لنقرأ معاً، بصوت عالٍ، **الكونت دي مونت كريستو**، الرواية التي أُهديت إليّ في عيد ميلادي وكانت تفتننا نحن الاثنين. كانت أمه تعمل ممرضة في مستشفى التوليد، وتحقن إبراً في البيوت. وكنا نراها من نافذة الحافلة، عندما تفتح الباب لمايتا. لقد كانت سيدة مربوعة، ذات شعر رمادي، تُقبّل ابنها قبلة سريعة، وكأنها لا تملك متسعاً من الوقت. أما أبوه فلم نره على الإطلاق، وقد كنتُ متأكداً من أنه لا وجود له، لكن مايتا كان يقسم بأن أباه دائم السفر، بسبب عمله، ذلك أنه يعمل مهندساً (وهي المهنة الموقرة في تلك الأزمنة).

انتهيتُ من الجري. عشرون دقيقة في الذهاب والإياب ما بين حديقة سالازار وبيتي هي مسافة مناسبة. أضف إلى ذلك أنني بينما كنت أركض، توصلت إلى نسيان أنني أركض وإلى استعادة ذكرى الدروس في مدرسة ساليسيانو ووجه مايتا الجدي، ومشيته المتمايلة، وصوته الصافر. إنه هناك، أراه، أسمعه وسأبقى أراه وأسمعه ريثما ينتظم تنفسي، وأتصفح الجريدة، وأتناول فطوري، وأستحم وأبدأ العمل.

عندما توفيت أمه ـــ كنا في السنة الثالثة المتوسطة ـــ انتقل مايتا للعيش مع خالة له كانت في الوقت نفسه عرابته. كان يتكلم عنها بمحبة ويقول لنا إنها

٢ـــ الميستيثو mestizo هو الذي يولد لأبوين من عرقين مختلفين عموماً.

تقدم له الهدايا في أعياد الميلاد وفي عيد قديسه وتأخذه أحياناً إلى السينما. ولا بد أنها كانت طيبة بالفعل، ذلك أن العلاقة بينه وبين دونيا خوسيفا قد استمرت إلى ما بعد استقلال مايتا بحياته. وبالرغم من ظروف حياته الصعبة، فقد ثابر على زيارتها بانتظام على امتداد السنين،وفي بيتها بالذات جرى ذلك اللقاء بينه وبين بايبخوس.

كيف هي الآن دونيا خوسيفا اريسوينيو بعد انقضاء ربع قرن على تلك الحفلة؟ إنني أسأل نفسي هذا السؤال منذ حدثتها هاتفياً، واستطعت التغلب على ارتيابها،وإقناعها بأن توافق على زيارتي لها. وسألت نفسي السؤال نفسه حين نزلتُ من الحافلة التي أوصلتني إلى تقاطع شارع لاريوبليكا مع جادة انغاموس، عند بوابات سوركييو. هذا حي أعرفه جيداً. ففي صباي كنت أجيء مع أصدقائي، في ليالي الأعياد، لنشرب البيرة في مقهى التريونفو،ونأتي بأحذيةلتصليحها وبدلات لقلبها وتحويلها على مقاسنا،ولرؤية أفلام كاوبوي في صالات السينما غير المريحة وذات الروائح الكريهة: صالات سينما الربيع، وليونثيو برادو، وماكسيميل. إنه واحد من أحياء ليما القليلة التي لم تتغير تقريباً. فهو ما يزال يغص بالخياطين، والإسكافيين، والأزقة، ومطابع فيها صناديق تضم الحروف التي تُصف يدوياً، وكراجات بلدية، وحانات كهفية، وبارات الثلاثة بنصف الصغيرة،ومستودعات، ودكاكين مشبوهة،وعصابات كسالى عند النواصي وصبية يتقاذفون كرة في وسط الشارع، ما بين السيارات والشاحنات ودراجات باعة المثلجات ثلاثية العجلات.فالحشود في الشوارع، والبيوت حائلة الألوان ذات الطابق الواحد أو الطابقين، وبرك الماء المزيتة، والكلاب الأليفة تبدو كلها وكأنها من ذلك الزمن. ولكن هذه الشوارع التي كانت فيما مضى ملاذاً للأوغاد والدعارة وحسب، أضيف إليها اليوم الماريجوانا والكوكائين. فهنا توجد تجارة مخدرات أكثر نشاطاً مما هي في

لافيكتوريا، أوريماك، أوبوربينير، أو الضواحي. فهذه النواصي الجرباء، هذه البيوت السكنية القذرة المكتظة، هذه الحانات المؤثرة، تتحول في الليل إلى «غرز»، إلى أماكن تباع وتشترى فيها «باكوات» من الماريجوانا والكوكائين، وتُكتشف باستمرار في هذه الأكواخ مختبرات بدائية لتصنيع العجينة الأولية. ولكن هذه الأشياء لم يكن لها وجود في الزمن الذي جرت فيه الحفلة التي غيرت حياة مايتا. فقلة هم الذين كانوا يعرفون كيف يدخنون الماريجوانا في ليما آنذاك، أما الكوكائين فكان من شؤون البوهيميين والصالونات الفاخرة، شيء يستخدمه من يقضون الليل هائمين على وجوههم لكي يفيقوا من سكرهم ويواصلوا القصف. كانت المخدرات ما تزال آنذاك بعيدة جداً عن تحولها إلى التجارة الأكثر ازدهاراً في هذه البلاد، وعن امتدادها إلى كل أنحاء المدينة. لم يكن يظهر أي شيء من هذا كله بينما كنت أمشي عبر شارع دانتي باتجاه التقائه مع شارع غونثالث برادا، مثلما مشى مايتا في تلك الليلة ليصل إلى بيت خالته-عرابته، إذا كان قد جاء في الحافلة أو في الترام، ففي عام ١٩٥٨ كانت عربات الترام ما تزال تقرقع على الدروب التي تجوبها الآن بسرعة فائقة سيارات زانجون. كان متعباً، ذاهلاً، مع طنين خفيف في صدغيه ورغبة كبيرة في وضع قدميه في المغسلة المملوءة بالماء البارد. لم يكن هناك علاج أفضل من ذلك للإرهاق الجسدي أو المعنوي: ذلك الإحساس البارد والسائل في باطن القدمين يزيح التعب، والقنوط، والضجر، ويرفع المعنويات. كان قد مشى منذ الفجر، محاولاً أن يبيع جريدة **صوت العمال** في ساحة أونيون للشغيلة الذين ينزلون من الحافلات وعربات الترام ويدخلون إلى المصانع في جادة الأرجنتين، بعد ذلك ذهب مرتين من غرفته في جادة ثيبيتا حتى ساحة بوينس آيرس، في كوتشاركاس، حاملاً في المرة الأولى بعض أوراق الستانسل وبعد

ذلك مقالاً لدانييل غيريه مترجماً من مجلة فرنسية، حول الاستعمار الفرنسي في الهند الصينية. وكان قد أمضى ساعات وهو يقف على قدميه، يساعد منضد الحروف في ترتيب النصوص وتصحيح البروفات، في مطبعة كوتشاراكاس الضيقة والتي مازالت رغم ذلك تطبع الجريدة (بوضع اسم مطبعة مزيف، وقبض أجور الطباعة سلفاً) ثم ذهب بعد ذلك مستخدماً حافلة واحدة بدلاً من الاثنتين اللتين يجب استخدامهما ليصل إلى ريماك، حيث عليه أن يقود كل يوم أربعاء، في غرفة ضيقة في جادة فرانثيسكو بيثارو، حلقة دراسية لجماعة من طلاب جامعة سان ماركوس وطلاب الهندسة. وبعدئذ، ودون أن يلتقط أنفاسه، وبمعدة تحتج لأنه لم يلق إليها طوال النهار سوى طبق من الرز مع البقول المجففة في المطعم الجامعي (حيث مازال بإمكانه الدخول ببطاقة من سنة القرد، يزوّرها بين حين وآخر، لجعلها صالحة للاستعمال)، وكان قد حضر اجتماع اللجنة المركزية **لحزب العمال الثوري (التروتسكي)** في كراج جادة ثوريتوس، وقد استمر الاجتماع أكثر من ساعتين من التدخين والجدال. من الذي تبقى لديه رغبة في حضور حفلة بعد كل هذه المهمات؟ فضلاً عن أنه كان يكره الحفلات على الدوام. لقد كانت ركبتاه ترتجفان وقدماه كأنهما تدوسان جمراً. ولكن، كيف يمكنه عدم الذهاب؟ لا يمكن أن يمنعه من ذلك إلا السفر أو السجن، فهو لم يتخلف مطلقاً. وفي المستقبل، سواء أكان متعباً أم لا، وسواء أكانت قدماه متورمتين أم لا، لن يتخلف كذلك، حتى ولو كانت زيارة سريعة، ما يكفي من الوقت ليقول لخالته إنه يحبها. كان البيت يضج بالصخب. وفُتح الباب فوراً: أهلاً يا بني.

ــ مرحباً يا عرابتي ــ قال مايتا ــ. عيد ميلاد سعيد.

ــ السيدة خوسيفا اريسوينيو؟

ـــ أجل، تفضل، ادخل.

إنها امرأة تحتفظ بمظهر جيد، ولا بد أنها قد تجاوزت السبعين. ولكن مظهرها لا يكشف عن ذلك مطلقا: فبشرتها لا تبدو مجعدة ولا وجود في شعرها الحنطي إلا لقليل من الشيب. إنها بدينة، ولكنها حسنة التناسق، لها عجيزة وافرة وترتدي فستانا ليلكيا يزنره حزام أحمر. الغرفة واسعة، قاتمة، فيها كراس مختلفة الأنواع، ومرآة كبيرة، وماكينة خياطة، وتلفاز، وطاولة، وتمثال لسيد المعجزات، وآخر للقديس مارتين دي بوريس، وصور ضوئية على الجدار وزهرية فيها أزهار من الشمع.هل جرت هنا الحفلة التي تعرف فيها مايتا على بابيخوس؟

ـــ هنا بالذات ـــ تؤكد لي السيدة أريسوينيو ذلك وهي تلقي نظرة دائرية. وتشير إلى كرسي هزاز ممتلئ بجرائد ـــ: إنني أراهما هناك، يتحدثان ويتحدثان.

لم يكن هناك أناس كثيرون، ولكن كان هناك دخان كثير، وأصوات، وقرع كؤوس وفالس ايدولو بأعلى صوت من البك آب.وزوج من الراقصين وعدة أزواج آخرين يتابعون لحن الموسيقى بضرب أكفهم أو بالدندنة. أحس مايتا، كالعادة، بأنه فائض عن الحاجة، وأنه قد يرتكب خطأ في أي لحظة. فهو لم يكن يجد سهولة في المعاشرة الاجتماعية. وكانت الطاولة والكراسي قد أزيحت إلى الأركان ليكون هناك متسع للرقص، وكان هناك من يحمل جيتارا بين يديه. الموجودون هم الناس الذين يتوقع وجودهم وغيرهم: ابنتا خالته، وخطيباهما، وجيران من الحي، وأقارب، وأصدقاء يتذكرهم من حفلات عيد ميلاد سابقة. ولكنه كان يرى ذلك النحيل الثرثار أول مرة.

وتقول لي السيدة اريسوينيو:

ـــ لم يكن صديقا للأسرة، وإنما عشيق أو قريب أو شيء من هذا القبيل لصديقة ابنتي الكبرى ثوليتا. هي أحضرته و لم يكن هناك من يعرف أي شـــيء عنه.

ولكنهم سرعان ما عرفوا أنه شخص لطيف، وراقص جيـــد، ومحـــب للشرب، وراوي طرائف ونكات ومحدث بارع.وبعد أن حيا مايتا ابنتي خالتـــه وهو يحمل سندويش جامبون في يده وكأس بيرة في اليد الأخرى، بحث عـــــن كرسي ليهوي عليه بإرهاقه. وكان الكرسي الوحيد الفارغ بجـــانب النخيـــل الذي كان يقف، مومئا، ويشد انتباه جماعة من ثلاثة أشخاص: ابنتـــا خالتـــه ثوليتا وأليسيا ورجل عجوز ينتعل خفا بيتيا. حاول مايتا المرور دون أن يلفـت الانتباه، وجلس بجانبهم، بانتظار أن ينقضي الوقت المناســـب ليتمكـــن مـــن الانصراف كي ينام.

وتقول السيدة اريسوينيو وهي تقلب جيوبها بحثا عن منديل:

ـــ لم يكن يطيل البقاء مطلقا. فهو لا يحب الحفلات. لم يكن مثل جميـــع الناس الآخرين. لم يكن كذلك مطلقا، حتى ولا في طفولته. إنه جدي دائمـــا، وصارم دائما. كانت أمه تقول عنه: «لقد ولد عجوزا». وأمه هي شقيقتي، هل تعرف ذلك؟ وقد كان مولد مايتا نكبة حياتها، لأنها ما إن علمت بأنها حـــامل حتى اختفى خطيبها وكأنه سحابة دخان. و لم تره بعدهـــا مطلقـــا. أتظـــن حضرتك أن مايتا صار إلى هذا الحال لأنه بلا أب؟ إنه يـــأتي فقـــط في عيـــد قديسي ليؤدي الواجب نحوي. أنا جئت به إلى هنا عندما توفيت أختي. لقـــد كان الذكر الذي لم يمنحني الرب إياه. فأنا لم أنجب إلا بنتين. ثوليتا وأليســـيا. كلتاهما الآن في فنـــزويلا، متزوجتان ولهما أبناء. أحوالهما تجري على ما يـــرام هناك. لقد كان بإمكاني أن أتزوج ثانية، ولكن ابنتي عارضتا بشـــدة فبقيـــت أرملة وحسب. لقد كان خطأ كبيرا، أقول لك ذلك بصراحة. لأنـــني الآن ـــ

انظر كيف هي حياتي ــ وحيدة مثل نبتة فطر ومعرضة لأن يدخل اللصوص هنا يوما. ابنتاي ترسلان لي شيئا كل شهر. ولولاهما لما وجدت ما آكله، أتعرف ذلك؟

وبينما هي تتكلم كانت تتفحصني وهي لا تكاد تواري فضولها. لها صوت فيه بحة ديك، مثل صوت مايتا، ويدان مثل التامال، ومع أنها كانت تبتسم أحيانا، إلا أن عينيها حزينتان ومائيتان. كانت تشكو من الحياة التي تزداد غلاء، ومن عمليات السطو في الشوارع ــ «لا توجد جارة واحدة في هذا الشارع إلا وتعرضت للسطو مرة واحدة على الأقل» ــ ومن السطو على فرع بنك الاعتماد وما رافقه من تبادل إطلاق نار سبب عددا من النكبات، ومن أنها لم تستطع الذهاب إلى فنزويلا، حيث يوجد فائض من المال كما يبدو.

قلت لها:

ــ في مدرسة ساليسيانو كنا نظن أن مايتا سيتحول إلى خوري.

فوافقت مبتسمة:

ــ وأختي كانت تظن ذلك أيضا. وأنا كذلك. لقد كان يرسم إشارة الصليب كلما مر قبالة كنيسة، ويشارك في القربان المقدس كل يوم أحد. لقد كان قديسا صغيرا. من كان يتصور ما حدث، أليس كذلك؟ أعني أن ينتهي شيوعيا. في ذلك الحين كان يبدو من المستحيل أن يتحول التقي إلى شيوعي. ولكن هذا الأمر تغير أيضا، فهناك الآن كثير من الرهبان الشيوعيين، أليس كذلك؟ إنني أتذكر بوضوح ذلك اليوم الذي دخل فيه من هذا الباب.

لقد تقدم نحوها يومذاك حاملا كتبه المدرسية تحت إبطه، وكان يطبق قبضتيه وكأنه يستعد للضرب، ورتل على مسمعيها دفعة واحدة كل ما جاء ليقوله لها.. ذلك القرار الذي أبقاه مسهدا طوال الليل:

ـــ إننا نأكل كثيرا يا خالتي، ونحن لا نفكر في الفقراء. أتدرين ما الــذي يأكلونه هم؟ إنني أنبهك إلى أنني، منذ اليوم، لن أتناول سوى طبق من الحســاء عند الظهر، وقطعة خبز في الليل. مثل دون ميداردو الأعمى.

وتتذكر دونيا خوسيفا:

ـــ بسبب تلك النــزوة انتهى به الأمر إلى المستشفى.

استمر في تلك النــزوة شهورا،وراح ينحل، دون أن ننتبه نحن زمــلاءه في المدرسة إلى السبب،إلى أن كشفه لنا الأب جيوفاني وهو ممتلئ بــالتقدير، في اليوم الذي أدخلوا فيه مايتا إلى مستشفى لويزا. «طوال هذا الوقت كان يحــرم نفسه من الطعام لكي يتماثل مع الفقراء، بدافع التضامن الإنساني والمســيحي»، كان الأب يدمدم وهو مايزال مذهول مما جاءت ترويه خالة مايتا في المدرســة. وقد سببت لنا تلك القصة الكثير من البلبلة، حتى أننا لم نتجرأ على الســخرية منه حين رجع، وقد استعاد عافيته بفضل الحقــن والمقويــات. وكــان الأب جيوفاني يقول: «هذا الفتى سيكون له شأن». أجل، لقد صار له شأن، ولكــن ليس في الاتجاه الذي كنت تظنه يا أبتاه.

تتنهد السيدة اريسوينيو:

ـــ كانت لحظة شؤم تلك التي فكر فيها بالمجيء تلك الليلة. فلو أنــه لم يأت لما كان قد تعرف على باييخوس ولما كان حدث أي شيء مما جرى. لأن باييخوس هو مبتدع الفكرة، وهذا ما يعرفه الجميع. لقد كان مايتا يأتي، فيقبلني مهنئا ثم يمضي بعد لحظة. ولكنه في تلك الليلة بقي حتى النهاية، بقي يتكلــم ويتكلم مع باييخوس في ذلك الركن. لقد انقضت خمس وعشرون سنة ومــا زلت أذكر ذلك وكأنه حدث بالأمس. الثورة من هنا، الثورة من هناك. بقيــا يتحدثان طوال تلك الليلة.

الثورة؟ عاد مايتا ينظر إليه. هل الذي تحدث هو الفتى أم العجوز ذو الخف؟

وكرر النحيل وهو يرفع الكأس الذي يحمله في يده اليمنى:

ــ أجل يا سيدي، غدا بالذات... يمكن للثورة الاشتراكية أن تبدأ غدا بالذات إذا أردنا ذلك. كيف أوضح لك يا سيدي.

تثاءب مايتا ثانية وتمطى شاعرا بدغدغة في جسده. وكان النحيل يتكلم عن الثورة الاشتراكية بالطلاقة نفسها التي كان يروي بها قبل لحظات قليلة الطرائف عن أوتو وفريتز أو يتحدث عن مباراة الملاكمة الأخيرة «لثروتنا الوطنية فرونتادو». وبالرغم من الإرهاق الذي يشعر به، بدأ مايتا يستمع: هذا الذي يحدث في كوبا ليس شيئا يذكر بالمقارنة مع مايمكن أن يحدث في البيرو، إذا أردنا ذلك. ففي اليوم الذي سيتحرك فيه أهالي الأنديز، ستهتز البلاد بأسرها. أيكون أبريستا[1]؟ أم تراه يكون فجلا[2]؟ هذا غير ممكن، من المستحيل أن يوجد شخص شيوعي في حفلة خالته. فمايتا لا يذكر أنه سمع أحدا على الإطلاق يتكلم في السياسة في هذا البيت.

سألت ابنة خالته ثويليتا:

ــ وما الذي يجري في كوبا؟

١ــ أبريستا APRISTA : عضو في منظمة أبرا APRA (التحالف الشعبي الثوري الأمريكي)، منظمة سياسية ثورية أسسها عام ١٩٢٤ البيروي هايا دي لا توري على أن تكون منظمة أمريكية لاتينية، ولكنها اقتصرت في النهاية على تنظيمها في البيرو، وقد كانت حركة شعبية واسعة، نجحت في الانتخابات أكثر من مرة، ولكن العسكريين كانوا يقطعون عليها الطريق بانقلابات عسكرية وملاحقات دامية.

٢ــ الفجل rabanito هي التسمية التي يطلقها المؤلف على الشيوعيين التقليديين.

فضحك النحيل:

ـــ هذا المدعو فيدل كاسترو أقسم ألا يحلق ذقنه إلى أن يهزم باتيســـتا. أو لم تري ما الذي يفعله عبر العالم أنصار حركة ٢٦ تموز الكوبية؟ لقد علقـــوا راية على تمثال الحرية في نيويورك. إن باتيستا يهوي، لقد صار مصفاة.

وسألت ابنة الخالة أليسيا:

ـــ ومن هو باتيستا؟

فأوضح النحيل باندفاع:

ـــ إنه طاغية. دكتاتور كوبا. وما يجري هناك هو شيء لا يمكن مقارنته مطلقا بما يمكن أن يحدث هنا. والفضل في ذلك يعود إلى جغرافية بلادنا. إنهـــا هدية حقيقية من الله للثورة. فحين ينتفض الهنود، ستتحول البيرو إلى بركان.

قالت ابنة الخالة ثويليتا:

ـــ حسن، ولكن إلى الرقص الآن. الجميع جاؤوا هنا ليرقصوا. ســـأضع موسيقى راقصة.

وسمع مايتا العجوز ذا الخف يقول بصوت وعر:

ـــ الثورات مسألة جدية، وأنا على الأقل لست منـــاصرا لهـــا. فعنـــد انتفاضة الأبريستا في تروخيو، سنة ثلاثين، جرت مجـــزرة الله ربي ومـــولاي. الأبريستا دخلوا إلى الثكنة وأجهزوا على عدد لا أدري قدره مـــن الضبـــاط. وأرسل سانتشيث ثيرو طائرات ودبابات، فقضى عليهم وأعدموا ألفـــا مـــن الأبريستا في خرائب تشان تشان.

ـــ هل كنت حضرتك هناك؟ سأله النحيل وهو يفتح عينيه بحمـــاس.

وفكر مايتا: «الثورات ومباريات كرة القدم هي الشيء نفسه بالنسبة إليه».

فقال العجوز ذو الخف:

ــ أنا كنت في هوانوكو، في صالون حلاقتي. وقد وصلت إلى هنــاك في الأعلى أصداء المذبحة. الأبريستا القليلون الذين كانوا في هوانوكـــو جمعــهم الحاكم وأعدمهم. لقد كان عسكريا سيئ المزاج، وزير نساء. يدعى الكولونيل بادولاكي.

بعد هنيهة انصرفت كذلك ابنة الخالة أليسيا لترقص، وبدا الخمود علــى النحيل حين رأى أنه بقي مع محدث واحد هو العجوز. ولكنه عندما اكتشــف وجود مايتا، رفع كأسه باتجاهه: في صحتك يا صاحبي.

ــ في صحتك. قال مايتا ذلك وهو يقرع كأسه.

ــ اسمي باييخوس ــ قال النحيل مصافحا.

ــ وأنا مايتا.

ــ لقد فقدت صديقتي لكثرة ما تكلمت ــ قال باييخوس ذلك ضاحكا وهو يشير إلى فتاة متبرجة، يراقصها ابن عم لأليسيا وثويليتا يدعــى بيبــوتي، وكان يحاول الالتصاق بها وهما يرقصان على موسيقى **معا في البعد**، وأضــاف باييخوس:ــ إذا ما شدها أكثر، فسوف توجه إليــه أليســي صفعتــه الــتي يستحقها.

كان يبدو في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمره بســبب رقتــه، ولأنه أمرد وشعر رأسه حليق كله تقريبا، ولكن مايتا فكر في أنــه يجــب ألا يكون فتيا إلى هذا الحد. فحركات يديه، ونبرة صوته، وثقته بنفسه تســتدعي التفكير في أنه أكثر نضوجا. وكانت له أسنان كبيرة وبيضاء تبعث البهجــة في وجهه الأسمر. وكان واحدا من قلة في الحفلة يرتدون جاكيت وربطة عنــق، وكان يبرز فوق ذلك منديل صغير من جيبه. وقد كان يبتسم طوال الوقــت وكان فيه شيء من المباشرة واندفاع العواطف. أخرج علبة سجائر ماركة إنكا وقدم سيجارة لمايتا. فقبلها.

هتف وهو يطلق الدخان من فمه:

ـــ لو أن ثورة أبريستا في الثلاثينات انتصرت، لكان ديك آخر قد غـــنى لنا. ولما كان هناك كل هذا الظلم والتفاوت. ولكانت قطعت الرؤوس الـــتي يتوجب قطعها ولكانت البيرو قد أصبحت شيئا آخر. لا تحســـبني أبريســـتا، ولكن لا بد من إعطاء قيصر ما هو لقيصر. أنا اشتراكي يا صاحبي، مهما قيـــل عن أنه لا يمكن أن يلتقي عسكري واشتراكي في الشخص نفسه.

ارتعش مايتا:

ـــ عسكري؟

فأكد بايبخوس:

ـــ إنني ملازم. لقد تخرجت السنة الماضية، من تشوريبوس.

اللعنة. الآن فهمت من أين جاءت قصة شعر بايبخوس وطريقته المندفعة. أهذا هو ما يسمونه موهبة القيادة؟ أمر لا يصدق أن يقول عســـكري هـــذه الأشياء التي قالها.

وأكدت السيدة خوسيفا:

ـــ لقد كانت حفلة تاريخية. لأن مايتا وبايبخوس تعارفا، ولأن ابن أخي بيبوتي تعرف كذلك على أليسي. لقد وقع في حبها و لم يعد ذلـــك الكســـول والمهمل الذي كانه من قبل... بحث عن عمل، وتزوج من أليسي وذهبـــا إلى فنـــزويلا أيضا، من مثلهما. ولكن يبدو أن كلا منهما يمضي الآن في طريقـــه. عسى ألا يكون ذلك إلا أقاويل... آه، يبدو أنك قد تعرفت علـــى صورتـــه، أليس كذلك؟ أجل، إنه مايتا. منذ كومة من السنين.

في الصورة باهتة الحواف، والمصفرة، يبدو في الأربعين أو أكـــثر. إنهـــا صورة التقطها له مصور جوال، في ساحة يصعب التعـــرف عليـــها، بإضـــاءة

ضعيفة. إنه يقف على قدميه، وهناك لفاع منفلت على كتفيه، وتبدو عليه ملامح ضيق وكأن الوميض يدغدغ عينيه أو أنه يشعر بالخجل من الوقوف لالتقاط صورة أمام المارة في الطريق العام. إنه يحمل في يده اليمنى حقيبة أو علبة أو حافظة أوراق، وعلى الرغم من انمحاء معالم الصورة، إلا أنه يمكن ملاحظة بؤس لباسه: فالبنطال منتفخ، والسترة مائلة، والقميص واسع الياقة كثيراً، أما ربطة العنق فمعقودة عقدة مضحكة وغير متقنة. لقد كان الثوريون يضعون ربطات عنق في ذلك الحين. وكان شعره مشعثاً ونامياً، ووجهه يختلف بعض الشيء عن ذاك الذي أحفظه في ذاكرتي، فهو أكثر امتلاء وتقطيباً، فيه جدية ساخطة. هذا هو الانطباع الذي تنقله الصورة الفوتوغرافية:رجل يحمل إرهاقاً عظيماً على كاهله.لأنه لم ينم كفايته، أو لأنه مشى كثيراً، أو لسبب أقدم من ذلك، إرهاق حياة وصلت إلى حدٍّ،ليس هذا الحد هو الشيخوخة ولكنه يمكن أن يكون كذلك إذا لم يكن وراءها ـــ كما هو حال مايتا ـــ سوى أوهام محطمة، واحباطات، وأخطاء، وعداوات، ومكائد سياسية، وتقشف، ووجبات سيئة، وسجن، ومخافر، وحياة سرية، واخفاقات من كل نوع دون أن يكون هناك ما يشبه أي فوز ولو من بعيد. ومع ذلك، فقد كان هذا الوجه المستنفد والمتوتر يعكس كذلك بطريقة ما تلك السمة السرية، القاسية أمام الخصوم والتي كان يذهلني على الدوام أن أجدها فيه على مر السنين، هذا النقاء الشبابي القادر على الاستجابة بالسخط ذاته ضد أي جور،سواء أكان في البيرو أو في أقصى أطراف الأرض، وهذه القناعة التبريرية بأن المهمة الوحيدة المستعجلة التي لا تقبل التأجيل هي تغيير العالم. إنها صورة استثنائية، أجل، فقد التقطت الصورة كامل قامة مايتا الذي تعرف عليه بايبخوس في تلك الليلة.

وقالت دونيا خوسيفا وهي تعيد وضع الصورة على الرف:

ـــ أنا طلبت منه أن يلتقط هذه الصورة. لكي يكون لدي تذكار منـــه. أترى هذه الصور؟ جميعهم أقارب، وبعضهم أقارب بعيدون جدا. لقد مـــات معظمهم... هل كنتما صديقين حميمين؟

قلت لها:

ـــ انقطعت لقاءاتنا سنوات طويلة. ثم عدنا نلتقي أحيانـــا، ولكـــن في فترات متباعدة.

كانت دونيا خوسيفا اريسوينيو تتأملني وكنت أعرف ما الذي تفكـــر فيه. رغبت في طمأنتها، وفي تبديد شكوكها، ولكن ذلك كان مستحيلا لأنـــي كنت عندئذ مثلها، لا أعرف عن مشاريعي حول مايتا إلا القليل.

دمدمت وهي تمر بلسانها على شفتيها الممتلئتين:

ـــ وماذا ستكتب عنه؟ سيرة حياته؟

ـــ لا، ليس حياته ـــ أجبتها وأنا أبحث عن صيغة لا تسبب لها مزيدا من التشوش ـــ. أريد أن أكتب شيئا مستوحى من حياته. ليس سيرة وإنما روايـــة. قصة حرة، حول الحقبة، والوسط الذي عاش فيه مايتا والأشياء التي جـــرت في تلك السنوات.

وتشجعت السيدة اريسوينيو:

ـــ ولماذا عنه بالذات؟ هناك آخرون أوسع منه شهرة. الشاعر خابيـــير هيراود مثلا، أو جماعة المير[1]، جماعة بوينتي، أو لوباتون، هؤلاء الذين يجـــري الحديث عنهم دائما. لماذا اخترت مايتا؟ ليس هناك من يتذكره.

فعلا، لماذا اخترته هو؟ ألأن حالته كانت الأولى في سلســـلة حـــالات ستترك أثرها على المرحلة؟ أم لأنها الحالة الأكثر عبثية؟ ألأنها الأكثر تراجيديـــة؟

١ـــ المير MIR اختصار لاسم : حركة اليسار الثوري.

ألأنه في عبثيته وتراجيديته كان السبّاق؟ أم ببساطة لأن في شخصيته وقصته شيئاً مؤثراً بالنسبة إلي، شيئاً أبعد من التزاماته السياسية والأخلاقية، يشبه صورة شعاعية للتعاسة البيروية؟

ـــ إما أنك لا تؤمن بالثورة ـــ قال بايبخوس متكلفاً الاستنكار ـــ وإما أن تكون من أولئك الذين يعتقدون أن البيرو ستبقى على حالها حتى نهاية الأزمنة.

ابتسم له مايتا نافياً:

ـــ البيرو ستتغير.الثورة ستأتي ـــ وأوضح له بكل ما في الدنيا من صبر ـــ. ولكن الثورة ستأخذ وقتها. فالأمر ليس سهلاً مثلما تتصور.

كان وجه بايبخوس يلمع من العرق وعيناه متقدتين مثل كلماته:

ـــ إنها سهلة في الواقع، وأنا أقول لك هذا لأنني أعرف. إنها سهلة إذا كنت تعرف طبوغرافية سلسلة الجبال،وإذا كنت تعرف كيف تطلق النار من بندقية ماوزر، وإذا انتفض الهنود.

فتنهد مايتا:

ـــ إذا انتفض الهنود. قول ذلك سهل مثل سهولة كسب جائزة اليانصيب.

الحقيقة أنه لم يخطر بباله مطلقاً أنه يمكن لعيد ميلاد الخالة أن يكون مسلياً إلى هذا الحد. لقد فكر في البدء: «إنه شخص استفزازي، واش. يعرف من أنا، ويريد أن يستدرجني في الكلام». ولكنه بعد بضع دقائق من الحديث معه، تأكد من أنه ليس كذلك؛ بل هو ملاك بأجنحة، لا يعرف نفسه أين قد حط. ومع ذلك، لم يشعر بأي رغبة في السخرية منه. لقد أمتعه سماع من يتحدث عن الثورة كمن يتحدث عن لعبة أو مأثرة رياضية، كأنها شيء يمكن الحصول عليه ببذل قليل من الجهد والذكاء. لقد كان الفتى على درجة من

الثقة بالنفس والسذاجة تغري بمواصلة الاستماع طوال الليل إلى تلك الهذيانات. لقد أبعد عنه النعاس وكان قد وصل إلى كأس البيرة الثالثة. وكان بيبوتي يواصل الرقص طوال الوقت مع أليسي ـــ رقصة تشوتي المدريدية مع موسيقى لأغوستين لارا ـــ ولكن الملازم لم يكن يبدي أدنى اهتمام. فقد سحب كرسيا إلى جوار مايتا، وجلس عليه وكأنه يمتطي حصانا، وراح يشرح له بأن خمسين رجلا مصممين ومسلحين جيدا، يستخدمون تكتيك رجال حرب العصابات الذين قادهم كاثيريس[1]، يمكنهم أن يشعلوا فتيل البارود الذي هو جبال الأنديز. وفكر مايتا: «إنه شاب فتي إلى حد يمكن معه أن يكون ابني. لابد أنه ينال كل الفتيات اللواتي يشاء.»

وسأله باييخوس:

ـــ وأنت، ماذا تعمل؟

كان سؤالا يسبب له الضيق على الدوام، بالرغم من أنه كان مستعدا للإجابة عنه. وجوابه الذي هو نصف صحيح ونصف كاذب بدا له أكثر زيفا من مرات أخرى:

ـــ أعمل في الصحافة ـــ قال ذلك، وهو يسأل نفسه كيف سيتحول وجه الملازم لو سمعه يقول له: «إنني أعمل في هذا الذي تتحدث عنه كثيرا، متبولا خارج المبولة. إنني أعمل في الثورة، فما رأيك».

ـــ وفي أي صحيفة تعمل؟

ـــ في وكالة فرانس برس. أقوم بالترجمة.

فناور باييخوس:

ـــ أي أنك تتكلم فرنساوي. أين تعلمته؟

١ـــ كاثيريس Andres Avelino Caceres جنرال وسياسي بيروي (١٨٣٣ـــ١٩٢٣) تولى رئاسة الجمهورية من ١٨٨٦ إلى ١٨٩٠، ثم تولى المنصب ثانية في عامي ١٨٩٤ـــ١٨٩٥ .

ـــ بمفرده، بمساعدة معجم وكتاب لغة كسبه من يانصيب خـــيري ـــ تقول لي دونيا خوسيفا ذلك، وتضيف :ـــ أنت لا تصدقني، ولكنني رأيته يفعل ذلك بعيني هاتين. كان يحبس نفسه في غرفته ويـــردد الكلمـــات لســاعات وساعات. وكان خوري سوركييو يعيره مجلات. وكان يقول لي: «لقد بـدأت أفهم بعض الشيء يا خالة، إنني أتعلم». إلى أن تعلم، لأنه كان يمضي الأيـام في قراءة كتب بالفرنسية، صدقني.

أقول لها:

ـــ إنني أصدقك بالطبع. لست أستغرب أن يتعلمها بمفرده. لأنه حـــين يصمم على شيء يفعله. لقد عرفت قلة من الأشخاص الذين لهم عناد مايتا.

وتحسرت دونيا خوسيفا:

ـــ كان يمكن له أن يصير محاميا، مهنيا. هل تعرف أنه التحـــق بجامعـــة سان ماركوس من المحاولة الأولى؟ وكان في موقع جيد. وكان ما يزال صبيـا في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة على أكثر تقدير. لقد كان بإمكانه أن يحصـــل على الشهادة وهو في الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين. يا للخســـارة، رباه! ومن أجل أي شيء؟ من أجل السياسة، من أجلها فقط. لن يسامحه الله.

ـــ لم يبق إلا وقت قصير في الجامعة، أليس كذلك؟

وتقول دونيا خوسيفا:

ـــ بعد شهور قليلة، أو بعد سنة على الأكثر، زجوا به في السجن. ومنذ ذلك الحين بدأت مصائبه. لم يرجع بعدئذ إلى هذا البيت، بل مضـــى ليعيـــش وحيدا. ومنذ ذلك الحين بدأ يمضي من سيئ إلى أسوأ. أين هو ابن أختك؟ إنــه متخف. أين صار مايتا؟ سجين. هل أطلقوا سراحه؟ أجل، ولكنهم يبحثـــون عنه من جديد. لو قلت لك إن الشرطة كانت تأتي هنا في كل مرة لتقلـــب لي

كل شيء رأساً على عقب، وهمّيني، وترعبني، فسوف تظن أنـــني أبـــالغ. وإذا قلت لك إن ذلك حدث خمسين مرة أكون مقصرة. وكل ذلك بدل أن يـترافع في المحاكم ويكسب قضايا بهذا العقل الذي منحه إياه الرب. هل هذه حياة؟

ــ بلى، إنها كذلك ــ عارضتُها برفق ــ إنها حياة قاسية إذا شــــئتِ. ولكنها زخمة ومتماسكة أيضاً. إنها أفضل من حيوات أخرى كثيرة يا ســـيدتي. وأنا لا أستطيع أن أتصور مايتا يشيخ وراء منضدة محام،ويقوم كل يوم بـــالعمل نفسه.

ووافقت دونيا خوسيفا، تهذباً وليس عن قناعة:

ــ حسن، ربما كان هذا صحيحاً. منذ طفولته كان بالإمكان إدراك أنــه لن يعيش كالآخرين. هل رأيت في حياتك صبياً مخاطياً يمتنع عن تناول الطعـــام يوماً لأن هناك أناساً يجوعون في العالم؟ أنا لم أصدق ذلك، أتعـــــرف؟ كـــان يتناول حساءه ويترك بقية الطعام. وفي الليل يكتفي بقطعة خبز. وكنـــت أنـــا وثوليتا وأليسيا نسخر منه: «لا بد أنك تقيم مآدبك خفية أيـــها المخـــادع». ولكن تبين أن الأمر كان صحيحاً، لم يكن يأكل أي شيء آخر. فإذا كـــان في صغره هكذا، فلماذا لا يصبح في كبره إلى ما صار إليه.

ــ هل رأيت ***نزع بتلات الأقحوان***، لبريجيت باردو؟ــ قال بـــاييخوس مغيّراً موضوع الحديث ــ أنا رأيته بالأمس. ساقان طويلتان، طويلتان، تخرجان من الشاشة. أحب أن أذهب إلى باريس يوماً لأرى بريجيت بـــاردو بلحمــــها وعظمها.

ــ دعك من الكلام الكثير وهلم لنرقص ــ قالت ذلك خطيبته أليســـي التي كانت قد تملصت من بيبوتي وأرادت أن تنتزع بـــاييخوس بـــالقوة عـــن الكرسي ـــ. لن أقضي الليلة كلها في الرقص مع هذا الثقيل الذي يلتصـــق بي. هيا، تعال لنرقص لحن المامبو هذا.

ورتل الملازم:

ـــ مامبو! يا للمامبو اللذيذ!

بعد لحظة من ذلك كان يلف مثل خدروف. لقد كان يرقص بإيقاع، محركاً يديه، متخذاً هيئات متنوعة، ومغنياً، وقد تحمس لأدائه أزواج من الراقصين الآخرين فبدؤوا يشكلون حلقات أو قطارات أو يتبادلون رفاقهم في الرقص. وسرعان ما تحولت الصالة إلى إعصار مذهل. نهض مايتا وألصق كرسيه بالجدار، لكي يتيح مزيداً من المجال للراقصين. هل سيرقص يوماً مثل بايبخوس؟ أبداً. حتى بيبوتي يبدو بطلاً بالمقارنة معه في هذا المجال. تذكر مايتا مبتسماً الإحساس الكريه بتحوله إلى إنسان كرومانيون[1]،هذا الإحساس الذي يداهمه كلما وجد نفسه مضطراً إلى مراقصة آديلايدا، حتى في أكثر الرقصات بساطة. لم يكن جسده هو العائق، وإنما ذلك الحياء، الخجل، التهيب الأحشائي من اقترابه الشديد من امرأة هو الذي يحوله إلى ما يشبه الدمية.ولهذا اختار ألا يرقص إلا إذا أُجبر على ذلك، مثلما يحدث عندما تضطره إلى الرقص ابنة الخالة أليسيا أو ابنة الخالة ثويليتا، وهو ما يمكن أن يحدث في أي لحظة الآن. هل تعلّم ليون دافيدوفيتش الرقص؟لا شك في ذلك. ألم تقل زوجته تاتاليا سيدوفا إنه، باستثناء انشغاله بالثورة، كان أكثر الرجال طبيعية؟ أب حنون، زوج عاشق، بستاني جيد، وكان يفتنه إطعام الأرانب. الأمر الأكثر طبيعية لدى الرجال الطبيعيين هو أن يحبوا الرقص. فالرقص بالنسبة إليهم ليس، مثلما يبدو له، مجرد شيء مضحك، وطيش وإضاعة وقت، ونسيان الأهم. وفكر: «لستَ رجلاً طبيعياً يا مايتا، تذكر هذا». انتهت رقصة المامبو، وكان هناك تصفيق. وقد

١ـــ كرومانيون Cromagnon: موقع في فرنسا (دوردونيا) اكتشفت فيه عام ١٨٦٨ بقايا بشرية، وقد أطلق اسمها على أحد الأعراق التي كانت تقطن أوربا الغربية في عصور ما قبل التاريخ.

فُتحت النافذة المطلة على الشارع لتهوية الصالة، وكان بإمكان مايتا أن يرى من خلال الراقصين، الوجوه الملتصقة بدفتي النافذة، ملامح الفضوليين، عيون رجولية تلتهم نساء الحفلة. وعندئذ أعلنت الخالة:يوجد حساء دجاج، فليأتوا لمساعدتها. هرعت أليسيا إلى المطبخ. وجاء باييخوس ليجلس مجدداً إلى جوار مايتا وهو يتعرق. قدم له سيجارة، وغمز له بإحدى عينيه ساخراً:

ـ الواقع إنني موجود وغير موجود هنا.لأنه عليّ أن أكون في خاوخا. فأنا أعيش هناك، إنني قائد السجن. ويتوجب عليَ عدم المغادرة، ولكنني أسمح لنفسي بالهرب عندما تسنح الفرصة. هل تعرف خاوخا؟

فقال مايتا:

ـ أعرف أماكن أخرى من سلسلة الجبال. أما خاوخا فلست أعرفها.

وقال باييخوس مقلداً المهرج:

ـ العاصمة الأولى للبيرو! خاوخا! خاوخا! من المخجل ألا تعرفها! يتوجب على جميع البيرويين أن يذهبوا إلى خاوخا.

ودون أن يتوقف تقريباً، سمعه مايتا يستغرق في خطبة عن السكان الأصليين: البيرو الحقيقية موجودة في سلسلة الجبال وليس على الشاطئ، ما بين الهنود ونسور الكندور وذرى الأنديز، وليس هنا في ليما، هذه المدينة المتأجنبة والمملة واللابيروية، لأنها مذ أنشأها الإسبان تعيش وعينها على أوروبا وعلى الولايات المتحدة، مديرة ظهرها للبيرو. إنها أشياء سمعها مايتا وقرأها مرات كثيرة، ولكنها كانت تخرج بنبرة مختلفة من فم الملازم.الجديد كان في الطريقة المستخفة والباسمة التي يقولها بها، مطلقاً حلقات من الدخان الرمادي. كانت طريقته في التكلم تنطوي على شيء عفوي وحيوي يحسّن ما يقوله.لماذا يحمل إليه الفتى هذا الحنين، وهذا الشيء الميت نهائياً فيه؟ وفكر مايتا: «لأنه معافى. غير ملوث. لم تقتل السياسة متعة الحياة فيه. لا بد أنه لم يمارس مطلقاً أي نوع

من السياسة. ولهذا يتكلم دون مسؤولية، ولهذا يقول كل ما يخطر له.» لم تكن هناك لدى الملازم أية حسابات، أو أية نوايا مستترة، أو خطابية معدة مسبقا. كان ما يزال في تلك المراهقة التي تتلخص السياسة فيها بأنها مشاعر وحسب، نزق أخلاقي، تمرد، مثالية، أحلام، سخاء، صوفية. أجل، هذه الأشياء ما تزال موجودة يا مايتا. ها هي ذي أمامك، مجسدة — ومن يصدق ذلك — في ضابط صغير. وسمع ما يقوله: الظلم مريع، فأي مليونير يملك من المال أكثر مما يملكه مليون من الفقراء، وكلاب الأغنياء تأكل أفضل من هنود سلسلة الجبال، ولا بد من القضاء على هذا الظلم، لا بد من استنهاض الشعب. الاستيلاء على الإقطاعيات، احتلال الثكنات، تثوير القوات المسلحة التي هي جزء من الشعب، شن الإضرابات، إعادة تشكيل المجتمع من أعلاه إلى أسفله، إقرار العدالة. يا للحسد. ها هو ذا شاب، نحيل، فتى طيب، حالم، ثرثار، بجناحي ملاك غير مرئيين، يظن أن الثورة هي مسألة نزاهة، مسألة شجاعة، مسألة سخاء، جرأة. إنه لا يشك، وربما لن يعرف مطلقا بأن الثورة هي صبر طويل، وروتين لانهائي، وبخل رهيب، وإنها ألف تقشف وتقشف، وألف دناءة ودناءة، وألف وألف... ولكن هاهو ذا حساء الدجاج أيضا وها هو فم مايتا قد امتلأ باللعاب لدى إحساسه برائحة البخار المتصاعد من الطبق الذي وضعته أليسي بين يديه.

وتتذكر دونيا خوسيفا:

— كم كنت أتكلف من الجهد، وكم من النفقات كذلك. بعد كل عيد ميلاد كنت أبقى مثقلة بالديون لزمن طويل. كانوا يكسرون أكوابا وكراسي وزهريات. ويطلع الصباح على البيت وكأنه خارج من حرب أو زلزال. ولكنني كنت أتولى ذلك العمل كل سنة لأنه كان نظاما في الحي. وكثير من الأقارب والأصدقاء لا يأتونني كل سنة إلا في هذا اليوم. لقد كنت

أقيم الحفلة من أجلهم أيضا، لكي لا أغبنهم. فقد كان عيد ميـــلادي هنـــا في سوركييو مثل العيد الوطني أو مثل أعياد الميلاد. كل شيء تبدل، فالحيـــاة الآن لم تعد تصلح للحفلات. الحفلة الأخيرة كانت في السنة التي سافرت فيها أليسيا وزوجها إلى فنـــزويلا. أما الآن، فإنني أشاهد التلفزيون قليلا في أعياد ميـلادي ثم أنام.

تلقي نظرة حزينة على الحجرة الخالية من الناس، وكأنها تعيد إلى هـــذه الكراسي والأركان والنوافذ أقرباءها وأصدقاءها الذين كانوا يأتون ليغنوا لهـــا *Happy Birthday*، ويمتدحوا براعتها في إعداد الطعام، وتتنهد. إنها تبـدو الآن في السبعين فعلا. هل تعرف إذا ما كان هناك أحد، من الأقارب، يحتفظ بدفـــاتر ملاحظات مايتا ومقالاته؟ فيعود ارتيابها من جديد، وتهمس وهي تكشر:

ــ أي أقارب؟ القريب الوحيد لمايتا هو أنا، وهو لم يحضر إلى هنا ولــو علبة ثقاب، لأنهم كلما لاحقوه، يكون هذا هو أول مكـــان تـــأتي الشـــرطة لتفتشه. ثم إنني لم أكن أعرف مطلقا أنه كاتب أو أي شيء من هذا القبيل.

بلى، كان يكتب، وأنا نفسي قرأت أحيانا بعض مقالاته في تلك الجرائد ــ أو النشرات بكلمة أدق ــ التي كان يساهم فيها، وهي الجرائد التي كان هو نفسه يصدرها بالطبع، والتي لم يبق لها أي أثر لا في المكتبة الوطنيـــة ولا في أي مجموعة خاصة. ولكن من الطبيعي ألا يكون لدى دونيا خوســـيفا أي علـــم بوجود **صوت العمال** أو أي نشرات أخرى، مثلما هو حال غالبية النـــاس في هذه البلاد، وخصوصا أولئك الذين كانت تكتب تلك النشرات وتطبع مـــن أجلهم. ومن جهة أخرى، دونيا خوسيفا محقة: فهو لم يكن كاتبا ولا أي شيء من هذا القبيل. ولكنها مهما تضايقت، فإنه لا يمكن القول إنه لم يكن مثقفـــا. ومازلت أتذكر القسوة التي حدثني بها عن المثقفين، في محادثتنـــا الأخـــيرة، في

ساحة سان مارتين. فهم لا ينفعون لأي شيء مهم حسب رأيه، وقـد حـدد كلامه قائلاً:

ـ أعني مثقفي هذه البلاد على الأقل. فهم سـرعان مـا ينبطحـون، وليست لديهم قناعات راسخة. أخلاقهم لا تكاد تساوي إلا قيمة تذكرة سفر بالطائرة إلى مؤتمرٍ للشباب، أو للسلام، الخ. ولهذا فإن من لا يبيعون أنفسـهم إلى المنح اليانكية وإلى المؤتمر من أجل حرية الثقافة، يقبلون الرشوة من جـانب الستالينية ويتحولون إلى فجل.

لاحظَ مايتا أن بايبخوس قد فوجئ بما قاله، وباللهجة التي قاله بها، فكان ينظر إليه بثبات والملعقة متوقفة في منتصف الطريق إلى فمه. لقد شوشه، بـل وأثار ذعره بطريقة ما. سيئ ما فعلته يا مايتا، سيئ جداً. لماذا يستسلم دائمـاً للنـزق والتهور كلما دار الحديث عن المثقفين؟ ومـا الـذي كانـه ليـون دافيدوفيتش؟ وهو ما كانه أيضاً، وبعبقرية، فلاديمير إيلتش. ولكنـهما كانـا ثوريين أولاً وقبل أي شيء. ألست تتحامل على المثقفين بحقد، لأنهم جميعهم في البيرو رجعيون أو ستالينيون وليس بينهم تروتسكي واحد؟

ـ الشيء الوحيد الذي أردت قوله هو أنه يجب عدم الاعتماد كثـيراً على المثقفين في الثورة ـ حاول مايتا أن يصلح الأمور، رافعاً صوته لكي يكون مسموعاً وسط صخب أغنية ***الزنجية توماسا*** ـ يجب ألا يكونـوا في الموقـع الأول على أي حال. فالعمال في المكان الأول، ويليهم الفلاحون. أما المثقفـون ففي النهاية.

فرد بايبخوس:

ـ وماذا عن فيدل كاسترو وأعضاء حركة٢٦ تموز الذين في الجبـال في كوبا، أليسوا مثقفين؟

وافق مايتا:

ـــ ربما كانوا كذلك. ولكن هذه الثورة ما تزال فجة. وهي ليست ثورة اشتراكية، وإنما برجوازية صغيرة. وهما أمران مختلفان.

بقي الملازم ينظر إليه مذهولا:

ـــ أنت تفكر على الأقل في هذه الأمور ـــ ثم استعاد تماسكه وابتسامته ما بين ملاعق الحساء، وأضاف: ـــ أنت لا تمل على الأقل من الحديث عن الثورة.

فابتسم له مايتا:

ـــ لا، لا أمل. بل على العكس.

هو لم "ينبطح" على الإطلاق... زميلي مايتا. من الانطباعات الغامضة التي خلفتها لدي عنه تلك اللقاءات السريعة التي جرت بيننا على امتداد سنوات، هناك انطباع من أكثرها بروزا أحتفظ به، هو الزهد الذي يفوح من شخصه، من ملابسه، من إيماءاته. لقد كان هناك شيء من الزهد حتى في طريقته في الجلوس في مقهى، وفي تفحص قائمة الطعام، وفي طلب شيء من الجرسون، وحتى في تقبله سيجارة تقدم إليه. وكان هذا هو ما يضفي القوة، وهالة من الاحترام على تأكيداته السياسية، مهما بدت لي هذيانية، ومهما بدا يتيما من الأتباع. في المرة الأخيرة التي رأيته فيها، قبل أسابيع من الحفلة التي تعرف فيها على بابيخوس، كان قد تجاوز الأربعين من العمر، أمضى عشرين سنة منها على الأقل في النضال. ومهما جرى البحث والتقليب في حياته، فإنه لا يمكن حتى لأشد أعدائه قسوة أن يتهموه بأنه قد استفاد، ولو مرة واحدة، من السياسة. بل على العكس، فالغالب في مسيرته هو أنه كان يوفر على الدوام، ببداهة منزهة، كل الخطوات اللازمة ليمضي نحو الأسوأ، وليجلب لنفسه المشاكل والتعقيدات. لقد قال لي عنه يوما أحد أصدقائنا المشتركين :

«إنه انتحاري. ليس منتحرا، وإنما انتحاري. إنه شخص يحب أن يقتل نفسه ببطء.» الكلمة تطلق شررا في رأسي، إنها غير متوقعة، طريفة، مثل ذلك الفعل الانعكاسي الذي لا ريب لدي في أنني سمعته في تلك المرة، أثناء هجومه التشهيري ضد المثقفين.

ـــ لماذا تضحك؟

ـــ من الفعل "انبطح". من أين جئت به.

فابتسم مايتا:

ـــ ربما أكون قد ابتدعته للتو. حسن، ربما كان هناك فعل أفضل منه. استسلم، تنازل، خضع. ولكنك تدرك ما أعنيه. امتيازات صغيرة تنسف الأخلاق. رحلة صغيرة، منحة دراسية، أو أي شيء يستميل الغرور. الإمبريالية معلم في نصب مثل هذه الشراك. والستالينية كذلك. لا يمكن لعامل أو فلاح أن يسقطا بسهولة في هذا الفخ. أما المثقفون فيتعلقون بالرضاعة ما إن يروها أمام أفواههم. وبعد ذلك يبتدعون نظريات لتبرير سقوطهم.

قلت له إن ما يقوله يكاد يكون اقتباسا من آرثر كوستلر الذي قال إن «هؤلاء المعتوهين البارعين» قادرون على التبشير بحيادية الطاعون الدبلي، ذلك أنهم أتقنوا الفن الشيطاني المتمثل في القدرة على إثبات كل ما يؤمنون به والإيمان بكل ما يمكنهم إثباته. وكنت أنتظر منه أن يرد بأنه من المعيب الاستشهاد بعميل معروف للـ CIA مثل السيد كوستلر، ولكنني فوجئت به يقول:

ـــ كوستلر؟ آه، أجل. ليس هناك من قدم وصفا أفضل منه للإرهاب النفسي الستاليني.

قلت له مستفزا:

ـــ حذار، فهذا الطريق يوصلك إلى واشنطن وإلى المنافسة الاقتصادية الحرة.

فقال:

ـــ أنت مخطئ. هذا الطريق يؤدي إلى الثورة المستمرة وإلى ليون دافيدوفيتش، أو تروتسكي كما يدعوه الأصدقاء.

قال باييخوس:

ـــ ومن يكون تروتسكي؟

فأوضح له مايتا:

ـــ ثوري. لقد مات. إنه مفكر عظيم.

فألمح الملازم بخجل:

ـــ أهو بيروي؟

ـــ بل روسي ـــ قال مايتا ـــ مات في مكسيكو.

وقالت ثويليتا:

ـــ يكفي حديثا في السياسة وإلا سأطردكما. تعال يا ابن خالتي، فأنت لم ترقص ولا رقصة واحدة. تعال، تعال وارقص معي هذا الفالس.

وصرخت أليسي طالبة النجدة من بين ذراعي بيبوتي:

ـــ ارقصوا، ارقصوا.

فقال باييخوس:

ـــ ومع من سأرقص؟ لقد فقدت رفيقتي.

ـــ معي ـــ قالت له أليسيا وهي تسحبه للرقص.

وجد مايتا نفسه في منتصف الصالة محاولا أن يتابع إيقاعات لحن *Lucy Smith*، الذي كانت ثويليتا تترنم بكلماته بظرف شديد. وحاول كذلك أن

يغني، وأن يبتسم، بينما كان يشعر بتشنج في عضلاته وبخجل شديد من أن يرى الملازم رقصه السيئ. لا بد أن الصالة لم تتغير كثيرا منذ ذلك الحين؛ وباستثناء التلف الطبيعي بفعل التقادم، فإن هذه المفروشات لا بد أن تكون هي نفسها التي كانت موجودة في تلك الليلة. ليس من الصعب تصور الحجرة ممتلئة بالناس، وبالدخان، وبرائحة البيرة، والعرق على الوجوه، والموسيقى الصاخبة، بل واكتشافهما مبتعدين جانبا في هذا الركن، بجانب الزهرية ذات الأزهار الشمعية، مستغرقين في تلك المحادثة حول الموضوع المهم بالنسبة لمايتا — الثورة — وهي محادثة استمرت حتى الفجر. المشهد الخارجي — الوجوه، الحركات، الملابس، الأدوات — ماثل هنا، ومرئي تماما. ولكن غير المرئي بالمقابل هو ما جرى في أعماق مايتا والملازم الشاب خلال تلك الساعات. هل انبثق منذ اللحظة الأولى تيار من التعاطف المتبادل بينهما: تآلف، حدس متبادل للقاسم المشترك الذي يجمع بينهما؟ ربما هناك صداقات من النظرة الأولى أكثر من الغراميات من النظرة الأولى. أم أن العلاقة بينهما كانت، منذ البداية، سياسية وحسب، تحالف رجلين مشغولين بقضية مشتركة؟ ولكنهما على أي حال قد تعارفا هنا، وهنا بالذات بدأ بينهما الحدث الأكبر أهمية في حياتيهما — دون أن يكون بمقدورهما، في فوضى الحفلة، أن يدركا ذلك.

ترجوني دونيا خوسيفا اريسوينيو:

— إذا كتبت شيئا، فلا تذكر اسمي بأي حال. أو بدل الاسم على الأقل، وخصوصا عنوان البيت. صحيح أن سنوات كثيرة قد انقضت، ولكن لا أحد يعرف ما الذي يمكن أن يحدث في هذه البلاد. إلى اللقاء.

وقال له بابيخوس:

ـــ آمل أن نلتقي. سنواصل الحديث في يوم ما. ويجب أن أشكرك، لأنني تعلمت منك أشياء كثيرة.

ـــ إلى اللقاء يا سيدتي ـــ مددت يدي إليها وشكرتها على صبرها.

إنني عائد إلى بارانكو مشيا على الأقدام، وبينما أنا أجتاز ميرافلوريس تتلاشى الحفلة من ذهني، دون أن أشعر، وأكتشف أنني أستعيد ذكرى ذلك الإضراب عن الطعام الذي أقدم عليه مايتا، حين كان في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره، لكي يتماثل مع الفقراء. فمن كل الحديث الذي أجريته مع خالته-عرابته، كان طبق حساء الظهيرة ذاك، وكسرة الخبز الليلية اللذان كانا غذاءه طوال ثلاثة أشهر، هما الصورة الغالبة: إنها صور نقية، طفولية، نبوئية، تمحو كل ما عداها.

ـــ إلى اللقاء ـــ قال له مايتا موافقا ـــ أجل، بالطبع، سنواصل أحاديثنا.

الفصل الثاني

يقوم مقر **مركز العمل من أجل التطوير** في شارع بـــاردو، في حـــي ميرافلوريس، وهو واحد من بيوت قليلة مازالت صامدة أمام تقدم العمـــارات التي راحت تحل، واحدة بعد أخرى، محل منازل الآجر والخشب المحاطة بحدائق تمنح فيها رؤوس أشجار الفيكو ظلاً وحفيف أوراق ولغط عصافـــير دوري، هذه الأشجار التي كانت سيدة الشارع تحولت الآن إلى أقزام ضئيلــــة أمـــام ناطحات السحاب. حُسنُ ذوقِ موسيس ــ أو "الدكتور" موســـيس بـــاربي ليبفا، كما ذكّرتني سكرتيرة المدخل ــ ملأ البيت بقطع أثاث مـــــن الطـــراز الاستعماري، تتوافق مع هندسة البناء، وهو واحد من تلك المباني التي كـــانت تحاكي في الأربعينيات الطراز المعماري لعصـــر نـــواب الملـــك ــ شـــرفات بمشربيات، أفناء اشبيلية، أقواس موريسكية، نوافير من القيشاني ــ والـــتي لا تخلو من فتنة. البيت يلمع، وتُلاحظ حركة نشطة في الحجرات المطلـــة علـــى الحديقة المشذبة والمروية جيداً. هناك حارسان مسلحان بالبنادق يتمشـــيان في بهو المدخل، وقد فتشاني عند الدخول ليتأكدا من أنني لا أحمل سلاحاً. وبينمـــا أنا أنتظر موسيس، رحت أتفحص مطبوعات المركز الأخـــيرة المعروضـــة في خزانة زجاجية مضاءة بمصابيح نيـــون. دراســـات اقتصاديـــة، وإحصائيـــة، واجتماعية، وسياسية، وتاريخية، كتب جيدة الطباعة ذات أغلفة متينة مزينــــة بشعار يمثل طائراً بحرياً خرافياً. موسيس باربي ليبفا هـــوَ النخـــاع الشـــوكي

لـمركز **العمل من أجل التطوير** الذي يعتبر أحد أنشط المؤسسات الثقافية في البلاد، وذلك بفضل مهارة موسيس التوفيقية، وظرافته الشخصية وقدرته العجيبة على العمل. ولكن ما هو أكثر استثنائية في موسيس، أكثر من إرادته الإعصارية ومن تفاؤله المُجرب بالرصاص، هو مهارته التوفيقية، وهذا علم ضد هيغلي يتلخص في مصالحة الأضداد، وفي جعل الكلب والفأر والقط يأكلون من طبق واحد مثلما فعل قديس ليما، سان مارتين دي بوريس. فبفضل عبقرية موسيس في الجمع بين النقائض، يتلقى **المركز** مساعدات، ومنحاً دراسية، وقروضاً، من الرأسمالية ومن الشيوعية، من أشد الحكومات والهيئات محافظة ومن أكثرها ثورية، فواشنطن أو موسكو، بون أو هافانا، باريس أو بكين، جميعها على السواء تعتبر **المركز** مؤسسة لها، وهي مخطئة في ذلك بالطبع. فـ**مركز العمل من أجل التطوير** هو لموسيس باربي ليفا ولن يكون لأحد سواه إلى أن يختفي من الوجود، ومن المؤكد أنه سيختفي من الوجود معه، لأنه ليس هناك في هذه البلاد من هو قادر على الحلول محله فيما يعمله.

لقد كان موسيس في أزمنة مايتا ثورياً يعمل في السرية؛ أما الآن فهو مثقف تقدمي. الملمح المركزي في حكمته هو أنه حافظ على نقاء صورته كرجل يساري، بل ورسخها بقدر ما كان **المركز** يزدهر، ويزدهر هو أيضاً مع **المركز**. وهكذا كان بمقدوره الحفاظ على علاقات ممتازة مع أشد الخصوم الأيديولوجيين تبايناً، فقد استطاع إقامة علاقة جيدة مع كل الحكومات التي سيطرت على هذه البلاد خلال العشرين سنة الماضية دون أن يستسلم لأي منها. فبحاسة شم محكمة للجرعات والنِسب والأبعاد، كان يعرف كيف يُبطل أي التزام مبالغ فيه لإحدى الإدارات بتعويضات خطابية استعراضية للجهة المضادة. فحين أسمعه يتكلم في حفلة كوكتيل باندفاع عن نهب مواردنا

على يد الشركات متعددة الجنسيات أو ضد التغلغل الثقافي للإمبريالية التي تُفسد ثقافتنا العالم ثالثية، أعرف أن مساهمات الأمريكيين في تمويل برامج المركز كانت أكبر من مساهمات خصومهم، وإذا ما لاحظته في معرضٍ أو حفلة موسيقية يتنبه فجأة إلى التدخل السوفييتي في أفغانستان، أو يتألم لقمع منظمة تضامن في بولونيا، فإنه يكون في هذه المرة قد حصل على مساعدة ما من البلدان الشرقية. بهذه المراوغات والحيل يستطيع أن يؤكد استقلاليته الأيديولوجية واستقلالية المؤسسة التي يديرها. جميع السياسيين البيرويين القادرين على قراءة كتاب — وهم غير كثيرين — يظنونه مستشارهم الفكري، وهم واثقون من أن **المركز** يعمل من أجلهم مباشرة، وهو أمر، بمعنى غامض، لا يخلو من الصحة. فقد كانت لدى موسيس الحكمة لجعلهم جميعاً يشعرون بأنه من المناسب لهم إقامة علاقات جيدة مع المؤسسة التي يديرها، ورغم كل شيء، فقد كان هذا الإحساس يتناسب والحقيقة، فاليمينيون يشعرون من خلال علاقتهم بالمركز بأنهم اصلاحيون، أواشتراكيون ديمقراطيون، بل واشتراكيون تقريباً؛ أما اليساريون، فإن العلاقة بالمركز تهذبهم وتهدئهم، وتضفي عليهم شيئاً من المظهر التقني، أو البريق الثقافي؛ والعسكريون يقيمون علاقة بالمركز لكي يشعروا بأنهم مدنيون، ورجال الدين لكي يشعروا بأنهم علمانيون، والبرجوازيون يشعرون بأنهم بروليتاريون وأرضيون.

ولأن موسيس يحقق النجاح، فإنه يوقظ في النفوس حسداً قوياً، وهناك كثيرون يتكلمون عنه بالسوء ويسخرون من الكاديلاك التي بلون ثمالة النبيذ، والتي يتجول بها في الشوارع. وأسوأ الألسنة هي بالطبع ألسنة التقدميين الذين هم بفضل **المركز** — أي بفضله هو — يأكلون ويلبسون ويكتبون وينشرون ويسافرون إلى مؤتمرات، ويحصلون على منح، وينظمون ندوات ومحاضرات

ويضخمون ملفهم كتقدميين. وهو يعرف الأشياء التي تقال عنه ولا يهتم بها، أو أنه يخفي اهتمامه إذا كان يهتم بها. نجاحه في الحياة وفي الحفاظ على صورته يعتمد على فلسفة لا تتبدل مطلقاً قيد أنملة: من الممكن أن يكون لموسيس باربي ليبفا أعداء، ولكن موسيس باربي ليبفا ليس عدواً لأحد من لحم وعظم، اللهم إلا تلك المسوخ المجردة ـــ الإمبريالية، الإقطاع، العسكريتارية، الأوليغارشية، الـــ CIA، إلى آخره ـــ والتي تفيده في أهدافه تماما مثلما يفيده أصدقاؤه (وهؤلاء الأصدقاء هم بقية الإنسانية الحية).إن المتطرف الذي كانه مايتا قبل ثلاثين سنة، سيقول عنه دون شك، إنه الحالة التقليدية للمثقف الثوري الذي "انبطح"، وربما يكون قوله صحيحاً ودقيقاً. ولكن، هل يعترف مايتا بأنه على الرغم من كل الصفقات وكل التكلف الذي يمارسه موسيس باربي ليبفا في هذا البلد الشيطاني الذي يعيش فيه، فإنه قد توصل إلى تمكين عشرات المثقفين من العيش والعمل بدل أن يتكاسلوا في عالم جامعي محدود وفاسد بسبب الإحباط والمكائد، وأنه أتاح لعشرات غيرهم أن يسافروا، ويلتحقوا بدورات تخصص، ويبقوا على اتصال مثمر مع زملائهم في بقية أنحاء العالم؟ هل سيعترف مايتا بأن موسيس باربي ليبفا، ورغم كونه "منبطحاً"، قد حقق، هو وحده، ما كان يجب أن تحققه وزارة التربية، أو معهد الثقافة أو أي جامعة من جامعات البيرو، و لم يفعله أي شخص أو هيئة أخرى؟ لا، لن يعترف بشيء من هذا. لأن هذه الأمور بالنسبة إلى مايتا هي ابتعاد عن المهمة الرئيسية، عن الواجب الوحيد لكل من له عين ترى وكرامة للعمل: النضال الثوري.

ـــ مرحباً ـــ ويمد لي موسيس يده.

ـــ مرحباً يا رفيق ـــ رد مايتا.

كان مايتا هو الشخص الثاني في المجيء، وهو أمر استثنائي، لأنه في كل اجتماع **للجنة المركزية** كان هو نفسه من يفتح كراج جادة ثوريتوس الذي يُستخدم مقراً **لحزب العمال الثوري (ت)**. كل واحد من أعضاء اللجنة السبعة يملك مفتاحاً، وكل منهم يستخدم الكراج أحياناً لينام فيه، إذا لم يكن لديه سقف آخر، أو لإنجاز عمل ما. والجامعيان اللذان في **اللجنة**، أي الرفيق اناتوليو والرفيق ميداردو، يحضّران هنا لامتحاناتهما.

فوجئ الرفيق ميداردو:

ــ لقد سبقتك في المجيء اليوم. يا للمعجزة.

ــ الليلة الماضية كنت في حفلة ونمت متأخراً جداً.

ضحك الرفيق ميداردو:

ــ أنت، في حفلة؟ هذه معجزة أخرى.

فأوضح مايتا:

ــ أمر مشوق. ولكن ليس ما تفكر فيه. سأُطلع الآن بالذات **اللجنة المركزية** على كل شيء.

لم يكن هناك خارج الكراج ما يشير إلى نوعية النشاطات التي تجري في الداخل، أما في المكان فكان هناك ملصق معلق على الجدار عليه الوجوه الثلاثة الملتحية: ماركس ولينين وتروتسكي، أحضره الرفيق خاثينتو من اجتماع للمنظمات التروتسكية في مونتيفيديو. وإلى جانب الجدار توجد رزم ملقاة بإهمال من **صوت العمال** ونشرات وبيانات ودعوات للإضراب أو استنكارات لم يتمكنوا من توزيعها. وكان هناك كرسيان متروعا السطح ومقاعد بثلاث قوائم تبدو وكأنها مقاعد حلاّبة أو روحانيين. وعدة فرشات مكومة فوق بعضها البعض ومغطاة بملاءة، تستخدم كمقعد للجلوس أيضاً

عند الحاجة. وعلى رف من آجر وألواح خشبية تقبع بعض الكتب المغطاة بغبار كلسي، وفي أحد الأركان يوجد هيكل دراجة ثلاثية العجلات بلا عجلات. وقد كان مقر **حزب العمال الثوري (ت)** ضيقاً إلى حد أن حضور ثلث أعضاء اللجنة المركزية يعطي الانطباع باكتمال النصاب.

ـ أتقول مايتا؟ ـ تراجع موسيس إلى الوراء في كرسيه الهزاز وتفحصني غير مصدق.

فقلت له:

ـ أجل، مايتا. هل تتذكره؟

استعاد رصانته وابتسامته.

ـ طبعاً، وكيف لا أتذكره. ولكن الأمر يثير اهتمامي. فمن في البيرو يتذكر اليوم مايتا.

ـ أناس قليلون. ولهذا، فإنني أحاول أن أعتصر ذاكرة القلة الذين يتذكرون.

أعرف أنه سيساعدني، لأن موسيس رجل خدوم، وهو مستعد على الدوام لمد يد العون إلى الجميع، ولكنني ألاحظ كذلك أنه لا بد له قبل ذلك من كسر حاجز الحذر النفسي، وإظهار بعض العنف، لأنه هو ومايتا كانا قريبين جداً أحدهما من الآخر، وكانا دون شك صديقين حميمين. هل يزعجه تذكر الرفيق مايتا في هذا المكتب الممتلئ بكتب مجلدة، وبخريطة للبيرو القديمة على رق من الجلد وخزانة زجاجية فيها قطع خزفية أثرية بأوضاع فاحشة؟ أيجعله ذلك يشعر بأنه في وضع زائف بعض الشيء وهو يضطر إلى العودة للحديث عن تلك الأعمال والأوهام التي تقاسماها هو ومايتا؟ ربما. فأنا نفسي الذي لم أكن رفيقاً سياسياً لمايتا، يسبب لي تذكّره بعض الكدر، فكيف الأمر بالنسبة إلى مدير **مركز العمل من أجل التطوير**...

ـــ إنه شخص طيب ـــ يقول ذلك بحذر، وهو ينظـــر إليّ في الوقـــت نفسه راغباً في أن يكتشف، بأكثر الطرق سرية، رأيي الشخصي بمايتـــا ـــ . مثالي، طيب النوايا. ولكنه ساذج، حالم. أنا أشعر على الأقل بـــأن ضمـــيري نظيف فيما يتعلق بكارثة خاوخا تلك. لقد حذرته من التهور الجنوني الـــذي سيُورط نفسه فيه، وحاولت أن أجعله يتروى. ولكنني كنت أضيـــع وقـــتي بالطبع، فقد كان بغلاً عنيداً.

أقول له موضحاً:

ـــ إنني أحاول أن أعيد بناء بداياته السياسية. لست أعرف الكثير، اللهم إلا أنه وهو فتي جداً، عند الانتهاء من المدرسة أو في السنة الـــتي أمضاهـــا في جامعة سان ماركوس، صار أبريستا. وبعد ذلك...

فيقول موسيس:

ـــ بعد ذلك صار كل شيء، هذه هي الحقيقة. أبريســـتا، شـــيوعي، انفصالي، تروتسكي. كل الطوائف والمذاهب. وهو لم يتنقل إلى غيرها لأنـــه لم يكن هناك المزيد حينذاك. لديه الآن احتمالات أكثر. إننا نقوم هنا في المركـــز الآن بإعداد جدول بكل الأحزاب، والجماعات، والتحالفـــات، والفصـــائل، والجبهات اليسارية الموجودة في البيرو. كم تقدر عددها؟ إنها أكثر من ثلاثين.

يخبط على الطاولة ويتخذ مظهر المتأمل. ثم يضيف فجأة بجدية كبيرة:

ـــ ولكن يجب الاعتراف بشيء. ففي كل تلك التبدلات التي مرّ بهـــا مايتا، لم يكن هناك أدنى ذرة من الانتهازية. ربما كان متقلباً، طائشاً، وكل مـــا تشاء، ولكنه كان أيضاً أكثر الناس نزاهة في العالم. سأقول لك شيئاً آخر. لقد كان لديه ميل إلى التدمير الذاتي.. إلى الهرطقة، شيء من شـــخصية المتمـــرد العضوي. ما أن يدخل في أمر حتى يبدأ بخلاف وينتهي إلى النشاط الانشقاقي.

لقد كانت النــزعة التي تفوق فيه كل النــزعات الأخرى هي الخلاف. يـــا للرفيق مايتا المسكين! أي مصير تعس انتهى إليه، أليس كذلك؟

ـــ فُتحت الجلسة ـــ قال ذلك الرفيق خاثينتو. وهو أمين عـام **ح ع ث (ت)** والأكبر سناً بين الخمسة الحاضرين. كان هناك عضوان غائبان: الرفيـــق باياردي والرفيق كارلوس. وبعد أن انتظروهما نصف ســـاعة، قـــرروا بـــدء الاجتماع من دونهما. قدم الرفيق خاثينتو، بصوت مبحوح، ملخصاً للاجتمـاع الأخير الذي عُقد قبل ثلاثة أسابيع. لم يكن لديهم سجل لمحاضر الجلســـات، على سبيل الحيطة، ولكن الأمين العام كان يسجل في دفتر صغير الموضوعـــات الرئيسية لكل مناظرة وها هو الآن يراجع دفتره ـــ إنه يجعد عينيـــه كثـــيراً ـــ بينما هو يتكلم. كم يبلغ عمر الرفيق خاثينتو؟ ستون سنة، وربما أكـــثر. إنـــه تشولو[1]، قوي ومنتصب القامة، له غرة من الشعر فوق الجبهة ومظهر ريـلضي يبديه أكثر شباباً، لقد كان لُقية أثرية في المنظمة، ذلك أنه عاش تاريخها منـــذ تلك الاجتماعات، في بداية الأربعينات، في بيت الشـــاعر رافـــائيل مينديـــث دوريتش، حين وصلت الأفكار التروتسكية إلى البيرو على يد بعض السورياليين العائدين من باريس من أمثال ويستفالين، وابريل دي بيبيرو، ومورو. وقد كان الرفيق خاثينتو أحد أول المؤسسين لأول منظمة تروتسكية، **الجماعة العماليـــة الماركسية**، في عام ١٩٤٦، وهي بذرة **ح ع ث**؛ وفي شركة الأسمدة المغفلـــة (فيرتيسا)، حيث كان يعمل قبل عشرين سنة، كان عضواً علـــى الـــدوام ـــ بأغلبية ضئيلة ـــ في القيادة النقابية، على الرغم من عداء الأبريســـتا وجماعـــة الفحل. لماذا بقي معهم بدل أن يذهب مع جماعات أخرى؟ لقد كـــان مايتـــا سعيداً جداً بذلك، ولكنه لم يكن يفهم السبب. فكل الحـــرس التروتســـكي

---

[1] تشولو Cholo : هجين من أب أبيض وأم هندية.

القديم، جميع معاصري الرفيق خاثينتو بقوا في ح ع ث. فلماذا جاء هو بالمقابل إلى ح ع ث (ت)؟ ألكي لا يبتعد عن الشباب؟ لا بد أن هذا هو السبب، فمايتا لا يبدو مرتابا بأن الرفيق خاثينتو مهتم كثيرا بالمناظرة التروتسكية الدولية ما بين «البابلويين» و«المناهضين للبابلوية».

قال الأمين العام:

ـ مسألة **صوت العمال** هي المسألة الأشد إلحاحا.

ويقول لي موسيس:

ـ طفولة يسارية. افتتان بالخلاف، لست أدري ما أسمي ذلك. مرض التطرف اليساري. المضي أبعد في الثورية، أبعد في اليسارية، أبعد في الجذرية... كان هذا هو موقف مايتا طوال حياته. فحين كنا في الشبيبة الأبريستا، وكنا صبيين صغيرين، وكان حزب الأبرا في السرية، قدم لنا مانويل سيوناس بعض المحاضرات حول نظرية المكان ـ الزمان التاريخي لهايا دي لا توري وحول دحضها للماركسية وتفوقها الجدلي عليها. واقتنع مايتا بالطبع بأنه لا بد لنا من دراسة الماركسية، لنعرف ما هو هذا الشيء الذي دحضناه وتجاوزناه. شكل حلقة لذلك، وبعد بضعة شهور فرضت علينا قيادة الأبريستا عقوبة انضباطية. وهكذا انتهينا، دون أن ندري كيف، إلى التعاون مع الفجليين. وكانت النتيجة هي تعميدنا شيوعيين.

يضحك وأضحك أنا أيضا. ولكننا لا نضحك للأسباب نفسها. فموسيس يضحك لألعاب الأطفال المسيسين باكرا، مثلما كان حاله هو ومايتا آنذاك، ويحاول بضحكته أن يقنعني بأنه لم تكن لكل ذلك أدنى أهمية، وأنها كانت مجرد حصبة أطفال، وأحداث طريفة ذهبت مع الريح. وأنا أضحك لصورتين فوتوغرافيتين اكتشفت وجودهما لحظتئذ على مكتبه. صورتان

تتقابلان وتتعادلان بتوازن، وكل منهما في إطار فضـــي: موســيس يصــافح السيناتور روبرت كنيدي، أثناء زيارته للبيرو من أجل تشجيع **التحالف مـــن أجل التقدم**، وموسيس إلى جانب الرئيس ماو تسي تونغ في بكين، مع وفـــد أمريكي لاتيني. وهو في الصورتين كلتيهما يبتسم بحيادية.

ـــ فليقدم المسؤول تقريره ـــ أضاف الرفيق خاثينتو.

وكان المسؤول عن ***صوت العمال*** هو مايتا نفسه. فهز رأسه ليبعد عنــه صورة الملازم بابيخوس الذي كان يلاحقة مع نعاس شديد منذ استيقظ صبــاح هذا اليوم دون أن ينال جسده سوى ثلاث ساعات من النوم. نهض واقفـــا. وأخرج القصاصة الصغيرة التي تتضمن مخطط ما سيقوله.

ـــ أجل أيها الرفاق، ***صوت العمال*** هي المسألة الأكثر إلحاحا ويجـــب علينا حلها اليوم بالذات. ـــ قال ذلك وهو يكبح تثاؤبـــا ـــ الواقـــع أنهمـــا مشكلتان، ويجب علينا أن نعالجهما منفصلتين. المشكلة الأولى هي التســـمية، وقد نشأت هذه المشكلة من خروج الانقساميين. والثانية هي المشكلة الدائمة، التمويل.

جميعهم كانوا يعرفون ما الذي يعنيه، ولكن مايتا ذكر كل شيء بكثـــير من التفصيل. فقد علمته التجربة بأن هذا الإسهاب في عرض الموضوع يوفـــر الوقت فيما بعد، أثناء المناقشة. المسألة الأولى: هل عليهم أن يواصلوا إطـــلاق اسم ***صوت العمال*** مع إضافة (**ت**) إلى لسان حال الحزب؟ لأن الانقســـاميين قد أصدروا صحيفتهم باسم ***صوت العمال***، مستخدمين الشكل نفسه، لكـــي يجعلوا الطبقة العاملة تعتقد بأنهم هم من يمثلون استمرارية **ح ع ث** وبـــأن **ح ع ث** (**ت**) هو المنشق. إنها مناورة قذرة بالطبع. ولكن، لابد مـــن مواجهـــة الأمر الواقع. فوجود حزبين باسم **حزب العمال الثوري** ســـيؤدي إلى بلبلـــة

الشغيلة. ووجود صحيفتين باسم *صوت العمال*، حتى ولو حملت إحداهما حرف (**ت**) من تروتسكي، فإن ذلك سيزيد في البلبلة. ومن جهة أخرى، فإن كل مواد العدد الجديد كانت منضدة في مطبعة كوتشاراكاس، ولهذا لا بد من اتخاذ قرار الآن. هل تطبع الصحيفة باسم ***صوت العمال(ت)*** أم نغير الاسم؟ توقف لحظة، ريثما يشعل سيجارة، ليرى إذا ما كان الرفاق خاثينتو أو ميداردو أو أناتوليو أو خواكين سيقولون شيئا. وبما أنهم بقوا صامتين، فقد واصل كلامه مطلقا نفثة من الدخان:

ــ المشكلة الثانية هي عجز بمبلغ خمسمئة سول من أجل دفع تكاليف هذا العدد. لقد حذرني المشرف على المطبعة من أن التكاليف ستزداد مقدار عشرين بالمئة اعتبارا من العدد القادم لأن سعر الورق قد ارتفع.

كانت مطبعة كوتشاراس تتقاضى منهم مبلغ ألفي سول مقابل طباعة ألف نسخة، من ملزمتين، وكانوا يبيعون النسخة بثلاثة سولات. فإذا ما نفدت الطبعة، سيحصلون ــ نظريا ــ على ألف سول أرباحا. أما عمليا، فإن الأكشاك تتقاضى عمولة تبلغ خمسين بالمئة من سعر كل نسخة تباع، ولهذا ــ ولأنه لم تكن هناك إعلانات ــ فإنهم يخسرون خمسين سنتافو في كل نسخة. ولا تحقق ربحا إلا تلك النسخ التي يبيعونها بأنفسهم عند أبواب المصانع والجامعات والنقابات. ولكن، مثلما تشهد هذه الرزم من الأعداد المصفرة التي تحيط بصورة محبطة للهمم بأعضاء اللجنة المركزية لـ ح ع ث (**ت**) في كراج جادة ثوريتوس، لم تنفد الألف نسخة كلها، اللهم إلا في مرات قليلة، وقد كان بين تلك النسخ الموزعة جزء لا بأس به غير مبيع، وإنما مهدى. لقد كانت **صوت العمال** خاسرة دائما. ولا بد أن الوضع سيسوء الآن، بعد الانشقاق.

حاول مايتا أن يبتسم ابتسامة مشجعة:

ـــ ليست نهاية العالم أيها الرفاق. لا تُظهروا هذه الوجوه الكئيبة.فمـــن الأفضل أن نجد حلاً ما.

ـــ لقد طردوه من الحزب الشيوعي عندما كان في السجن، هـــذا إذا لم تخني الذاكرة ـــ يقول موسيس متذكراً ـــ ولكنها ربما تخونني، إنني أضيع مـــع كل تلك الانقسامات والمصالحات.

وأسأله:

ـــ هل بقي طويلاً في الحزب الشيوعي؟ أعني هل بقيتما؟

ـــ بقينا و لم نبق، فهذا يعتمد على النقطة التي تنظر منها. فنحن لم ننضم إلى عضوية الحزب مطلقاً و لم نحصل على بطاقة العضوية.ولكن أحداً لم يكـــن يملك بطاقة عضوية في ذلك الحين. فقد كان الحزب غير شرعي وكان صغـــيراً جداً. كنا نصيرين أكثر منا عضوين عاملين. وفي السجن، بدأ مايتـــا بروحـــه الخصامية، يشعر بتعاطفات هرطوقية. وأخذنا نقرأ تروتسكي، وكنتُ منقـــاداً له. وكان التروتسكيون يقدمون في باحة السجن محاضرات للســـــجناء عـــن السلطة المزدوجة، والثورة الدائمة، وعن جمود الستالينية.وفي أحد الأيام جـــاءه خبر بأن الفحليين قد فصلوه، متهمينه بـــــالتطرف اليســـاري، والتحريفيـــة، والاستفزاز، والتروتسكية، إلى آخره. وبعد وقت قصير من ذلك خرجتُ منفيـــاً إلى الأرجنتين. وحين رجعتُ،كان مايتا قد صار عضواً في ح ع ث. ولكـــن، ألا تشعر بالجوع؟ هلم بنا إذن لتناول الغداء.

كانت ظهيرة صيفية رائعة، بشمس بيضاء وعمودية تُبهج البيوت والناس والأشجار، حين خرجنا في سياره موسيس الكاديلاك اللامعة التي بلون ثمالـــة النبيذ إلى شوارع ميرافلوريس المزدحمة أكثر من الأيـــام الأخرىبالدوريـــات الشرطية وسيارات الجيب العسكرية المحملة بجنود يعتمرون الخوذ. هنالك مدفـع رشاش عند مدخل الطريق المحوري، محمي بأكياس رمل، تحت إشراف مشـــاة

البحرية. لدى مرورنا أمام الموقع كان الضابط الذي يقوده يتكلـــم في جـــهاز لاسلكي نقال. ويقول موسيس:في يوم كهذا من المناسب تناول الطعام قـــرب البحر. أنذهب إلى **الشاطئ الأخضر** أم إلى **السويسري ذي الحذوة**؟ مطعـــم الشاطئ الأخضر أقرب ومحمي أكثر من الهجمات المحتملة.وفي الطريق، تحدثنـــا عن ح ع ث خلال السنوات الأخيرة من دكتاتورية أودريا، ١٩٥٥ و١٩٥٦، حين كان المعتقلون السياسيون يخرجون من السجن والمنفيـــون يرجعـــون إلى البلاد.

قال موسيس:

ــ بيني وبينك، لقد كانت مسألة ح ع ث تلك مجرد مزحة. إنها مزحـة جدية بالطبع بالنسبة لمن كرسوا لها حياهم وانتهوا إلى الدمار.ومزحة مأســاوية لمن أجبروا على القتل. ومزحة سمجة لمن نشفوا رؤوسهم بمنشورات اســتمنائية ومجادلات قاحلة. ولكنها،من أي جانب نظرت إليها، تبقى مزحة لا رأس لهـــا ولا أساس.

لقد تحقق ما كنا نخشاه. فالشاطئ الأخضر يغص بالزبائن. فتشَنا موظفو أمن المطعم قبل أن ندخل وترك موسيس مسدسه مع الحراس. وقـــد أعطـــوه إشعاراً أصفر اللون. وبينما كنا ننتظر أن تخلو إحدى الطاولات، أجلسونا تحت مظلة من القش، ملاصقة لكاسر الأمواج. ورحنا نشرب كأساً مـــن البـــيرة الباردة، ونرى اصطدام الأمواج ونشعر برذاذ البحر على وجوهنا.

سألته:

ــ كم كان عددكم في ح ع ث في زمن مايتا؟

غرق موسيس في التفكير وشرب رشفة كبيرة خلفت له كمامـــة مـــن الرغوة. مسح فمه بمنديل ورقي. هز رأسه، مع ابتسامة ساخرة كانت تطفـــو على وجهه، ودمدم:

ـــ لم يتجاوز العدد العشرين شخصا على الإطـــلاق.ـــ إنـــه يتكلـــم بصوت منخفض جدا إلى حد أنه يتوجب علي أن أدني رأسي منه كي لا أضيع ما يقوله: ـــ كان هذا العدد هو الذروة. وقد احتفلنا بذلك في حانة صغـــيرة. فقد صرنا عشرين. بعد ذلك بقليل جاء الانشقاق. «بابلويون» و«منـــاهضون للبابلوية». ألا تتذكر الرفيق ميكائيل بابلو؟ صار هناك ح ع ث من جهة و ح ع ث (ت) من جهة أخرى. هل كنا نحن «بابلويين» أم مناهضين؟ أقسم لـك بأنني لم أعد أتذكر. كان مايتا هو الذي يورطنا في هذه الحيل الأيديولوجيـــة. أجل، لقد تذكرت، لقد كنا «بابلويين» وهم كانوا مناهضين. نحن سبعة وهم ثلاثة عشر. وقد احتفظوا بالاسم وكان علينا أن نضيف (ت) إلى اسم **حـــزب العمال الثوري**. و لم يزدد عدد أعضاء أي من الفريقين بعد الانقسام، وهـــذا أمر أنا متأكد منه تماما. وبقي الوضع على هذه الحال إلى وقعت قضية خاوخا. عندئذ اختفى جماعة ح ع ث وبدأت قصة أخرى. لقد كان أمرا طيبا بالنسـبة لي. فقد انتهيت منفيا في باريس، واستطعت أن أقدم أطروحتي وأن أهتم بأمور جدية.

ـــ المواقف واضحة وسبل الجدال مستنفدة. ـــ قـــال ذلـــك الرفيـــق اناتوليو.

فزمجر الأمين العام:

ـــ معك حق. فلنصوت برفع الأيدي. من يؤيد؟

اقتراح مايتا ـــ تعديل الاسم من **صـــوت العمـــال (ت)** إلى **صـــوت البروليتاريا** ـــ رفض بثلاثة أصوات مقابل صوتين. وكـــان صـــوت الرفيـــق خاثينتو هو الحاسم. وعلى حجة مايتا وخواكين ـــ البلبلة التي يعنيها وجـــود صحيفتين بالاسم نفسه تهاجم كل منهما الأخرى ـــ رد كل مـــن ميـــداردو وأناتوليو بأن التبديل سيبدو كما لو أنه مصادقة علـــى ادعـــاءات الخصـــوم،

والموافقة على أنهم هم، جماعة ح ع ث، وليس نحن في ح ع ث (ت) من يحافظ على خط الحزب، ألا يكاد هذا أن يعادل مكافأة الخيانة؟ وحسب رأي ميداردو واناتوليو فإن تماثل الاسمين ــ وهي مشكلة عابرة ــ سيتضح في وعي الطبقة العاملة حين تتميز الفروق من خلال المقالات والافتتاحيات والأخبار والعقيدة المتماسكة التي ستثبت من هي الصحيفة الماركسية والمناهضة للبيروقراطية حقا ومن هي المدعية. كانت المناقشة حامية، طويلة، وكان مايتا يفكر في كم كان الحديث أكثر متعة في اليوم السابق مع ذلك الشاب المثالي الأبله. وفكر: «لقد فقدت هذا الصوت بسبب الذهول، بسبب قلة النوم». ليس مهما، إذا كان الإبقاء على الاسم سيسبب مزيدا من الصعوبات في توزيع ***صوت العمال (ت)***، فسيكون بالإمكان طلب إعادة النظر بالاتفاق، حين يكون أعضاء اللجنة المركزية السبعة حاضرين.

ــ هل أنت متأكد من أنكم كنتم سبعة فقط حين تعرف مايتا على الملازم باييخوس؟

ــ أنت تتذكر باييخوس أيضا ــ ابتسم موسيس. وكان يتفحص قائمة الطعام ويطلب حساء القريديس ورزا مع المحار. فقد تركت أمر اختيار ما سنأكله قائلا له إن اقتصاديا منبطحا مثله يستطيع عمل ذلك خيرا مني ــ. أجل سبعة. لست أذكر أسماء الجميع، ولكنني أذكر أسماءهم المستعارة. الرفيق خاثينتو، الرفيق أناتوليو، الرفيق خواكين... وأنا كنت آنذاك الرفيق ميداردو. ألا ترى كم هزلت قائمة مأكولات **الشاطئ الأخضر** منذ بدأ التقنين؟ إذا بقيت الأمور تسير على هذا المنوال فستغلق جميع مطاعم ليما أبوابها عما قريب.

لقد أجلسونا على طاولة في عمق المحل، لا يكاد يمكن لنا أن نلمح منها البحر الذي تخفيه رؤوس الزبائن: إنهم سائحون ورجال أعمال وعشاق

وموظفو شركة يحتفلون بعيد ميلاد أحدهم. ولا بد أن هناك سياسيا أو رجل أعمال مهما بين الزبائن، ذلك أنني كنت أرى، على طاولة قريبة، أربعة حراس شخصيين يرتدون ملابس مدنية، ويضعون مسدسات رشاشة على ركبهم. إنهم يشربون البيرة بصمت، ويمسحون المكان بعيونهم من جانب إلى آخر. وقد كانت ضجة الأحاديث، والضحكات، وقعقعة أدوات الطعام تطفئ صوت الأمواج وارتدادها.

أقول له:

ـــ لقد وصل عددكم على أي حال إلى ثمانية أشخاص مع بابيخوس. لقد خانتك ذاكرتك.

فيرد علي فورا:

ـــ بابيخوس لم ينضم مطلقا إلى الحزب. لكلمة حزب هذه رنة سخرية حين يكون عدد أعضائه سبعة فقط، أليس كذلك؟ هو لم يكن عضوا أبدا. ومن أجل تحديد أكثر دقة، أقول لك إنني لم أر وجه بابيخوس على الإطلاق. والمرة الأولى التي رأيته فيها كانت عند ظهور صوره في الصحف.

إنه يتكلم بثقة مطلقة وعلي أن أصدقه. ولماذا سيكذب علي؟ ولكنني كنت قد فوجئت أكثر على أي حال بعدد أعضاء ح ع ث (ت). كنت أتخيله حزبا صغيرا، ولكن ليس إلى هذا الحد المتدني. كنت قد أنشأت مشهدا من فرضيات تهاوت الآن متلاشية: مايتا يأتي ببابيخوس إلى الكراج في جادة ثوريتوس ليقدمه إلى رفاقه، ويضمونه إلى الحزب كأمين للدفاع... ولكن هذا كله مجرد دخان.

بعد لحظة أوضح موسيس:

ـــ ولكن، حين أقول سبعة أشخاص فإنني أعني سبعة محترفين. فقد كان هناك أيضا المؤيدون. طلاب وعمال، كنا ننظم لهم حلقات دراسية. وكان لنا

بعض التأثير كذلك على بعض النقابات. نقابة (فيرتيسا) مثلا. وكذلك في مجال البناء المدني.

لقد أحضروا الحساء وبدا القريدس طازجا وساخنا ويمكن الإحساس بلذعة الفلفل الحار فيه من رائحة الطبق. شربنا، أكلنا، وما كدنا ننتهي حتى عدت إلى الهجوم:

ـــ أأنت متأكد من أنك لم تر بايبخوس مطلقا؟

ـــ الوحيد الذي كان يراه هو مايتا. خلال وقت لا بأس به على الأقل. وفيما بعد، تشكلت لجنة خاصة. **فريق العمل**. أظن أنه تشكل من أناتوليو ومايتا وخواكين. وهؤلاء رأوه، بضع مرات. أما الآخرون فلم يروه مطلقا. لقد كان عسكريا، ألا تلاحظ ذلك؟ وما الذي كناه نحن؟ مجرد ثوريين سريين. وهو؟ ضابط! ملازم!

ـــ ملازم؟ ـــ وثب الرفيق أناتوليو في مقعده ـــ أقلت ضابط؟

وقال الرفيق خواكين:

ـــ لقد كلفوه باختراقنا. الأمر واضح جدا.

فوافق مايتا:

ـــ كان هذا هو أول ما فكرت فيه بالطبع. فلنترو أيها الرفاق. هل هم مجانين؟ أتراهم يبعثون لاختراقنا ملازما يتحدث عن الثورة الاشتراكية في حفلة؟ لقد استطعت استدراجه ليقول شيئا و لم يكن يعرف أين هو واقف. لديه مشاعر طيبة، موقف ساذج، وهو شخص عاطفي، يتكلم عن الثورة دون أن يعرف ما الذي تعنيه الثورة. إنه بكر أيديولوجيا. الثورة بالنسبة له هي فيدل كاسترو ورفاقه الملتحين الذين يطلقون الرصاص في سييرا مايسترا. إنه يشم في الأمر رائحة العدالة، ولكنه لا يعرف كيف يؤكل ذلك. إلى أي حد استطعت أن أجس نبضه.. ليس هناك ما هو أكثر من هذا الذي قلته.

كان قد جلس وصار يتكلم بشيء من الجزع، لأن السجائر كانت قد نفدت خلال الساعات الثلاث التي دامتها الجلسة، وكان يشعر بلهفة إلى التدخين. ولماذا يستبعد أن يكون الملازم ضابطاً في المخابرات مكلفاً بجمع معلومات عن ح ع ث (ت)؟ وماذا إذا كان كذلك؟ وما الغريب في لجوئهم إلى حيلة فجة؟ ألا ينضح رجال الشرطة والعسكريون والبرجوازيون في البيرو بالفجاجة؟ ولكن صورة الشاب النحيل المرحة والمتدفقة بحّرت من جديد شكوكه. وسمع الرفيق خاثينتو يؤيده:

ـــ من الممكن أن يكونوا قد كلفوه باختراقنا. ولكننا في وضع أفضل منه لأننا نعرف على الأقل من يكون. يمكننا أخذ الاحتياطات اللازمة. وإذا سنحت لنا الفرصة لنخترقهم أيها الرفاق، فلن يكون من الثورية في شيء ترك الفرصة تفلت منا.

وهكذا عاد للظهور فجأة موضوع كان قد أثار مناقشات لا حصر لها في ح ع ث (ت). هل هناك قوة ثورية كامنة ضمن القوات المسلحة؟ وهل عليهم أن يضعوا ضمن أهدافهم التغلغل في الجيش، في البحرية، في الطيران، وتشكيل خلايا من الجنود والبحارة والطيارين؟ وهل عليهم توعية الجنود حول توافق مصالحهم مع مصالح البروليتاريا والفلاحين؟ أم أن توسيع الصراع الطبقي إلى عالم الجيش هو خدعة مضللة،لأنه على الرغم من اختلاف منابت العسكريين الطبقية، فإن روابط المؤسسة، وروح السلك العسكري، توحد الضباط والجنود في تواطؤ لا ينفصم؟ ندم مايتا لأنه أخبرهم بأمر الملازم. فهذا الأمر سيستمر ساعات.حلم بوضع قدميه المتورمتين في المغسلة المملوءة بالماء، لقد فعل ذلك هذا الصباح، لدى عودته من الحفلة في سوركييو، وهو سعيد لأنه ذهب لتقبيل خالته ـــ عرابته. وقد غفا وقدماه مبللتان، وحلم بأنه يتنافس مع بابيخوس في سباق، على شاطئ يمكن له أن يكون شاطئ أغوا دولثي،

دون سباحين، عند الفجر. وكان هو قد تخلف في السباق، فراح الفتى يلتفت إليه مشجعاً وضاحكاً: «هيا، هيا، أم أنك أصبحت عجوزاً و لم يبق لديك نَفَس يا مايتا؟»

ويقول موسيس وهو يهجم على طبق الرز:

ـــ كانت الاجتماعات تستمر لساعات وساعات. فمثلاً: هل يتوجب على مايتا أن يواصل اللقاء مع بايبخوس أم عليه قطع العلاقة معه بسلام؟هذا أمر لا يتقرر هكذا ببساطة، وإنما من خلال تحليل للظروف، والأسباب، والمؤثرات. كان علينا أن نستعرض عدة مقدمات للبرهنة: ثورة أكتوبر، علاقات القوى الاشتراكية والبيروقراطو ـــ إمبريالية في العالم، وتطور النضال الطبقي في القارات الخمس، وإفقار البلدان الخاضعة للاستعمار الجديد، والمركزية الاحتكارية...

بدأ باسماً، ثم راحت ملامحه تتخلل. أعاد إلى الطبق الشوكةَ التي كان يحملها إلى فمه. قبل لحظة كان يأكل بشهية،ممتدحاً طاهي **الشاطئ الأخضر** ـــ «إلى كم من الوقت سيكون بالإمكان تناول وجبات مثل هذه الوجبة في ظل هذه الأمور التي تحدث؟» ـــ وفجأة، فقد شهيته. هل أثقلت عليه الذكريات التي يسترجعها ليقدم بذلك خدمة لي؟

ودمدم للمرة الثالثة في هذا الصباح:

ـــ لقد قدم لي مايتا وبايبخوس خدمة عظيمة. فلولاهما لكنت ما أزال ضمن جماعة حزبية صغيرة،أحاول أن أبيع خمسين نسخة كل نصف شهر من نشرة، أعرف أن العمال لن يقرؤوها، وإذا ما قرؤوها فلن يفهموها.

يمسح فمه ويشير بيده إلى الجرسون ليرفع طبقه. ثم يضيف بمزاج مأتمي:

ـــ عندما ظهرت مسألة بايبخوس كنت قد فقدت الإيمان بما كنا نفعله. إذ بدأتُ أدرك تماماً أن ذلك لن يؤدي إلى أي شيء، اللهم إلا عودتنا إلى

السجن بين وقت وآخر، وإلى المنفى بين حين وآخر، وإلى الإحباط السياسي والشخصي. ومع ذلك... فإن العطالة، القصور، أو شيء يمكن تسميته هكذا أو لا أدري كيف.خوف مرعب من الإحساس بأنك غير وفي، خائن في حق الرفاق، في حق الحزب، في حق نفسك بالذات. رعب من أن تَشطبَ دفعة واحدة ما كان يمثل ـــ بكل سوئه ـــ سنوات نضال وتضحية. لا بد أن الرهبان الذين يخلعون مسوحهم يعانون الشعور نفسه.

ينظر إلي كما لو أنه انتبه في هذه اللحظة بالذات إلى أنني ما أزال معه. أسأله:

ـــ هل شعر مايتا يوماً بانهيار المعنويات؟

ـــ لست أدري، ربما كان غرانيتياً. ـــ ويبقى ساهماً للحظة ثم يهز كتفيه ويضيف: ـــ أو ربما أحس بذلك، ولكن سراً. أفترضُ أننا جميعنا كنا نمر بنوبات صحو نرى فيها أننا في قاع البئر وليس لدينا سلّم للصعود. ولكننا لم نكن نعترف بذلك ولو أدى الأمر إلى موتنا. أجل، لقد قدم لي مايتا وباييخوس خدمة كبيرة.

ـــ إنك تكرر هذا كثيراً وكأنك لاتصدقه. أو كأن الأمر لم يفدك كثيراً.

ثم يؤكد بإيماءة نفور:

ـــ لم يفدني كثيراً.

وبما أنني كنت أضحك وأسخر منه قائلاً له إنه واحد من قلة من المثقفين البيرويين الذين تمكنوا من الاستقلال، ومَنْ يمكن أن يقال عنه كذلك بأنه يحقق بعض الأشياء ويساعد زملاءه على تحقيق بعض الأشياء،فقد أوقفني بإيماءة ساخرة من يده. هل أعني **مركز العمل من أجل التطوير؟** أجل، إنه

يخدم البيرو، وهو دون شك مساهمة أكبر من تلك التي قدمها إلى البلاد خلال عشرين سنة من نضاله الحزبي. أجل، وهو يفيد كذلك من يساعدهم **المركز** في نشر كتبهم، وفي الحصول على منح ويحررهم من ماخور الجامعة. أما هو فيشعر بالمقابل بأن **المركز** يُحبطه، ولكن بطريقة أخرى مختلفة عن إحباط ح ع **ث** (**ت**) بالطبع. لقد كان يريد ــ وينظر إليّ وهو يتكلم وكأنه يتساءل إذا ما كنتُ جديراً بهذا البوح ــ أن يكون واحداً منهم. أن يبحث، ويكتب، وينشر. إنه مشروع قديم طموح جداً، صار يعرف الآن أنه لن يستطيع تنفيذه. فهو يرغب في تأليف **تاريخ اقتصادي للبيرو**، يكون شاملاً ومفصلاً، منذ الثقافات ما قبل الإنكية وحتى أيامنا هذه. ولكن المشروع استُبعد، مثل كل المشاريع الأكاديمية الأخرى! إن الإبقاء على **المركز** حياً يعني أنه عليه أن يكون إدارياً، دبلوماسياً، دعائياً، وفوق كل ذلك بيروقراطياً طوال أربع وعشرين ساعة في اليوم. لا، بل طوال ثمان وعشرين ساعة، ثلاثين ساعة، لأن الأيام عنده تدوم ثلاثين ساعة.

ــ القضية لا تحتمل المزيد ــ اعترض الرفيق خواكين ــ. لا تحتمل المزيد. ألا تلاحظون ذلك؟

وفكر مايتا: فعلاً، لا تحتمل، ثم.. ما هي القضية المقصودة؟ فمنذ بعض الوقت، وبسبب الرفيق ميداردو الذي أدخل في النقاش مشاركة سوفيتات الجنود في الثورة الروسية، راحوا يتناقشون حول تمرد بحارة كرونستاد وسحقه. وحسب رأي ميداردو، فقد كان ذلك التمرد المناهض للاشتراكية في شباط ١٩٢١، دليلاً جيداً على تذبذب الوعي الطبقي لدى القوات العسكرية وعلى خطورة المجازفة بالثقة بالقوة الثورية الكامنة لدى الجنود. ولكن الرفيق خاثينتو أحس بلسانه يلدغه، فرد بأنه بدل التكلم عن سلوكهم في ١٩٢١،

كان يتوجب على ميداردو أن يتذكر ما فعله بحارة كرونستاد في ١٩٠٥. أو لم يكونوا أول من انتفض ضد القيصر؟ وفي عام ١٩١٧، ألم يسبقوا معظم المصانع في تشكيل سوفييتهم؟ وقد انحرف النقاش بعد ذلك حول موقف تروتسكي بشأن كرونستاد. وتذكر ميداردو وأناتوليو بأن تروتسكي في كتابه **تاريخ الثورة** وافق على قمع التمرد، باعتباره أهون الشرور، لأنه كان تمردا معاديا للثورة موضوعيا، ويخدم الروس البيض والقوى الإمبريالية. ولكن مايتا كان متأكدا من أن تروتسكي قد صحح فيما بعد أطروحته هذه وأعلن أنه لم يتدخل في قمع البحارة، لأن قمع الانتفاضة كان عملا اقتصر على لجنة بتروغراد التي يرأسها زينوفيف. بل انه كتب كذلك بأنه في إبادة البحارة المتمردين، خلال حكم لينين، تبدت السوابق الأولى للجرائم ضد البروليتارية التي اقترفتها البيروقراطية الستالينية. وأخيرا، بانقلاب مفاجئ، توقفت المناقشة حول إذا ما كانت مؤلفات تروتسكي قد ترجمت بصورة دقيقة إلى الاسبانية.

قال مايتا مبديا رأيه:

ـــ لا أجد معنى لتصويتنا حول هذه المسألة. فلنتوصل إلى تراض، ويمكننا مصالحة طروحات الجميع. إنني أعترف، بالرغم من ضعف هذا الاحتمال، بأنه يمكن لباييخوس أن يكون مكلفا باختراقنا أو باقتراف عمل استفزازي. ومن جهة أخرى، مثلما قال الرفيق خاثينتو، يتوجب علينا ألا نبدد الفرصة المتاحة لنا بكسب عسكري شاب إلى جانبنا. وإليكم اقتراحي: سأواصل الاتصال به، وأجس نبضه، وأرى إذا ما كانت ثمة طريقة لاجتذابه. دون أن أقدم إليه بالطبع أي معلومات حول الحزب. فإذا ما شممت شيئا مريبا، أضع نقطة وأنهي العلاقة. وإذا لم أجد شيئا من هذا، فسنرى ما الذي نفعله، حسب الوضع.

لقد وافقوا. إما لأنهم كانوا متعبين وإما لأنه كان أكثر إقناعا. وحين رأى الرؤوس الأربعة تهتز موافقة، ابتهج: سأتمكن الآن من شراء السجائر والتدخين.

ويقول موسيس:

ـ إذا كانت لديه أزمات فإنه كان يتقن إخفاءها جيدا. وهذا أمر كنت أحسده عليه على الدوام: الثقة بما يفعله. ليس في ح ع ث (ت) فقط. وإنما قبل ذلك أيضا، حين كان موسكوفي أو أبريستا.

ـ كيف توضح إذن كل تلك التقلبات. أكانت نتيجة قناعات أيديولوجية؟ أم لأسباب نفسية؟

فيصحح موسيس ما قلته:

ـ بل لأسباب أخلاقية. مع أن التحدث عن الأخلاق في قضية مايتا قد يبدو لك غير ملائم، أليس كذلك؟

يلمع في عينيه بريق خبيث. هل ينتظر تلميحا صغيرا لكي يتحول إلى ناحية الأقاويل والنميمة؟

فأقول له مؤكدا:

ـ ليس هناك ما يبدو لي غير ملائم على الإطلاق. فقد كنت أرتاب على الدوام بأنه لابد لكل تحولات مايتا تلك من سبب عاطفي أو أخلاقي أكبر من الدافع الأيديولوجي.

فيبتسم موسيس:

ـ إنه البحث عن الكمال، عن النقاء. لقد كان كاثوليكيا متدينا جدا في صغره. حتى أنه أضرب عن الطعام ليتعلم كيف يعيش الفقراء. هل تعرف هذا الأمر؟ ربما كان هناك أصل كل شيء. فعندما يسعى المرء إلى النقاء في السياسة، يصل إلى اللاواقعية.

بقي يراقبني للحظة وهو صامت، بينما كان الجرسون يقدم لنا القهوة. أناس كثيرون كانوا قد غادروا **الشاطئ الأخضر**، ومنهم الرجل المهم مع حراسه الشخصيين المسلحين بمسدسات رشاشة، وإضافة إلى أننا أخذنا نسمع من جديد صوت البحر، فقد بدأنا نرى، إلى جهة اليسار، بين حائل الأمواج في بارانكيتو،بعض المتزلجين على الماء ينتظرون الأمواج وهم جالسين على خشبات التزلج مثل فرسان.«عملية اغتيال من البحر هي أسهل ما يمكن تحقيقه هنا. فالشاطئ غير محروس. يجب تنبيه الإدارة إلى ذلك.»

يسألني موسيس بينما هو يقيس درجة حرارة القهوة بلسانه:

ــ ما الذي يهمك في مايتا إلى هذا الحد. إنه المطموس والمنسي أكثر من سواه بين جميع ثوريي تلك السنوات.

ــ لست أدري، هناك شيء في حالته يشدني إليه أكثر مما يشدني الآخرون. شيء من الرمزية لما جاء فيما بعد، إنذار بشيء لم يراود الشك أحد حينذاك بأنه سيأتي يوماً.

لست أدري كيف أواصل، ولو استطعت لأوضحت ذلك، ولكن بعد الوصول إلى هذا الحد، فإن ما أعرفه فقط هو أن قصة مايتا هي ما أريد معرفته واختلاقه، بأكبر قدر ممكن من الحيوية. يمكنني إعطاءه مبررات أخلاقية، اجتماعية، أيديولوجية، وأن أثبت له أنها أكثر القصص أهمية وإلحاحاً. كل شيء سيكون كذباً. والحقيقة أنني لا أعرف لماذا تتملكني قصة مايتا وتُقلقني.

يقول موسسيس:

ــ ربما أعرف أنا السبب. لأن قضيته كانت الأولى قبل انتصار الثورة الكوبية.. قبل هذا الحدث الذي شق اليسار إلى قسمين.

ربما كان محقاً، ربما كان السبب هو الطابع الريادي لتلك المغامرة. هذا صحيح، فقد افتتحت تلك المغامرة حقبة جديدة في البيرو، شيئاً لم يكن

بإمكان مايتا ولا باييخوس أن يتنبأا به في ذلك الحين. ولكن من الممكن أيضا أنه ليس لكل هذا السياق التاريخي من أهمية سوى التزيين وأن العنصر الإيحائي الغامض فيها، بالنسبة لي، هو عناصر القسوة، الهامشية، التمرد، الهذيان، المغالاة التي تؤثر في تلك الحادثة التي كان بطلها زميلي في مدرسة ساليسيانو.

قال الرفيق ميداردو ساخرا:

ـ عسكري تقدمي؟ هل أنت متأكد من وجود شيء كهذا؟ لقد أمضى الأبريستا حياتهم في البحث عنه، لينجز لهم الثورة ويفتح لهم أبواب القصر. وقد هرموا دون أن يتمكنوا من العثور عليه. أتريد أن يحدث لنا الشيء نفسه؟

ابتسم مايتا:

ـ لن يحدث لنا ذلك. لأننا لن نقوم بانقلاب وإنما سنصنع ثورة. لا تقلق يا رفيق.

فقال الرفيق خاثينتو:

ـ أما أنا فإنني قلق. ولكن قلقي لسبب أكثر دنيوية. هل دفع الرفيق كارلوس الإيجار؟ لا أريد أن تداهمنا العجوز مرة أخرى.

كانت الجلسة قد انتهت، وبما أنهم لا يخرجون مطلقا دفعة واحدة، فقد انصرف أولا أناتوليو وخواكين. وبقي الآخرون ينتظرون لبعض الوقت قبل أن يغادروا الكراج. ابتسم مايتا وهو يتذكر. كانت العجوز قد ظهرت فجأة في أثناء مناقشة حامية حول الإصلاح الزراعي الذي حققته في بوليفيا الحركة القومية الثورية بقيادة باث استنسوريو. لقد جمدتهم من الذهول، كما لو أن الشخص الذي فتح الباب هو واش وليس العجوز الهشة ذات الشعر الأبيض والظهر المحدودب المتوكئة على عكاز من المعدن.

وجاء رد فعل الرفيق كارلوس:

ـــ سيدة بلومبرغ، مساء الخير. يا للمفاجأة.

واعترض الرفيق خاثينتو:

ـــ لماذا لا تطرقين الباب؟

فردت السيدة بلومبرغ غاضبة:

ـــ لست مضطرة إلى طرق باب كراج بيتي. لقد اتفقنا على أن تدفعوا لي في اليوم الأول من الشهر. ماذا جرى؟

تقدم الرفيق كارلوس منها محاولا أن يخفي بجسده ملصق الملتحين الثلاثة ورزم صوت العمال:

ـــ مجرد تأخير بسيط بسبب إضراب المصارف. ولكن هاهو شيك الإيجار معي.

هدأت السيدة بلومبرغ حين رأت كارلوس يخرج مغلفا من جيبه. تفحصت الشيك بتمعن، وهزت رأسها موافقة، وودعتهم وهي تتمتم بألا يتأخروا في المستقبل، لأنها لم تعد في سن يسمح لها بالتنقل من بيت إلى بيت لتقبض الإيجارات. داهمتهم نوبة من الضحك، ثم نسوا المناقشة وراحوا يتخيلون: هل رأت السيدة بلومبرغ وجوه ماركس ولينين وتروتسكي؟ أتكون في طريقها إلى الشرطة؟ هل سيداهم المقر هذه الليلة؟ لقد قالوا لها إنهم يستأجرون الكراج ليقيموا فيه ناديا للشطرنج، والشيء الوحيد الذي لم يكن بإمكانها أن تراه هو أي رقعة شطرنج أو أي بيدق. ولكن الشرطة لم تأت، أي أن السيدة بلومبرغ لم تنتبه إلى أي شيء مثير للريبة.

وقال ميداردو:

ـــ اللهم إلا إذا كان هذا الملازم الذي يريد صنع الثورة هو استمرار لزيارة العجوز تلك. وأنهم قرروا اختراقنا بدلا من مداهمتنا.

فالمح مايتا، خائفا من تجدد فتح النقاش الذي سيبعده عن السيجارة:

ـــ بعد مضي كل هذه الشهور؟ وأخيراً، سنعرف من يكـــون. لقـد انقضت عشر دقائق. هل ننصرف؟

وقال خاثينتو:

ـــ يجب السؤال عن سبب عدم مجيء بايياردي وكارلوس.

ويقول لي موسيس:

ـــ كان كارلوس هو الوحيد الذي يعيش حياة طبيعية بين السبعة. فقـد كان متعهد أعمال بناء، وصاحب معمل لصنع الطوب. هو من كـان يمـول إيجار المقر، وتكاليف المطبعة، والمنشورات. الجميع كانوا يسـاهمون، ولكـن مساهماتنا كانت بائسة. وقد كانت زوجته تكرهنا إلى حد الموت.

ـــ وماذا عن مايتا؟ لا بد أنه كان يكسب قليلاً جداً في فرانس برس.

وافق موسيس:

ـــ ومع ذلك، فقد كان ينفق نصف راتبه أو أكثر على الحزب. وكانت زوجته أيضاً تكرهنا بالطبع.

ـــ زوجة مايتا؟

فضحك موسيس:

ـــ كان متزوجاً وكل شيء. ولكن لوقت قصير. فتاة تدعى آديلايـدا، موظفة مصرف جميلة جداً. وهو أمر لم نفهمه مطلقاً. ألم تكن تعرف؟

لم أكن أعرف. خرجوا معاً. أقفلوا بالمفتاح باب الكراج وتوقفـوا في الحانة عند الناصية ليشتري مايتا علبة سجائر إنكا. قدم سـجائر إلى خـاثينتو وميداردو ثم أشعل سيجارته بتسرع شديد أحرق معه أصابعه. وفي الطريـق إلى جادة ألفونسو أوغارتي، سحب عدة أنفاس، وكان يغمـض عينيـه قليـلاً ليستغرق في متعة سحب ونفث هذه السحب من الدخان التي تتلاشى في ظلمة الليل.

وفكر بصوت عال:

ـــ لقد عرفت الآن لماذا تسلل وجه الملازم إلى هنا.

وتذمر ميداردو:

ـــ هذا العسكري جعلنا نضيع وقتا طويلا. ثلاث ساعات من أجل ملازم!

وواصل مايتا وكأنه لم يسمع:

ـــ ... بسبب الجهل، أوانعدام الخبرة، أو أي سبب آخر، كان الملازم يتحدث عن الثورة بطريقة لم نتحدث بها نحن قط.

فقال خاثينتو ساخرا:

ـــ دعك من التقولات الصعبة، فأنا عامل ولست مثقفا يا رفيق.

وكانت هذه مزحة يرددها بكثرة إلى حد دفع مايتا إلى التساؤل عما إذا كان الرفيق خاثينتو لا يشعر بالحسد تجاه هذه الصفة التي يدعي أنه يزدريها كثيراً. وفي أثناء ذلك، كان على الثلاثة أن يلتصقوا بالجدار لكي لا تصدمهم حافلة تتقدم وحشد من الركاب يتعلقون على بابها.

وأضاف مايتا:

ـــ إنه يتكلم بمرح، بسعادة. وكأنه يتكلم عن شيء صحي وجميل. أما نحن فقد فقدنا الحماس.

وقال خاثينتو مازحا:

ـــ هل تعني أننا قد هرمنا؟ هذا شأنك. أما أنا فلدي خمسون سنة غير مكتملة.

ولكن مايتا لم يكن راغبا في المزاح، بل كان يتكلم بجزع، متعجلا:

ـــ لقد تحولنا إلى نظريين بمبالغة، وجديين بمبالغة، نشبه إلى حد ما السياسيين المدعين. لست أدري... إن سماع ذلك الملازم الفتى وهو يهذر عن

الثورة الاشتراكية أثار في نفسي الحسد. صحيح أن النضال يصلب المرء. ولكن من السيئ التخلي تماماً عن الأحلام. من السيئ أن تنسينا المنهجية الأهداف يا رفاق.

هل يفهمون ما الذي يريد أن يقوله لهم؟ أحس بأنه يتكدر وغيّر الموضوع. ولكن الفكرة بقيت تجول في رأسه عندما ودعهم في شارع ألفونسو أوغارتي لكي يذهب إلى غرفته في شارع ثيبيتا. وبينما كان يقف قبالة مستشفى لوايزا منتظراً توقف نهر السيارات والشاحنات والحافلات التي تملأ مسارات الشارع الأربعة، اتضح له تداعي الخواطر الذي يمر بذهنه بصورة شبحية منذ الليلة الفائتة. أجل، إنها الجامعة، هذا هو الأمر. تلك السنة المخيبة للآمال، وتلك الدورات الدراسية في التاريخ، والأدب، والفلسفة التي انضم إليها في جامعة سان ماركوس. وسرعان ما توصل إلى نتيجة بأن أولئك الأساتذة الجامعيين قد أصيبوا بضمور الميول المهنية، هذا إذا كانوا قد أحسوا في يوم من الأيام بحب تجاه الروائع الأدبية، أو تجاه الأفكار العظيمة. فمن خلال الحكم على ما يُعَلِّمُونه وما يطلبونه من تلاميذهم من أعمال، يتبين أنه كان هناك انقلاب في رؤوس أولئك المُنوِّمين متوسطي الذكاء. فأستاذ الأدب الاسباني يبدو مقتنعاً بأن قراءة ما كتبه السيد ليو سبيتزن عن لوركا هو أهم من قراءة قصائد لوركا، أو أن كتاب السيد آمادو ألونسو حول شعر نيرودا هو أهم من شعر نيرودا، ويبدو أستاذ التاريخ مهتماً بمصادر دراسة تاريخ البيرو أكثر من اهتمامه بتاريخ البيرو نفسه، وأستاذ الفلسفة تهمه الكلمات أكثر مما يهمه مضمون الأفكار وانعكاسها في الوقائع... الثقافة لديهم محنطة، تحولت إلى معارف للتباهي، وإلى تبحر قاحل منفصل عن الحياة. وقد قال عندئذ إن هذا هو ما يمكن انتظاره من الثقافة البرجوازية، من المثالية البرجوازية، الابتعاد عن الحياة. وتَرَكَ الجامعة مستاءً: فالثقافة الحقيقية مختلفة عما يعلمونه هناك.

عن الحياة. وترك الجامعة مستاء: فالثقافة الحقيقية مختلفة عما يعلمونه هناك. هل تأستذ هو وخاثينتو وميداردو والرفاق في ح ع ث (ت) وفي ح ع ث الأخر؟ هل نسوا المرتبة ما بين الأساسي والثانوي؟ هل تحول عملهم الثوري إلى شيء سري ومتحذلق مثل ذلك الشيء الذي حول إليه أساتذة جامعة سان ماركوس الأدب والتاريخ والفلسفة؟ لقد كان سماع باييخوس دعوة إلى التنبه: «يجب عدم نسيان ما هو جوهري يا مايتا. يجب عدم التورط في الأباطيل يا رفيق». فباييخوس لا يعرف شيئا، لم يقرأ شيئا، إنه بكر، أجل، ولكنه يتفوق عليه بمعنى ما: فالثورة بالنسبة إليه هي العمل، إنها شيء ملموس، إنها إقامة الفردوس على الأرض، مملكة العدالة، المساواة، الحرية، الإخاء. أدرك الصور التي تتبدى بها الثورة لباييخوس: فلاحون يحطمون قيود الإقطاع، عمال يتحولون من خدم إلى سادة للآلات والورش، مجتمع يتوقف فيه فائض القيمة عن تسمين حفنة ضئيلة لكي يرجع بالفائدة على كل الشغيلة... وأحس بقشعريرة. أليس هذا تقاطع شارعي كانيتي وثيبيتا؟ لقد خرج من تأملاته وفرك ذراعيه. يااللعنة! كم كان ساهيا لتقوده قدماه حتى هنا. أهو مغنطيس الخطر؟ أهي مازوشتية سرية؟ لقد كان يتفادى المرور من هذا التقاطع بين شارعي كانيتي وثيبيتا، بسبب المرارة التي يحس بها في فمه كلما اجتازه. فهناك بالتحديد، قبالة كشك الصحف، فرملت في ذلك الصباح السيارة الرمادية المائلة إلى الخضرة بصرير ما زال يتردد في مسمعيه. وقبل أن يتنبه إلى ما كان يحدث، نزل أربعة أشخاص ورأى المسدسات مصوبة نحوه، ثم فتشوه، وجروه، وأدخلوه بالدفش إلى السيارة. لقد أدخل من قبل إلى مفوضيات الشرطة، وإلى سجون مختلفة، ولكن تلك المرة كانت الأسوأ والأطول، والمرة الأولى التي تعرض فيها للاغتصاب بوحشية. اعتقد أنه سيصاب بالجنون، فكر في

الانتحار. ومنذ ذلك الحين صار يتفادى هذا التقاطع بسبب نوع من التطير كان يخجل من الاعتراف به. انعطف عبر شارع ثيبيتا ومشى ببطء الكوادرتين المتبقيتين للوصول إلى بيته. كان الإرهاق يتركز في قدميه كالعادة. اللعنة على الأقدام المسطحة. وفكر: «إنني فقير هندي، وها أنا أضع قدمي على آلاف الإبر الصغيرة...» ثم فكر: «الثورة هي حلم الملازم غير الناضج».

كانت غرفته هي الثانية في أعلى بناء من طابقين. إنها فسحة من ثلاثة أمتار عرضا وخمسة أمتار طولا مترعة بالكتب والمجلات والصحف المنثورة على الأرض، وفيها سرير دون مسند لا يوجد عليه سوى فرشة ودثار. وهناك بضعة قمصان وبناطيل معلقة على مسامير في الجدار، ووراء الباب توجد مرآة صغيرة ورف عليه أدوات الحلاقة. وهناك مصباح معلق بحبل يضيء بنور وسخ الفوضى غير المعقولة التي تجعل الغرفة أشد ضيقا. وما كاد يدخل حتى انحنى على أربع ــ جعله الغبار يعطس ــ ليخرج من تحت السرير الطست المشقق، والذي ربما كان الشيء المفضل لديه في ذلك المكان. لم يكن في الغرف حمامات؛ وقد كان هناك في البهو مرحاضان للاستخدام المشترك لساكني البناء وصنبور يأخذ منه الجيران الماء للطبخ والاغتسال. خلال النهار يكون هناك طابور انتظار على الماء دوما، ولكن ليس في الليل، وهكذا نزل مايتا، وملأ طست الغسل ورجع إلى غرفته ــ بتؤدة، حتى لا يهدر قطرة واحدة ــ خلال دقائق قليلة. تعرى، واستلقى على السرير وغمس قدميه في الطست. آه، يا للراحة. خطر له أن يغفو وقدماه في هذا المغطس؛ ولكنه سيستيقظ عندئذ في الفجر وهو يعطس ويكاد يموت من البرد. لم يغف. وبينما الإحساس البارد والبلسمي يصعد من قدميه إلى كاحليه وإلى ساقيه والإرهاق يتقلص، فكر ــ مع أنه لم تكن لديه نتيجة أخرى ــ بأنه كان من الجيد أن يأتي من يُذكّره: يجب ألا يحدث للثوري ما يحدث لهؤلاء الأدباء والمؤرخين والفلاسفة في جامعة

سان ماركوس، فعلى الثوري ألا ينسى أنه يعيش ويناضل ويموت من أجل تحقيق الثورة وليس من أجل، من أجل...

ـــ ... دفع الحساب ـــ يقول موسيس ـــ. يكفي نقاشاً. أنا سأدفع. أو بكلمة أدق، **المركز سيدفع**. وأعدْ هذه المحفظة إلى حيث لا تصيبها الشمس.

ولكن لم تكن هناك شمس. فقد غامت السماء، وحين خرجنا من **الشاطئ الأخضر** كان الجو يبدو شتائياً: إنه مساء من هذه المساءات التقليدية في ليما، مساءات مبللة، بسماء منخفضة،مشحونة ومخادعة، تهدد بعاصفة لا تأتي أبداً. لدى استرداد موسيس سلاحه ـــ يقول لي «إنه براونينغ ٦٥ر٧ مم»ـــ يتأكد من أن مسمار الأمان في موضعه. ويضع المسدس في تابلوه السيارة.

ـــ أخبرني على الأقل عما توفر لديك من معلومات عن مايتا حتى الآن.
ـ يسألني بينما نحن نصعد عبر فج ارمينداريث في سيارته الكاديلاك التي بلون ثمالة النبيذ.

وألخص له:

ـــ أربعيني مسطح القدمين أمضى حياته في سراديب الثورة النظرية، حتى لا نقول المكائد الثورية. أبريستا، ثم أبريستا منشق، موسكوفي، وموسكوفي منشق، وأخيراً تروتسكي. كل أشكال الذهاب والإياب، كل تناقضات اليسار في الخمسينات. عرف حياة السرية، وسُجن، وعاش دائما في عوز، ولكن...

ـــ ولكن؟

ـــ ولكن الإحباط لم يسبب له المرارة أو الفساد. بقي نزيهاً، مثالياً، على الرغم من شظف هذه الحياة. أيبدو لك ما أقوله دقيقاً.

ـــ بصورة أساسية، نعم ـــ يؤكد موسيس وهو يوقف السيارة لكـــي أنزل ـــ ولكن، هل فكرت في أنه حتى الفساد ليس سهلاً في بلادنا؟إذ لا بـــد من توفر الفرصة. الأغلبية شرفاء لأنه ليس لديهم بديل، ألا ترى ذلك؟ هـــل خطر لك ما الذي كان سيحدث لو توفرت لمايتا فرصة الفساد؟

ـــ لقد فكرت في أنه كان يتصرف على الدوام بطريقة لا تتيح المجـــال لتوفر فرصة للفساد.

وانتهى موسيس إلى القول:

ـــ ليس لديك شيء كثير حتى الآن.

وفي البعيد كان يُسمع تبادل إطلاق نار.

الفصل الثالث

من أجل الوصول إلى هناك، للقادم من بارانكو، لا بد من الذهـــاب إلى مركز ليما، واجتياز ريماك ـــ وهو نهر مياه قذرة في هذه الفترة من الســـنة ـــ عبر جسر ريكاردو بالما،ومتابعة التقدم من خلال بيدرا ليسا والالتفاف حـــول رابية سان كريستوبال. الطريق طويل وينطوي على مجازفة، وهو في ســـاعات معينة بطيء جداً بسبب احتقان حركة المرور.وهو أيضاً طريق الفقر التدريجـــي لليما. فازدهار ميرافلوريس وسان ايسيدرو يأخذ بالانحدار والتشوه في لينشـــي ولافيكتوريا، ثم ينبعث بصورة مخادعة في مركز المدينة من خلال الكتل الثقيلـــة لأبنية المصارف والشركات المتضامنة وشركات التأمين ـــ حيث تتكاثر فيمـــا بينها مع ذلك أبنية سكنية مختلطة وبيوت قديمة جداً مازالت تقف على أقدامها بأعجوبة ـــ ولكن فيما بعد، عند اجتياز النهر، في ما يسمى قطـــاع تحـــت الجسر، تتهاوى المدينة إلى أراضٍ خلاء نتأت فيها أكواخ من حُصر وأنقـــاض، أحياء مختلطة بالمزابل تتوالى لكيلومترات. وفي ليما الهامشية هذه كان يوجـــد فقرٌ أولاً وقبل كل شيء. أما الآن ففيها أيضاً دم ورعب.

عند مستوى جادة تشاسكيس، يفتقد الاوتستراد الإســـفلت ويمتلـــئ بالحفر، ولكن السيارة مازالت تستطيع التقدم لبضعة أمتار، مـــهتزة وســـط زرائب كبيرة وزوابع، ما بين أعمدة نور فقدت مصابيحها التي حطمتها مقاليع صبية الشوارع. بما أنها المرة الثانية التي أجيء فيها، فإنني لم أتهور بالتقدم إلى ما

بعد الحانة التي عَلقتُ قبالتها في المرة الأولى. لقد خطــــر لي يومئــذ شــيء مضحك. فحين أدركت أن السيارة لن تخرج من التراب، طلبت من بعـــض الفتية الذين كانوا يتبادلون الحديث عند الناصية أن يدفعوها. وقد ســاعدوني، ولكنهم قبل أن يفعلوا ذلك وضعوا سكيناً على حنجرتي وهددوا بقتلــي إذا لم أعطهم كل ما أملكه. وقد انتزعوا ساعتي، ومحفظتي، وحذائــي، وقميصــي. ووافقوا على أن يتركوا لي البنطال. وبينما كنا ندفع السيارة لنُخرجها، تحدثنا. هل هناك اغتيالات كثيرة في الحي؟ كفاية. أهي سياسية؟ أجل، هناك اغتيالات سياسية أيضاً. أمس بالذات ظهرت عند المنعطف جثة مقطوعة الرأس وعليــها لوحة تقول: «كلب واشٍ».

أُوقفُ السيارة وأمشي بين مزابل هي في الوقت نفسه حظائر خنـــازير. وأرى الخنازير تتقلب في أعلى أكوام القمامة وأضطر إلى التلويح بكلتا يــدي لأُبعد عني الذباب. فوق القمامة وما بينها تتزاحم مساكن من صفيــح، مــن طوب، من خشب، بدئ ببنائها للتو أو أنها نصف مبنية، ولكنها غير منتهيــة جميعها، وهي كلها قديمة، مستندة بعضها إلى بعض، متداعية أو في طريقها إلى التداعي، مزدحمة بأناس ينظرون إليّ بالنظرة المتثاقلة نفسها التي كانوا ينظــرون بها إلي في المرة السابقة. إلى ما قبل شهور قليلة لم يكن العنف السياسي يؤثـــر على تلك الأحياء المحيطة بالمدينة مثلما هو الحال في أحياء المركز السكنية. أمــا الآن، فمعظم الاغتيالات وعمليات الاختطاف التي تقوم بها الجماعات الثورية، أوالقوات المسلحة، أوالكتائب المناهضة للثورة، تحدث في هــذه القطاعــات. هناك شيوخ أكثر من الشباب، ونساء أكثر من الرجال، ويـــراودني لدقــائق الإحساس بأنني لست في ليما ولا على الساحل وإنما في قرية من قرى الأنديـز: صنادل أوخوتا، تنانير مزركشة، عباءات بونتشو، صدريات مطرزة بأشـــكال

حيوانات لاما صغيرة، وحوارات بلغة الكيتشوا. أيعيشون حقاً في هذه النتانة وهذه القذارة أفضل من حياتهم في الدساكر الجبلية التي هجروها ليأتوا إلى ليما؟ أجل، فهناك علماء اجتماع واقتصاديون وانثروبولوجيون يؤكدن ذلك، مهما بدا الأمر مستهجناً. فاحتمالات التحسن والعيش هي أفضل على ما يبدو في هذه المزابل النتنة مما هي عليه في جبال آنكاش، أو بونو، أو كاخاماركا حيث الجفاف والأوبئة وجَدب الأرض وانعدام العمل يُهلك السكان الهنود. يجب أن يكون ذلك صحيحاً. وإلا ما هو التفسير الذي يمكنه أن يوضح إقدام أحدهم على العيش في هذا الازدحام والقذارة؟

قال مايتا:

ـــ هذا في نظرهم هو أهون الشرور، وهو المفضل لديهم. ولكن إذا كنت تعتقد بأن الأحياء الهامشية تشكل، بسبب بؤسها، قوة ثورية كامنة، فأنت مخطئ. هؤلاء ليسوا بروليتاريا وإنما بروليتاريا رثة. ليس لديهم وعي طبقي لأنهم لا يشكلون طبقة. بل إنهم لا يفهمون ما هو الصراع الطبقي.

فابتسم بايبخوس:

ـــ إنهم يشبهونني في هذا الأمر إذن. أي براز هو هذا الصراع الطبقي؟

وأوضح له مايتا بجدية وباقتناع بدوره كأستاذ:

ـــ إنه محرك التاريخ. الصراع الناجم عن تناقض المصالح القائمة لكل طبقة في المجتمع. وهي مصالح تتولد من الدور الذي يؤديه كل قطاع في عملية إنتاج الثروة. هناك مالكو رأس المال، وهناك مالكو الأرض، وهناك مالكو المعرفة. وهناك من لا يملكون شيئاً سوى قوة عملهم: أي العمال. وهناك أيضاً الهامشيون، وهم هؤلاء الفقراء في الضواحي، البروليتاريا الرثة. هل تشعر بأن الأمر عويص؟

قال بايبخوس متثائباً:

ـــ ما أشعر به هو الجوع. هذه الأحاديث تفتح شهيتي. فلننس اليوم الصراع الطبقي ولنتناول بيرة مثلجة. ثم سأدعوك بعد ذلك لتناول الغداء في بيت أبوي. اليوم ستحضر أختي. وهذا حدثٌ مهم. فالمسكينة تعيش في ظروف أسوأ من ظروف العيش في الثكنة. سأعرفك عليها. وعندما نلتقي في المرة القادمة سأحضر لك «المفاجأة» التي حدثتك عنها.

كانا في غرفة مايتا الذي كان يجلس على الأرض بينما الملازم يجلس على السرير. وكانت تصل من الخارج أصوات ضحكات، وهدير سيارات، وتطفو في الجو ذرات من الغبار كأنها حيوانات حبلى.

وانتهى الأمر بمايتا إلى الاستسلام:

ـــ إذا بقيتَ على هذا المنوال فلن تتعلم حرفاً واحداً من الماركسية. الحقيقة أنه ليس لديك أستاذ جيد، أنا نفسي أجد ما أعلمك إياه معقداً.

فشجعه بايبخوس ضاحكاً:

ـــ أنت أفضل من أساتذة كثيرين علموني في الكلية العسكرية. أتعرف ما الذي يحدث لي؟ الماركسية لا تهمني كثيراً. إنني أتكلف مشقة في فهم الموضوعات المجردة. ولكنني أكثر نفعاً في الممارسة العملية، في ما هو محسوس. بالمناسبة، هل أُطلعك على خطتي الثورية قبل أن نتناول البيرة؟

ـــ لن أسمع شيئاً عن خطتك المباركة إلا بعد أن تجتاز الامتحان ـــ وقلده مايتا قائلاً: ـــ أي براز إذن هو الصراع الطبقي؟

فأطلق بايبخوس قهقهة صاخبة:

ـــ هو أن السمك الكبير يأكل السمك الصغير. وماذا يمكن أن يكون سوى ذلك يا أخي. فنحن لا نحتاج إلى كثير من الدراسة لكي نعرف أن الإقطاعي الذي يملك ألف هكتار يتبادل الكراهية إلى حد الموت مع هنوده

المزارعين. هل نجحتُ وحصلتُ على عشرين درجة؟ سيصيبك الحَول من خطي يا مايتا. وسيصيبك ما هو أكثر من ذلك حين ترى مفاجأتي. هل ستأتي لتناول الغداء معي؟ أريدك أن تتعرف على أختي.

ـــ أأدعوكِ الأم؟ الأخت؟ الآنسة؟

وتحسم هي الأمر:

ـــ نادني خوانيتا. من الأفضل رفع الكلفة، فنحن في السن نفسها تقريباً. أليس كذلك؟ أُعرِّفك على ماريا.

كلتاهما تنتعلان صنادل من الجلد، ومن المقعد الذي أجلس عليه أرى أصابع أقدامهما: أصابع قدمي خوانيتا ساكنة، وأصابع قدمي ماريا تتحرك بقلق. تلك سمراء، حيوية، متينة الذراعين والساقين، وهنالك ظلال زغب عند حافتي شفتيها؛ وهذه ضئيلة، بيضاء، لها عينان فاتحتان وتعبير ساهٍ.

تسألني خوانيتا:

ـــ أتتناول باستورية[1] أم كأس ماء. من الخير أن تختار المياه الغازية. فالماء كالذهب هنا. يجب الذهاب حتى جادة تشاسكيس لإحضاره في كل مرة.

المكان يذكرني ببيت في رابية سان كريستوبال كانت تشغله منذ سنوات طويلة راهبتان فرنسيتان من أخوية الأب دو فوكو. فالجدران هنا أيضاً مطلية بالكلس وعارية، والأرضية مغطاة بحصر من القش وبطانيات، مما يحمل على التفكير ببيت في الصحراء.

وتقول ماريا:

ـــ الشيء الوحيد الذي ينقصنا هو الشمس. الأب شارل دو فوكو. لقد قرأت كتابه في قلب الجماهير. كان مشهوراً جداً في زمانه.

---

(١) ـــ باستورية pasteurina شراب معقم وفق طريقة باستور.

وتقول خوانيتا:

ــ وأنا أيضا قرأته. ولست أتذكر شيئاً يذكر منه. فأنا لم أتمتع بذاكـــرة جيدة في يوم من الأيام، حتى في شبابي.

ــ هذا مؤسف. ــ في الحجرة كلها لا يوجـــد أي مصلـــوب، أو أي عذراء، أو أي صورة، أو أي كتاب صلوات، أو أي شيء يشـــير إلى تديـــن قاطنيّ البيت. وأتابع قائلاً: ــ أعني ضعف الذاكرة، لأنني...

فتعاتبني خوانيتا بعينيها وهي تقدم لي الباستورية، وتتبدل نبرة صوتها:

ــ آه، حسن، هو ما زلت أتذكره. فأنا لم أنس أخي بالطبع.

ــ وكذلك مايتا؟ ــ أسألها وأنا أشرب من فم الزجاجة جرعـــة مـــن الشراب الدافئ والحلو.

وتوافق خوانيتا:

ــ وهو أيضاً مازلت أتذكره. لقد رأيته مرة واحدة. في بيت أبـــويّ. ولست أذكر الكثير لأنها كانت المرة قبل الأخيرة التي التقيتُ فيها بأخي. أمـــا المرة الأخيرة، فكانت بعد أسبوعين من ذلك، و لم يفعل يومئذ شـــيئاً ســـوى التحدث إليّ عن صديقه مايتا. كان يحبه، ويقدره. لقد كان ذلك التأثـــير... حسن، من الأفضل أن أصمت.

ــ آه، هذا هو الأمر إذن ــ تقول ماريا وهي تنش الذباب عن وجهـها بقطعة كرتون. لا هي ولا خوانيتا ترتديان مسوح الراهبات، بل تنورتين مـــن قماش صوفي وكنزتين رماديتين، ولكن المرء يدرك أنهما راهبتان من طريقتـهما في ارتداء هذه الملابس، ومن شعرهما المثبت بشبكتين، ومن أسلوبهما في التكلم والتحرك،. وتضيف ماريا: ــ لحسن الحظ أن الأمر مرتبط بهما وليس بنا. كنا قلقتين، والآن أستطيع أن أصارحك بذلك. لأن الدعاية سيئة جداً في عملنـــا الذي نقوم به.

ـــ وما الذي سنقوم به؟ ـــ قال مايتا ذلك باستهزاء وهو يبتسم ابتسامة ساخرة: ـــ نحتل القرية، ومراكز الشرطة، والسجن، ونستولي على الأسلحة التي في خاوخا. ثم ماذا بعد ذلك؟ هل نهرع راكضين إلى الغابة مثل مَعز برية؟

فرد الملازم دون أن يغضب:

ـــ ليس مثل معز برية. يمكننا أن نذهب على الخيول، أو الحمير، أوالبغال، أو في شاحنة، أو على الأقدام. ولكن الوسيلة الأكثر أمناً هي الأقدام، ليست هناك وسيلة أفضل منها للتنقل في الغابة. من الواضح أنك لا تعرف سلسلة الجبال يا أخي.

وافق مايتا:

ـــ هذا صحيح، فأنا أعرفها بصورة سيئة جداً. وهذه هي نقطة خجلي الكبير.

فلكزه باييخوس بمرفقه:

ـــ لكي تتخلص من هذا الخجل، تعال معي غداً إلى خاوخا. ستحصل على مكان للنوم وعلى الطعام مجاناً. أو فلتذهب إذا شئت في نهاية الأسبوع يا أخي. سأريك الميدان، وسنذهب إلى قرى الهنود، سترى البيرو الحقيقية. اسمع، لا تفتح «المفاجأة». أنت وعدتني بألا تفتحها. وإلا سأنتزعها منك.

كانا يجلسان على رمال أغوا دولثي، ينظران إلى الشاطئ المقفر. وفيما حولهما كانت تحوم طيور النورس وهواء خفيف رطب محمل بالملوحة يبلل وجهيهما. ما الذي يمكن أن تكونه هذه «المفاجأة»؟ العلبة مصنوعة بدقة شديدة وكأنها تضم شيئاً ثميناً. وهي ثقيلة جداً.

وقال مايتا:

ـــ أحب بالطبع أن أذهب إلى خاوخا. ولكن...

فقاطعه بابيخوس:

ـــ ولكنك لا تملك قرشاً واحداً من أجرة الطريق. لا تقلق. أنا سأدفع لك أجرة الحافلة.

وقال مايتا بإصرار:

ـــ حسن، سنرى، فلنرجع الآن إلى الموضوع الأساسي. إلى الأمور الجدية. هل قرأت الكتاب الذي أعطيتك إياه؟

ـــ لقد أعجبني كثيراً، فهمته بالكامل، باستثناء بعض الأسماء الروسية. هل تعرف لماذا أعجبني هذا الكتاب يا مايتا؟ لأنه عملي أكثر مما هو نظري. **ما العمل، ما العمل**. الحقيقة أن لينين كان يعرف ما يجب عمله يا صاحبي. لقد كان رجل أفعال، مثلي. أم أن خطتي بدت لك غير نافعة؟

تفادى مايتا الرد على سؤاله بالقول:

ـــ لحسن الحظ أنك قرأت الكتاب، ولحسن الحظ أن لينين قد أعجبك، إنك تتقدم. أتريد أن أخبرك شيئاً؟ أنت محق، فأختك قد أثرت فيّ كثيراً. لم يبدُ لي أنها راهبة. لقد جعلتني أتذكر أزمنة أخرى. هل تعرف أنني في طفولتي كنت شديد التدين مثلها؟

وتقول لي خوانيتا:

ـــ كان يبدو أكبر سناً مما هو عليه. لقد كان في العقد الرابع، أليس كذلك؟ ولكنني قدرت بأن عمره خمسون سنة. وبما أن أخي كان يبدو أصغر من سنه، فقد كانا يبدوان مثل أب وابنه. كان ذلك في إحدى زياراتي النادرة لبيت الأسرة. فقد كنا في ذلك الحين في محبس الدير، فنحن لم نكن حينذاك مثل هؤلاء الراهبات السخيفات اللواتي يقضين الآن نصف وقتهن في الدير والنصف الآخر في الشارع.

احتجت ماريا. إنها تهز قطعة الكرتون أمام وجهها بسرعة كبيرة، مستثيرة جنوناً ذبابياً. فالذباب ليس في الهواء، يطن حول رؤوسنا وحسب: إنه يملأ الجدار كأنه مسامير. «لقد عرفتُ ما هو موجود في هذه العلبة ــ هكذا فكر مايتا ــ لقد عرفتُ ما هي المفاجأة». أحس بحرارة في صدره وفكر: «إنه جنون». كم يمكن أن يكون عمر خوانيتا؟ من الصعب تحديده: إنها قصيرة القامة، منتصبة القوام، إيماءاتها وحركاتها تقطر نشاطاً وأسنانها الناتئة تعض على الدوام شفتها السفلى. لقد أمضت فترة تدرها كراهبة مستجدة في إسبانيا. هل أمضت سنوات طويلة هناك؟ لأن في نبرة صوتها شبه بعيد باللهجة الإسبانية، لهجةُ إسبانيةٍ فقدت الخاءات والراءات لديها حدتها، وفقدت الثاء تدويرها. «ما الذي تفعله هنا يا مايتا؟ ــ فكر بانزعاج ــ ما الذي تفعله هنا مع راهبة؟» مد يده خفية على الرمل الرطب وجس «المفاجأة». أجل، إنها قطعة سلاح.

أقولُ لهما:

ــ كنت أظن أنكما تنتميان إلى الأخوية نفسها.

ــ لقد أسأت الظن إذن ــ ردت ماريا. إنها تبتسم بكثرة، أما خوانيتا بالمقابل فهي جدية حتى عندما تمزح. هناك في الخارج وابل من النباح، وكأن قطيع كلاب ضارية تتصارع. وتتابع ماريا: ــ أنا كنت مع الراهبات البروليتاريات، وهي مع الأرستقراطيات. أما الآن فكلتانا انتهينا إلى البروليتاريا الرثة.

بدأنا بالتحدث عن مايتا وبابيخوس، ولكننا انتقلنا دون أن ندري إلى الحديث عن الجرائم في الحي. لقد كان الثوريون أقوياء جداً هنا في البداية: يجمعون التبرعات في وضح النهار، ويعقدون كذلك الاجتماعات. وكانوا يقتلون أحدهم بين الحين والأخر متهمينه بالخيانة. ثم ظهرت بعد ذلك كتائب

الحرية لتقطع الرؤوس وتبتر الأطراف وتشوه بالأسيد وجوه متواطئين مزعومين أو حقيقيين مع الانتفاضة. لقد تضاعف العنف. وخوانيتا تعتقد بأن الجرائم العادية ما زالت أكثر عدداً من الجرائم السياسية، وكثراً ما تكون هذه الأخيرة قناعاً لتلك.

وتروي ماريا:

ــ قبل أيام قليلة قتل أحد جيراننا زوجته لأنها كانت تضايقه بالمشاحنات بسبب غيرتها. وقد وجده أخوها يحاول تغطية الجريمة بوضع بطاقة «كلبة واشية» الشهيرة على الضحية.

أقترحتُ عليهما:

ــ فلنعد إلى ما جئت من أجله. إلى الثورة التي بدأت تتفاعل في تلك السنوات. ثورة مايتا وشقيقك. لقد كانت الأولى بين ثورات كثيرة. بما في ذلك القصة التي انتهت إلى هذا الذي نعيشه الآن.

وقاطعتني خوانيتا:

ــ ربما لم تكن أي واحدة من ثورات هذه السنوات هي الثورة العظمى، وإنما ثورتنا نحن المتدينين هي التي كانت كذلك. أقول هذا لأنني أتساءل: هل خلّفت كل تلك الميتات والاغتيالات أي أثر إيجابي؟ ذلك العنف لم يجلب إلا مزيداً من العنف، أليس هذا صحيحاً؟ هناك فقر أكثر من أي وقت مضى.. هنا، وفي الريف، وفي قرى سلسلة الجبال، وفي كل مكان.

سألتها:

ــ هل تحدثتما في هذا الأمر. هل حدثك مايتا عن الفقراء، عن البؤس؟

وتقول خوانيتا:

ــ تحدثنا عن الدين. ولا تظن أنني أنا من سعيت إلى هذا الموضوع. بل هو.

ـــ أجل، كنتُ كاثوليكياً متديناً جداً، ولكنني لم أعد كذلك، لقد تخلصتُ من هذه الأوهام ـــ دمدم مايتا ثم أحس بالندم لأنه قال ذلك، خشية أن تسيء شقيقة بابيخوس فهمه، وأضاف: ـــ وأنتِ، ألا تراودكِ الشكوك مطلقاً؟

فتلعثمتْ هي:

ـــ منذ أن أستيقظ وحتى أنام. من قال لك أن الإيمان هو مضاد للشكوك؟

تحمس مايتا:

ـــ أعني.. أليس خدعة كبرى القول بأن مهمة المدارس الكاثوليكية هي تكوين النخبة؟ هل من الممكن يا ترى إقناع أبناء الطبقات المهيمنة بالمبادئ الإنجيلية حول الإحسان وحب الغير؟ ألا تفكرين مطلقاً في هذا؟

ابتسمت له الراهبة:

ـــ إنني أفكر في هذا وفي أشياء أخرى أسوأ بكثير. ومن الأصح القول إننا نفكر. هذا صحيح. عندما انضممت إلى الرهبانية، جميعنا كنا نؤمن بأن الرب هو الذي منح هذه الأسر، بسلطتها وثروتها، مهمة مساعدة اخوتهم المعوزين. وبأننا إذا أحسنا تربية أولئك الفتيات الصغيرات، وهن الرؤوس، فسوف يتولين تحسين الجذع، والأذرع، والأرجل. ولكن أياً منا لم تعد تؤمن الآن بهذه الطريقة لتغيير العالم.

وفوجئ مايتا وهو يسمعها تروي قصة المؤامرة التي قامت بها هي وزميلاتها الراهبات في المدرسة. و لم يتوقفن إلى أن تم إغلاق مدرسة الفقراء المجانية التي كانت تعمل في الدير. وفُرض على كل واحدة من الصغيرات القادرات على الدفع أن تتولى نفقات طفلة من المدرسة. لكل منهن فقيرتها.

تحضر لها الحلوى، والملابس، وتقوم مرة في السنة بزيارة إلى بيت أسرة محميتها، وتحمل إليها الهدايا. تذهب في سيارة البابا، ومعها الماما، وقد يكتفين أحياناً بأن يترل السائق ليسلم الصرة. يا للعار، يا للفضيحة. هل يمكن تسمية هذا ممارسة للإحسان؟ لقد ألححن، وانتقدن، وكتبن، واعترضن كثيراً، لكي يجري أخيراً إغلاق مدرسة الدير المجانية.

وقال لها مايتا:

ـــ لسنا متباعدين كثيرا كما يبدو أيتها الأم. يسعدني أن أسمعك تتكلمين هكذا. أيمكنني أن أذكر لك شيئاً قاله رجل عظيم؟ لقد قال إنه حين تنجز الإنسانية الثورات التي لا بد منها لتجاوز الظلم، فسيولد دين جديد.

ـــ ولماذا نحتاج إلى دين جديد إذا كان لدينا الدين الحقيقي ـــ ردت عليه الراهبة وهي تمد إليه طبق الحلوى ـــ: تفضل، قطعة بسكويت.

وحدد مايتا :

ـــ القائل هو تروتسكي. وهو ثوري وملحد. ولكنه كان يحترم مسألة الإيمان.

ـــ هذا الذي يقال عن أن الثورة تطلق طاقات الشعب يُفهم أيضا هنا بالذات ـــ أطلق بايبخوس حصاة نحو طير الكاترات[1] وأضاف:ـــ هل بدت لك خطتي سيئة حقاً إلى هذا الحد؟ أم أنك قلت ذلك لإزعاجي فقط يا مايتا؟

ـــ لقد بدت لنا تشويهاً ممسوخاً ـــ تهز خوانيتا كتفيها وتومئ بحركة تعبر عن خيبة الأمل ـــ وأنا أتساءل الآن عما إذا لم يكن من الأفضل، رغم التشوه وكل شيء، أن تجد هاتيك الصغيرات مكاناً يتعلمن فيه القراءة ويتلقين على الأقل صرة كل سنة. لم أعد أعرف، لستُ واثقة مما إذا كنا قد أحسنا

[1] الكاترات alcatraz : طير أميركي يشبه البجع.

صنعاً بذلك. ماذا كانت النتيجة؟ لقد كنا في المدرسة اثنتين وثلاثين راهبة وحوالى عشرين أختاً. والنسبة تدور حول هذا المعدل في معظم المدارس. لقد تمزقت الجمعيات الدينية إرباً... هل كان وصولنا إلى الوعي الاجتماعي جيداً؟ وهل كانت تضحية أخي جيدة؟

تحاول رسم ابتسامة وكأنها تعتذر عن مشاركتي في تشوشها.

ــ هذا منطقي، إنه خبز جاهز للأكل، إنه قهوة بالحليب ــ يتحمس بايبخوس ــ إذا كان الهنود يعملون لرب عمل يستغلهم، فإنهم يعملون دون حماس ويكون مردودهم قليلاً. وعندما يعملون من أجل أنفسهم يُنتجون أكثر، وهذا يفيد المجتمع كله. هل حصلتُ على عشرين درجة يا أخي؟

فأوضح له مايتا:

ــ شريطة ألا تُخلَق طبقة طفيلية تنتزع لنفسها جهود البروليتاريا والفلاحين. شريطة ألا تراكم طبقة بيروقراطية سلطات واسعة بحيث تخلق بنية جديدة غير عادلة. هذا ما يوضحه ليون دافيدوفيتش في نظرية الثورة الدائمة... أوف، أنا نفسي مللت من خطاباتي.

تنهد بايبخوس:

ــ أحب أن أذهب لمشاهدة كرة القدم، ألا تحب ذلك أنت؟ لقد هربتُ من خاوخا لكي أشاهد مباراة القمة. لا أريد إضاعة فرصة مشاهدة فريقي أليانثا ــ أونيفرسيداد. هلم بنا، أنا أدعوك.

أقول لها وقد رأيتها تصمت:

ــ ما هو الرد على هذا السؤال؟ هل كانت الثورة الصامتة في تلك الأيام نافعة للكنيسة أم أنها ألحقت بها الضرر؟

ــ لقد كانت مفيدة لنا نحن اللواتي فقدنا الأوهام الزائفة، ولكننا لم نفقد الإيمان، أما بالنسبة للأخريات فمن يدري ــ تقول ماريا ذلك، ثم تضيف وهي تلتفت نحو خوانيتا ــ كيف كان مايتا؟

وتتذكر خوانيتا:

ــ كان يتكلم بنعومة، بلباقة، ويلبس بصورة متواضعة. لقد حاول إبهاري بكلمات متمادية ضد الدين. ولكنني أظن أنني أنا التي بهرته. لم يكن يعلم بما يدور في الأديرة، وفي المدارس الدينية، وفي الكنائس. لم يكن يعرف أي شيء عن ثورتنا... ففتح عينيه على اتساعهما عندما أخبرته وقال لي: «لسنا متباعدين كثيراً إذن». وقد أظهرت السنوات أنه كان على حق، أليس كذلك؟

وتروي لي أن الأب ميغيل، وهو خوري من الحي قد اختفى بطريقة غامضة قبل حوالى سنتين، ويبدو أنه كان هو نفسه الرفيق ليونثيو الذي قاد الهجوم الدامي على قصر الحكومة في الشهر الماضي.

فتعترض ماريا:

ــ أنا أشك في ذلك. الأب ميغيل كان متبجحاً، مُحْرِقاً من فمه إلى الخارج فقط، أما في داخلة فكان إطفائياً. أنا متأكدة من أن الشرطة أو كتائب الحرية قد قتلته.

أجل، هذا ما كانته «المفاجأة» التي أحضرها بابيخوس. ليست مسدس طاحون ولا مسدساً عادياً، وإنما مسدس رشاش قصير، خفيف، يبدو وكأنه قد خرج لتوه من المصنع: أسود، زيتي، لامع. تفحصه مايتا وهو مُنوَّم. رفع بصره بصعوبة عن السلاح الذي كان يرتعش بين يديه وألقى نظرة فيما حوله وهو يشعر بأن المخبرين سيبرزون من بين الكتب المبعثرة والصحف المنثورة بفوضى في الغرفة، ويشيرون إليه وهم يموتون من الضحك: «لقد وقعت يا مايتا»، «لقد خوزقت نفسك يا مايتا»، «بالجرم المشهود يا مايتا»، وفكر: «أنت متهور، في دماغك خلل، أنت...» ولكنه لم يكن يشعر بأي حقد تجاه

الملازم. بل كان يشعر بالرفق الذي توحي به شقاوة طفل عزيز، وبرغبـــة في رؤيته بأسرع ما يمكن. وفكر: «لكي أشده من أذنيه. لكي أقول له...»

ــ يحدث لي معك أمر غريب. لست أدري إذا ما كان علي أن أخــبرك به أم لا. آملُ ألا تغضبَ. هل يمكنني أن أكلمك بصراحة؟

كان ملعب كرة القدم شبه خاو وكانا قد وصلا باكراً جداً؛ حـــتى أن التمهيد للمباراة لم يكن قد بدأ بعد.

ــ يمكنك ــ قال بايبخوس ذلك وهو يطلق الدخان من أنفه وفمــه ــ أعرف ما الذي ستقوله، ألن تقول إن خطتي الثورية ليست إلا تبجحاً؟ أم أنك ستؤنبني مرة أخرى من أجل «المفاجأة»؟

قال مايتا:

ــ كم من الوقت مضى على لقاءاتنا؟ شهران؟

ــ لقد صرنا مثل الظفر ولحمته، أليس كذلك؟ ــ رد بايبخوس وهـــو يصفق لردة قام بها حارس مرمى ضئيل ورشيق جداً ــ ما الذي ستقوله لي؟

ــ كل هذا يبدو لي أحياناً وكأنه إضاعة للوقت.

سها بايبخوس عن المباراة:

ــ أتعني إعارتي الكتب وتعليمي الماركسية؟

فأوضح مايتا:

ــ ليس لأنك لا تفهم ما أعلمك إياه. فأنت لديك دماغ أكثر من قادر على فهم المادية الديالكتيكية أو أي شيء آخر.

فقال بايبخوس وهو يعود إلى مجريات المباراة:

ــ لحسن الحظ. ظننتُ أنك تضيع وقتك معي لأني غبي مقفل الدماغ.

ابتسم مايتا لبروفيل الملازم:

ـــ لا، لستَ غبياً. ولكنني حين أتكلم معك، وأعرف ما الذي تفكـــر فيه، وأتعرف عليك، أشعر بأنه يمكن للنظرية أن تسبب لك الضرر بـــدل أن تفيدك.

نهض بايبخوس مصفقاً:

ـــ اللعنة، كاد أن يكون هدفاً. لفة بديعة.

وتابع مايتا:

ـــ بهذا المعنى، أترى؟

قال بايبخوس:

ـــ لستُ أرى شيئاً. لقد تحولتُ إلى غبي. أجل، أأنت تحـــاول الآن أن تقول لي أن أنسى خطتي، وأنني أسأت صنعاً بإهدائك هذا الرشـــيش؟ أم مـــا الذي تعنيه يا أخي؟ غووول! أخيراً. برافو!

وقال مايتا:

ـــ النظرية ترى أن العفوية الثورية أمر سيئ. لأنه إذا لم يكـــن هنـــاك عقيدة، معرفة علمية، فإن الاندفاع يتبدد في ممارسات فوضوية. أمـــا أنـــت فلديك حصانة غريزية من الوقوع في أسر النظرية. ربما كنتَ على حق، وربمـــا لم يقع لك، بفضل هذا، ما وقع لنا نحن...

فسأله بايبخوس وهو يلتفت إليه من جديد:

ـــ من أنتم؟

ـــ من نسينا الممارسة العملية لشدة اهتمامنا بتعبئة أنفسنا نظرياً و...

صمت لأن ضجة كبيرة تعالت في المدرجات: كان هناك إطلاق ألعـاب نارية ومطر من القصاصات الورقية يتساقط على الملعب. لقـــد تمـــاديتَ في الكلام يا مايتا.

ـــ لم تجب على سؤالي ـــ قال بايبخوس بإلحاح دون أن ينظر إليه، فقد كان يتأمل سيجارته: أهو واشٍ؟ ـــ لقد قلتَ «نحن» وأنا سألت من أنتم. لماذا لا تجيبني يا أخي.

ـــ الثوريون البيرويون، الماركسيون البيرويون ـــ همجى مايتا الكلمات وهو يمعن التفكير: أيكون عميلاً مكلفاً بمهمة التقصي والاستدراج؟ ثم أضاف:
ـــ إننا نعرف الكثير عن اللينينية وعن التروتسكية. ولكننا لا نعرف كيف نصل إلى الجماهير. هذا هو ما كنت أعنيه.

وتقول خوانيتا:

ـــ سألته إذا ما كان مؤمناً على الأقل بالرب، وإذا ما كانت أفكاره السياسية تتطابق مع الإيمان المسيحي.

ـــ ما كان علي أن أسألك هذا السؤال يا أخي ـــ اعتذر بايبخوس نادماً، وكلاهما كان ساهماً في سيل الجمهور الذي يترل عن مدرجات الستاد
ـــ آسف. لا أريدك أن تخبرني بأي شيء.

فقال مايتا:

ـــ وما الذي سأخبرك به ولا تعرفه؟ أنا سعيد لأننا جئنا، مع أن المباراة كانت سيئة. منذ قرون لم...

فألح بايبخوس وهو يمسك بذراعه:

ـــ أريد أن أقول شيئاً. أنا أتفهم جيداً أن تكون لديك ريبة.

قال مايتا:

ـــ هل أنت مجنون. ولماذا أرتاب منك؟

فقال بايبخوس:

ـــ لأنني عسكري ولأنك لا تعرفني كفاية. أتَفَهَّمُ أن تخفي عني بعض الأمور. لا أريد أن أعرف شيئاً عن حياتك السياسية يا مايتا. إنني مستقيم من

رأسي حتى قدمي في علاقتي مع أصدقائي. وأنا أعتبرك أفضل أصدقائي. إذا لعبتُ معك لعبة قذرة، فلديك «المفاجأة» التي أهديتك إياها لتنتقم مني...

وأكد لها مايتا برقة:

ــ الثورة والديانة الكاثوليكية لا تتفقان. من الأفضل عدم خداع النفس أيتها الأم.

فقالت خوانيتا ساخرة:

ــ إنك مُضلّل ومتأخر كثيراً. هل تظن أنني أهتم بسماع مقولة إن الدين أفيون الشعب؟ قد يكون كذلك، وقد كان كذلك على أي حال. ولكن هذا كله انتهى. كل شيء يتبدل. فنحن أيضاً نصنع الثورة. ألا تعرف ذلك؟

هل كان قد بدأ آنذاك في البيرو عصر الرهبان والراهبات التقدميين؟ خوانيتا تؤكد لي ذلك، ولكن لدي شكوكي. فالأمر كان في أحسن الأحوال بدائياً ومتعثراً بحيث لم يُتَحْ لمايتا أن يعلم به. هل كان سيسعده ذلك؟ هل كان الطفل السابق الذي أعلن إضراباً عن الطعام لكي يتماثل مع الفقراء سيشعر بالسعادة لأن المونسنيور بامبران، أسقف الضواحي الهامشية، يحمل كما قيل خاتمه الشهير مع أسلحته الأسقفية في جانب والمنجل والمطرقة في الجانب الأخر؟ وأن الأب غوستافو غوتيريث صاغ تصوره للاهوت التحرر في القول إن صنع الثورة الاشتراكية هو واجب الكاثوليكيين؟ وأن المنسنيور مينديث أرثيو ينصح المؤمنين المكسيكيين بالحج إلى كوبا مثلما كانوا يحجون من قبل إلى لورديز[1]؟ أجل، دون ريب. وربما كان بإمكانه أن يبقى كاثوليكياً مثل

---

[1] لورديز Lourdes : كنيسة مكرسة للسيدة العذراء في جبال البيرينه الفرنسية يحج إليها المؤمنون الكاثوليكيون.

الكثير من الثوريين في هذه الأيام. أكان يثير الانطباع بأنه دوغمائي، وصاحب أفكار متيبسة؟

تغرق خوانيتا في التأمل لحظة، وتقول موافقة:

ــ أجل، أظن ذلك، دوغمائي. فهو لم يكن يتمتع بأي مرونة على الأقل فيما يتعلق بالدين. لقد تبادلنا الحديث لبرهة فقط، ربما لم أفهم جيدا أي نوع من الرجال كان. لقد فكرت فيه كثيرا فيما بعد. وقد تمكن من التأثير كثيرا على أخي. لقد غير له حياته. جعله يقرأ، وهو ما لم يكن يفعله من قبل. وكانت القراءة كتبا شيوعية بالطبع. حاولت أن أحذره: ألا تلاحظ أنه يجتذبك إلى معتقداته؟

ــ أجل، أعرف ذلك، ولكنني أتعلم منه أشياء كثيرة يا أختاه.

وتضيف خوانيتا:

ــ لقد كان أخي مثاليا ومتمردا، لديه إحساس غير واضح بالظلم. وقد وجد في مايتا الناصح والدليل الذي كان يحركه على هواه.

أسألها:

ــ أيعني هذا برأيك أن مايتا كان المسؤول؟ أتظنين أنه هو الذي خطط لكل شيء، وورط بايبخوس في قضية خاوخا؟

قال مايتا مرتابا:

ــ لا، لأنني لا أعرف حتى كيف أستخدم السلاح. سأعترف لك بشيء. أنا لم أطلق النار في حياتي حتى من مسدس أطفال. ولنرجع إلى موضوعنا السابق، مسألة الصداقة..أريد أن أقدم لك تحذيرا في هذا الشأن.

فقال بايبخوس:

ــ لا تحذرني من أي شيء، لقد طلبت منك المعذرة لعدم تكتمي. إنني أفضل أن تقدم لي إحدى محاضراتك. فلنتابع مسألة ازدواجية السلطة، هذه الطريقة في سحب الأرضية شيئا فشيئا من تحت أقدام البرجوازية والإمبريالية.

وقال مايتا

ـــ يجب أن تعرف أنه لا يمكن حتى للصداقة أن تكون فوق الثورة، ضع هذا عميقاً في رأسك ولا تنسَه. الثورة أولاً. وبعد ذلك كل ما عداها. هذا هو ما حاولت أن أوضحه لأختك في ذلك المساء. أفكارها جيدة، فهي تمضي إلى أبعد ما يمكن لكاثوليكي أن يصل إليه. ولكن هذا غير كاف. لأنك إذا كنت تؤمن بالنعيم، وبالجحيم، فإن كل ما هو هنا على الأرض سيكون ثانوياً على الدوام. وهكذا لن تكون ثمة ثورة على الإطلاق. إنني أثق بك، وأعتبرك كذلك صديقاً عظيماً. فإذا ما أخفيت عنك شيئاً، إذا...

أسكته بايبخوس:

ـــ يكفي. لقد اعتذرت منك، ولا أريد أي كلمة أخرى. أقلت لي إنك لم تطلق النار قط من قبل؟ غداً سنذهب إلى لورين، ونأخذ معنا المفاجأة. سأعطيك درساً. إن إطلاق النار من مسدس رشاش أسهل من أطروحة ازدواجية السلطة.

ـــ يجب أن يكون هذا هو ما حصل بالطبع ـــ قالت خوانيتا. ولكن طريقتها في قول ذلك بدت غير واثقة كثيراً ـــ فمايتا سياسي قديم، وثوري محترف. أما أخي فشاب مندفع يسيطر عليه الآخر بسبب السن والثقافة.

رددت عليها:

ـــ لست أدري، فأنا غير واثق من ذلك. بل إنني أفكر أحياناً بأن الأمر كان معكوساً.

وتتدخل ماريا:

ـــ يا للهراء. كيف يمكن لصبي أن يورط مُسناً مجرباً في حماقة كهذه؟

الأمر بالتحديد أيتها الأم هو أن مايتا كان ثورياً في الظل. أمضى حياته في التآمر والنضال ضمن جماعات صغيرة مثل ذلك الحزب الذي انضم إليه.

وفجأة، حين كان يدنو من السن التي يتقاعد فيها آخرون من النضال، ظهر له شخص ليفتح أمامه للمرة الأولى أبواب العمل المباشر. أيمكن أن يكون هناك ما هو أكثر سحراً بالنسبة لرجل مثله من أن يُوضع يوماً في يده سلاح؟

ــ هذا الذي تقوله كلام روايات ــ تقول خوانيتا وهي تبتسم في الوقت نفسه ابتسامة تعوضني بها عن الإساءة ــ هذا لا يبدو أنه القصة الواقعية بأي حال من الأحوال.

وأؤكد لها:

ــ لن يكون ما سأكتبه هو القصة الواقعية بالفعل، وإنما رواية. نسخة مختلفة جداً عن الواقع.. بعيدة عنه، بل ومزيفة إن أنتِ شئتِ.

فتقول بسخرية:

ــ لماذا كل هذا الجهد إذن، لماذا تحاول تقصي ما جرى، ولماذا تأتي لتحقق معي بهذه الطريقة. لماذا لا تكذب إذن منذ البداية؟

فأُوضحُ لها:

ــ لأنني واقعي، أحاول أن أكذب دائماً في رواياتي وأنا أعرف السبب. إنه أسلوبي في العمل. وأعتقد أنها الطريقة الوحيدة لكتابة قصة بالانطلاق من التاريخ.

وتقاطعني ماريا:

ــ إنني أتساءل عما إذا كان بإمكاني أن أتوصل يوماً إلى معرفة التاريخ. أو إذا لم يكن فيه اختلاق مثل الروايات أو أكثر. هذه القضية التي نتحدث عنها مثلاً. لقد قيل الكثير عن الرهبان الثوريين، وعن التغلغل الماركسي في الكنيسة... ومع ذلك، ليس هناك من يفكر في التفسير الأكثر بساطة.

ــ أي تفسير؟

ـــ اليأس والغضب اللذان يمكن أن يتعايشا نهارا وليلا مع المرض، الإحساس بالعجز حيال كل هذا الجور ـــ تقول ماريا ذلك محتفظة بالرقة، وقد لاحظت أن الراهبة لا تكاد تحرك شفتيها وهي تتابع: ـــ والانتباه بصورة خاصة إلى أن من يستطيعون أن يفعلوا شيئا لا يقدمون على عمل أي شيء على الإطلاق. السياسيون، الأغنياء، من يمسكون المقلاة من ذراعها، من يحكمون.

وقالت له شقيقة بابيخوس مذهولة:

ـــ ولكن، ولكن، كيف يمكن التخلي عن الإيمان من أجل هذا؟ الأحرى أن يرسخ هذا كله الإيمان، يجب...

فواصل مايتا تصليب نبرته:

ـــ مهما كانت قوة الإيمان، فستأتي لحظة يقول فيها أحدنا «يكفي». لا يمكن أن يكون العلاج لكل هذا الظلم هو الوعد بالحياة السرمدية. هذا ما حدث يا أماه. فقد كنت أرى الجحيم ماثلا في شوارع ليما. وخصوصا في مونتون. أتعرفين ما هو المونتون؟

إنها ضاحية هامشية، إحدى أول هذه الضواحي، ليست أسوأ ولا أشد بؤسا من هذه التي تعيش فيها خوانيتا وماريا. لقد تغيرت الأمور كثيرا منذ اعتراف مايتا ذاك للراهبة، فالضواحي الهامشية قد تكاثرت، وأضيفت المجازر إلى البؤس والبطالة. هل صحيح أن مشهد المونتون ذاك هو الذي بدل، قبل نصف قرن، المتدين مايتا وحوله إلى متمرد ثوري؟ العلاقة بهذا العالم لم تؤد على أي حال إلى النتيجة نفسها بالنسبة إلى خوانيتا وماريا. فأي منهما لا توحي بأنها يائسة أو ساخطة، وهما غير مستسلمتين كذلك، وما يمكنني أن أراه هو أن معايشتهما للجور أيضا لم توصلهما إلى القناعة بأن الحل يكمن في

القتل والقنابل. كلتاهما ما زالتا متدينتين، أليس كذلك؟ هل تـــتردد أصـــداء الطلقات بعيداً في صحراء لورين؟

ــ لا ــ سدد باييخوس السلاح، وأطلق النار وكان الدوي أقل ممـــا توقعه مايتا. كانت يداه مبللتين بالعرق من الإثارة. وأضاف باييخوس قـــائلاً:

ــ لم أكن آخذها لي، فقد كذبت عليك. كنت آخذ تلك الكتب في الواقـــع إلى خاوخا لكي يقرؤها الفتيان. إنني أثق بك يا مايتا. وأخبرك بشيء لا أخبو به حتى أختي، وهي أكثر شخص أحبه.

وبينما كان يتكلم وضع المسدس الرشاش بين يديه. شرح لـــه كيـــف يمسك به، وكيف يحرر مسمار الأمان، وكيف يسدد، ويضغط الزناد، وكيـف يملأ المخزن بالذخيرة ويفرغه.

أنبه مايتا:

ــ إنك تسيء التصرف، فهذه الأمور لا تُروى لأحد ــ وكان صوتـــه متهدجاً بسبب الهزة التي أحس بها في جسده حـــين سمـــع زخـــة الرصـــاص واكتشف من اهتزاز معصميه بأنه هو من كان يطلق النار؛ وفي البعيد كـــان الرمل يمتد مُصفراً، باهتاً، مزرقاً، غير مبالٍ ــ إنها مسألة أمن بدائية. الأمر ليس متعلقاً بك وحدك، وإنما بالآخرين. ألا تفهم؟ للمرء الحق بأن يفعل بحياته مـــا يحلو له. ولكن ليس من حقه أن يعرض للخطر رفاقه والثورة لمجرد إظهار ثقتـــه بصديق. ماذا لو أنني أعمل في خدمة الشرطة؟

ضحك باييخوس:

ــ ليستَ مناسباً لهذا العمل، ولن تستطيع أن تكون واشياً حـــتى لـــو أردت ذلك. ما رأيك بإطلاق النار؟ أليس سهلاً؟

ــ الحقيقة أنه سهل جداً ــ قال مايتا موافقاً وهو يلمس فوهة الســلاح ويشعر بحريق في أصابعه، وأضاف: ــ لا تخبرني بأي كلمـــة أخـــرى عـــن الفتيان. لا أريد مثل هذه الإثباتات للصداقة، إنها تبجحات.

كان قد هب هواء ساخن، وبدا كما لو أن الكثبان المحيطة بهما تقصفهما بوابل من حبيبات الرمل. أجل، لقد اختار الملازم مكاناً جيداً، فمن يمكنه سماع صوت الطلقات في هذه العزلة. يجب ألا يظن أنه قد عرف كل شيء. فالمهم ليس ملء خزان المسدس الرشاش وتفريغه، ولا التسديد وإطلاق النار، وإنما المهم هو معرفة كيفية تنظيف السلاح وإتقان فكه وتركيبه.

ـــ لقد أخبرتك بذلك للأهمية ـــ عاد بايبخوس إلى القضية نفسها، وكان يومئ له بيده بأن يرجعا نحو الطريق العام، لأن الرمال المتطايرة ستخنقهما ـــ إنني بحاجة إلى مساعدتك يا أخي. إنهم فتيان من مدرسة سان خوسية، هناك في خاوخا. إنهم شباب صغار، في السنة الرابعة والخامسة المتوسطة. لقد صادقتهم ونحن نلعب كرة القدم، في ملعب السجن. إنهم الفتيان الخوسيفينيون.

كانا يتقدمان عبر الرمل ووجهاهما بعكس اتجاه الريح، وأقدامها غاطسة حتى الكاحلين في الأرض اللينة، ونسي مايتا فجأة درس الرماية وانفعاله قبل لحظات، مذهولاً مما كان الملازم يقوله له.

ـــ لا تخبرني بشيء قد تندم عليه ـــ قال له مذكراً، ولكن الفضول كان ينهشه مع ذلك لمعرفة المزيد.

وقال بايبخوس الذي كان قد وضع منديلاً على فمه ليحميه من الرمال:

ـــ اصمت، كراخو. لقد انتقلت مع الفتيان من لعب كرة القدم إلى تناول كأس من البيرة معاً، والذهاب إلى حفلة صغيرة، وإلى السينما والتحدث كثيراً. ومنذ أن بدأنا اجتماعاتنا وأنا أحاول أن أعلمهم ما تعلمني إياه. ويساعدني أستاذ من مدرسة سان خوسيه. يقول إنه اشتراكي أيضاً.

سأله مايتا:

ـــ أعطيتهم دروسا في الماركسية؟

فقال بايبخوس مومئا بيديه:

ـــ أجل، العلم الحقيقي. البلسم المضاد لسموم هذه المعـــارف المثاليـــة والميتافيزيقية التي يحشرونها في رؤوسهم. مثلما تقول أنت بلغتك المزهـــرة يـــا أخي.

قبل لحظات، حين كان يعلمه إطلاق النار، كان رياضيا بارعا وآمـــرا. وها هو الآن يتحول إلى فتى خجول، مرتبك في رواية ما يرويه له. تطلع إليـــه مايتا من خلال وابل الرمل. وتخيل النساء اللواتي قبلن هذه التقاطيع الشـديدة، وعضضن هاتين الشفتين البارزتين، وتلوين تحت جسد الملازم القاسي. هتـــف قائلا:

ـــ أتعرف أنك تتركني مفتوح الفم من الانبهار. كنت أظن أن دروسي الماركسية تسبب لك ضجرا قاتلا.

واعترف بايبخوس:

ـــ بصراحة، كانت تسبب لي الضجر أحيانا، وفي أحيان أخرى كنـــت أهيم في القمر. فالثورة الدائمة مثلا. إنها شيء كثير دفعة واحدة. وهكذا فقـــد سببت خلطا في رؤوس الفتيان. لهذا أطلب منك دائما أن تأتي إلى خاوخـــــا. هيا، ساعدني في تعليمهم. هؤلاء الفتيان مثل الديناميت النقي يا مايتا.

ابتسمت ماريا:

ـــ ما زلنا متدينات بالطبع، ولكن دون براقع. لدينا فائض من المهمات، وليس من التجديف. لقد أعفونا من التعليم في المدرسة وسمحوا لنا بالعمل هنا. وجمعيتنا الرهبانية تساعدنا قدر المستطاع.

هل تشعر خوانيتا وماريا بأنهما تساهمان بتقديم مساعدة فعلية، بعيشهما في الضاحية الهامشية؟ هذا مؤكد، وإلا لما أمكن تفسير تعريـــــض نفســـيهما

للخطر في هذه الظرّوف الحالية. حيث لا يمر يوم إلا ويسقط خوري أو راهبة أو عامل اجتماعي في الضواحي ضحية اعتداء. وبعيداً عن جدوى أو عدم جدوى ما تفعلانه، من المستحيل ألا نحسدهما على هذا الإيمان الذي يمنحهما القوة للصمود في الرعب اليومي. قلت لهما إنني أثناء سيري قادماً إلى هنا، أحسست كما لو أنني أجتاز كل حلقات الجحيم.

فقالت خوانيتا دون أن تبتسم:

ـــ لا بد أن الوضع هناك أسوأ.

فتتدخل ماريا:

ـــ ألم تذهبي مطلقاً إلى تلك القرية المحدثة؟

فترد خوانيتا:

ـــ لا، لم أذهب مطلقاً إلى مونتون.

ـــ أنا ذهبت مرات كثيرة، في صغري، عندما كنت كاثوليكياً جداً ـــ قال مايتا ذلك، ولاحظتْ هي عليه ملامح الشرود، أهو الحنين؟ ـــ كنت أذهب مع بعض الفتيان من **العمل الكاثوليكي**. لقد كانت في تلك الضاحية بعثة كندية. راهبان وبضعة علمانيين. أتذكر أباً شاباً، طويلاً، متورداً. كان طبيباً، وقد اعتاد أن يقول: «لا شيء مما تعلمته ينفع». و لم يكن يتحمل رؤية الأطفال يموتون كالذباب، وأعداد المصابين بالسل، بينما هناك في الصحف صفحات وصفحات مخصصة للحفلات والمآدب، ولزفاف الأغنياء. كان عمري خمسة عشر عاماً. فكنت أرجع إلى بيتي ولا أستطيع الصلاة في الليل. كنت أفكر: «الرب لا يصغي، إنه يغلق أذنيه كي لا يسمع وعينيه كي لا يرى ما يحدث في مونتون». إلى أن توصلت يوماً إلى الاقتناع. لكي أناضل ضد كل ذلك لابد من التخلي عن الإيمان بالرب يا أماه.

بدا لخوانيتا أن مايتا يخرج بنتيجة غير معقولة من مقدمات صحيحة، وأخبرته بذلك. ولكنها تأثرت للانفعال الذي بدا عليه، فقالت له:

ـــ أنا أيضاً أمر بلحظات غم كثيرة فيما يتعلق بإيماني. مع أنني لم أصل حتى الآن، لحسن الحظ، إلى مطالبة الرب بالحساب.

ـــ لا نتحدث في النظرية فقط، وإنما كذلك في الأمور العملية. ـــ واصل باييخوس الكلام. وكانا يمشيان على الطريق، باتجاه ليما، وقد أخفيا المسدس الرشاش في الحقيبة، وكانا يحاولان إيقاف كل الشاحنات والحافلات التي تمر بهما.

قال مايتا ساخراً:

ـــ في أمور عملية مثل إعداد الكوكتيل مولوتوف، ومفرقعات الديناميت والقنابل؟ أمور عملية مثل خطتك السياسية التي تكلمت عنها في المرة الماضية؟

قال باييخوس بنبرته المرحة دائماً:

ـــ كل شيء في وقته المناسب يا أخي. أمور عملية مثل الذهاب إلى قرى الهنود للتعرف عن قرب على مشاكل الفلاحين. وحلولها. لأن هؤلاء الهنود بدؤوا يتحركون، بدؤوا يحتلون الأرض التي يطالبون بها منذ قرون.

ـــ تعني يستعيدونها ـــ همس مايتا. وكان ينظر إليه بفضول، حائراً، وكأنه يكتشف باييخوس الحقيقي على الرغم من أنه يلتقي به منذ عدة أسابيع ـــ. هذه الأراضي كانت لهم، لا تنس ذلك.

فوافق الملازم:

ـــ بالضبط، ما عنيته هو استعادتهم للأرض. نذهب ونتبادل الحديث مع الفلاحين، ويرى الفتيان كيف أن أولئك الفلاحين قد بدؤوا بتحطيم قيودهم

دون أي مساعدة من أي حزب. وهكذا يتعلمون كيف ستصل الثورة إلى هذه البلاد. الأستاذ أوبييوث يساعدني بعض الشيء في شؤون النظرية، ولكنك تستطيع أن تساعدني أكثر منه بكثير يا أخي. ألن تذهب إلى خاوخا؟

قال مايتا:

ـ إنك تجعلني أفتح فمي من الدهشة.

فضحك بابيخوس:

ـ أغلقه إذن، لأنه سيمتلئ بالرمل. انظر، هذه الحافلة ستتوقف.

ـ لديك إذن جماعتك وكل شيء ـ كرر مايتا وهو يفرك عينيه المتهيجتين من الغبار ـ. حلقة دراسات ماركسية.. في خاوخا! وقمت باتصالات مع قواعد فلاحية، هذا يعني...

فوجه إليه الملازم صفعة:

ـ هذا يعني أنه بينما تتكلم أنت عن الثورة، أقوم أنا بصنعها. أجل، كراخو. أنا رجل عمل. وأنت نظري. يجب أن نتحد. النظرية والممارسة يا صاحبي. فلنطلق مسيرة هذا الشعب ولن يستطيع أحد وقفه. سنحقق أشياء عظيمة. صافح هذه الأصابع الخمسة واقسم إنك ستجيء إلى خاوخا. بلادنا البيرو رائعة يا أخي!

بدا صبيا منفعلا وسعيدا ببدلته المتقنة وغرته الهندية. أحس مايتا بالسعادة لوجوده معه مرة أخرى. جلسا إلى مائدة في الركن، وطلبا من النادل الصيني فنجاني قهوة وفكر مايتا فيما لو أنهما كانا طفلين ومتماثلين في العمر، لكانا مهرا صداقتهما بعهد بالدم.

ـ هناك الآن الكثير من الرهبان والراهبات مثل ذلك الأب الكندي الذي كان في مونتون ـ قالت الأم الراهبة دون أن تبدي ضيقا ـ. لقد

عرفتْ الكنيسةُ البؤس منذ الأزل،ومهما كان رأيكَ، فإنها قد عملتْ دائماً ما تستطيعه للتخفيف منه. ولكن الصحيح الآن هو أنها أدركت بأن الظلم ليس فردياً وإنما اجتماعياً.فالكنيسة لم تعد تقبل أيضاً بأن يملك قلة كل شيء بينما الأغلبية لا تملك شيئاً. نعرف أن المساعدة الروحية الخالصة في هذه الظروف تتحول إلى سخرية... ولكن، أرى أنني أبتعد عن الموضوع.

شجعها مايتا:

ــ لا، فهذا هو الموضوع. البؤس، ملايين الجائعين في البيرو. هذا هو الموضوع الوحيد. هل هناك حل؟ ما هو؟ من يملكه؟ الرب؟ لا يا أماه. إنها الثورة.

بدأ الغروب يحل وحين أنظر إلى الساعة أرى أنه قد مضى عليّ هناك أربع ساعات. كان يروقني أن أسمع هذا الذي سمعته خوانيتا، أن أسمع من فم مايتا كيف تخلى عن الإيمان. في أثناء الحديث كان يطل أحياناً صبية من باب البيت الموارب: كانوا يطلون برؤوسهم، يتجسسون، يملون، ويذهبون. كم منهم سيجري تجنيدهم في الانتفاضة؟ هل حدثني زميل الدراسة السابق يوماً عن ذهابه إلى مونتون لمساعدة رهبان البعثة الكندية؟ كم من هؤلاء الصبية سيَقْتُلون أو يُقتَلون اغتيالاً؟ خرجت خوانيتا لحظات إلى المستوصف المجاور لترى إذا ما كان هناك أي جديد. هل كان يذهب كل يوم بعد انتهاء الدروس في مدرسة ساليسيانو، أم في أيام الآحاد فقط؟ المستوصف يعمل من الثامنة حتى التاسعة، بطبيبين متطوعين يتبادلان المناوبة، وبعد الظهر يأتي ممرض وممرضة لإعطاء اللقاحات ولإجراء الإسعافات المستعجلة. هل كان مايتا يساعد المعالج ذا الشعر الأشقر، اليائس والغاضب، في دفن الأطفال الذين يصرعهم الجوع والالتهابات، وهل كانت تمتلئ عيناه بالدموع ويخفق قلبه

الصغير بقوة ويطير خياله المحموم كطفل مؤمن إلى السماء ويسأل لماذا، لماذا تسمح يا رباه بحدوث كل هذا؟ إلى جوار المستوصف، في كوخ من ألواح خشبية، يقوم مركز **العمل التعاوني** بممارسة مهامه. وجود المركز الطبي هو مبرر حضور خوانيتا وماريا في الحي. هل كانت هكذا أيضاً البعثة الكندية التي مارس فيها مايتا عمله التطوعي؟ وهل كان يذهب إلى هناك أيضاً محام ليساعد الأهالي مجاناً في المشاكل القانونية، وتقني تعاوني ليرشدهم حول إقامة صناعات؟ كان يذهب إلى هناك، يغوص في هذا البؤس، ويبدأ إيمانه يتزعزع، ثم لا يقول لنا في المدرسة كلمة واحدة عن كل ذلك. كان يواصل الحديث معي عن المسلسلات وعن كم سيكون رائعاً لو أنهم يصنعون فيلماً عن **الكونت دي مونت كريستو**. تخبراني أنهما، خوانيتا وماريا، قد عملتا بضع سنوات في معمل سان خوسيه دي لوريغانتشو للتعليب. ولكن بعد أن أفلس المعمل ، كرستا نفسيهما **للعمل التعاوني** وحسب؛ وكانت أخوية كل منهما الدينية تقدم إليهما مبلغاً شهرياً ضئيلاً يتيح لهما العيش. لماذا وثق هكذا بشخص يراه للمرة الأولى؟ ألأنها راهبة، أم لأنها أثرت فيه، أم لأنها أخت صديقه الجديد، أم لأنه كان عليه أن ينتزع نفسه فجأة من السوداوية وهو يتذكر إيمانه المتأجج حين كان تلميذا في ساليسيانو؟

تقول ماريا:

ـ عندما بدأتْ الاغتيالات شعرنا بالخوف. كنا نخشى أن يضعوا لنا قنبلة ويدمروا هذا كله. ولكن وقتاً طويلاً انقضى و لم نعد نتذكر ذلك. لقد كنا محظوظتين. على الرغم من أن هذا الجانب وذاك قد أراقا دماء كثيرة في الحي، إلا أنهم احترمونا حتى الآن.

سألها مايتا:

ـــ هل أسرتكِ كاثوليكية جداً؟ ألم تواجهي مشاكل في...؟

فابتسمتْ الراهبة:

ـــ إنهم كاثوليكيون بحكم العادة أكثر من القناعة. مثل معظم النـــاس. لقد واجهتُ مشاكل بالطبع. فقد ذهلوا حين قلت لهم إنني أريد أن أترهـــب. كان ذلك هو نهاية العالم بالنسبة لأمي، وأحس أبي كما لو أنني سأُدفن وأنـــا على قيد الحياة. ولكنهما اعتادا.

قال مايتا:

ـــ ابن إلى الجيش وابنة إلى الدير. كان هذا هو شـــعار كـــل الأســـر الأرستقراطية في العهد الاستعماري.

ـــ تعال، تعال ـــ ناداه بايخوس من المائدة ـــ تحدث قليلاً أيضاً مـــع بقية الأسرة ولا تحتكر أختي، فنحن لا نكاد نراها.

كلتاهما تقدمان دروساً في الصباح في المدرسة الصغيرة التي تعمل ضمـــن **العمل التعاوني**. وفي أيام الآحاد، عندما يأتي الخوري من أجل القداس، يتحول المكان إلى مُصلى. ولكن الخوري لم يعد يأتي كثيراً في الفترة الأخـــيرة: لقـــد وضعوا له مفرقعة من الديناميت في كنيسته فأصيب بانهيار عصبي.

وتقول ماريا:

ـــ يبدو أن من وضعوها لم يكونوا من كتائب الحرية، وإنمـــا بعـــض زعران الحي لكي يتسلوا ، لأنهم يعرفون أنه رعديد. لم يمارس المســـكين أي نوع من السياسة مطلقاً، ونقطة ضعفه الوحيدة هي السكاكر. لقد فقد أكـــثر من عشرة كيلوغرامات من وزنه بسبب الرعب الذي سببته له المفرقعة.

ـــ أيبدو لكَ أنني أتكلم عنه بشيء من الحقـــد، بكراهيـــة؟ ـــ تقـــوم خوانيتا بحركة مثيرة للفضول، وألاحظ أنها لا تسأل لمجرد السؤال؛ وإنمـــا لأن هذا السؤال يؤرقها منذ زمن طويل.

فأقول لها:

ـــ لم ألاحظ أي شيء من هذا. ولكني لاحظت أنك تتجنبين ذكـــر مايتا باسمه. دائماً تقومين بالتفافة ما بدلاً من أن تقولي مايتا. هل السبب هو ما جرى في خاوخا، لأنك واثقة من أنه هو الذي دفع بابيخوس؟

تنكر خوانيتا:

ـــ لست واثقة. من المحتمل كذلك أن يكون لأخي جزء من المسؤولية. ولكني على الرغم مني، ألاحظ أنني أشعر نحوه بقليل من الكراهيـــة. ليـــس بسبب ما جرى في خاوخا. وإنما لأنه غرس في نفس أخي الشك. ففي المـــرة الأخيرة التي اجتمعنا معاً سألته: «هل ستصبح ملحداً مثل صديقك مايتا، هـــل ستصل إلى ذلك أيضاً؟» فلم يرد علي بالجواب الذي كنت أنتظره. بـــل هـــز كتفيه وقال:

ـــ هذا ممكن يا أختاه، لأن الثورة أولاً وقبل أي شيء.

وتتذكر ماريا:

ـــ الأب ارنستو كاردينال أيضاً كان يقول إن الثورة أولاً وقبل كـــل شيء. ـــ ثم تضيف قائلة إنها لا تعرف لماذا يرد ذلك الأب الأشقر في قصـــة مايتا إلى ذاكرتها كلما فكرت بمجيء إيفان إليتش إلى البيرو أولاً، ثم بعد ذلـــك مجيء ارنستو كاردينال.

وتقول خوانيتا:

ـــ أجل، صحيح، ما الذي كان سيقوله مايتا في ذلك المســـاء الـــذي تبادلنا الحديث فيه لو أنه عرف بأنه يمكن سماع مثل هـــذه الأشـــياء داخـــل الكنيسة. فعلى الرغم من أنني كنت أظن أني قد تجاوزت كل شيء، إلا أنـــي وقفت مذهولة حين جاء إيفان إليتش. أيكون أسقفاً حقاً من يقـــول تلـــك

الأشياء؟ هل وصلتْ ثورتنا الدينية إلى تلك الحدود؟ إنها لم تعد ثورة صامتة إذن.

وتعقب ماريا، وعيناها الزرقاوان تمتلئان بالخبث:

ـــ ولكننا لم نسمع شيئاً يذكر من إيفان إليتش. كان لا بد من سماع أرنستو كاردينال لكي نعرف ما هو الجيد. في المدرسة طلب عدد منا الإذن بالذهاب لرؤيته في المعهد الوطني للثقافة وفي مسرح باردو وألياغا.

وتسأل خوانيتا:

ـــ إنه الآن وزير للثقافة، شخصية سياسية كاملة، أليس كذلك؟

وعده مايتا بصوت خافت:

ـــ أجل سأذهب معك إلى خاوخا. ولكن أرجوك أن تتكتم. خصوصاً بعد هذا الذي رويته لي. إن ما تعمله مع هؤلاء الفتيان هو عمل انقلابي يا رفيق. إنك تقامر بمستقبلك المهني وبأشياء أخرى كثيرة.

ـــ أأنت من تقول لي هذا؟ أنت من تثقلني بالدعاية الانقلابية في كل مرة نلتقي فيها؟

غرقا في الضحك، وسألهما الصيني الذي أحضر لهما القهوة عن النكتة التي تُضحكهما. فقال له الملازم: «إنها واحدة من طرائف أوتو فيرتز»

وعده مايتا:

ـــ عندما تأتي في المرة القادمة إلى ليما سنحدد موعد ذهابي إلى خاوخا. ولكن عاهدني بألا تقول شيئاً لجماعتك حول مجيئي.

فاحتج بايبخوس:

ـــ أسرار، أسرار، يا لهوسك بالأسرار. أجل، أعرف أن الأمن حيوي. ولكن لا يمكنك أن تكون متكلفا إلى هذا الحد يا أخي. هل أخبرك شيئا

بمناسبة الكلام عن الأسرار؟ أتذكر بيبوتي، ذاك الأبله الذي كان في حفلة خالتك. لقد انتزع مني صديقتي ألسي. ذهبت لزيارتها فوجدتها معه. يمسك كل منهما بيد الآخر. وقالت لي: «أقدم لك خطيبي». لقد سخرا مني.

لم يبد عليه الاهتمام بالأمر، فقد كان يرويه وهو يضحك. لن يقول شيئاً للفتيان ولا للأستاذ أوبيبوث، سيفاجئنهم بالزيارة. والآن عليه أن يذهب بأقصى سرعة. تصافحا مودعين ورآه مايتا يخرج من الحانة، منتصباً وراسخاً في زيه العسكري، ويمضي نحو جادة إسبانيا. وبينما هو يراه يبتعد، فكر في أنهما قد التقيا للمرة الثالثة في المقهى نفسه. هل هذا تبصر؟ كان مركز الشرطة على بعد خطوة من المقهى و لم يكن مستغرباً أن يكون هناك وشاة كثيرون بين زبائنه. لقد شكل إذن حلقة ماركسية بمبادرة ومجازفة تلقائية. من كان سيصدق ذلك! أغمض عينيه ورأى، هناك على ارتفاع أكثر من ثلاثة آلاف متر، وجوههم المراهقة والجبلية، ألوانهم وشعورهم السبطة وأقفاصهم الصدرية العريضة. رآهم يتراكضون وراء كرة، متعرقين ومنفعلين. الملازم يركض بينهم، وكأنه في مثل سنهم، ولكنه أطول قامة، وأكثر رشاقة وقوة وبراعة، يغتاظ، ويضرب الكرة بقدمه وبرأسه، ومع كل ضربة بالقدم أو بالرأس تتصلب عضلاته. ورآهم بعد انتهاء المباراة محشورين في غرفة من الطين والتوتياء، تظهر من نوافذها سحب بيضاء تتلوى في ذؤابات بنفسجية. يستمعون باهتمام إلى الملازم الذي يريهم **ما العمل** للينين، ويقول لهم: «هذا ديناميت نقي يا شباب». لم يضحك. لم يكن يشعر بأي رغبة في السخرية، أو في قول ما كان قد قاله عنه لرفاقه في ح ع ث (ت): «إنه شاب فتي، ولكنه من طينة جيدة»، «ينفع، ولكنه بحاجة لأن ينضج». إنه يشعر في هذه اللحظة بتقدير شديد لباييخوس، بشيء من الحسد لشبابه وحماسته، وبشيء أكثر من

ذلك، شيء حميم ودافئ. سيطلب في الاجتماع القادم للجنة المركزية لـ ح ع ث (ت) بنقاش معمق للأمر، لأن مسألة خاوخا بدأت تأخذ منحى آخر. كان سينهض عن الطاولة التي في ركن المقهى ـــ فالحساب دفعه بايبخوس قبل أن يغادر ـــ حين لاحظ انتفاخ بنطاله. التهب وجهه، وجسده. وانتبه إلى أنه يرتجف بالشهوة.

قالت خوانيتا:

ـــ سنرافقك.

تحدثنا قليلاً عند مدخل البيت، تحت الشفق الذي سيصبح ليلاً عما قريب. قلت لهما إنه لا حاجة لذلك، فقد تركت السيارة على بعد كيلومتر تقريباً، فلماذا عليهما أن تمشيا هذه المسافة.

فقالت ماريا:

ـــ ليس هذا بدافع اللطف. ولكننا لا نريدهم أن يسرقوك مرة أخرى.

قلت لهما:

ـــ لا يوجد لدي الآن شيء يسرقونه. فأنا لا أكاد أحمل سوى مفتاح السيارة وهذا الدفتر. الملاحظات لا تهمني أبداً. فما لا يبقى في الرأس لا ينفع في الرواية.

ولكن لم تكن هناك طريقة لثنيهما، وخرجتا معي إلى عفونة وغبار الحي. أمضي بين الاثنتين وأدعوهما حارستي الشخصيتين، بينما نحن نتقدم بين تضاريس هذيانية من أكواخ وكهوف وبسطات وزرائب خنازير وأطفال يتمرغون وكلاب فجائية. كان يبدو وكأن كل الناس يقفون أمام بيوتهم أو يتجولون في الدروب الترابية وتُسمع حوارات، ونكات، وكلمة بذيئة بين حين وآخر. وأصطدم أحيانا بحفرة أو بحجر، بالرغم من الحذر الذي أتوخاه وأنا أطأ

الأرض، ولكن ماريا وخوانيتا تسيران بانطلاق، وكأنهما تعرفان العراقيل عن ظهر قلب.

تقول خوانيتا من جديد:

ـ عمليات السرقة والسطو أسوأ من الجرائم السياسية. سببها البطالة والمخدرات. لقد كان هناك على الدوام لصوص في الجوار بالطبع. ولكن لصوص الحي في السابق كانوا يذهبون للسرقة خارجه، حيث الأغنياء. أما الآن فقد اختفت أدنى مشاعر التضامن الجواري بسبب البطالة والمخدرات والحرب. فالفقراء الآن يسرقون ويقتلون الفقراء.

وتضيف قائلة إن ذلك قد تحول إلى مشكلة كبيرة. فما إن يخيم الظلام حتى لا يعود هناك من يتجرأ على التجول في الحي، اللهم إلا من يحمل سكيناً أو يكون قاتلاً، أو شخصاً غير واعٍ أو سكراناً فاقد الصواب، لأنه يعرف أنه سيتعرض للسطو. اللصوص صاروا يداهمون البيوت في وضح النهار، وتسفر عمليات السطو في الغالب عن أحداث دامية. يأس الناس لم يعد له حدود ولهذا تقع هذه الأحداث. فمثلاً، ذلك التعيس الذي وجده أهالي إحدى الضواحي وهو يحاول اغتصاب طفلة فبللوه بالكيروسين وأحرقوه حياً.

وتقول ماريا:

ـ أمس بالذات اكتشفوا هنا معملاً لتحضير الكوكائين. كيف كان مايتا سيفكر في هذا كله؟ في ذلك الوقت لم تكن المخدرات موجودة عملياً، فقد كانت لعبة من ألعاب المتذوقين ومحبي الليل. أما الآن بالمقابل...

وأسمعهما تقولان إنهما لا يستطيعان ترك أدوية في المستوصف. ففي الليل تأخذان الأدوية إلى البيت الذي تعيشان فيه وتخفيانها في مخبأ، تحت صندوق. لأن هناك من يدخل إلى المستوصف كل ليلة لسرقة القوارير،

والحبوب، والحقن. ليس للعلاج، فالمستوصف موجود لهذا الغرض والعلاج فيه مجاني، وإنما يسرقونها لتعاطيها كمخدرات. فهم يظنون أن كل دواء هو مخدر ويتناولون ما يجدونه. ويضطر لصوص كثيرون إلى المجيء إلى المستوصف في اليوم التالي وهم مصابون بحالات إسهال أو تقيؤ أو بما هو أسوأ. فتيان الحي يتخدرون بقشور الموز أو بأوراق الفلوريبونديو[1]، وبالمطاط، وكل ما يمكن تصوره. ما الذي كان سيقوله مايتا عن كل هذا؟ لا أستطيع أن أخمن ذلك، كما أنني لا أستطيع أن أركز تفكيري على تذكر مايتا: فوجهه يظهر ويختفي في نار طافية.

حين وصلنا إلى المزابل ــ الحظائر، سمعنا قباع الخنازير. النتانة تتكثف وتتجسد. أُلح عليهما لترجعا، ولكنهما ترفضان. وتقولان: منطقة المزابل هذه هي الأخطر. هل أنا غير قادر على التركيز على مايتا لأن قصته، أمام هذا الخراب، تتضاءل وتتبخر؟ «أي وجه غريب هنا يصبح هدفاً مغرياً»، أهي ماريا التي قالت ذلك؟

وتضيف خوانيتا:

ــ هذا هو الحي الأحمر في المنطقة أيضاً ــ أم أن الأدب، وليس مايتا، هو الذي يصبح غير مجدٍ حيال هذا الخزي؟ــ . مؤلم جداً، أليس كذلك؟ التعهر من أجل كسب العيش مؤلم بالطبع، ولكن أن يُمارس ذلك هنا، وسط هذه الزبالة وهذه الخنازير...

وتحدد ماريا الأمر:

ــ التفسير هو أن لهن زبائن.

---

[1] فلوريبونديو Floipondio : نبتة باذنجانية موطنها البيرو، أزهارها بيضاء لها شكل الجرس.

إنها أفكار سيئة هذه التي تخطر لي. أجل، فأنا أيضاً أسمح لليأس بأن يتغلب عليّ، مثل ذلك الأب الكندي في حكاية مايتا،لن أكتب هذه الرواية. فما كان لهذا أن يساعد أحداً في شيء ؛ مهما كانت الرواية يومية، فإنها ليست شيئاً بالمقارنة مع اليأس. أتشعران بالأمان وهما تتنقلان في الحي ليلاً؟ حتى الآن لم يحدث لهما أي شيء،والحمد لله. حتى ولا مع سكارى ساخطين يمكن لهم أن لا يتعرفوا عليهما.

وتطلق ماريا قهقهة:

ــ ربما أننا قبيحتان جداً ولا نغوي أحداً.

وتقول خوانيتا:

ــ الطبيبان هوجما. ولكنهما ما زالا يأتيان مع ذلك.

أحاول متابعة الحديث، ولكنني أسهو وأحاول العودة إلى مايتا فلا أستطيع ذلك أيضاً، لأن صورته تتقاطع مرة بعد أخرى مع صورة ارنستو كاردينال، مثلما بدا في ذلك اليوم الذي جاء فيه إلى ليما ــ أكان ذلك منذ خمس عشرة سنة؟ ــ وأثر كثيراً في ماريا. لم أخبرهما بأنني أنا أيضاً ذهبت للاستماع إليه في المعهد الوطني للثقافة وفي مسرح باردو وألياغا وأنه سبب لي كذلك صدمة شديدة الحدة. سأندم على الدوام لأنني ذهبت للاستماع إليه، لأنني لم أعد أستطيع منذ ذلك الحين قراءة أشعاره التي كانت تعجبني كثيراً من قبل. أليس هذا ظلماً؟ وهل هناك علاقة يا ترى بين أحد الأمرين والآخر؟ يجب أن تكون هناك علاقة بطريقة لا أستطيع تفسيرها. ولكنها علاقة موجودة، لأني أعيشها.لقد ظهر متنكراً بهيئة تشي غيفارا ورد في الندوة على ديماغوجيةالمستمعين الاستفزازيين بديماغوجية أشد من تلك التي كانوا يأملون سماعها. لقد فعل وقال كل ما يلزم لكي يستحق تأييد وتصفيق أشد الناس

جموداً: ليس هناك أي اختلاف بين ملكوت الرب والمجتمع الشيوعي؛ الكنيسة تحولت إلى عاهرة، ولكنها ستعود إلى طهارتها بفضل الثورة، مثلما هي ترجع الآن في كوبا؛ والفاتيكان، وكر الرأسماليين الذي دافع على الدوام عن مصالح الأقوياء، تحول الآن إلى خادم للبنتاغون؛ والحزب الواحد في كوبا والاتحاد السوفييتي يعني أن النخبة قد تحولت إلى خميرة للجماهير، تماماً مثلما أراد يسوع أن تكون الكنيسة للشعب؛ وأنه من غير الأخلاقي التكلم عن معسكرات العمل الإجباري في الاتحاد السوفييتي، لأنه كيف يمكن تصديق الدعاية الرأسمالية؟ ثم الخبطة المسرحية الأخيرة، حين رفع يديه: من هذا المنبر أستنكر أمام العالم أجمع الإعصار الأخير في بحيرة نيكاراغوا لأنه كان نتيجة تجارب باليستية أمريكية... ما زلت حتى الآن أحتفظ بانطباع حي لعدم النزاهة والهوس الهستيري الذي سببه لي. منذ ذلك الحين صرت أتجنب التعرف على الكتّاب الذين يعجبونني حتى لا يحدث لي معهم ما حدث مع الشاعر كاردينال الذي كلما حاولت قراءته، تنتصب من النص نفسه، مثل حمض يجرده من وقاره، ذكرى الرجل الذي كتبه.

وصلنا إلى السيارة. لقد خلعوا بابها الذي عند المقود. وبما أن اللص لم يجد شيئاً يأخذه،فقد انتقم بتمزيق فرش المقعد وبهذه البقعة التي تشير أيضاً إلى أنه تبول عليه. أقول لخوانيتا وماريا أنه قد قدم لي خدمة بذلك، لأنه سيجبرني على استبدال قماش المقاعد العتيق جداً. ولكنهما تواسيانني بأسف وارتباك.

الفصل الرابع

ـــ لا بد من كتابة القصة عاجلاً أو آجلاً ـــ يقول السيناتور وهو يتحرك في المقعد إلى أن يجد وضعاً مريحاً لساقه الجريحة، ويضيف: ـــ القصة الحقيقية، وليس الأسطورة. مع أن الوقت لم يحن بعد.

كنتُ قد طلبت منه أن نُجري الحديث في مكان هادئ، ولكنه أصر عليّ لكي أحضر إلى الكونغرس. ومثلما كنت أخشى، كانت تتم مقاطعتنا في كل لحظة: فزملاء في المجلس وصحفيون يقتربون منه، يحيونه، يتبادلون النمائم والأقاويل، ويوجهون إليه أسئلة. فكان حديثنا متقطعاً، تتخلله وقفات طويلة. أشرح له مرة أخرى أنني لا أنوي كتابة «القصة الحقيقية» لمايتا. ما أريده هو جمع أكبر قدر من المعلومات والآراء عنه، لكي أضيف إلى هذه المواد فيما بعد جرعات وافرة من الاختلاق، وأبني شيئاً يكون رواية لا يمكن التعرف عليها لما حدث. تفحصتني عيناه الصغيرتان المتقافزتان والمرتابتان دون تعاطف. ودمدم قائلاً:

ـــ في هذه الأيام بالذات يجب عدم الإقدام على عمل أي شيء قد يؤثر على عملية التوحيد العظمى لليسار الديمقراطي التي نسعى إليها، فالشيء الوحيد الذي يمكنه أن ينقذ البيرو هو الأوضاع الحالية. ويمكن لقصة مايتا، على الرغم من مرور خمس وعشرين سنة، أن تسبب بعض الآثار الضارة.

إنه رجل نحيل وهو يتكلم بطلاقة. يلبس بأناقة، ويكثر الشيب في شعره الأجعد، ويدخن بمبسم. يبدو أن ساقه المصابة تؤلمه أحياناً، ذلك أنه يمسدها بقوة. إنه يكتب بأسلوب منمق بالنسبة إلى سياسي. وقد كان هذا هو المفتاح الذي فتح أمامه أعلى الدوائر في الحكومة العسكرية للجنرال فيلاسكو، الذي عينه مستشاراً له. وهو من اخترع قسماً كبيراً من العبارات الموزونة التي اكتسبت بها الدكتاتورية هالة التقدمية، وكان مديراً لإحدى الصحف المصادرة. وقد كتب الخطابات التي كان يلقيها الجنرال فيلاسكو (يمكن التعرف عليها من بعض العبارات السوسيو ــ حقوقية التي كانت تتشابك بأسنان الدكتاتور) ومثّل، مع جماعة صغيرة، الجانب الأكثر راديكالية في النظام. أما الآن، فقد أصبح السيناتور كامبوس شخصية معتدلة يهاجمه اليمين المتطرف واليسار الماوي والتروتسكي المتطرف بغضب. وقد أصدر عليه رجال حرب العصابات حكماً بالموت وحذت حذوهم أيضاً كتائب الحرية. وهذه الأخيرة ــ وهي إشارة إلى عبثية الأزمنة التي نعيشها ــ تؤكد أنه الزعيم السري للتمرد الثوري. وقبل بضعة شهور دمرتْ قنبلةٌ سيارته وأدت إلى جرح سائقه وكسر ساقه اليسرى التي يرفعها مستوية الآن. من ألقى تلك القنبلة؟ لا أحد يعرف.

وحين كنتُ قد أيقنت أنه ليست هناك وسيلة لدفعه إلى الكلام، وبدأت أستعد لوداعه؛ هتف فجأة:

ــ ولكن، أخيراً.. إذا كنت قد عرفت أشياء كثيرة، فيجب أن تعرف كذلك أمراً أساسياً: لقد تعاون مايتا مع أجهزة الاستخبارات في الجيش، ومن المحتمل أن يكون قد تعاون مع الــ CIA أيضاً.

ــ هذا غير صحيح. قال مايتا معترضاً.

فرد أناتوليو:

ـــ بل صحيح. لينين وتروتسكي أدانا الإرهاب على الدوام.

وقال مايتا:

ـــ العمل المباشر ليس إرهاباً، وإنما هو ممارسة للانتفاضة الثورية بنقائها وبساطتها. فإذا كان لينين وتروتسكي قد أدانا هذا الذي أعنيه، فلست أدري إذن ما هو الشيء الذي عملاه طوال حياتيهما. إننا ننسى يا أناتوليو الشيء المهم. فواجبنا هو الثورة، وهذه هي المهمة الأولى لأي ماركسي. أليس غريباً أن يأتي ملازم ليذكرنا بذلك؟

قام أناتوليو بتراجع تكتيكي:

ـــ ألا توافق على الأقل بأن لينين وتروتسكي قد أدانا الإرهاب؟

فوافق مايتا:

ـــ وأنا أيضاً أدينه، ولكن مع الاحتفاظ بالمسافات الفاصلة. فالإرهاب الأعمى، المنفصل عن الجماهير، يُبعد الشعب عن الطليعة. أما نحن فسنكون شيئاً مختلفاً: نريد أن نكون الشرارة التي ستشعل الفتيل.. كرة الثلج التي ستتحول إلى تيار جارف.

ـــ أراك صرتَ شاعراً اليوم. ـــ قال أناتوليو ذلك وهو يطلق ضحكة بدت قوية جداً بالمقارنة مع حجم الحجرة الضيقة.

«لستُ شاعراً. وإنما حالم، متجدد الشباب.» وبتفاؤل لم يشعر بمثله منذ سنوات طويلة. بدا كما لو أن كتلة الكتب والصحف المتراكمة حوله تلتهب بنار فاترة متلوية تبقي جسده وروحه في حالة توهج، ولكن دون أن تحرقه. أهذه هي السعادة؟ لقد كانت المناقشة في اللجنة المركزية لـ ح ع ث (ت) مؤثرة، بل هي أكثر المناقشات التي يتذكرها منذ سنوات إثارة للشجون. كان

قد ذهب بعد الاجتماع إلى ساحة مسرح سيغورا، حيث مكاتب فرانس برس. وبقي يترجم نصوصاً هناك طوال أربع ساعات تقريباً. وبالرغم من كل هذا العمل، فقد كان يشعر بالحيوية وصفاء الذهن. لقد تمت الموافقة على تقريره حول الملازم، وكذلك على اقتراحه بأن تؤخذ خطة بايبخوس بعين الاعتبار. وفكر: «قاعدة عمل، خطة عمل، يا للثرثرة». لقد كان الاتفاق مهماً في الواقع: القيام بالثورة الآن، ومرة واحدة. وبينما كان يطرح آراءه، تكلم مايتا بقناعة أثرت بعمق في رفاقه: لقد لمح ذلك في ملامح وجوههم وفي إصغائهم إليه دون أن يقاطعوه ولو مرة واحدة. أجل، إن الخطة قابلة للتحقيق، شريطة أن تقودها منظمة ثورية مثل ح ع ث (ت) وليس شاباً طيب النوايا ولكنه يفتقر إلى أيديولوجية راسخة: إن طليعةً ضئيلة مسلحة ومجهزة جيداً، مع دعم مديني وأفكار واضحة حول الهدف الاستراتيجي والخطوات التكتيكية، يمكن لها أن تكون البؤرة التي تشع منها الثورة نحو بقية أنحاء البلاد، وأن تكون زند وصوان القدح الذي سينبعث منه الحريق الثوري. أوليست الظروف الموضوعية متوفرة منذ زمن بعيد جداً في بلاد تعمها التناقضات الطبقية مثل البيرو؟ هذه البؤرة الابتدائية، ومن خلال ضربات دعائية مسلحة جريئة، ستخلق الظروف الذاتية لكي تنضم القطاعات العمالية والفلاحية إلى العمل النضالي. وعادت تتمثل له صورة أناتوليو وهو ينهض من الركن عن السرير الذي كان يجلس عليه.

ــ سأذهب لأرى إذا ما انتهى طابور الانتظار على باب المرحاض، وإلا فإنني سأشخ في بنطالي، فأنا لم أعد أستطيع التحمل.

كان قد نزل مرتين وكان يجد من ينتظر أمام المرحاضين في المرتين. رآه يخرج وهو منحن قليلاً ويضغط على معدته. كم هو رائع مجيء أناتوليو هذه

الليلة، وكم هو رائع أنه في هذا اليوم الذي يحدث فيه شيء مهم أخيراً، شيء جديد، يجد من يشاطره فوران الأفكار التي تدور في رأسه. وفكر: «لقد قفز الحزب قفزة نوعية». كان مستلقياً على سريره، مستخدماً ذراعه الأيمن وسادة. بعد أن وافقت اللجنة المركزية لـ ح ع ث (ت) على العمل مع بايبخوس، عينت فريق عمل ــ مؤلفاً من الرفيق خاثينتو، والرفيق اناتوليو، ومايتا نفسه ــ مكلفاً بإعداد رزنامة نشاطات. وتقرر أن يسافر مايتا فوراً إلى خاوخا ليرى على أرض الواقع ممَ تتألف منظمة بايبخوس الصغيرة، وأي نوع من الاتصالات تقيم مع تجمعات الفلاحين في وادي مانتارو. وبعد ذلك يذهب عضوا فريق العمل الآخران إلى سلسلة الجبال أيضاً لتنسيق العمل. وانتهى اجتماع ح ع ث (ت) بجو من الانشراح. وقد بقي مايتا يشعر بهذا الانشراح نفسه بينما هو يترجم برقيات الأخبار في مكتب فرانس برس. وهكذا وصل إلى غرفته في جادة ثيبيتا. وعند مدخل البناء كان ينتظره شبحٌ شاب.. أسنان لامعة في الظلام الخفيف.

قال له أناتوليو:

ــ لقد تأثرتُ إلى حد أنني جئتك لأرى إذا ما كان بإمكاننا أن نتحدث قليلاً. هل أنت متعب جداً؟

فربت مايتا على ظهره:

ــ بالعكس، فلنصعد. أنا أيضاً أشعر بانقلاب كامل. لأن الأمر صار ديناميتاً نقياً، مثلما يقول بايبخوس.

كانت هناك إشاعات، وتلميحات، وتقولات، بل وكان ثمة منشور يجري تداوله في أروقة جامعة سان ماركوس، يتضمن اتهامه. أيتهمه بأنه مندس؟ بأنه واش؟ ثم كان هناك فيما بعد مقالان يتضمنان تفاصيل مثيرة للقلق حول نشاطات مايتا.

وأقاطعه:

ــ أتعني أنه كان واشياً؟ ولكنكم كنتم مع ذلك...

يرفع السيناتور كامبوس يده ولا يتيح لي مواصلة كلامي:

ــ نحن كنا تروتسكيين، مثل مايتا، وكانت تلك الهجمات تأتي من الموسكوفيين، ولهذا لم نعرها اهتماماً في أول الأمر ــ يشرح لي ذلك وهو يهز كتفيه ــ كانوا يقولون عنا في ح ع ث العجائب كل يوم. فقد كان الشقاق هو السائد على الدوام ما بين التروتسكيين والموسكوفيين. الفلسفة القائلة: «أسوأ الأعداء هو أكثرهم قرباً، ويجب القضاء عليه ولو بالتحالف مع الشيطان».

يصمت السيناتور مرة أخرى، فهناك صحفي يقترب منه ويسأله عما إذا كان صحيحاً ما جاء في الجريدة: إنه يستعد بسبب خوفه من التهديدات ضده، للهرب إلى خارج البلاد، وإنه سيغادر بحجة إجراء عملية جراحية أخرى لساقه. فيضحك السيناتور: « افتراءات محضة. ما لم يقتلوني، فسيجدني البيرويون أمامهم لوقت طويل». انصرف الصحفي مفتوناً بالعبارة. طلبنا جولة أخرى من القهوة. «أعرف أننا هنا في الكونغرس نتمتع بامتياز تناول عدة فناجين قهوة في اليوم بينما تحولت القهوة إلى مادة رفاهية بالنسبة إلى البيرويين الآخرين. ولكن هذا لن يستمر لوقت طويل. مستثمر الكافيتريا كان يملك كمية احتياطية وهي آخذة بالنضوب». واستغرق لحظة في مونولوج عن آثار الحرب: التقنين، انعدام الأمن، الحالة النفسية المرضية التي يعيشها الناس هذه الأيام بسبب الإشاعات عن دخول قوات أجنبية إلى أراضي البلاد.

ثم يعود فجأة إلى ما كان يقوله لي:

ــ الحقيقة أن الرفاق الموسكوفيين كانوا يملكون تقارير موثوقة جداً. وقد وصلتهم المعلومة من فوق، من المؤكد أنها جاءت من موسكو، من الــ **كـــي جي بي**. من هناك اطلعوا على ازدواجية مايتا.

يضع سيجارة في المبسم، ثم يشعلها.. يأخذ نفساً، ويمسد ساقه. يبـــدى الغم في وجهه، وكأنه يتساءل إذا ما كان قد مضى بعيداً في الكشف. لقـــد ناضل هو وزميلي في الدراسة معاً، تشاطرا أحلاماً سياسية، وعمـــلاً ســـرياً، وملاحقة. فكيف يمكن له أن يكشف لي أن مايتا كان صرصاراً قذراً بمثل هذه اللامبالاة؟

ينفض رماد السيجارة في فنجان القهوة الفارغ:

ــ أنت تعرف أن مايتا قد دخل السجن وخرج منه مرات كثيرة. ولا بد أنهم ابتزوه هناك لكي يعمل معهم. هناك من يُصلّبهم السجن، وهنـــاك مـــن يلينهم.

ينظر إليّ مُقدِّراً تأثير كلماته. وأراه هادئاً، واثقاً من نفسه، بهذا التعبـــير اللطيف الذي لا يفقده حتى في أشد المناظرات سخونة. لماذا تراه يكره رفيقـــه القديم؟

ــ هذه الأمور من الصعب إثباتها دوماً.

هناك، في لحظة ما من الماضي، يظهر مايتا لا يمكن التعرف عليه تحـــت لفاع مزيت، وهو يقدم دفاتر مكتوبة بحبر سري تتضمن أسمـــاء، وخططـــاً، وعناوين، إلى عسكري يبدو متضايقاً من ارتدائه ملابس مدنية، وإلى أجنـــبي مرتاب لا يصيب في استخدام حروف الجر بالإسبانية.

ويصحح لي ما قلته:

ـــ من المستحيل إثبات الأمر. ومع ذلك، فقد أمكن إثباته مرة. ـــ يأخذ نفساً، ويُفلت شفرة المقصلة ـــ في عهد الجنرال فيلاسكو اكتشفنا أن الـــ CIA هي من تقود عملياً أجهزة مخابراتنا. وقد خرجت أسماء كثيرة. ومن بينها اسم مايتا. وبعد مراجعة الحسابات، والتذكر، اتضحت لنا بعض الأشياء. لقد كان سلوكه مريباً مذ تعرف على باييخوس.

أقول له:

ـــ هذا اتهام فظيع. جاسوس للجيش، وعميل للـــ CIA وفي الوقت نفسه...

فيحدد:

ـــ جاسوس.. عميل.. هذه كلمات كبيرة. لقد كان مخبراً.. أداة، وربما ضحية. هل تحدثت مع أحد غيري ممن كانوا يعرفون مايتا في ذلك الحين؟

ـــ مع موسيس باربي ليبفا. كيف يمكن ألا يعرف هو أي شيء عن هذا؟ لقد كان موسيس حاضراً في الاستعدادات لقضية خاوخا، بل إنه رأى مايتا عشية...

فيبتسم السيناتور كامبوس:

ـــ موسيس رجل يعرف أشياء كثيرة.

هل سيكشف لي أن موسيس أيضاً عميل للـــ CIA؟ لا، لن يصل به الأمر مطلقاً إلى حد توجيه مثل هذا الاتهام إلى مدير مركزٍ نشرَ له كتابيّ أبحاث اجتماعية سياسية، وقد كتب مقدمة أحدهما باربي ليبفا نفسه.

ـــ موسيس رجل حذر، ممتلئ بمصالح عليه حمايتها. ـــ ينسل السيناتور بجرعة معتدلة من الحموضة، ويضيف: ـــ لقد تبنى موسيس فلسفة «ما مضى قد مضى». وهي الأفضل إذا كان المرء يرغب في تجنب المشاكل. لسوء حظي

أنني لست مثله. فأنا لم أعتد الصمت مطلقاً. وها هو جهري بكل ما أفكر فيه قد تركني أعرج. ويمكن أن يجلب لي الموت في أي لحظة. ما كسبته هو أنني أستطيع أن أنظر إلى أسرتي دون أي إحساس بالخجل.

يبقى مطرقاً للحظة، وكأنه مرتبك لانجراره إلى مثل هذا الاندفاع في السيرة الذاتية. ثم يسألني دون أن يتوقف عن النظر إلى مقدمة حذائي:

ـ ما رأي موسيس بمايتا ذلك الزمن؟

يستغرق في التأمل وسط حلقات الدخان، ثم يضيف :

ـ أنا سأقول لك: من الأفضل عدم رفع الغطاء عن هذه القِدر حتى لا تفوح منها روائح قد تخنق الكثيرين. ـ يتوقف قليلاً، يبتسم ويوجه ضربته الحاسمة: ـ لقد كان موسيس هو من وجه إليه تهمة الاختراق في الليلة التي طردنا فيها مايتا من ح ع ث (ت).

لقد أفقدني القدرة على النطق: في الكراج الصغير المتحول إلى محكمة، ينهي موسيس مراهق ومزمجر مرافعته مشهراً حفنة من الأدلة التي لا يمكن دحضها. واشٍ! واشٍ! ولا يستطيع زميل دراستي مايتا الرد بكلمة واحدة وهو منكمش على نفسه تحت صورة المنظّرين. فُتح الباب ودخل أناتوليو.

ـ ظننتك قد علقت في المرحاض ـ قال له مايتا مرحباً.

وضحك أناتوليو وهو يغلق الباب:

ـ أوف، الآن أشعر بالراحة. ـ كان قد بلل شعره ووجهه وصدره، وكانت بشرته تلمع بقطرات الماء. لقد رجع حاملا قميصه في يده ورآه مايتا وهو ينشره بحذر على حافة السرير الضيق. وفكر: «كم هو جذاب». الأضلاع بارزة بوضوح في صدره الأهيف وخصل الشعر الناعم اللامع تغطي صدره. وذراعاه طويلتان ومتناسقتان. لقد رآه مايتا أول مرة قبل أربع سنوات، في محاضرة في نقابة عمال البناء. وفي كل لحظة كانت تقاطعه جماعة

من الشبيبة الشيوعية، مرددة أهزوجة السخرية المعروفة واسعاً ضد تروتسكي والتروتسكية: حلفاء هتلر، عملاء الإمبريالية، أتباع وول ستريت. وكان أكثرهم عدوانية هو أناتوليو: شاب واسع العينين، وداكن الشعر، يجلس في الصف الأول. أكان هو من يعطيهم الإشارة للتهجم عليه؟ ولكن على الرغم من كل ذلك، كان ثمة شيء في الفتى جعل مايتا يستلطفه ويميل إليه. فقد أحس بإحدى تلك الاختلاجات التي كان يشعر بها أحياناً، وكانت تُخفق على الدوام. ولكنها أصابت في تلك المرة. فلدى الخروج من النقابة، وكانت الخواطر قد هدأت بعض الشيء، اقترب منه وعرض عليه أن يتناولا معاً فنجاناً من القهوة «من أجل مواصلة مناقشة خلافاتنا»، و لم يجعله الفتى يتوسل. وفيما بعد، حين أصبح عضواً في ح ع ث (ت)، اعتاد أناتوليو أن يقول له: «لقد أجريت لي غسيل دماغ جيزويتي يا رفيق». والحقيقة أنه مارس معه عملاً ماكراً ومتودداً، فقد أعاره كتباً ومجلات، وأقنعه بأن يحضر حلقة دراسات ماركسية يشرف هو نفسه عليها، ودعاه إلى أعداد لا حصر لها من فناجين القهوة، وأقنعه في أثناء ذلك بأن التروتسكية هي الماركسية الحقيقية، وأنها الثورة الخالية من البيروقراطية ومن الاستبداد والفساد. وها هو الآن ، شاب وفتى طيب، صدره عارٍ، وهو يمسد قميصه تحت مخروط الضوء المغبر في الغرفة المزرية. وفكر: «مذ تعرفت على بابيخوس لم أعد أرى وجه أناتوليو في أحلامي». كان متأكداً: ولا مرة واحدة. من حسن الحظ أنه جرى اختيار أناتوليو ضمن **فريق العمل**. فعلاقته به أفضل من علاقته بأي شخص آخر في الحزب، وهو يمارس عليه تأثيراً أكثر من سواه. وهو لم يجعله ينتظر مطلقاً كلما اتفقا على الخروج معاً لبيع **صوت العمال** أو لتوزيع منشورات أمام أبواب المصانع في جادة الأرجنتين، بالرغم من أنه يعيش في كايّاو.

ـــ أشعر بالتكاسل وعدم الرغبة في الخروج في هذا الوقت...

ـــ إذا لم يكن يزعجك ضيق المكان فابق هنا.

جميع الرفاق في اللجنة المركزية لـــ ح ع ث (ت) كانوا قد نـــــاموا في إحدى الليالي في الغرفة، وأحياناً كان يبقى عدد منهم وينـــــامون محشـــورين بعضهم فوق بعض.

قال أناتوليو:

ـــ لست أدري لماذا عليّ أن أجعلك تقضي ليلة مزعجة. عليك أن تقتـني سريراً أكبر، من أجل حالات الطوارئ.

ابتسم له مايتا. وكان جسده المسترخي قد تصلب. فركز جهده للتفكـير في خاوخا. هل طردوه من الحزب بعد قضية خاوخا؟

ـــ بل قبلها ـــ يصحح لي السيناتور وهو يراقب حيرتي بمتعـــة ـــ قبـــل قضية خاوخا مباشرة. وإذا لم تخني الذاكرة، فقد قدموا الموضوع كما لـــو أن مايتا قد استقال من ح ع ث (ت). حيلة رحيمة، لكي لا نُظهر تصدعنا أمـام العدو. ولكنه طُرد. وبعد ذلك حدثت مسألة خاوخا و لم يكـــن بالإمكـــان توضيح أي شيء. ألا تتذكر حملة القمع ضدنا؟ بعضنا وقـــع في الاعتقـــال، وانتقل آخرون إلى السرية. ودُفنت قضية مايتا. هكذا يُكتـــب التـــاريخ يـــا صديقي. ففي خضم الفوضى والهجمة الرجعية التي سببتها مسألة خاوخا، بـدا مايتا وباييخوس كبطلين...

بقي مستغرقاً، يتأمل في غرائب التاريخ. وتركته يفكر دون أن أستعجله، واثقاً من أنه لم يتوصل إلى نتيجة بعد. أهو المرتد مايتا الذي تحول إلى مســـخ بوجهين، يدبر مؤامرة شديدة المجازفة لكي ينصب فخاً لرفاقه؟ إنه لأمر قـــاس جداً: من المستحيل تبريره في رواية لا تتبنى، منذ البدء، عدم واقعيـــة الجنـــس البوليسي.

ويضيف السيناتور:

ــ لم يعد لأي شيء من هذا أهمية الآن. لأنه أخفق. كانوا يريدون تصفية اليسار إلى الأبد. و لم يتوصلوا إلا إلى تعطيله لبضع سنوات. ثم جاءت كوبا، وفي ١٩٦٥ جاءت حركة خافيير هيراودا، وفي ٦٥ حرب عصابات منظمة المير وجبهة التحرير الوطني. هزيمة إثر هزيمة لطروحات الانتفاضة المسلحة. وها هم أخيراً قد خرجوا الآن وفق مزاجهم. باستثناء أن...

فأقول:

ــ باستثناء أن...

ــ باستثناء أن هذا الذي يجري ليس ثورة وإنما كارثة. هل كان هناك من يتصور يوماً أن البيرو ستعيش مثل هذه المجزرة؟ ــ ينظر إليّ ويضيف ــ ما يجري الآن دَفَنَ قصة مايتا وباييخوس نهائياً. ليس هناك من يتذكرهما اليوم، إنني واثق من هذا. طيب. ثم ماذا؟

أقول له:

ــ وهل كان باييخوس متآمراً أيضاً؟

يأخذ نفساً من مبسم سيجارته ويطلق سحابة من الدخان جانباً لكي لا ينفثها في وجهي.

ــ ليست هناك أدلة بالنسبة لباييخوس. من الممكن أنه كان أداة لمايتا ــ يعود مرة أخرى إلى تركيب الفسيفساء ــ هذا هو المحتمل، أليس كذلك؟ لقد كان مايتا ثعلباً عجوزاً وماكراً، بينما كان الآخر شاباً عديم الخبرة. ولكنني أقول وأكرر، لا توجد أدلة.

إنه يتكلم بنعومة طوال الوقت، ويحيي في أثناء ذلك من يدخلون ويخرجون.

يضيف قائلاً:

ـــ أنت تعلم أن مايتا أمضى حياته في التنقل من حزب لآخر. ودائماً ضمن أحزاب اليسار. أهو مجرد تقلب أم براعة؟ لا يمكنني حتى أنا نفسي الذي عرفته جيداً أن أحدد ذلك. لأنه كان مثل الحنكليس: يتزلق ولا توجد طريقة لمعرفته معرفة عميقة. ولكنه مع ذلك كان مع هذا الفريق وذاك، كان قريباً وضمن جميع المنظمات التقدمية. إنها مسيرة مريبة، ألا ترى ذلك؟

فأقول له:

ـــ وكل تلك السجون التي دخلها. سجن الإصلاح، و السستو، والفرونتون.

فيلمح السيناتور:

ـــ لدي معلومات بأن سجنه لم يكن يطول أبداً لفترات طويلة. من الأفضل القول إنه مرّ من سجون كثيرة بدل القول إنه كان فيها. والصحيح هو أن اسمه وارد في سجلات الخدمة في المخابرات.

كان يتكلم باتزان، دون أدنى أثر من الحقد ضد ذلك الرجل الذي يتهمه بأنه كان يكذب ليلاً ونهاراً، على امتداد السنوات، وبأنه كان يشي بمن يثقون به ويطعنهم في الظهر، وبأنه نظم انتفاضة مسلحة لمجرد توفير ذريعة تبرر القمع الشامل ضد اليسار. إنه يمقته بكل قواه، لا شك في ذلك. لا بد أن كل ما يقوله لي ويلمح به ضد مايتا مدروس وآتٍ من بعيد، فقد فكر به، وأعاد التفكير، ورواه مرة بعد أخرى خلال هذه السنوات الخمس والعشرين. هل هناك أساس صحيح لما حوله حقده إلى جبل؟ أهي مهزلة بالكامل من أجل تحقير ذكرى مايتا لدى أولئك الذين ما زالوا يتذكرونه؟ وما سبب كل هذا الحقد؟ أهو سبب سياسي، أم شخصي، أم كلا الأمرين؟

يُخرج عقب السيجارة من المبسم مستخدماً عود ثقــاب ويســحقه في المنفضة:

ـــ لقد كان شيئاً ميكافيلياً في الواقع. في البدء كنا نشك في ذلك، فالدقة التي رتب بها الكمين لنا تبدو مستحيلة. إنها عملية بارعة.

فأقاطعه:

ـــ وهل هناك معنى لإقدام أجهزة المخابرات والـــ CIA على ترتيب مثـل هذه المؤامرة؟ أيفعلون كل ذلك من أجل تصفية منظمة من سبعة أعضاء؟

يضحك السيناتور كامبوس:

ـــ بل ستة، ستة أعضاء. لا تنس أن مايتا كان واحداً منهم.ـــ ولكنـــه يستعيد جديته على الفور ويضيف: ـــ هدف المكيدة لم يكـن ح ع ث (ت)، وإنما اليسار بمجمله. عملية احترازية: بتر أي محاولة ثوريـــة في البـــيرو مـــن جذورها. ولكننا كشفنا لعبتهم، المؤامرة انفجرت و لم تحقق النتائج التي كـانوا يأملونها. ومع أننا كنا منظمة صغيرة جداً، إلا أننا نحن في ح ع ث (ت) مـــن أنقذنا اليسار من حمام دم مثل هذا الذي يجري في البلاد الآن.

فأرد عليه:

ـــ وبأي طريقة أحبط ح ع ث (ت) المكيدة. فما كان مدبراً في خاوخا قد حدث. أليس كذلك؟

فيحدد هو:

ـــ لقد أحبطناه بمعدل تسعين بالمئة. و لم يتوصلوا إلى ما كانوا يريدون إلا بمقدار عشرة بالمئة. كم أعتُقل منا؟ وكم هم الذين اضطروا إلى الاختباء؟ لقـــد أبقونا محاصرين أربع أو خمس سنوات. ولكنهم لم يتمكنوا من القضاء علينـــا، وكان هذا هو الهدف الذي أرادوه.

أقول له:

ــ ألم يكن الثمن عالياً جداً؟ لأن مايتا وباييخوس...

فيقاطعني الفسيفسائي:

ــ أن يعمد المرء إلى الاستدراج والوشاية هو أمر ينطوي على مجازفة ــ ثم يؤكد بقسوة: ــ لقد أخفقا ودفعا الثمن بالطبع. أليس هذا هو ما يحدث في هذه المهنة؟ أضف إلى ذلك أن هناك دليلاً آخر. استعرض أسماء من ظلوا أحياء. ما الذي جرى لهم؟ ما الذي فعلوه فيما بعد؟ ما الذي يفعلونه الآن بالذات؟

يبدو أن السيناتور كامبوس قد فقد بمرور السنوات عادة النقد الذاتي.

ــ لقد كنتُ مؤمناً على الدوام بأن الثورة تبدأ بالإضراب العام.ــ يقول أناتوليو.

فيسخر منه مايتا:

ــ تحريفية سوريليه شديدة الفوضوية. لم يقل ماركس، ولا لينين، ولا تروتسكي أبداً بأن الإضراب العام هو المنهج الوحيد للثورة. هل نسيت الصين؟ ماذا كان أسلوب ماو؟ الإضراب أم الحرب الثورية؟ تشبث وإلا ستقع.

انزلق أناتوليو قليلاً عن حافة السرير. وقال:

ــ إذا ما نُفذت الخطة، فلن يكون هناك أخوّة على الإطلاق بين الجنود والشعب في البيرو. ستكون حرباً مفتوحة.

ــ علينا أن نحطم الصيغ الجاهزة ــ وكان مايتا يرهف مسمعيه، لأن الأصوات تُسمع عموماً في مثل هذا الوقت. وعلى الرغم من لهفته، فقد كان يفضل عدم مواصلة التحدث في السياسة مع أناتوليو. عمَ سيتحدثان إذن؟ عن

أي شيء، ولكن ليس عن هذا النضال الذي يقيم بينهما تضامناً تجريدياً، وأخوة مبهمة. ثم أضاف: ـــ وهذا أصعب بالنسبة إلي مما هو بالنسبة إليك، لأنني أكبر منك سناً.

السرير الضيق لا يكاد يتسع لهما، وهو يئّن لدى أدنى حركة. لقد كانا دون قميصيهما ودون حذائهما، ولكنهما يلبسان بنطاليهما. وكانا قد أطفأا النور فكان بريق مصباح الشارع ينفذ من النافذة الأمامية. وفي البعيد، كان يُسمع بين حين وآخر المواء الشبق لقطة متهيجة: كان هذا هو الليل.

ـــ سأعترف لك بشيء يا أناتوليو ـــ قال مايتا ذلك وهو مستلق، مستنداً إلى ذراعه الأيمن، وكان قد دخن علبة سجائر في ساعات قليلة. وبالرغم من هذه الوخزة التي يشعر بها في صدره، فإنه ما يزال راغباً في التدخين. كانت اللهفة تخنقه. وفكر: «إهدأ يا مايتا. لن تقوم بنذالات الآن، أليس كذلك يا مايتا؟» ثم أضاف بصوت عال:ـــ هذه هي أهم لحظة في حياتي. إنني متأكد من ذلك يا أناتوليو.

فقال الفتى وكأنه الصدى:

ـــ إنها كذلك بالنسبة إلى الجميع. إنها أهم لحظة في حياة الحزب. وعساها تكون في حياة البيرو أيضاً.

وقال مايتا:

ـــ الأمر مختلف في حالتك. فأنت فتي جداً. مثلما هو بيّاردي. إنكما تبدأان حياتيكما كثوريين وتبدأانها جيداً. أما أنا فقد تجاوزت الأربعين من عمري.

ـــ وهل هذا يعني الشيخوخة؟ أليست هذه السن هي الشباب الثاني؟

فغمغم مايتا:

ـــ أو الشيخوخة الأولى بكلمة أصح. لقد أمضيت قرابة خمس وعشرين سنة على هذه الحال. وفي الشهور الأخيرة، في هذه السنة الأخيرة، وخصوصاً بعد أن انقسمنا وبقينا سبعة أشخاص فقط، كانت تطن في أذني على الدوام كلمة واحدة: زبالة.

ساد الصمت. وحطمه مواء قطة. ثم سمع أناتوليو يقول:

ـــ أنا أيضاً أشعر بالغم أحياناً. فرؤية السواد في كل شيء هو أمر إنساني حين تكون الأمور سيئة. ولكنني أستغرب أن تشعر أنت بذلك يا مايتا. لأنه إذا ما كان هناك شيء أقدره فيك دائماً، فإنه تفاؤلك.

كان الجو حاراً وكان ذراعاهما المتلامسان رطبين. وقد كان أناتوليو أيضاً مستلقياً على ظهره، وبإمكان مايتا أن يرى، في الظلام، قدميه العاريتين عند حافة السرير قريبتين من قدميه. وفكر في أن أقدامهما قد تتلامس في أي لحظة.

قال موارياً استياءه:

ـــ افهمني جيداً. لست مغموماً لأنني كرست حياتي للثورة. هذا لا يمكن أن يحدث مطلقاً يا أناتوليو. في كل مرة أخرج إلى الشارع وأرى في أي بلاد أعيش، أدركُ أنه ليس ثمة ما هو أهم من الثورة. إنني أصاب بالغم لأني ضيعت الوقت، لأني اتخذت طريقاً خاطئاً.

وقال أناتوليو مازحاً:

ـــ إذا ما قلت لي إنك قد خُدعت بليون دافيدوفيتش وبالتروتسكية، سأقتلك. لا تجعلني أشعر بأنني قد قرأت كل تلك المجلدات عبثاً.

ولكن مايتا لم يكن يشعر برغبة في المزاح. كان يشعر بالحماس وبالغم في الوقت نفسه. وكان قلبه ينبض بقوة إلى حد قال معه في نفسه بأنه ربما كان أناتوليو يسمع تلك النبضات. وكان الغبار المتراكم ما بين كتب وأوراق

وصحف البيت الصغير قد بدأ يدغدغ أنفه، ففكر بسخف: «اكبح عطاسك وإلا ستموت».

ـــ لقد ضيعناً الكثير من الوقت يا أناتوليو في مسائل بيزنطية، وفي ترهات لا علاقة لها بالواقع. كنا منفصلين عن الجماهير ودون جذور بين الشعب. أي نوع من الثورة كنا سنصنع؟ أنت ما تزال شاباً. أما أنا فقد أمضيت سنوات طويلة في هذا الأمر، ولكن الثورة لم تقترب ولو ميليمتراً واحداً. واليوم أحسست لأول مرة بأننا نتقدم، وبأن الثورة ليست شبحاً وإنما هي جسد من عظم ولحم.

ـــ اهدأ يا أخي ـــ قال له أناتوليو وهو يمد يده ويربت على رجله. فانكمش مايتا على نفسه كما لو أنه تلقى ضربة على فخذه وليس مجرد ملامسة ودودة ـــ. في اجتماع اللجنة اليوم، عندما طرحتَ اقتراحك بالانتقال إلى العمل، وتساءلتَ إلى متى سنواصل إضاعة الوقت، لمست أوتار قلوبنا. لم أسمعك تتحدث بمثل هذا الاندفاع من قبل يا مايتا. كان الكلام يخرج من أعماقك. وكنتُ أفكر:«فلنذهب الآن فوراً إلى الجبال، ماذا ننتظر». لقد تشكلت عقدة هنا، في حلقي، أقسم لك.

مال مايتا على جانبه بمشقة، ورأى بروفيل أناتوليو مرسوماً على خلفية خزانة الكتب الغائمة: ناصية شعره، جبهته اللامعة، بياض أسنانه، شفتيه المفتوحتين.

همس:

ـــ سنبدأ حياة أخرى. سنخرج من الكهف إلى الهواء الطلق، من دسائس الكراج والمقهى إلى العمل بين الجماهير وتوجيه الضربات إلى العدو. سنسبح وسط الشعب يا أناتوليو.

كان وجهه قريباً جداً من كتف الفتى العاري. وتسربت إلى أنفه رائحة بشرة بشرية، قوية، وشوشته. ركبتاه المنكمشتان لامستا ساق أناتوليو. وكان مايتا لا يكاد يميز في العتمة بروفيله الثابت. هل عيناه مفتوحتان؟ أنفاسه تُحرك صدره بانتظام. وببطء مد يده اليمنى الرطبة التي ترتجف، وتلمس، حتى وصل إلى بنطاله:

ـــ دعني أداعبه لك ـــ دمدم بصوت محتضر وهو يشعر أن جسده كله يلتهب ـــ دعني يا أناتوليو.

ـــ وأخيراً، هناك مسألة أخرى لم نتعرض لها، ولكننا إذا أردنا الوصول إلى عمق الأشياء فلا بد لنا من تناولها ـــ تنهد السيناتور كامبوس، بحيث يمكن القول إنه محزون، وأضاف: ـــ وأنت تعرف بالطبع أن مايتا كان لوطياً.

فقلت له:

ـــ هذه تهمة توجه بكثرة إلى الخصوم في بلادنا. وهي تهمة من الصعب إثباتها أيضاً. هل لهذا علاقة بما جرى في خاوخا؟

ـــ أجل، ربما كانت تلك هي نقطة الضعف التي أمسكوه منها. من هذه النقطة حصروه إلى الجدار وأجبروه على العمل من أجلهم. إنه عقب أخيله. يكفي أن يتنازل مرة واحدة. وماذا يبقى له بعدها سوى مواصلة التعاون معهم؟

ـــ لقد عرفت من موسيس أنه كان متزوجاً.

فابتسم السيناتور:

ـــ جميع المخنثين يتزوجون. إنها وسيلة التنكر الأكثر شيوعاً. وفضلاً عن التهريج، فقد كان زواجه كارثة حقيقية. لم يستمر إلا لوقت قصير.

لقد بدأت جلسة مجلس الشيوخ، أو مجلس النواب، لأن أصواتاً متصاعدة وضربات حافظات أوراق تأتي من قاعة الجلسات وتُسمع أصوات مضخمة

بمكبرات الصوت. البار أقفر و لم يعد فيه أحد. ودمدم السيناتور كامبوس: «سنستجوب الوزير. المجلس سيطلب منه أن يقول بوضوح إذا ما كانت قوات أجنبية قد توغلت داخل التراب الوطني.» ولكنه لا يبدي إمارات التعجل. ويواصل التكلم دون فقدان هذه الموضوعية العلمية التي يغطي بها أحقاده.

ـــ ربما كان التفسير هناك ـــ يفكر وهو يتلاعب بالمبسم ـــ أيمكن الثقة بشخص شاذ جنسياً؟ إنه كائن غير مكتمل، مخنث، معرض لكل أشكال الضعف، بما في ذلك الخيانة.

ويتحمس وقد سيطر عليه الموضوع، فيبتعد عن مايتا وعن أحداث خاوخا ويوضح لي أن الشذوذ الجنسي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالانقسام الطبقي وبالثقافة البرجوازية. وإلا، لماذا لا يوجد شاذون جنسياً في البلدان الاشتراكية؟ ليس الأمر صدفة، وليس لأن هواء تلك البلدان يجعل الناس فاضلين. من المؤسف أن البلدان الاشتراكية تمد يد المساعدة إلى دعاة قلب النظام في البيرو. لأن في تلك المجتمعات أشياء كثيرة جديرة بأن تحاكى. فقد اختفت فيها ثقافة البطالة والكسل والخواء النفسي، وهذا القلق الوجودي التقليدي لدى البرجوازية التي ترتاب حتى في الجنس الذي تنتمي إليه. الشذوذ هو صفة مطلقة، رغم التباينات.

ـــ ألا تخجل من نفسك؟ ـــ سمعه يقول ـــ تستغل صداقتنا، لأنني في بيتك. ألا تخجل من نفسك يا مايتا؟

كان أناتوليو قد جلس على حافة السرير واضعاً يديه فوق ركبتيه، وكانت يداه مجتمعتين تسندان ذقنه. وكان البريق الزيتي الآتي من النافذة يصفع ظهره ويغطي بلمعان أخضر قاتم بشرته الناعمة التي تظهر منها ضلوعه.

وتلعثم مايتا وهو يبذل جهداً ليتكلم:

ـــ بلى، إنني اخجل. انس ما حدث.

ـــ كنتُ أظن أننا صديقان ـــ قال الفتى ذلك بصوت مكسور، وهو ما يزال يدير له ظهره. وكان ينتقل من الغضب إلى لازدراء ثم إلى الغضب من جديد: ـــ يا لخيبة الأمل، اللعنة! أكنت تظنني مخنثاً؟

ـــ أعرف أنك لست كذلك ـــ همس مايتا. والحر الذي كان يشعر به قبل لحظة تلاه برد ينخر عظامه: حاول أن يفكر بايبخوس، بخاوخا، بالأيام المثيرة والمُطهرة الآتية، ثم أضاف: ـــ لا تُشعرني بالذنب أكثر مما أشعر به.

ـــ وكيف تراني أشعر أنا؟ ـــ صرخ أناتوليو. واهتز السرير الصغير مطلقاً صريراً وظن مايتا أن الفتى سينهض واقفاً، ويرتدي قميصه ويخرج صافقاً الباب بقوة. ولكن السرير هدأ من جديد وبقيت بشرة ذلك الظهر المشدودة أمامه. ثم أضاف الفتى: ـــ لقد دمرتَ كل شيء يا مايتا. كم أنت فظيع. لقد اخترت لحظة طيبة. اليوم، هذا اليوم بالذات.

فتنهد مايتا:

ـــ وهل حدث أي شيء؟ لا تكن طفلاً. إنك تتكلم وكأننا قد متنا.

ـــ أنت بالنسبة إلي صرت ميتاً منذ هذه الليلة.

في هذه الأثناء سمعا فوق رأسيهما الضجيج الخافت: خافتاً، متعدداً، خفياً، مقرفاً، غامضاً. بدا لبضع ثوان وكأنه هزة أرضية، فقد ارتجت أخشاب السقف القديمة وبدا كما لو أنها ستنهار فوقهما. وفجأة، تلاشت الأصوات بصورة مباغتة مثلما بدأت. إنها تسبب التشنج لمايتا في ليال أخرى، ولكنه كان يشعر بالامتنان نحوها في هذه الليلة. كان يحس بتشنج أناتوليو ويرى رأسه متقدماً، يصغي إذا ما كانت الأصوات ستعود: لقد نسي، لقد نسي. وفكر مايتا بجيرانه الذين ينامون في جماعات من ثلاثة أو أربعة أو ثمانية أشخاص في غرف البناء المصفوفة على شكل حذوة، غير مبالين بالقمامة، بالضجيج. إنه يحسدهم في هذه اللحظة.

تلعثم:

ـــ إنها جرذان. هنالك الكثير منها ما بين السقفين. إنها تتسابق، تتشاجر، ثم تهدأ بعد ذلك. لا يوجد منفذ تدخل منه. لا تقلق.

ـــ لست قلقاً ـــ قال أناتوليو ذلك. ثم أضاف بعد قليل: ـــ هناك حيث أعيش في كاياو توجد جرذان كذلك. ولكنها على الأرض، في المجلوير، في... وليس فوق رؤوس الناس.

قال مايتا وقد تحسن صوته،وكان يسترد السيطرة على عضلاته، ويمكنه التنفس:

ـــ في البدء كانت تأتيني الكوابيس. لقد وضعت سماً، ونصبت مصائد. وفي إحدى المرات تمكنا من جعل البلدية ترش المبيدات. ولكن دون جدوى. إنها تختفي بضعة أيام ثم تعود.

وقال اناتوليو:

ـــ القطط خير من السموم والمصائد. يجب أن تحصل على قط. أي شيء بدل هذه السيمفونية فوق رأسك، يا للعنة.

وكما لو أن القطة النزوية قد أحست بالإشارة فعادت تطلق إحدى صرخاتها الفاحشة في البعيد. وبدا لمايتا أن أناتوليو يبتسم، فطفر قلبه.

ـــ لقد تشكل في ح ع ث (ت) فريق عمل للإعداد مع بابيخوس لمسألة خاوخا. وقد كنتَ حضرتك واحداً من أعضاء ذلك الفريق، أليس كذلك؟ ما هي النشاطات التي قمتم بها؟

ـــ قليلة جداً، وبعضها مضحك. ـــ وبحركة ساخرة يحط السيناتور من قدر تلك الواقعة القديمة ويحولها إلى شقاوة صبيان: ـــ لقد أمضينا مساء أحد الأيام مثلاً ونحن نطحن الفحم ونشتري ملح البارود والكبريت لكي نصنع باروداً. لم ننتج ميليغراماً واحد على ما أذكر.

يهز رأسه باستمتاع ويتأخر في إشعال سيجارة جديدة. يطلق الدخان إلى أعلى ويتأمل الدوائر. حتى الندل قد ذهبوا، وصار بار الكونغرس يبدو أكثر اتساعاً. وفي داخل المجلس انفجرت عاصفة من التصفيق. «عسى المجلس يتمكن من جعل الوزير يتكلم على المكشوف. وأن نعرف إذا ما كان هناك ماريتز في البيرو»، كان السيناتور يفكر بذلك متجاهلاً وجودي لبضع ثوان. «وإذا ما كان الكوبيون يستعدون لغزونا من الحدود مع بوليفيا.»

ثم عاد بعد ذلك إلى الموضوع:

ـ في فريق العمل بدأت شكوكنا تتأكد. كنا قد أخضعناه قبل ذلك إلى المراقبة، دون أن يلاحظ ذلك. منذ أن جاء بين عشية وضحاها بحكاية أنه قد التقى بعسكري ثوري. ملازم سيبدأ الثورة في الجبال، وأنه علينا مساندته. غيِّر الزمن، وانتقل إلى عام ١٩٥٨. ألا ترى الأمر مثيراً للريبة؟ ولكن فيما بعد، حين ورطنا على الرغم من شكوكنا في مغامرة خاوخا، بدأت رائحته الكريهة تفوح.

ليست الاتهامات ضد مايتا وباييخوس هي التي تثير حيرتي، وإنما منهج السيناتور الأملس كالأفعى، والزئبقي الذي لا يمكن الإمساك به. إنه يتكلم بنبرة ثابتة، ومن يسمعه يقول إن ازدواجية مايتا هي أمر بديهي. وفي الوقت نفسه، وعلى الرغم من جهودي، لم أستطع أن أنتزع منه دليلاً قاطعاً واحداً، ليس هناك سوى هذه الشبكة العنكبوتية من الظنون والافتراضات التي راح يحوكها حولي. ويصيح فجأة: «يقال أيضاً إن الكوبيين قد دخلوا وإنهم هم الذين يقومون بالعمليات العسكرية في كوسكو وبونو. الآن سنعرف ذلك.»

وأعيده إلى قضيتنا:

ـ أتتذكر بعض الوقائع التي دفعتك إلى الارتياب به؟

ـــ هناك وقائع لا تحصى ـــ يقول على الفور، بينما هو يطلق سحابة من الدخان ـــ إنها وقائع قد لا تعني الكثير إذا أُخذت منفصلة،ولكنها تصبح أدلــة حاسمة إذا وضعت في سياق مجرياتها.

ـــ هل في ذهنك مثال محدد؟

ويقول السيناتور:

ـــ في أحد الأيام اقترح علينا أن نضم إلى مشروع الانتفاضة المســـــلحة جماعات سياسية أخرى. ابتداء من الموسكوبيين. بل إنـــــه كـــان قـــد قـــام بالاتصالات أيضاً. هل تلاحظ ذلك؟

وأجبته:

ـــ بصراحة لا ألاحظ أي شيء. فكـــــل الأحـــزاب اليســـارية، مـــن موسكوبيين، وبكينيين، وتروتسكيين تقبلوا بعد سنوات مـــن ذلـــك فكـــرة التحالف، والعمل المشترك، بل والاندماج في حزب واحد.فلماذا يكون مريبـــاً إذن هذا الشيء الذي لم يعد كذلك فيما بعد؟

فدمدم هو بسخرية:

ـــ فيما بعد تعني بعد مرور خمس وعشرين سنة. فمنذ ربع قرن لم يكـــن بإمكان أي تروتسكي أن يدعو الموسكوبيين فجأة إلى التعاون.لقد كان الأمـــر حينذاك أشبه بأن تقترح الفاتيكان على الكاثوليك أن يتحولوا إلى الإســـلام. إن مثل ذلك الاقتراح هو أشبه بوشاية ذاتية. لقد كان الموسكوفيون يكرهون مايتا إلى حد الموت. وكان هو يكرههم أيضاً، في الظاهر على الأقل. أيمكنـــك أن تتصور تروتسكي يدعو ستالين إلى التعاون؟ ـــ ويهز رأسه بأسف: ـــ لقـــد كانت اللعبة واضحة.

قال أناتوليو:

ـ أنا لم أصدق ذلك مطلقاً. آخرون في الحزب صدقوه. أما أنا فكنت أدافع عنك دوماً قائلاً إنها افتراءات.

ودمدم مايتا:

ـ إذا كان التحدث في هذا الأمر سيجعلك تنسى، فلا بأس في أن نتحدث. أما إذا لم يكن كذلك، فمن الأفضل ألا نتحدث. إنه موضوع صعب يا أناتوليو، وأنا مشوش بشأنه على الدوام. إنها سنوات طويلة في السرية، وأنا أحاول خلالها أن أفهم.

سأله أناتوليو:

ـ أتريدني أن أذهب؟ سأذهب الآن حالاً.

ولكنه لم يتحرك. لماذا لا يستطيع مايتا أن يتخلى عن التفكير بتلك الأُسر التي في الغرف الأخرى، المتراكمة في العتمة، آباء وأبناء وأبناء للزوج أو الزوجة من زواج سابق يتقاسمون الفراش والبطانيات والهواء الفاسد ورائحة الليل العفنة؟ لماذا يسيطرون على تفكيره الآن، بينما هو لا يتذكرهم مطلقاً؟

قال:

ـ لا أريدك أن تذهب. أريدك أن تنسى ما حدث وألا نتحدث أبداً في هذا الأمر.

مرت في الشارع المجاور سيارة صاخبة ومدوية، لا بد أنها قديمة ومهترئة من أعلاها إلى أسفلها، فجعلت زجاج النوافذ يهتز.

قال أناتوليو:

ـ لست أدري. لست أدري إذا ما كان بإمكاني أن أنسى وأن يعود كل شيء مثلما كان من قبل. ما الذي جرى لك يا مايتا؟ كيف استطعت عمل ذلك؟

ـــ سأخبرك بكل شيء مادمت مصراً إلى هذا الحد ـــ سمع نفسه يقــول ذلك بتصميم أدهشه. أغمض عينيه، وواصل وهو يخشى أن يخونه لسانه في أي لحظة: ـــ لقد كنت سعيداً منذ اجتماع اللجنة. كنت مثل من استبدلوا دمــه، سعيداً بفكرة الانتقال أخيراً إلى الممارسة العملية. كنت... باختصـــار، أنــت رأيتني كيف كنت يا أناتوليو. وكان هذا هو السبب. الإثارة، الحماســـة. إن الغريزة تعمي العقل، وهذا سيئ. لقد أحسستُ برغبة في لمسك، في مداعبتك. وقد راودتني هذه الرغبة مرات كثيرة منذ تعرفت عليك . ولكنني كنت أكبــح نفسي على الدوام و لم تكن أنت تنتبه إلى ذلك. وفي هذه الليلـــة لم أســتطع. أعرف أنك لن تشعر مطلقاً بالرغبة في أن ألمسك. إن أكثر ما يمكنني الحصــول عليه من شخص مثلك يا أناتوليو هو السماح لي بأن أداعب عضوه.

ـــ يجب علي أن أخبر الحزب بهذا وأن أطلب منهم أن يطردوك.

ـــ والآن يتوجب عليّ أن أودعك ـــ يقول السيناتور كـــامبوس فجـــأة وهو يلقي نظرة إلى ساعته ثم يلتفت بعينيه نحو قاعة الاجتماعات: ـــ سيُناقَش مشروع تخفيض الخدمة العسكرية الإجبارية إلى سن الخامسة عشرة. جنـود في الخامسة عشرة، ما رأيك. حسن، في صفوف الجانب الآخر هناك أطفـــال في سن المدرسة الابتدائية...

ينهض واقفاً وأحذو حذوه. أشكره على الوقت الـــــذي خصصـــه لي، ولكنني أعترف له مع ذلك بأنني أنصرف محبطاً بعض الشيء. فهذه الهجمـــات القاسية ضد مايتا وتفسيره لأحداث خاوخا على أنها مجرد مكيدة، لا تبـــدو لي شديدة التماسك. وواصل هو الابتسام بلطف، وقال لي:

ـــ لست أدري إذا ما كنتُ قد أحسنت صنعاً بالتحدث إليك بكل هــذه الصراحة. إنها نقيصتي، أعرف ذلك. غير أنه في هذه القضية بصورة خاصـــة،

ولأسباب سياسية، يجب عدم تحريك الوحل كي لا نلوث أناساً كثيرين. ولكنك لستَ مؤرخاً وإنما أنت روائي. لو أنك قلت لي إنك ستكتب مقالاً أو كتاباً سوسيو بوليتيكياً، لكنتُ اعتصمتُ بالصمت. أما الرواية فهي شيء مختلف. إنها كتاب صدق أو لا تصدق بالطبع.

أوضح له أن كل الشهادات التي أحصل عليها، سواء أكانت صحيحة أم زائفة، ستنفعني. هل ظننت أنني سأستغني عن تأكيداتك؟ إنك مخطئ؛ فما أستخدمه ليس مصداقية الشهادات وإنما قدرتها على الإيحاء والابتداع، لونها، قوتها الدرامية. ولكنني أشعر بالمقابل أنك تعرف أكثر مما أخبرتني به.

فرد علي دون استغراب:

ــ مع أنني تكلمت مثل ببغاء. ولكن هناك أشياء لا أرويها حتى ولو سُلخت حياً. لا بد من إعطاء وقت للوقت وللتاريخ يا صديقي.

مشينا باتجاه بوابة الخروج. وكانت ممرات الكونغرس مطروقة بكثرة: لجان آتية لمقابلة البرلمانيين، ونساء يحملن محافظ أوراق، وأنصار للأحزاب السياسية ينظمهم في جماعات أشخاصٌ يضعون أشرطة على سواعدهم، ويصطفون للصعود إلى شرفاتٍ مجلس النواب، حيث ستكون المناقشة حامية حول قانون الخدمة العسكرية الجديد. الأمن مستتب في كل مكان: فهناك حراس من رجال الشرطة مزودون ببنادق، وتحريون باللباس المدني يحملون المسدسات الرشاشة، إضافة إلى الحراس الشخصيين للبرلمانيين. وبما أنه لا يُسمح لهؤلاء الأخيرين بدخول قاعات الجلسات، فقد كانوا يتمشون من جانب إلى آخر، دون أن يخفوا المسدسات التي يحملها بعضهم في قراب ويدسها آخرون ما بين البنطال والقميص. وكانت الشرطة تفتش بدقة كل شخص يجتاز البهو، فتجبره على فتح الأكياس أو المحافظ بحثاً عن متفجرات.

ولكن هذه الاحتياطات لم تحل في الأسابيع الأخيرة دون وقوع محاولتي اغتيال داخل الكونغرس، كانت إحداهما جدية جداً: شحنة من الديناميت انفجرت ببعض السيناتورات وأدت إلى موت اثنين وجرح ثلاثة منهم. كان السيناتور كامبوس يعرج، مستنداً إلى عكاز، ويوجه التحيات ذات اليمين وذات اليسار. رافقني حتى المخرج. اجتزنا ذلك الجو المفعم بالناس، وبالأسلحة، وبالمجادلات السياسية، الذي يبدو أشبه بحقل ألغام. لدي إحساس بأنه يمكن لحادث تافه أن يفجر الكونغرس كله مثل برميل بارود.

ويقول السيناتور ونحن عند الباب:

ـــ كم هو جيد التمتع بقليل من الهواء البارد. لست أدري كم من الساعات أمضيت هنا، والهواء في الداخل ملوث بكل هذا الدخان. حسن، لقد ساهمت بنصيبي في ذلك. إنني أدخن كثيراً. يجب علي أن أتخلى عن السيجارة في أحد هذه الأيام. الحقيقة أنني توقفت عن التدخين حوالى خمس مرات.

يمسك مرفقي بألفة، ولكن كي يقول لي هامساً في أذني:

ـــ فيما يتعلق بحديثنا، أنا لم أقل لك شيئاً. لا حول مايتا ولا حول خاوخا. لا أريد لأحد أن يتهمني بالمساهمة، في هذه اللحظات، بانقسام اليسار الديمقراطي من خلال بعث جدل حول أحداث مما قبل التاريخ. إذا ما استعملتَ اسمي، فسوف تجبرني على تكذيبك ـــ واصلَ الكلام وكأنه يمزح، ولكننا كلينا كنا نعرف أنه تحت النبرة المستخفة، كان يصوغ تحذيراً: ـــ لقد صمم اليسار على دفن هذه الواقعة، وهذا هو الحل العقلاني في الوقت الحالي. ولا بد أن تحين الفرصة المناسبة لنشر الغسيل تحت الشمس.

ـــ إنني أدرك ذلك بوضوح أيها السيناتور. لا تخش شيئاً.

ــ إذا ما قوّلتني شيئاً فسيكون علي أن أقاضيك بتهمة التزوير ــ يقول ذلك وهو يغمز لي بعينه ويمد يده بما يشبه المصادفة ليتلمس الجزء المنتفخ من سترته، حيث يخبئ المسدس، ويضيف: ــ ولكنك صرت تعرف الحقيقة، فاستخدمها دون ذكر اسمي.

يمد لي يداً متوددة ويغمز لي بعينه مرة أخرى، بخبث: إن له أصابع قصيرة ورقيقة من الصعب تصورها تضغط على الزناد.

ــ هل أحسست بالحسد نحو البرجوازيين يوماً؟ ــ قال مايتا.

ففوجئ أناتوليو:

ــ لماذا تسألني عن ذلك؟

ــ لأنني أنا الذي احتقرهم على الدوام، أحسدهم على شيء واحد ــ قال مايتا ذلك، وفكر: هل سيُضحكه؟

ــ وما هو هذا الشيء؟

ــ تمكنهم من الاستحمام كل يوم ــ كان مايتا واثقاً من أن الفتى سيبتسم على الأقل، ولكنه لم يره يبدي أدنى تأثر. فقد كان ما يزال جالساً على حافة السرير؛ وكان قد انحرف قليلاً بحيث صار بإمكانه الآن أن يرى بروفيله، متطاولاً، شديد الجدية، أسمر، بارز العظام، يتسلط عليه البريق الآتي من النافذة. كان له فم عريض الشفتين وبارزهما، وبدت أسنانه الكبيرة لامعة.

ــ مايتا.

ــ نعم يا أناتوليو.

ــ أتظن أنه يمكن لعلاقتنا أن تبقى مثلما كانت في السابق، بعد هذه الليلة؟

ــ أجل، ستبقى نفسها ــ قال مايتا ــ. لم يحدث أي شيَء يا أناتوليو. وهل حدث أي شيء؟ أدخل هذا في دماغك مرة واحدة.

وسُمع مرة أخرى الركض ما بين السقفين، قصيراً، متكتماً، وأحس مايتا أن الشاب قد انتصب متوتراً.

ــ لست أدري كيف يمكنك أن تنام مع هذه الضجة كل ليلة.

فرد مايتا:

ــ أستطيع النوم مع هذه الضجة لأنه لا مناص لي. ولكن ليس صحيحاً أن الإنسان يعتاد على كل شيء مثلما يقولون. فأنا لم أعتد على عدم استطاعتي الاستحمام كلما رغبت. مع العلم أنني قد نسيت متى سكنت آخر مرة في بيت فيه حمام. أظن أنه كان بيت خالتي خوسيفا، في سوركييو، منذ قرون. ولكن الاستحمام مازال مع ذلك أمراً أتشوق إليه كل يوم. عندما أعود متعباً وأتمكن من الاغتسال مثل قطٍ فقط هناك في الأسفل، ثم أصعد بطشت ماء أغمس فيه قدمي، عندئذ أفكر بكم هو لذيذ الاستحمام بالدوش، الدخول تحت الماء المتدفق ليحمل الماء معه الوسخ، والهموم. ثم النوم منتعشاً بعد ذلك... يا لطيب حياة البرجوازيين يا أناتوليو.

ــ ألا يوجد حمام عمومي قريب؟

فقال مايتا:

ــ هناك واحد على بعد خمس كوادرات، وأنا أذهب إليه مرة أو مرتين في الأسبوع. ولكنني لا أملك النقود دائماً. فالحمام يكلف مثلما تكلف وجبة طعام في المطعم الجامعي. يمكنني أن أعيش دون استحمام، ولكنني لا أستطيع العيش دون أكل. هل لديك دوش في بيتك؟

قال أناتوليو:

ــ أجل. المشكلة أن الماء غير متوفر دائماً.

تثاءب مايتا:

ـــ يا لك من محظوظ. أترى.. هناك شيء علــــى الأفــل تشـبه بــه البرجوازيين.

لم يتبسم أناتوليو هذه المرة أيضاً. بقيا صامتين وساكنين، كل منـــهما في مكانه. وبالرغم من أن الظلام مازال هو نفسه، إلا أن مايتا لاحظ قدوم تباشير الفجر في الجانب الآخر من النافذة: محركات سيارات، نفير بين حين وآخـــر، أصوات غير مميزة، حركة نشطة. أتكون الساعة الخامسة، السادســـة؟ لقـد أمضيا الليلة مؤرقين. كان يشعر بالضعف كما لو أنه بذل مجهوداً عظيمـــاً، أو كأنه ناقه من مرض شاق.

ـــ فلننم قليلاً ـــ قال وهو ينقلب على ظهره. غطى عينيه بساعده وابتعد قدر ما يستطيع ليفسح له مجالاً ـــ. لابد أن الوقت قد تأخر. في الغد، أو اليوم بكلمة أصح، سيكون علي أن أبدأ بقصم ظهري من جديد.

لم يقل أناتوليو شيئاً، ولكن مايتا أحس به يتحرك بعد قليل، وسمع السرير يصر ورآه بطرف عينه وهو يستلقي على ظهره أيضاً، إلى جانبه، محـــاذراً ألا يلمسه.

ـــ مايتا.

ـــ أيوه يا أناتوليو.

لم يقل الفتى شيئاً، مع أن مايتا انتظر لوقت لا بأس به. كان يشعر بأنـــه يتنفس بقلق. وكان جسده الجامح قد بدأ يحمى من جديد. ولكنه قال:

ـــ نم الآن. وغداً لن نفكر إلا بخاوخا يا أناتوليو.

ـــ يمكنك أن تداعبه لي إذا رغبت ـــ سمعه يهمس بخجـــل. ثم يضيـــف بصوت أشد خفوتاً، وبخوف: ـــ ولكن ليس أكثر من ذلك يا مايتا.

يبتعد السيناتور كامبوس وأبقى أنا في أعلى أدراج الكونغرس، قبالة نهـــر من البشر، والميكروباصات، والسيارات، والحافلات، والحركة، والصخـــب في

ساحة بوليفار. إلى أن يغيب عن النظر في جادة أبانكاي، ألحق حافلة نقل عتيقة، رمادية ومائلة إلى جهتها اليمنى، وعادمها، مثل مدخنة على مستوى السقف، تطلق سحابة دخان أسود، وعلى أبوابها تتعلق كتلة من الناس متمسكة بأعجوبة، يحتكون بالسيارات العابرة، وبأعمدة النور، وبالمشاة العابرين. إنها ساعة الخروج من العمل. في كل ناصية هناك حشد مزدحم ينتظر الحافلات والميكروباصات؛ وعندما يصل أحدها يدور حوله اشتباك من التدافع، والصراخ، والمماحكة والسباب. إنهم أناس بؤساء ومتعرقون، رجال ونساء تشكل معركة الشوارع هذه من أجل الصعود إلى الآليات النتنة روتينهم اليومي، حيث ينتقلون فيها، إذا استطاعوا الصعود إليها، مدة نصف ساعة أو ثلاثة أرباع الساعة، وقوفاً، محشورين، مختنقين من الحر. وهؤلاء البيرويون، على الرغم من ملابسهم البائسة والمضحكة بعض الشيء، ومن تنانيرهن المبتذلة، وربطات أعناقهم المزيتة، هم أعضاء في أقلية لمست إلهة الحظ جبهتها، فمهما كان تواضع ورتابة حياتهم، إلا أن لديهم عملاً كموظفات وموظفين، وراتباً صغيراً، وضماناً اجتماعياً وكفالة تقاعدية. وهذه امتيازات عظيمة إذا ما قورنوا على سبيل المثال بهؤلاء المولدين الحفاة الذين أراهم يجرون عربة ممتلئة بزجاجات فارغة، ويبصقون على السيارات وهم يتفادونها، أو بأفراد هذه الأسرة ذوي الأسمال ــ امرأة دون سن محددة، وأربعة أولاد لهم بشرة مغطاة بالقذارة ــ الذين يجلسون على أدراج متحف محكمة التفتيش، ويمدون أيديهم آلياً فور رؤيتي أقترب: «صدقة يا باباثيتو»، «أرجوك يا سينورثيتو»...

وفجأة، بدلاً من أن أواصل طريقي باتجاه ساحة سان مارتين، أقرر الدخول إلى متحف محكمة التفتيش. فأنا لم أذهب إليه منذ زمن طويل، ربما منذ الزمن الذي رأيت فيه زميلي في الدراسة مايتا للمرة الأخيرة. وبينما أنا

أزور المكان، لم أستطع أن أنتزع من رأسي صورة وجهه، كما لـو أن هيئـة ذلك الرجل الهرم والمنهوك مبكراً الذي رأيته في الصورة الفوتوغرافية في بيـت خالته وعرابته، قد استدعيت إلى ذهني بصورة لا تُقاوم بتأثـير المبـنى الـذي أزوره. ما هي العلاقة؟ ما هو الخيط السري الذي يجمع بين الهيئة كلية القـدرة التي تولت طوال ثلاثة قرون حراسة الأصوليةالكاثوليكية في البيرو وفي أميركـا الجنوبية، وذلك المناضل الثوري الغامض الذي خرج إلى النور مثل وميض برق قبل خمس وعشرين سنة؟

المبنى الذي كان قصر محكمة التفتيش فيما مضى هو الآن مجرد أطـلال، ولكن زخارف خشب الكابلي التي من القرن الثامن عشر مـازالت محفوظـة بحالة جيدة، مثلما توضح معلمة تلقينية لجماعة من التلاميذ. مشغولات بديعة: فقد كان قضاة محاكم التفتيش رجال ذوق. لقد اختفت تقريباً كل زخـارف القيشاني الاشبيلية التي استوردها الرهبان الدومنيكانيون لتزيين المكان. وكذلك بلاط الأرضية الذي جُلب من إسبانيا؛ فهو لا يكاد يظهر تحـت القـذارة. أتوقف قليلاً أمام الشعار المنحوت في الحجر الذي كان يعلو باعتزاز واجهـة هذا القصر، وفيه الصليب والسيف وغصن الغار. إنه يستقر الآن فوق طاولـة مخلعة.

لقد استقر قضاة التفتيش هنا في سنة ١٥٨٤، بعد أن أمضـوا الخمـس عشرة سنة السابقة قبالة كنيسة الرحمة. اشتروا العقار من دون سانتشـو دي ريبيرا، ابن أحد مؤسسي ليما، بمبلغ زهيد، ومن هنا سهروا على النقاء الروحي في الأراضي التي تسمى اليوم البيرو، والاكوادور، وكولومبيا، وفنزويلا، وبنما، وبوليفيا، والأرجنتين، وتشيلي، وباراغواي. من هذه القاعة، ومن وراء هـذه المنضدة الثقيلة المصنوعة من قطعة خشب واحدة، ولها بدل القوائم أشـكال مسوخ بحرية، كان قضاة التفتيش ذوو المسوح البيضاء وجيشهم من المجـازين

والمحضرين والكتبة والسجانين والجلادين، يقارعون بحماسة كل أشكال الشعوذة، والشيطنة، واليهودية، والهرطقة، وتعدد الزوجات، والبروتستانتية، والشذوذ. وفكر: «كل أشكال الهرطقة والانشقاق». لقد كان شاقاً وصارماً، شرعياً ومهووساً عمل السادة القضاة الذين كان بينهم (أو تعاون معهم) أبرز مثقفي العصر من محامين ولاهوتيين وأساتذة وخطباء وناظمي أشعار وناثرين. وفكر: «كم من الشاذين جنسياً أحرقوا؟». هناك تحقيق مفرط في الدقة والتفصيل، يُحبّر عدداً لا حصر له من الصفحات في ملف محفوظ بإحكام، يسبق كل إدانة وإعدام للهراطقة بالحرق. وفكر: «كم من المجانين عذبوا؟ وكم من السذج خنقوا؟». كانت تمر سنوات قبل أن تصدر محكمة التفتيش القدسية العليا حكمها من وراء هذه المنضدة التي تزينها جمجمة ومحابر فضية مزركشة بأشكال سيوف وصلبان وأسماك، وعبارة: «أنا، نور الحقيقة، أقود ضميرك ويدك. فإذا لم تطبق العدالة، تصنع بحكمك دمارك نفسه.» وفكر: «كم من القديسين الحقيقيين، وكم من الجريئين، وكم من البسطاء المساكين أحرقوا؟»

لأن ما كان يقود يد حاكم التفتيش لم يكن نور الحقيقة، بل الوشاة. وهم من كانوا يُبقون هذه الزنازين والسجون ممتلئة، هذه الكهوف الرطبة والعميقة التي لا تصلها الشمس ولا يخرج منها السجين إلا كسيحاً. وفكر: «أنت كنت ستنتهي هنا على أي حال يا مايتا. بسبب طريقتك في الحياة.» كان الواشي ينعم بأقصى الحماية، وكانت سريته مكفولة، لكي يتعاون دون أي خوف من العقاب أو الانتقام. هاهي ذي سليمة بوابة السر، وتطلع مايتا بإحساس قلقٍ من الفتحة الصغيرة، يراوده شعور بأنه ذلك الواشي الذي يمكن لشهادته أن تقود المرء إلى السجن لسنوات طويلة، وتحرمه من كل ثرواته، وتحكم عليه بحياة مشينة، أو بالحرق حياً. اقشعر بدنه: كم كان سهلاً التخلص

من خصم. يكفي الدخول إلى هذه الحجرة الضيقة، ووضع اليد على الكتاب المقدس، والإدلاء بالشهادة. لقد كان بإمكان أناتوليو أن يأتي، وأن ينظر من الفتحة، وأن يهز رأسه موافقاً وهو يشير إليه ليقدمه إلى لهيب المحرقة.

لم يحرقوا الكثيرين في الحقيقة، فهناك لوحة مكتوبة بخط مريب توضح: خمسة وثلاثون شخصاً خلال ثلاثة قرون. ليس بالرقم المخجل. ومن بين الخمسة وثلاثين، هناك ثلاثون شخصاً ــ ويا للعزاء البائس ــ أعدموا بآلة الخنق قبل أن تأكل النار جثثهم. وأول بطل لاستعراض الحرق في ليما لم يحالفه الحظ: فذلك الفرنسي، ماتيو سالادو، أحرقوه حياً، لأنه كان ينصرف إلى إجراء تجارب كيميائية وشى بها أحدهم بأنها «اتصالات مع الشيطان». وفكر: «سالادو؟». أيكون ذلك الفرنسي هو الذي ولّد اللفظة البيروية «salado» للإشارة إلى الشخص سيئ الطالع؟ وفكر: «من الآن وصاعداً لن تكون ثورياً سالادو يا مايتا.»

ومع أن المحكمة المقدسة لم تحرق أناساً كثيرين، إلا أنها عذبت دون حدود. فبعد الوشاة، كان التعذيب الجسدي هو أكبر حمّال للضحايا، من كل الأجناس والظروف والأحوال، إلى قضاة الإيمان. وهنا تعرض جيداً، في معرض الرعب، التي كانت تستخدمها المحكمة المقدسة من أجل ــ الفعل الرياضي ــ «انتزاع الحقيقة» من المشبوه. وثمة دمى من الورق المضغوط تعرف الزائر على كيفية عمل «البكرة» أو «استرابادو»، وهو حبل يعلق به المتهم ببكرة، ويداه مقيدتان إلى ظهره بينما يربط بقدميه ثقل يزن مئة كيلوغرام. أو كيف كان يمدد على «البوترو»، وهي طاولة عمليات، يمكن بواسطة أربع ضواغط خلع أطرافه الأربعة، واحداً بعد واحد أو الأربعة معاً. وأكثر أساليب التعذيب عامية هو الغل الذي يثبت رأس المتهم مثل نير بينما هو يُجلد؛ وأكثرها تخيلاً

«المانكويردا»، وهي ذات تفنن وتخيل سوريالي، حيث يمكن للجلاد، بواسطة جهاز من الأصفاد والأغلال، أن يمارس التعذيب على ساقي أو ذراعي أو عضدي أو عنق أو صدر المتهم. وأكثر أساليب التعذيب معاصرة هو «الخِمار» ــ وهو قطعة قماش توضع على الأنف أو تحشر في الفم، ويسكب عليها ماء متواصل، فتمنع التنفس عندما تُشبع بالماء ــ وأكثرها استعراضية هو المجمرة التي تُقرّب من قدمي المحكوم المثبتتين مسبقاً والمطليتين بالدهن لكي تشويا. وفكر مايتا: «الآن لديهم الكهرباء في الخصيتين، والحقن بعقارالهلوسة، والتغطيس في براميل مملوءة بالبراز، والحرق بالسجائر.» لم يحدث تطور يذكر في هذا المجال.

ولكنه تأثر أكثر ــ لقد فكر عشر مرات: «ما الذي تفعله هنا يا مايتا، أهذا هو الوقت المناسب لإضاعة الوقت، أليس لديك أموراً أشد أهمية يجب إنجازها» ــ برؤية الحجرة الصغيرة التي تضم الملابس التي كان يتوجب على المتهمين باليهودية والشعوذة أو بمباضعة الشيطان أو الهرطقة أن يلبسوها لشهور، لسنوات أو حتى موتهم، ممن أظهروا «توبتهم وندمهم الشديد» وارتدوا عن خطاياهم وتعهدوا بافتداء أنفسهم. إن حجرة لأدوات التنكر، وسط هذه الفظاعات، تبدو شيئاً أكثر إنسانية. هنا يوجد الـ«كوروثا» أو القبعة التي لها شكل طرطور والسامبينيتو[1] أو عباءة الجمال البيضاء المطرزة بصلبان وأفاع وشياطين ولهيب، وبها كان يسير المحكومون في موكب حتى ميدان بلاثا مايور ــ وهناك وقفة قصيرة في زقاق الصليب، حيث يتوجب عليهم أن يجثوا قبالة صليب دومنيكاني ــ، ليتعرضوا هناك للجلد أو الإعدام، أو يتوجب عليهم أن يرتدوا تلك الثياب نهاراً وليلاً طوال مدة الحكم. هذه

---

[1] ــ سامبينيتو (sambenito): بدلة العار التي كان يلبسها المحكوم عليهم في محاكم التفتيش.

هي الصورة الأخيرة التي بقيت عالقة في ذهني عندما أنهيت الزيارة، ومضيت نحو بوابة الخروج: إنها صورة أولئك المحكومين وهم يقومون بأعمالهم اليومية بذلك الزي الذي كان يثير الرعب والهلع والقرف والتقزز والسخرية والحقد فيما حولهم. لقد تصور ما كانت عليه أيام وشهور وسنوات أولئك الناس بتلك الملابس، ممن كان الجميع يشيرون إليهم ويتجنبونهم وكأنهم كلاب مصابة بداء الكلب. وفكر: «إنه متحف يستحق عناء زيارته.» تعليمي، مبهر. ففيه عنصر جوهري وثابت من تاريخ هذه البلاد، منذ أزمنته المغرقة في القدم، عنصر مكثف في بضعة صور وأشياء مؤثرة: إنه العنف. العنف الأخلاقي والجسدي، العنف المتولد من التعصب والتزمت، العنف الأيديولوجي، عنف الفساد والحماقة الذي رافق السلطة على الدوام عندنا، وهذا العنف القذر، الضئيل، اللئيم، الانتقامي، المصلحي، الطفيلي الذي يتولد من العنف الأول. من الجيد المجيء إلى هنا، إلى هذا المتحف، للتأكد كيف وصلنا إلى ما نحن عليه اليوم، ولماذا نحن على ما نحن عليه.

عند بوابة متحف محكمة التفتيش، كانت قد انضمت إلى أسرة الأسمال الجائعة دزينة أخرى على الأقل من المسنين، والرجال والنساء والأطفال. لقد كانوا يشكلون بلاطا صغيرا من معجزات سالات وسخام وقشور. ما إن رأوني أظهر حتى مدوا على الفور أيادي ذات أظفار سوداء، طالبين صدقة. العنف من ورائي والجوع من أمامي. هنا، على هذه الأدراج، تتلخص بلادي. هنا يتلامس وجها تاريخ البيرو. وأفهم لماذا رافقني مايتا متسلطا على عقلي خلال جولتي في المتحف.

أنطلق بما يشبه الركض حتى سان مارتين لأركب الحافلة، فقد تأخر الوقت، لأن حركة المرور تتوقف تماما قبل نصف ساعة من موعد منع التجول. أخشى أن يدركني حظر التجول هذه المرة وأنا أمشي لأقطع

الكوادرات التي تفصل ما بين جادة غراو وبيتي. إنها كوادرات قليلة، ولكنها تكون خطرة عندما يخيم الظلام. لقد وقعت فيها عدة عمليات سطو، وفي الأسبوع الماضي جرت عملية اغتصاب. فزوجة لويس سالدياس الذي تزوج حديثاً، ويعيش قبالة بيتي ــ إنه مهندس مائي ــ تعطلت سيارتها وتأخرت عن موعد حظر التجول، فاضطرت إلى المجيء ماشية من سان إيسيدرو. وفي هذا الجزء الأخير من الطريق، أوقفتها دورية. كانوا ثلاثة من رجال الشرطة: أدخلوها إلى سيارتهم وعروها ــ بعد أن ضربوها، لأنها قاومتهم ــ واغتصبوها. ثم أوصلوها بعد ذلك إلى بيتها قائلين لها: «احمدي الله أننا لم نطلق عليك رصاصة». فهذه هي الأوامر التي لديهم للتعامل مع من يخرقون حظر التجول. روى لي لويس سالدياس ذلك بعينين مفعمتين بالغضب وأضاف أنه صار يشعر منذ ذلك الحين بالسعادة كلما جرى اغتيال شرطي. يقول إنه لم يعد يهمه أن ينتصر الإرهابيون، لأنه «لا يمكن لأي شيء أن يكون أسوأ مما نعيشه الآن». أنا أعرف أنه مخطئ، وأن الأمور قد تسوء، وأنه لا توجد حدود للإنحدار، ولكنني أحترم ألمه وأصمت.

الفصل الخامس

من أجل ركوب القطار إلى خاوخا يجب شراء التذكرة منذ اليوم السابق والحضور إلى محطة ديسامبارادوس في السادسة صباحاً. لقد قالوا لي إن القطار يسافر ممتلئاً على الدوام، وبالفعل، فقد اضطررت إلى ركوب القطار مزاحمة. ولكن الحظ حالفني بالعثور على مقعد، بينما كان معظم المسافرين وقوفاً. لا وجود في العربات لدورات مياه، وبعض المتهورين يتبولون من فوق السلم بينما القطار سائر. ومع أنني كنت قد تناولت بعض الطعام قبل أن أغادر ليما، إلا أنني بدأت أشعر بالجوع بعد ساعات قليلة. من المستحيل شراء أي شيء في المحطات التي يترل أو يصعد فيها المسافرون: محطة تشوسيكا، سان بارتولومي، ماتوكانا، سان ماتيو، كاسابالكا، لاأوريا. قبل خمس وعشرين سنة، كان الباعة المتجولون يهاجمون العربات في كل موقف عارضين الفواكه والمياه الغازية والسندويشات والحلوى. أما الآن فإنهم لا ينادون إلا على بعض المأكولات التافهة أو الأعشاب المغلية. ولكن على الرغم من ازعاجات الرحلة وبطئها، فإنها مليئة بالمفاجآت، أولى المفاجآت هي هذه العربات التي تتسلق صاعدة من مستوى البحر إلى ارتفاع خمسة آلاف متر لتجتاز جبال الانديز من ممر أنتيكونا، عند أقدام جبل ميغس. وحيال المشهد الشامخ نسيت وجود الجنود ببنادقهم المهيأة في كل عربة والرشاش الموجود فوق سطح القاطرة، تحسباً من الهجمات. كيف مازال هذا القطار يعمل؟ الطريق الإسفلتي إلى

سلسلة الجبال المركزية يُدفن باستمرار تحت وابل من الصخور التي ينتزعها الإرهابيون من حواف الطريق بالمتفجرات، حتى أصبح الطريق غير صالح للاستخدام تقريباً. لماذا لم يُنسف هذا القطار حتى الآن، و لم تُسد أنفاقه و لم تُخرب جسوره؟ ربما كان من المناسب لهم، لهدف استراتيجي ما، إبقاء الاتصال بين ليما وخونين قائماً. ولكن هذا يسعدني، فالرحلة إلى خاوخا ضرورية من أجل إعادة بناء تحولات وتقلبات مايتا.

تتوالى الجبال، تفصل بينها أحياناً هاويات سحيقة تشخر في أعماقها أنهار متدفقة. يجتاز القطار جسوراً وأنفاقاً. من المستحيل عدم التفكير بمأثرة المهندس ميغس الذي شيد قبل أكثر من ثمانين عاماً هذه السكة في مثل هذه الجغرافية ذات الاختناقات والقمم والذرى التي تزمجر فيها العواصف، وتحت رحمة ما تحمله الأنهار. هل فكر الثوري مايتا بأوديسا ذلك المهندس حين ركب هذا القطار أول مرة، في صباح يوم من أيام شباط أو آذار، قبل خمس وعشرين سنة؟ لقد فكر في الآلام التي تحمّلها آلاف المولدين والهنود لكي يمدوا هذه السكة، ويقيموا هذه الجسور، ويشقوا هذه الأنفاق مقابل أجر رمزي، لا يكاد يكون في بعض الأحيان سوى حفنة من طعام سيئ مع قَليل من أوراق الكوكا، كانوا يتعرقون اثنتي عشرة ساعة يومياً، ينحتون الأحجار، ويفجرون الصخور، ويحملون الأثقال على كواهلهم وهم نائمون، ويسوون الأرض، حتى يتحول أعلى قطار في العالم إلى واقع. كم منهم فقدوا أصابعهم، عيونهم، وهم ينسفون سلسلة الجبال؟ كم منهم سقط في هذه الهاويات السحيقة أو دفن تحت الانهيارات التي كانت تخرّب المعسكرات حيث ينامون فوق بعضهم البعض، مرتجفين من البرد، سكارى من الإنهاك، مخدرين بالكوكا، لا يتدفؤون إلا بعباءات البونشو وبأنفاس رفاقهم؟ كان قد بدأ يشعر بدوار المرتفعات: بعض الصعوبة في التنفس، ضغط الدم في الصدغين، تسرع القلب. وفي الوقت

نفسه لم يكن يكاد يستطيع مواراة انفعاله. كـــان يرغـــب في الابتســـام، في الصفير، في مصافحة أيدي جميع من هم في العربة. وكان يموت لهفـــة للقـــاء باييخوس.

ـــ أنا الأستاذ أوبييوث ـــ قال لي ذلك وهو يمد يده فـــور اجتيـــازي حاجز محطة خاوخا، حيث كنت قد وقفت في طابور طويل ليفتشني شـــرطيان بالملابس المدنية ويفتحان حقيبتي اليدوية التي أضع فيها بيجامتي ـــ. الأصدقـــاء يدعونني الأفطس. وإذا سمحت لي، فإننا أنا وأنت قد أصبحنا أصدقاء.

كنت قد كتبت له لأخبره برحلتي، وها قد جاء لانتظاري. هنـــاك في محيط المحطة انتشار عسكري كبير: جنود يحملون البنادق وحواجز وأســـلاك شائكة. ودبابة صغيرة تروح وتجيء في الشارع بمشية سلحفاة. مشينا. هـــل الوضع سيئ جدا هنا؟

فيقول لي أوبييوث:

ـــ أصبح أكثر هدوءا نوعا ما في هذه الأسابيع الأخيرة. حـــتى أنهـــم أوقفوا العمل بحظر التجول. لقد صار بإمكاننا الخروج لرؤية النجوم. كنا قـــد بدأنا ننسى كيف هي.

يروي لي أن المتمردين شنوا منذ شهر هجوما واسعا على ثكنة خاوخـا استمر تبادل إطلاق النار طوال الليل وبقي محيط الثكنة مزروعـــا بـــالجثث. انبعثت الروائح الكريهة، وكانت الجثث كثيرة إلى حد أنه كان لا بد من رشها بالكيروسين وإحراقها. منذ ذلك الحين لم يعد المتمردون إلى القيام بأي عمـــل مهم في المدينة. ولكن الجبال المحيطة تستيقظ كل صباح على رايـــات حمـــراء منصوبة ومزينة بالمنجل والمطرقة. وتقوم الدورية العســـكرية بـــانتزاع تلـــك الأعلام مساء كل يوم.

قال:

ـــ لقد حجزت لك غرفة في نزل باكا. إنه مكان جميل، سترى.

إنه عجوز مربوع وقصير القامة، محشور في بدلة مخططة مـــزررة، ممـــا يجعله يبدو أشبه بكيس متحرك. كان يضع ربطة عنق ذات عقـــدة ميلمتريـــة وينتعل حذاء لا بد أنه اجتاز بركة موحلة. فيه ذلك التجمل التقليدي لأنـــاس سلسلة الجبال ويتكلم اسبانية صافرة تتخللها بين حين وآخر ألفاظ بالكيتشوا. وجدنا سيارة تكسي عتيقة، بالقرب من الساحة. المدينة لم تتغير كثيراً منذ المرة الأخيرة التي زرتها فيها. ولا تبدو للنظرة المجردة على الأقـــل آثـــار تشـــير إلى الحرب. فليس هناك أكوام قمامة ولا حشود من المتسولين. البيوت تبدو نظيفة وخالدة، بأبوابها العتيقة وشبابيكها ذات القضبان الحديدية المتقاطعـــة. لقـــد أمضى الأستاذ أوبييوث ثلاثين سنة وهو يعلّم العلوم في مدرسة سان خوســـيه الوطنية. وعندما تقاعد ـــ في الأيام التي بدأ يتحول فيها ما كنا نظن أنه مجـــرد غارة متطرفين ليتخذ أبعاد حرب أهلية ـــ، أقيمت حفلة على شرفه حضرهـــا جميع الطلاب السابقين الذين كانوا تلاميذه. وعندما ألقى كلمتـــه، أجـــهش بالبكاء.

قال باييخوس:

ـــ مرحباً يا أخي.

وقال مايتا:

ـــ مرحباً يا رجل.

قال باييخوس:

ـــ ها أنتذا قد جئت أخيراً.

وقال مايتا:

ـــ أجل، أخيراً.

تعانقا. كيف ما يزال نزل باكا مفتوحاً؟ هل مازال السياح يـأتون إلى خاوخا؟ لا، بالطبع لا. وما الذي سيأتون من أجله؟ كل الاحتفالات، بما في ذلك الكرنفالات الشهيرة، قد ألغيت. ولكن النزل ما يزال مفتوحاً لأن الموظفين الذين يأتون من ليما ينزلون فيه، وكذلك البعثات العسكرية أحياناً. يبدو أنه لا توجد الآن أي بعثة عسكرية، لأنه لا وجود لحراسة في المكان. النزل لم يعرف الطلاء منذ قرون، وهو يثير في النفس انطباعاً بالأسى. ليس هناك عمال خدمة ولا مدير، وإنما حارس فقط يقوم بكل الأعمال. بعد أن تركتُ حقيبتي الصغيرة في الغرفة الممتلئة بنسيج العناكب، مضيت للجلوس على الشرفة المطلة على البحيرة، حيث ينتظرني الأستاذ أوبييوث. أتراه يعرف قصة باكا؟ ويشير إلى المياه الصافية، والسماء المرسومة، والخط الناعم للجبال المحيطة بالماء: هذا المكان كان منذ مئات السنين قرية أناس أنانيين. وظهر المتسول في صباح يوم ذي شمس مشرقة وهواء عليل. ومضى من بيت لبيت يطلب الصدقات، وكان ساكنو جميع البيوت يطردونه بفظاظة، ويستحثون الكلاب عليه. ولكنه وجد في أحد آخر البيوت أرملة رحيمة، تعيش مع طفل صغير. فقدمت له ما يأكله وبعض كلمات الأمل. عندئذ تألق المتسول، وأبدى للمرأة الرحيمة وجهه الحقيقي ــ وجه يسوع ــ وأمرها: «أخرجي من باكا مع ابنك الآن فوراً، واحملي معك كل ما تستطيعين حمله. ولا تلتفتي مطلقاً إلى هنا مهما سمعت». انصاعت الأرملة وغادرت باكا، ولكنها حين كانت تصعد الجبل سمعت ضجة قوية جداً، وكأنها صادرة عن طبل هائل، فدفعها الفضول إلى الالتفات. واقتصر ما رأته على انهيار الصخور والوحل المرعب الذي دفن باكا وساكنيها والمياه التي حولتْ ما كانِ قريتها إلى بحيرة هادئة للبط وأسماك الترويت. و لم تر هي أو ابنها و لم يسمعا أكثر من ذلك لأن

التماثيل لا ترى ولا تسمع. أما أهالي خاوخا فيمكنهم رؤيتها هي وابنـها، في البعيد: شكلان متحجران، يرصدان البحيرة، في نقطة من الجبال تحج إليها المواكب لتذكر أولئك السكان الذين عاقبهم الرب لجشعهم وقسوتهم وصاروا يرقدون هناك في الأسفل، تحت هذه المياه التي تنق فيها الضفادع وينعق البط ويجذف السياح منذ القدم.

ـــ ما رأيك يا رفيق؟

أدرك مايتا أن باييخوس كان سعيداً ومتأثراً مثله. مشيا نحو النزل الذي يسكن فيه الملازم، في شارع تاراباكا. الرحلة؟ ممتازة جداً، ومؤثرة بصورة خاصة، لا يمكن للمرء أن ينسى أبداً ممر الجحيم. ودون أن يتوقف عن الكلام، كان يراقب البيوت التي تعود إلى العهد الاستعماري، ونقاوة الهواء، والشامات التي ترسمها نساء خاوخا في وجوههن. ها أنتذا في خاوخا يا مايتا. ولكنه لم يكن يشعر بأنه على ما يرام:

ـــ إنني مصاب بدوار المرتفعات. يسيطر عليّ إحساس غريب جداً. كما لو أنه سيغمى عليّ.

ـــ بداية سيئة للثورة ـــ ضحك باييخوس وهو ينتزع منه الحقيبة الصغيرة: كان يرتدي بنطالاً وقميصاً خاكي اللون، وجزمة ذات نعل ضخم وكان شعره الحليق قصير جداً ـــ ستتناول متة الكوكا وتنام قيلولة فتعود جديداً. في الثامنة سنجتمع حيث يقيم الأستاذ أوبييوث. إنه شخص رائع، سترى ذلك.

كان قد نصب له سريراً ضيقاً في غرفته نفسها في النزل ـــ وهو مجموعة غرف علوية متتالية حول بهو ذي درابزين. وودعه وهو ينصحه بأن ينام قليلاً ليشفى من داء المرتفعات. انصرف، ورأى مايتا دوشاً في الحمام. وفكر:

«سأستحم قبل النوم وعند الاستيقاظ في كل الأيام التي سأقضيها في خاوخا».
سيأخذ معه مؤونة من الاستحمامات إلى ليما. استلقى بملابسه، دون أن يخلع شيئاً باستثناء الحذاء، وأغمض عينيه. ولكنه لم يستطع النوم. لم تكن تعرف الكثير عن خاوخا يا مايتا، ما الذي كنت تعرفه مثلاً؟ إنها أساطير أكثر منها حقائق، مثل التفسير التوراتي لميلاد باكا. لقد كانت تشكل جزءاً من حضارة هواناكا، إحدى أقوى الحضارات التي قهرها الإنكا، ولهذا السبب تحالف الخاوخيون مع القائد الإسباني بيثارو والفاتحين والمحاربين لينتقموا من أسيادهم السابقين. لا بد أن هذه المنطقة كانت شديدة الثراء في العصور الاستعمارية، حين كان اسم خاوخا مرادفاً للوفرة، ولكن من يمكنه قول ذلك الآن وهو يرى بؤس الشعب! كان يعرف أن هذه البلدة الصغيرة كانت أول عاصمة للبيرو، وقد اختارها لتكون كذلك الفاتح بيثارو في أثناء رحلته الهوميرية من كاخاماركا إلى كوسكو، عبر أحد دروب الإنكا الأربعة التي كانت تتسلق وتهبط سلسلة الأنديز مثلما تتلوى فيها الآن الطوابير الثورية، وأن تلك الشهور التي تباهت فيها بلقب العاصمة، كانت الأكثر مجداً في تاريخها. ولكن، ما أن انتزعت منها مدينة ليما الصولجان، حتى دخلت خاوخا، مثل كل مدن وأناس وثقافات الأنديز، في انحدار لا مناص منه وفي تبعية لذلك المركز القيادي الجديد للحياة الوطنية القائم في أشد أركان الساحل وبالاً، والذي سيبدأ من موقعه ذاك بمصادرة وانتزاع كل طاقات البلاد لمصلحته.

كان قلبه ينبض بقوة، وكان يحس بالدوار الدائم بينما الأستاذ أوبييوث يواصل الكلام. وأسهو أنام محاصراً بصور الكابوس المرتبطة باسم خاوخا في طفولتي. مدينة المسلولين! فقد كان يأتي إلى هنا، منذ القرن الماضي، أولئك البيرويون ضحايا المرض المرعب آنذاك الذي حوله الأدب والسادية المازوشية

الرومنسية إلى أسطورة، ذلك السل الذي كان مناخ خاوخا الجاف يعتبر بلسماً استثنائياً له. كانوا يأتون إلى هنا من أربع جهات البلاد، في أول الأمر على ظهور البغال وعبر دروب متعرجة، ثم بعد ذلك في قطار المهندس ميغس، جميع البيرويين الذين يبدؤون بالسعال دماً ويستطيعون دفع تكاليف الرحلة ولديهم الإمكانيات اللازمة للشفاء أو الاحتضار في أجنحة مصح أولافيغويا الذي كان يتوسع باطراد بفضل هذا الغزو المتواصل إلى أن اختلط ــ في أحد الأوقات ــ بالمدينة. الاسم الذي أيقظ قبل قرون الجشع، والإعجاب، والحلم بالذهب وبالجبال المكللة بهالات مذهبة، تحول معناه إلى رئات مثقوبة، وإفراط في السعال، وبصاق دامٍ، ونزيف، وموت من الهزال. وفكر:«خاوخا، اسم متقلب». وبينما هو يلمس صدره ليعد نبضاته، تذكر عرابته، في بيتها في شارع سوركييو، في تلك الأيام التي نَفَّذَ فيها إضرابه عن الطعام، حين كانت تؤنبه بإصبعها المرفوع ووجهها السمين الطيب:«أتريدنا أن نرسلك إلى خاوخا أيها الأحمق؟» وكانت أليثيا وثويليتا تجننانه كلما سمعتاه يتنحنح:«وي، آي، يا ابن الخالة، لقد بدأ السعال، إننا نراك ذاهباً إلى خاوخا». ما الذي ستقوله الخالة خوسيفا وثويليتا وأليثيا عندما يعلمن بما جاء يفعله في خاوخا الآن؟ فيما بعد، وبينما كان باييخوس يقدمه إلى أوبييوث الأفطس، هذا السيد الاحتفالي الذي طأطأ رأسه محيياً وهو يمد يده لمصافحته، وإلى نصف دزينة من الفتيان الذين أحس بأنهم ليسوا من تلاميذ السنوات الأخيرة، وإنما السنوات الأولى في مدرسة سان خوسيه، قال مايتا لنفسه، فجأة، وجسده ما يزال منملاً من الإحساس بالدوش الجليدي، إنه يمكن أن تضاف إلى تلك الصور صورة أخرى: خاوخا، مهد الثورة البيروية. هل ستصبح الثورة في المستقبل جزءاً من أساطير المكان؟ هل ستكون هناك خاوخا-الثورة، مثل خاوخا-الذهب

وخاوخا-السل؟ كانوا في بيت الأستاذ أوبييوث وكان مايتا يرى من خـــلال النافذة المغشاة أبنية من الطين، وسقوفا من القرميد والتوتياء، وجزءا من شارع مرصوف بأحجار وأقنية عالية للسيول التي تشكلها ــ مثلمـــا شـــرح لــه باييخوس وهما قادمان ــ الأمطار الغزيرة في شهري كانون الثـــاني وشـــباط (يناير وفبراير). وفكر: «خاوخا، مهد الثورة الاشتراكية في البـــيرو». مـــن الصعب تصديق ذلك، فالعبارة ذات وقع غير واقعي مثل تســـميات: مدينـــة الذهب أو المسلولين. أقول له إن الجوع والبؤس في خاوخا يبدوان، للوهلـــة الأولى على الأقل، أخف مما هما عليه في ليما. ألست محقا؟ وبدلا من أن يـــرد علي، يبدي الأستاذ أوبييوث ملامح الجد ويتطرق فجأة، ونحن علـــى ضفـــة البحيرة المقفرة، إلى القضية التي جاءت بي إلى هذه المنطقة:

ــ لقد سمعت بالطبع حكايات كثيرة عن قصة باييخوس. وســـتواصل سماعها في هذه الأيام.

فأجبته:

ــ مثلما يجري حول كل القصص. فالشيء الذي يتعلمه المـــرء حـــين يحاول إعادة بناء أحداث معينة بالاستناد إلى الشهادات، هو أن كل القصـــص هي حكايات.. وأنها مؤلفة من حقائق وأكاذيب.

اقترح علي أن نذهب إلى بيته. لحقت بنا عربة يجرها ثوران ووافق سائق العربة على نقلنا إلى المدينة. وبعد نصف ساعة تركنا أمام بيت أوبييـــوث، في الشارع التاسع من حي ألفونسو أوغارت. وقبل الإطلال على السجن قـال لي قبل أن أسأله: «أجل. كانت تلك هي منطقة سيادة الملازم، وهناك بدأ كـــل شيء» كان السجن يحتل كل الرصيف المقابل، وبه ينتهي الشارِع. بهذا السور الرمادي ذي الطنف القرميدية تنتهي المدينة. بعد ذلك يبدأ الريـــف: الحقـــول

المزروعة، أشجار الأكالبتوس، الجبال. وأرى، في البعيد، خنادق وأسلاكاً شائكة، وجنوداً متفرقين يقومون بالحراسة. لقد كانت إحدى الإشاعات الملحة، في السنة الماضية، تقول إن رجال حرب العصابات يعدون العدة للهجوم على خاوخا، وأنهم ينوون إعلانها عاصمة للبيرو المحررة. ولكن، ألم تسرِ إشاعات مماثلة حول آريكيبا، وبونو، وكوسكو، وتروخييو، وكاخاماركا، بل وحول إكيتوس كذلك؟ السجن وبيت الأستاذ أوبييوث يقومان في حي ذي اسم ديني، له رنه العذاب والتكفير: **صليب الشوك**. إنه بيت متواضع، منخفض ومظلم، فيه صورة ضخمة محاطة بإطار يتلألأ فيها سيد من أزمنة أخرى ـــ ربطة عنق شريطية، وقبعة قشية، وشاربان مشذبان، ياقة قاسية، صدرية، ولحية صغيرة ميفيستوفيلية ـــ لا بد أنه أبو الأستاذ أو جده، بالنظر إلى تشابه الملامح. وهناك أريكة طويلة مغطاة بعباءة بونشو متعددة الألوان وقطع أثاث متنوعة تبدو على وشك التداعي لكثرة ما استخدمت. وفي خزانة ذات واجهة زجاجية توجد أكداس صحف مختلطة. وهناك ذبابات تئز وتطير فوق رأسينا وأحد الفتيان يساعد في تمرير طبق شرائح جبن طازج وقطع خبز محمصة جعلت لعاب مايتا يسيل. إنني أموت جوعاً، وأسأل الأستاذ عما إذا لم يكن هناك مكان يمكن شراء ما يؤكل منه. فيقول: «في مثل هذه الساعة غير ممكن. ربما يمكننا الحصول على بعض البطاطا المسلوقة عند الغروب من محل صغير أعرفه. ولكنني أستطيع أن أقدم لك كأساً لا بأس به من البيسكو.»

ثم أضاف:

ـــ لقد قيلت عن صداقتي لبابيخوس أكثر الحماقات الممكنة. قيل إننا تعارفنا في ليما، حين كنت أؤدي الخدمة العسكرية. وإننا بدأنا التآمر منذ ذلك

الحين وواصلنا ذلك هنا، حين جاء كقائد للسجن. والشيء الوحيد الصحيح في هذا كله هو أنني مجاز من الجيش. ولكن، عندما كنت في الخدمة، كان بابيخوس ما يزال طفلاً رضيعاً... مجرد أوهام! لقد تعارفنا هنا، بعد أيام قليلة من مجيء بابيخوس لشغل منصبه. ويمكنني أن أقول لك بكل فخر إنني أنا الذي علمته كل ما عرفه عن الماركسية. لأنه لا بد لك من أن تعرف ــ وهنا خفض صوته، ونظر فيما حوله بشيء من الحذر، وأشار إلى بعض الخزائن الفارغة ــ أنني كنت أملك المكتبة الماركسية الأكثر اكتمالاً في خاوخا.

استطراد طويل في الكلام أبعده عن بابيخوس. فعلى الرغم من أنه رجل مسن ومريض ــ لقد استأصلوا إحدى كليتيه، وهو يعاني من ارتفاع الضغط ومن الدوالي التي تريه يهوذا ــ، كما أنه منعزل عن أي نشاط سياسي، فقد أقدمت السلطات منذ سنتين، عندما بلغت الأعمال الإرهابية أوجها في المقاطعة، على إحراق كتبه كلها وأبقته في السجن أسبوعاً. وعُذب في أثناء ذلك بالكهرباء في خصيتيه لإجباره على الاعتراف بتواطؤ مزعوم مع رجال حرب العصابات. أي تواطؤ يمكن له أن يتوصل إليه وهو المدان الذي يضعه المتمردون في قائمتهم السوداء، بسبب افتراءات خبيثة؟ ينهض، ويفتح صندوقاً، ويُخرج قصاصة ورق يعرضها عليّ: «لقد صدر حكم الشعب بإعدامك أيها الكلب الخائن». يهز كتفيه: إنه عجوز و لم تعد الحياة تهمه. فليقتلوه، ما أهمية ذلك. و لم يكن يحترس: إنه يعيش وحيداً وليس لديه ولو عصا للدفاع عن نفسه.

وأنتهزُ الفرصة لكي أقاطعه:

ــ أنت إذن من علّم بابيخوس الماركسية. كنت أظن أن مايتا هو الذي فعل ذلك.

فيتحرك في مقعده مومئاً بازدراء:

ــ أتعني التروتسكي؟ يا لمايتا المسكين! كان يمضي في خاوخا مثل مسرنم بسبب داء المرتفعات...

وكان ذلك صحيحاً. فمايتا لم يشعر مطلقاً بمثل ذلك الضغط في صدغيه وبمثل ذلك الاضطراب في قلبه الذي كانت تقطعه فجأة توقفات محيرة يبدو فيها وكأنه قد توقف عن النبض. كان مايتا يشعر بالخواء.. بالتلاشي المفاجئ لعظامه، وعضلاته، وأوردته، وببرودة قطبية تجمد التجويف الذي تحت جلده. هل سيغمى عليه؟ هل سيموت؟ إنه توعكٌ متلوٍ وغدار: يذهب ويجيء، فهو يشعر وكأنه على حافة هاوية ولكن التهديد بالسقوط في الهوة لا يتحقق أبداً. بدا له أن الجميع في حجرة أوبييوث الأفطس المزدحمة قد انتبهوا إلى حاله. كثيرون كانوا يدخنون وكانت سحابة رمادية، يتخللها الذباب، تشوه وجوه الفتيان الجالسين على الأرض، والذين كانوا بين الحين والآخر يقطعون منولوج أوبييوث موجهين أسئلة. لقد أضاع مايتا خيط الحديث: كان يجلس على مقعد إلى جوار بابيخوس، وظهره يستند إلى خزانة الكتب، ومع أنه كان يرغب في الاستماع، إلا أنه لم يكن ينتبه إلا إلى أوردته، إلى صدغيه، إلى قلبه. إلى داء الأعالي الذي يضفي عليه إحساساً بأنه مُضحك. وفكر بينه وبين نفسه:«أأنت هو الثوري الذي جاء ليفحص هؤلاء الرفاق؟ لقد حوّلتك الثلاثة آلاف وخمسمئة متر إلى قزم مصاب بتسرع في القلب» وكان يسمع أوبييوث بصورة غائمة وهو يشرح للفتيان ــ أتراه يحاول أن يبهره هو بالذات بمعارفه الماركسية المشوشة؟ ــ بأن الطريقة التي يمكن بها للثورة أن تتقدم هي في التفسير الصحيح للتناقضات الاجتماعية والمواصفات التي يتخذها النضال الطبقي في كل مرحلة من المراحل. وفكر: «أنف كليوباترا». أجل، إنه هو:

الأمر التافه الذي يقلب قوانين التاريخ ويحول العلم إلى شعر. يا للغباء في عدم رؤية ما هو جلي تماما، في عدم رؤية أن الرجل الذي يصعد إلى جبال الانديز يمكن له أن يصاب بداء الأعالي، وعدم شراء بعض أقراص الكورامين لتعديل اختلاف الضغط الجوي على جسده. سأله باييخوس «هل أنت على ما يرام؟» «أجل، في أحسن حال». وفكر: «لقد جئت إلى خاوخا لكي يأتيني أستاذ تافه يبول خارج المبولة ويعطيني درسا في الماركسية». ها هو ذا الأفطس أوبييوث يشير إليه الآن، مرحبا به: إنه الرفيق القادم من ليما الذي حدثكم عنه باييخوس، وهو شخص يملك تجربة ثورية ونقابية كبيرة. دعاه ليتكلم، ودعا الفتيان إلى توجيه الأسئلة إليه. ابتسم مايتا لنصف دزينة الوجوه المرد التي راحت تنظر إليه بفضول وبشيء من التقدير. وفتح فمه.

ــ إنه المذنب الكبير، إذا كانت المسألة هي البحث عن مذنب ــ يكرر الأستاذ أوبييوث بوجه تعلوه المرارة ــ فقد خدعنا على هواه. كان من المفترض أنه صلة الوصل مع الثوريين في ليما، مع النقابات، مع الحزب، وأنه يمثل مئات الرفاق. والواقع أنه لم يكن يمثل أحدا. والأدهى من ذلك أنه تروتسكي. وبمجرد مجيئه أغلق أمامنا إمكانية دعم الحزب الشيوعي لنا. لقد كنا ساذجين جدا، هذا صحيح. أنا كنت أعرف الماركسية، ولكنني لم أكن أعرف أي شيء عن قوة الحزب، ولا عن انقسامات اليسار. وباييخوس كان أقل مني معرفة بالطبع. هل كنت تعتقد إذن أن التروتسكي مايتا هو الذي ثقف الملازم؟ لا شيء من هذا. فهما لم يلتقيا تقريبا إلا في بعض المرات التي كان يهرب فيها باييخوس لوقت قصير إلى ليما. والملازم تعلم الدياليكتيك والمادية في هذه الغرفة بالذات.

الأستاذ أوبييوث ينتمي إلى أسرة عريقة من خاوخا، خرج منها نواب محافظون وعمد وعدد كبير من المحامين (المحاماة هي المهنة المفضلة في سلسلة

الجبال، وهناك في خاوخا أعلى نسبة من المحامين بالنسبة إلى عدد السكان) ولا بد أنهم أناس أغنياء، لأنه قال لي إن عددا كبيرا من أقربائه قد سافروا إلى الخارج: إلى المكسيك، وبوينوس آيرس، وميامي. أما هو فلم يسافر، إنه سيبقى حيث هو حتى النهاية، سواء تلقى تهديدات أو أي شيء آخر، وسيغرق مع كل ما سيغرق. ليس لأنه لا يملك وسائل السفر وحسب، وإنما بسبب نزوعه إلى المعارضة، بسبب روح التمرد التي جعلته في شبابه يتميز عن أبناء عمومته وأعمامه وأخوته الذين كانوا يعيشون حياة يملؤها الاهتمام بقطع الأرض الزراعية أو تجارة البقالة أو ممارسة المحاماة والقانون، فكرس نفسه للتعليم وتحول إلى أول ماركسي في المدينة. ويضيف قائلا إنه دفع الثمن في اعتقالات لا تحصى، وفي تلقي الضرب والإهانات. بل وما هو أسوأ من كل ذلك، في نكران الجميل من جانب اليسار نفسه الذي نما الآن وصار على وشك الاستيلاء على السلطة، متجاهلا أولئك الذين حرثوا الأرض ونثروا فيها بذور الفكر اليساري.

ويهتف بافتخار:

ـــ الدروس الحقيقية في الفلسفة والتاريخ.. الدروس التي لا يمكن تقديمها في مدرسة سان خوسيه، كنت أعطيها في هذه الغرفة. لقد كان بيتي جامعة للشعب.

يصمت، لأننا سمعنا ضجة معدنية وأصوات عسكرية. أطل من خلال الستارة لرصد ما يجري: الدبابة تمر، إنها الدبابة نفسها التي رأيتها في المحطة. وإلى جانبها تهرول جماعة من الجنود يقودها ضابط. ويغيبون عن النظر عند زاوية السجن.

أسأله بفظاظة:

ـــ ألم يكن مايتا هو الذي خطط لكل شيء إذن؟ ألم يكن هو من فكر بكل تفاصيل الانتفاضة؟

المفاجأة التي استولت على وجهه شبه الداكن، الممتلئ بنقاط بيضاء في الذقن، بدت صادقة. ويقول متهجيا كلماته بتلك اللهجة الجبلية السريعة التي لا تسمح بإفلات حتى هالة الكلمات:

ـــ أتعني أن التروتسكي مايتا هو الموجه الفكري للانتفاضة؟ أي خاطر هذا! عندما جاء هنا كنا أنا وباييخوس قد طبخنا كل شيء. لم تكن له شمعة في ذلك المأتم حتى النهاية. سأقول لك أمرا آخر: نحن لم نخبره بالتفاصيل إلا في اللحظة الأخيرة.

فأستجوبه:

ـــ بدافع عدم الثقة به؟

ويقول الأستاذ أوبييوث:

ـــ بدافع الحيطة والحذر. حسن، وإذا كانت الكلمة تروقك، فبسبب عدم الثقة. ليس من أن يكون واشيا، وإنما خشية أن يتراجع ويتخلى عن الأمر. لقد قررت أنا وباييخوس أن نبقيه صائما، حين أدركنا أنه ليس لديه أنصار، وأنه كان وحيدا. وما هو الغريب في أن يتراجع مثل هذا الشخص عندما تحين الساعة ويتخلى عن كل شيء؟ فهو لم يكن من هنا، بل و لم يكن قادرا على تحمل الأعالي. و لم يكن قد أمسك سلاحا على الإطلاق. لقد علمه باييخوس الرماية، في رملة بالقرب من ليما. يا للثوري الذي حصل عليه! بل يقال إنه كان مخنثا.

يضحك ضحكته الاضطرارية المعتادة، وكنت على وشك أن أقول له إنه هو نفسه على الرغم من ذلك، لم يكن في ذلك اليوم حيث كان عليه أن

يتواجد ـــ لسبب أرجو أن يوضحه لي ـــ، أما مايتا فعلى العكس منه، وبالرغم من معاناته من داء الأعالي ومن أنه لا يمثل أحدا، كان إلى جانب بايبخوس عندما ـــ والتعبير له ـــ «بدأت البطاطا تحترق». وكنت على وشك أن أقول له إن كثيرين آخرين قد قالوا عنه ما يقوله هو عن مايتا: لقد كان المذنب الأكبر، المنشق. ولكنني لم أقل له شيئا من هذا. فأنا لست موجودا هنا لأناقض أحدا. واجبي هو الاستماع، والملاحظة، ومقارنة الروايات، وعجن كل شيء والتخيل. وأعود لأسمع من جديد في الخارج صوت الدبابة المعدني ووقع خطوات الجند.

عندما قال أحد الفتيان «حان وقت المغادرة»، أحس مايتا بالراحة. لقد بدأ يشعر ببعض التحسن بعد أن أمضى لحظات احتضارية: كان يرد على أسئلة أوبييوث، وبايبخوس، والفتيان، وكان تفكيره منصبا في الوقت نفسه على التوعك الذي يعذب رأسه وصدره ويبدو كما لو أنه يلهب دماءه. هل أجاب على أسئلتهم بصورة جيدة؟ لقد أبدى على الأقل ثقة بالنفس كان أبعد ما يكون عن الإحساس بها، وحاول ألا يكذب عندما انتبه إلى شكوك الفتيان، ولكنه حاول أيضا ألا يقول الحقائق التي قد تفتر حماسهم. و لم يكن الأمر سهلا. هل ستدعمهم الطبقة العاملة في ليما فور اندلاع العمل الثوري؟ أجل، ولكنها لن تفعل ذلك فورا. فهي ستشعر في البداية بالتردد، وبالبلبلة، بسبب الأخبار التي ستنقلها الصحافة والإذاعة، وبسبب أكاذيب السلطة وأحزاب البرجوازية، وستصاب بالشلل بسبب وحشية القمع. ولكن هذا القمع نفسه هو الذي سيفتح عينيها شيئا فشيئا، ويكشف لها من الذي يدافع عن مصالحها ومن الذي يخدعها ويستغلها. لأن العمل الثوري سيفاقم الصراع الطبقي ويوصله إلى مستويات شديدة العنف. عيون الفتيان المفتوحة على اتساعها،

واهتمامهم المسلط عليه، أثر في نفس مايتا. وفكر:«إنهم يصدقون كل ما تقوله لهم.» والآن، بينما كان الفتيان يودعونه ويصافحونه باحتفالية، تساءل بينه وبين نفسه عما سيكون عليه في الحقيقة موقف البروليتاريا في ليما عندما تندلع العمليات. أيكون موقفها هو عدم المبالاة؟ العدائية؟ الازدراء تجاه هذه الطليعة التي تقاتل من أجلهم في الجبال؟ الحقيقة هي أن النقابات كانت تحت سيطرة حزب الأبرا، حليف الحكومة، والمعادي لكل ما له رائحة الاشتراكية. ربما يكون الوضع مختلفا في بعض النقابات القليلة، مثل نقابة البناء المدني، الواقعة تحت تأثير الحزب الشيوعي. لا، لن يحدث ذلك. سيتهمهم الطبقة العاملة بالاستفزاز، بممارسة لعبة الحكومة، وبأنهم يقدمون لها على طبق الذريعة اللازمة لإعلان الحزب خارجا على القانون وملاحقة التقدميين وسجنهم. تصور عناوين "**أونيداد**"، ومضمون المنشورات التي سيوزعونها، ومقالات **صوت العمال** التي يصدرها **ح ع ث** الخصم. أجل، كل ذلك سيكون صحيحا في المرحلة الأولى. ولكنه كان واثقا، إذا ما تمكنت الانتفاضة من الاستمرار، والتطور، وزعزعة السلطة البرجوازية هنا وهناك، وإجبارها على نزع قناعها الليبرالي وإظهار وجهها الدموي الحقيقي، فإن الطبقة العاملة ستبدأ بالخروج من سباتها، وستنفض عنها الخدع الإصلاحية، وتتخلص من قادتها الفاسدين، ومن وهم إمكانية التعايش مع الطبقة المستسلمة وتلتحق بركب النضال.

ـــ حسن، ها هم الصبية قد انصرفوا ــ قال الأفطس اوبييوث ذلك وهو يخرج من فوق كومة من الكتب والنشرات والمجلات وشباك العنكبوت التي في غرفته، زمزمية وبعض الأقداح ـــ. فلنتناول الآن بعض الكؤوس.

وسأله بايبخوس:

ـــ ما رأيك بالفتيان؟

فقال مايتا:

ــ إنهم متحمسون جدا، ولكنهم صغار جدا أيضا، لا بد أن بعضهم في الخامسة عشرة، أليس كذلك؟ هل أنت واثق من أنهم سيتجاوبون؟

وقال بايبخوس ضاحكا:

ــ أنت لا تؤمن بالشباب. إنهم سيتجاوبون بالطبع.

وقال الأفطس أوبييوث وهو يتحرك مثل عفريت بين رفوف الكتب ليرجع إلى مقعده:

ــ تذكر عبارة غونثالث برادا: «الشيوخ إلى القبر والشباب إلى العمل».

ــ ثم أن كل شخص سيكون له عمله ــ قال بايبخوس ذلك وهو يضرب راحة إحدى يديه بقبضته، وفكر مايتا: «حين أسمعه لا أستطيع الشك، يبدو أن كل شيء خاضع لمشيئته، إنه قائد منذ مولده، بل إنه لجنة مركزية بمفرده». وأضاف بايبخوس:ــ لن يطلب أحد من هؤلاء الفتيان إطلاق الرصاص. سيكونون مراسلين.

ــ إنهم تشاسكيو[1]الثورة ــ عمدهم الأفطس أوبييوث بهذه التسمية، ثم أضاف: ــ. إنني أعرفهم مذ كانوا أطفالا يحبون على أربع، إنهم زهرة وقشدة الشبيبة الخوسيفينية.

وأوضح بايبخوس مومئا:

ــ سيتولون أمر الاتصالات. تأمين الاتصال بين رجال حرب العصابات والمدينة، وإحضار ونقل التعليمات والمؤن والأدوية. ولأنهم صغار السن

---

[1] ــ التشاسكي (chasqui): بلغة الكيتشوا، هو الهندي الذي كان يستخدم مراسلا في امبراطورية الإنكا.

تحديداً، سيكون بإمكانهم المرور دون لفت الأنظار. إنهم قادرون على التحــول في جبال المقاطعة كلها كما لو أنهم في بيتهم. لقد قمنـــا برحـــلات ترفهيـــة عديدة، ودربتهم على المسيرات الطويلة. إنهم رائعون.

لقد كانوا قادرين على القفز من أعلى هاوية والســـــقوط إلى قعرهـــا واقفين دون أن يصابوا بأي كدمة، وكأنهم مصنوعون من مطاط؛ ويجتـــازون تيارات المياه المندفعة مثل أسماك رشيقة دون أن تبتلعهم الحوامات أو تلطمـــهم بالصخور؛ يتحملون الثلج دون أن يشعروا بالـــبرد ويركضـــون في الأعـــالي الشاهقة ويقفزون دون أن يعتريهم أي اضطراب. كان خفقان قلب مايتا قـــد ازداد كثيراً واشتد نبض الدم في صدغيه إلى حد لا يطاق. أيخبرهمـــا بذلـــك؟ أيطلب منهما نبتة كوكا، أو دواء، أو شيئاً يخلصه من هذا الضيق؟

وقال باييخوس:

ـــ أما من سيحملون البنادق ويدخلون معنا في المعمعة، فستبدأ بالتعرف عليهم غداً في ريكران. استعد للصعود إلى البونا والتعرف على حيوانات اللاما وأعشاب الايتشو.

وفي خضم تكدره لاحظ مايتا الصمت. كان الصمت يأتي من الخـــارج، وكان ملموساً، يتبدى كلما سكت الأفطس أوبييوث أو باييخو عن الكـــلام. ما بين كل سؤال وجواب، في وقفة مونولوج، هذا الغيـــاب للمحركـــات، للأبواق، للمكابح، لمواسير دخان السيارات، للخطوات وللأصـــوات يبـــدو مدوياً. لا بد أن هذا الصمت الذي يخيم على خاوخا، مثل ليل يلف الليـــــل، كان حضوراً كثيفاً في الغرفة وكان يشوشه. لقد بدا غريباً جداً ذلك الفـــراغ الخارجي، ذلك الغياب للحياة الحيوانية أو الآلية أو البشـــرية في الشـــارع. لا يتذكر أنه عرف مثل هذا الصمت الباهر في ليما، أو حتى في الســـجون الـــتي

أمضى فيها فصولاً (سجن سيستو، سجن بانوبتيكو، سجن فرونتون).وحين كان باييخوس وأوبيبوث يكسرانه، يبدوان وكأنهما ينتهكان حرمة شيء ما. كان الضيق قد تقلص، ولكن قلقه مازال قائماً، ذلك أنه يعرف بأنه يمكن في أي لحظة أن يعاوده الإحساس بالاختناق، وتسرع القلب، والضيق، والبرودة الثلجية. قدم له الأفطس نخباً، فرفع الكأس إلى فمه وهو يجبر نفسه على الابتسام: المشروب الملتهب جعله يقشعر. وفكر: «يا للعبثية. على بعد أقل من ثلاثمئة كيلومتر عن ليما وأبدو كأنني أجنبي في عالم مجهول.أي بلاد هذه التي ما إن ينتقل المرء فيها من مكان إلى آخر حتى يشعر بأنه غريب،بأنه مريخي.» أحس بالخجل لأنه لا يعرف سلسلة الجبال، ولأنه لا يعرف أي شيء عن عالم الريف. وعاد باهتمامه إلى ما كان يقوله باييخوس وأوبيبوث. لقد كانا يتحدثان عن قرية، على السفح الشرقي، تمتد في الأدغال: تدعى أوتشوبامبا.

ـ وأين هي؟

فيقول لي الأستاذ أوبيبوث:

ـ ليست على بعد كيلومترات كثيرة. إنها قريبة إذا نظرت إليها على الخريطة. ولكنها بعيدة بعد القمر إذا ما أردت الذهاب إليها من خاوخا. بعد سنوات من ذلك، في زمن بيلاوندي، شقوا درباً يغطي ربع الطريق. أما قبل ذلك،فكان لا بد من الذهاب زحفاً عبر البونا والوهاد والصدوع التي تنحدر باتجاه الغابة.

هل هناك الآن إمكانية للاقتراب من ذلك المكان؟ غير ممكن بالطبع: فقد صارت القرية ميدان معركة منذ عدة سنوات على الأقل. والشائعات تقول إنها قد تحولت إلى مقبرة هائلة. يقال إنه قد مات هناك أناس أكثر ممن مات في كل أنحاء البيرو مجتمعة. لن أستطيع إذن زيارة بعض الأماكن ذات

الأهمية الحاسمة في القصة، التقصي سيبقى مبتورا. وحتى لو استطعت تجنب الخطوط العسكرية ومواقع رجال حرب العصابات، فإن ذلك لن يفيدني كثيرا. فالجميع في خاوخا يؤكدون أن تشونان وكذلك ريكران قد اختفتا من الوجود. أجل، أجل: الأستاذ أوبييوث يعرف ذلك من مصدر حسن الإطلاع. فتشونان قد اختفت من الوجود منذ ستة شهور تقريبا. لقد كانت حصن المتمردين، وحتى أنهم كانوا يملكون هناك كما يبدو مدفعا مضادا للطائرات. ولهذا دمر الطيران تشونان بالنابالم ولم ينج من الموت هناك حتى النمل. وفي ريكران جرت كذلك مذبحة منذ حوالى شهرين. أنها قصة لم تتضح مطلقا. أهل القرية أسروا فصيلة من رجال العصابات، وقد شنقوهم هم أنفسهم حسب قول البعض، لأنهم كانوا يأكلون محاصيلهم ومواشيهم، بينما يقول آخرون إنهم سلموهم إلى الجيش الذي أعدمهم رميا بالرصاص في الساحة، عند جدار الكنيسة. ثم جاءت بعد ذلك حملة تنكيل، وخمس الإرهابيون أهالي ريكران. أنا أعرف كيف يمارسون التخميس، أليس كذلك؟ واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، أنت.. أخرج من الصف! كل من كان رقمهم خمسة مزقوهم بالفؤوس، أو بالأحجار، أو بالسكاكين.. هناك في الساحة نفسها أيضا. وريكران لم يعد لها وجود الآن كذلك. فمن بقوا على قيد الحياة انتقلوا إلى خاوخا، في حي المهاجرين هذا الذي انبثق في الشمال، أو أنهم يهيمون على وجوههم في الأدغال. يجب ألا تراودني الأوهام. يرفع الأستاذ كأسه إلى شفتيه ويتراجع في الكلام إلى حيث كنا. ويقول:

ـــ الوصول إلى أوتشوبامبا كان من أمور الناس الفحول، ممن لا يخافون الثلج ولا الانهيارات الجبلية، أناس غير مصابين بداء الدوالي مثل هذا العجوز الذي صرت إليه الآن. لقد كنت قويا وصلبا آنذاك ووصلت إلى هناك في

إحدى المرات. إنه مشهد لا يمكن تصوره.. رؤية منطقة الانديز وقد تحولت إلى أدغال، تملؤها الخضرة، والحيوانات، والبخار. أنقاض في كل مكان. أوتشوبامبا، هذا هو اسمها. ألا تتذكر الاسم؟ اللعنة! ولكن رجال كمونة أوتشوبامبا كانوا حديث البيرو بأسرها.

لا، الاسم لا يعني لي أي شيء. ولكنني أتذكر جيدا الظاهرة التي ذكرها الأستاذ أوبييوث، بينما كنت أدفئ بيدي كأس نبيذ البيسكو الذي سكبه لي بحذر شديد (بيسكو يسمى **شيطان الأنديز**، عينة متبقية من الأزمنة الطيبة كما يقول، عندما كان بالإمكان شراء أي شيء من الحوانيت، قبل هذا التقنين الذي يقتلنا جوعا وظمأ). فقد فوجئت البيرو الرسمية، والمدينية، والساحلية، في منتصف عقد الخمسينات ببدء عمليات احتلال للأراضي في مناطق مختلفة من سلسلة الجبال في الجنوب والوسط. كنت آنذاك في باريس، وكنا مع جماعة من ثوريي المقاهي نتابع بنهم تلك الأخبار النائية التي تصل مقتضبة إلى **لوموند**، وانطلاقا منها، تشيد مخيلتنا المشهد المستحلب: قرى هندية، هناك في جبال الأنديز، مسلحة بالعصي والمقاليع والأحجار، بشيوخها ونسائها وأطفالها وبهائمها في المقدمة، تنتقل في الفجر أو في منتصف الليل في جموع حاشدة إلى الأراضي الريفية التي يشعرون ــ وهم محقون في ذلك بكل تأكيد ــ بأنهم حرموا منها بسبب السيد الإقطاعي، ويحطمون علامات تقسيم الأرض ويعيدون ضمها إلى أراضي قراهم، ويسمون البهائم بعلاماتهم، ويبنون بيوتهم ويبدؤون في اليوم التالي العمل في هذه الأراضي الجديدة وكأنها أرضهم. وكنا نقول بأفواه مفتوحة وسعادة: «أتكون هذه هي البداية؟ هل سيستيقظ البركان أخيرا؟» أجل، ربما كانت تلك هي البداية. في مقاهي باريس، تحت أشجار الكستناء ذات الحفيف، كنا نستنتج من أربعة أسطر **اللوموند** أن تلك

الاحتلالات هي أعمال ثوريين، نارودنيين جدد انتقلوا إلى الريف ليقنعوا الهنود بأن يتولوا بأنفسهم تطبيق الإصلاح الزراعي الذي تعد بتحقيقه كل الحكومات منذ سنوات طويلة دون أن تنفذه أي منها. وعرفنا فيما بعد أن هذه الأعمال لم تكن من صنع محرضين أرسلهم الحزب الشيوعي وليست من عمل الجماعات التروتسكية، وأنها ليست ذات طابع سياسي في الأصل، وإنما هي حركة عفوية، انبثقت بالكامل من الجماهير الفلاحية التي نخستها حالة الاستغلال الأزلية وجوعها إلى الأرض، وكذلك ـــ إلى حد ما ـــ الأجواء المشحونة بشعارات ودعوات العدالة الاجتماعية التي نشأت في البيرو منذ تصدع دكتاتورية الجنرال أودريا، فحسمت أمرها في أحد الأيام وانتقلت إلى الممارسة العملية.

أوتشوبامبا؟هناك أسماء قرى أخرى استولى أهلها على الأرض ثم أُجلوا عنها بعد سقوط قتلى وجرحى، أو تمكنوا من الحفاظ عليها، ترد إلى ذهني: الغولان في جبل باسكو،وقرى وادي كونفينثيون في كوسكو. أما أوتشوبامبا في خاوخا؟

ـــ أجل يا سيدي ـــ قال باييخوس ذلك متحمساً، وسعيداً لأنه استطاع أن يفاجئه، ثم أضاف: ـــ أجل، هنود ذوو بشرة بيضاء وعيون زرق، بل إنهم غرينغيون أكثر مني ومنك.

قال الأفطس أوبييوث بخطابية:

ـــ غزاهم أول الأمر الإنكا وأجبروهم على العمل تحت مقرعة رقباء العمال . ثم انتزع منهم الإسبان بعد ذلك أفضل أراضيهم واقتادوهم للعمل في المناجم. أي للموت بعد زمن قصر برئات منخورة. ومن بقي منهم في أوتشوبامبا وضعوهم تحت حماية أسرة تحمل لقب بيلايث ريوخا·أدمتهم طوال ثلاثة قرون.

وأنهى بايبخوس الكلام بالقول:

ـــ ولكنك ترى أنهم لم يستطيعوا القضاء عليهم.

كانوا قد غادروا بيت أوبييوث لكي يقوموا بجولة، وكانوا يجلسون الآن على مقعد في ساحة السلاح. وفوق رؤوسهم كان يخيم سكون رائع وآلاف النجوم. نسي مايتا البرد ودوار الجبال. لقد كان منفعلا بحماس. وكان يحاول أن يتذكر الانتفاضات الفلاحية الكبرى: توباك آمارو، خوان بوستامانتي، أتوسباريا. فعلى امتداد القرون، وبينما هم يستغلونهم ويذلونهم، كان هنود أوتشوبامبا ما يزالون يحلمون بالأرض التي انتزعوها منهم ويبتهلون من أجلها. في أول الأمر إلى الأفاعي والطيور، وبعد ذلك إلى العذراء الطاهرة والقديسين، ثم من بعد إلى كل المحاكم التي في متناول أيديهم، في محاكمات كانوا يخسرونها على الدوام. أما الآن، منذ بضعة شهور لا أكثر، إذا صح ما سمعته، فقد خطوا الخطوة الحاسمة وحطموا في إحدى الليالي أسيجة إقطاعية آينا ودخلوا هذه الأراضي مع خنازيرهم وكلابهم وأحصنتهم قائلين: «نريد أخذ ما هو لنا». هذا ما حدث، وأنت يا مايتا، ألم تكن تعرف شيئا عن هذا؟

ـــ ولا كلمة واحدة ـــ دمدم مايتا وهو يفرك يديه المنملتين من البرد ـــ بل لم أسمع أي شيء، ففي ليما لم يعرف شيء عن هذا كله.

كان يتكلم ناظرا إلى السماء، مبهورا ببهاء القبة السماوية المصبوغة بلون ثان والمتلألئة، وبالصور التي يبعثها في رأسه ما يسمعه. قدم له أوبييوث سيجارة وأشعلها الملازم.

ـــ مثلما أقول لك ـــ أكد له بايبخوس ـــ. لقد استولوا على مزرعة آينا واضطرت الحكومة إلى إرسال الحرس الأهلي لإخراجهم منها. الفرقة الشرطية التي خرجت من هوانكايو تأخرت أسبوعا في الوصول إلى

أوتشوبامبا. وقد أخرجتهم في النهاية بالرصاص. سقط عدة قتلى وجرحى بالطبع. ولكن العشيرة بقيت مؤرقة لا تستطيع النوم. وهم الآن يعرفون ما هو الطريق.

مرت أسرة أو جماعة من الهنود بدا أفرادها لمايتا أشباحا في ظلال سلحة خاوخا: واختفوا صامتين، متخفين عند زاوية الكنيسة وهم يحملون على رؤوسهم أحمالا يمكن لها أن تكون أسفاطا.

قال الأفطس أوبييوث:

ــ ليست المسألة في أن فلاحي أوتشوبامبا مستعدون للذهاب إلى القتال، وإنما في أنهم يخوضون القتال فعلا، فقد بدؤوا الثورة. وأما ما سنقوم به نحن فهو توجيهها وحسب.

كان البرد يذهب ويجيء، مثل داء المرتفعات. أخذ مايتا نفسا طويلا:

ــ أهي معلومات من مصادر حسنة الإطلاع؟

فضحك بايبخوس:

ــ إنها مصادر في مثل حسن إطلاعي أنا بالذات. لقد كنت هناك. ورأيت الوضع بعيني هاتين.

وصحح له الأفطس أوبييوث بسيناته وراءاته المفخمة:

ــ بل كنا هناك. وقد رأينا الناس وتحدثنا معهم. لقد تركنا كل شيء جاهزا.

لم يدر مايتا ما يقول، فهو الآن متأكد من أن بايبخوس ليس صبيا عديم التجربة ومندفعا مثلما ظنه في البدء، بل هو شخص أكثر جدية وتماسكا وتعقيدا بكثير، وأكثر احتراسا، وقدماه راسختان تماما في الأرض. فقد خطا خطوات أكثر مما كشف له عنه في ليما، فلديه مزيد من الناس، وَخطته متشعبة أكثر بكثير من كل ما تصوره من قبل. من المؤسف أن أناتوليو لم يأت معه.

من أجل تبادل الأفكار، والتأمل، والتعاون فيما بينهما من أجل تنظيم فوضى هذه التخيلات وهذه الحماسة التي تنهشه. من المؤسف أن جميع الرفاق في ح ع ث (ت) ليسوا موجودين ليروا أن الأمر ليس وهما وإنما حقيقة ملتهبة. ومع أن الساعة لم تكن قد أعلنت العاشرة ليلا، فقد بدا الثلاثة وكأنهم الوحيدون في خاوخا.

وعاد بايخوس إلى الضحك:

ـ هل أدركت الآن أنني لم أكن أبالغ عندما قلت لك إن جبال الأنديز صارت ناضجة؟ مثلما قلت لك ومثلما أكرر يا أخي: إنها بركان. ونحن سنجعله يثور.. يا للعنة.

ـ لأننا لم نذهب إلى أوتشومامبا خالي الوفاض بالطبع ـ يقول لي الأستاذ اوبييوث ذلك بصوت خافت وهو يتلفت فيما حوله وكأنه ما زال يمكن لتلك الواقعة أن تورطه حتى الآن، ويضيف:ـ لقد أخذنا معنا ثلاثة مسدسات رشاشة وبضع بنادق ماوزر حصل عليها الملازم من مكان لا أعرف حقيقته. وأخذنا كذلك أدوية طوارئ. وخبأنا كل شيء جيدا بعد لفه بقماش مشمع.

يصمت لكي يتذوق الشراب، ويتمتم بأن الأمور التي يرويها لي يمكن أن تؤدي إلى إعدامنا نحن الاثنين رميا بالرصاص في أقل من صياح ديك.

ثم يضيف بعد أن يتلاشى صدى مرور الدبابة في الليل: وكنا نسمع مرورها قبالة البيت طوال المساء، في تناوب منتظم:

ـ ها أنت ترى، لم تكن مسألة مرتجلة مثلما يظن الجميع. لقد كان عملا خطط له دون رومنسية، بعلمية، وكان يمكن له ينجح لو لم يرتكب بايخوس حماقة تقديم الموعد المقرر. لقد قمنا بعمل أشبه بعمل النمل، عمل

دقيق حقاً. ألم يكن اختيارنا للمنطقة جيداً؟ أليس رجال حرب العصابات هم سادة هذه المنطقة الآن؟ إن الجيش لا يملك الجرأة على الذهاب إلى هناك. لا يمكن لفيتنام أو السلفادور أن تقارن بها. في صحتك!

إن رجلاً، أو مجموعة رجال، أو فصيلة هناك، ستكون أشبه بإبرة وسط كومة من القش. وتحت دثار النجوم اللامعة رأى مايتا الموقع: إنها أدغال كثيفة، متشابكة، محكمة، ورأى نفسه إلى جانب بابيخوس وأوبييوث وجيش من الأشباح يجتاز تلك الأدغال عبر دروب ملتوية. لم تكن بطاحاً أمازونية وإنما غابة متماوجة، منحدرات أدغال جبلية، وانكسارات وشروخ ومضائق وممرات ضيقة وأفجاج، إنها تضاريس مثالية من أجل الضرب والهرب، وقطع طرق اتصالات العدو، وتدويخه، وبلبلته، وإيصاله إلى الجنون، والانقضاض عليه في المكان والزمان اللذين لا يتوقعهما، ودفعه إلى اليأس، إلى الذوبان، إلى التفتت في المتاهة التي لا توصف.وتخيل نفسه وقد نمت لحيته، وصار نحيلاً، في عينيه تصميم جامح، وأصابعه قد تقرحت من كثرة الضغط على الزناد وإشعال الفتائل ورمي شحنات الديناميت. ويختفي أدنى أثر للقنوط واليأس حيال الالتحاق المؤكد لمناضلين جدد في كل يوم، فتتسع الجبهة، ويبدأ العمال والخدم والطلاب والموظفون والفقراء هناك في المدينة بتفهم أن الثورة من أجلهم، ولهم. أحس بحاجة ملحة إلى وجود أناتوليو معه، وإلى تبادل الحديث معه طوال الليل. وفكر: «لو كنت معه لفارقني هذا الإحساس بالبرودة».

ــ هل تمانع في أن نتحدث بعض الشيء أيضاً عن مايتا يا أستاذ؟ فلنرجع إلى تلك الرحلة التي قام بها في آذار ١٩٥٨. لقد عرّفته حضرتك على الفتيان، وعَلِمَ أنكم قد أقمتم علاقات مع فلاحي أوتشوبامبا، وأن بابيخوس يفكر في بدء حرب العصابات من هناك. هل فعل شيئاً آخر، هل عرف شيئاً آخر في رحلته الأولى تلك؟

ينظر إلي بعينين فيهما خيبة الأمل بينما هو يرفـــع إلى شـــفتيه كـــأس البيسكو. يفرقع لسانه راضيا. ما الذي يفعله لكي يستمر النبيذ عنده طـــوال هذا الوقت؟ لا بد أنه لا يكاد يرشف منه أكثر من قطرة في كل مرة. ويدمـدم قائلا: «أعرف أنه عندما تنتهي هذه الزجاجة لن أعود إلى تناول أي جرعة من الخمر حتى مماتي، فالأمور تمضي نحو الأسوأ.. نحو الأسوأ.» وبما أنني لم أكـــن أشرب بفواصل متباعدة، فقد شوش البيسكو ذهني. إنني مشوش ومضطـرب، مثلما كانت حال مايتا بفعل داء المرتفعات.

ـــ يا للمسكين! لقد كانت تلك مفاجأة حياته ـــ يقول لي ذلك أخيرا، بنبرة احتقار يستخدمها كلما تحدث عنه. أهو حقد ضد مايتا بالذات أم أمـــر أكثر عمومية وتجريدا.. حقد جبلي وريفي موجه إلى كل من في ليما، كل من في العاصمة، وكل شيء ساحلي؟ ثم يواصل قائلا: ـــ جاء إلى هنا بتجربتـــه الثورية ومروره في السجن، مقتنعا بأنه سيكون الآمر الأكبر هنا. فوجد أن كل شيء كان منجزا، وعلى أكمل وجه.

تنهد بتثاقل، تنهد على البيسكو الذي سينتهي، على الشباب الذاهـــب، على ذلك الساحلي الذي لقنه هو والملازم درسا، وعلى الجوع الذي يعانيـــه والقلق الذي يعيش فيه. خلال الوقت القصير الذي أمضيناه في تبادل الحديـــث أدركت أنه رجل متناقض. يصعب فهمه. فهو يطلـــق في بعـــض الأحيـــان صرخات من هذا النوع: «يمكن للإرهابيين أن يأتوا في أي لحظة، ويعدمونـــي ويلصقون على جثتي لوحة تقول ''كلب خائن''. أو تأتي إحدى فصائل الحرية وتقطع خصيتي من جثتي وتدسهما في فمي. هذا ما يفعلونه هنا. هل يفعلـــون ذلك في ليما أيضا؟» وفي بعض الأحيان يغضب مني: «كيف يمكن لك كتابـــة الروايات وسط هذا الكابوس؟» أتراه سيعود إلى الحديث في ما يهمني؟ أجـــل، إنه يعود:

ـــ يمكنني أن أحدثك بالطبع عن كل ما فعله، وما قاله، وما رآه وما سمعه في تلك الرحلة الأولى. لقد استبقيته معلقا بي مثل بقرة. نظمنا له اجتماعين، أولا مع الفتيان، ثم مع رفاق أوسع تجربة. عمال من مناجم أورويو، وكاسابالكا، وموروكوتشا. إنهم عمال من خاوخا ذهبوا للعمل في مناجم أكبر إخطبوط إمبريالي في ذلك الحين، شركة ثيرو دي باسكو كوبر كربوريشن. وكانوا يأتون من المناجم في الأعياد وفي نهاية الأسبوع أحيانا.

ـــ وهل كان هؤلاء مشتركين في الخطة أيضا؟

باييخوس وأوبييوث يقولا نعم، ولكن مايتا لم يكن ليضع يديه في النار ويراهن على المنجميين. لقد كان عددهم خمسة عمال، وكانوا قد تبادلوا الحديث معه في اليوم التالي، في بيت الأفطس كذلك، لمدة ساعتين تقريبا. وجد الاجتماع رائعا والتواصل سهلا معهم جميعا ـــ وخصوصا مع لوريتو، أكثرهم تسيسا وقراءة ـــ، ولكنهم لم يقولوا في أي لحظة إنهم مستعدون لمغادرة عملهم وبيوتهم لحمل السلاح. ولكن مايتا ما كان ليقسم كذلك بأنهم لن يفعلوا ذلك. وفكر: «إنهم متكتمون». لقد كانوا عمالا، يعرفون ما الذي يجازفون به. وكانوا يلتقون به للمرة الأولى. أليس من المنطق أن يظهروا الحرص والحذر؟ كانوا يبدون أصدقاء قدماء لأوبييوث. وواحد منهم على الأقل، لوريتو، الذي تملأ فمه أسنان ذهبية، كان قد انضم سابقا إلى الأبريستا. وهو يعلن الآن أنه اشتراكي. عندما يتحدثون عن أمريكيي شركة ثيرو دي باسكو، يبدون معادين حاسمين للإمبريالية؛ وعندما يتحدثون عن الأجور، وعن حوادث العمل، وعن الأمراض التي تسببها أنفاق المناجم، يبدون ثوريين مصممين. ولكن كلما حاول مايتا أن يعرف بالتحديد الطريقة التي سيشاركون بها في الانتفاضة، تأتي إجاباتهم غامضة. وعند الانتقال من العموميات إلى التفاصيل المحددة، يصبح تصميمهم الحاسم أضعف.

ويضيف الأستاذ أوبييوث مفلتا قليلا قليلا كنوزه من المعلومات:

ـــ ذهبنا كذلك إلى ريكران. أنا نفسي أخذته إلى هناك، في شاحنة ابن أخ لي، لأن بايبخوس اضطر إلى البقاء في ذلك اليوم في السجن. ريكران... ريكران التي اختفت من الوجود. هل تعرف كم من القرى الصغيرة مثل ريكران قد دمرت في هذه الحرب؟ لقد أخبرني قاض قبل أيام، بالاستناد إلى كولونيل في الأركان العامة، أن إحصاءات القوات المسلحة قد سجلت نصف مليون قتيل منذ بدء الأحداث. أجل، لقد أخذته إلى ريكران. أربع ساعات من القعقعة في الصعود، حتى بلغنا فجا على ارتفاع أربعة آلاف وخمسمئة متر. يا للتروتسكي المسكين! بدأ أنفه ينزف وبلل منديله. لم يكن قادرا على تحمل المرتفعات. وكانت تخيفه الهاويات. وأقسم لك أنه كان يصاب بالدوار.

ظن أنه سيموت، سيهوي إلى القاع، وأن نزيف أنفه لن يتوقف أبدا. ومع ذلك، فإن تلك الرحلة التي دامت أربعا وعشرين ساعة إلى قرية ريكران، هناك، في منعطفات سلسلة الجبال، كانت أكثر الأعمال التي قام بها في خاوخا إثارة. إنها أرض نسور الكوندور، والثلج، والسماء النقية، والقمم ذات اللون الأمغر. وقد فكر: «لا أكاد أصدق أنه يمكن العيش في هذه الارتفاعات، وترويض هذه الجبال، وزراعة وفلاحة هذه المنحدرات، وبناء حضارة في هذه القفار.» الرجال الذين عرفه عليهم الأفطس أوبييوث ـــ نحو عشرة أشخاص من المزارعين صغار الملاكين والحرفيين ـــ كانوا متحمسين جدا. وقد استطاع التفاهم معهم، إذ أنهم جميعا يتكلمون الإسبانية. وجهوا إليه أسئلة كثيرة، ولشدة حماسه حيال اندفاعهم، أكد لهم ـــ أكثر مما فعل مع الفتيان في خاوخا ـــ على الدعم الذي سيلقونه من القطاعات التقدمية في ليما. يا للحماس الذي تبعثه في النفس عفوية هؤلاء الرجال البائسين، وبعضهم ينتعلون الصنادل، وهم

يتكلمون عن الثورة وكأنها شيء وشيك، محدد، لا جدال فيه ولا رجعة عنه. لم تكن هناك أي مواربة في الحوار:دار الحديث عن الأسلحة، عن المخابئ، وعن مشاركتهم في العمليات منذ اليوم الأول. ولكن مايتا مر بلحظة حرج قاسية عندما سألوه: ما هو الدعم الذي سيقدمه لهم الاتحاد السوفييتي؟ لم تواتيه الجرأة ليحدثهم عن الثورة المغدورة، وعن هيمنة البيروقراطية الستالينية، وعن تروتسكي.أحس بأنه من غير المناسب إحباطهم الآن بمثل هذه المسائل. فقال إن الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية ستقدم المساعدة، ولكن فيما بعد، عندما تصبح الثورة البيروية أمراً واقعاً. أما قبل ذلك، فسوف يقدمون لهم الدعم المعنوي فقط، بالكلام وحسب. فهذا ما يحدث مع بعض التقدميين الكريوليين. لا يضعون كتفهم إلا عندما يدفعهم كل شيء إلى عمل ذلك. ولكننا سندفعهم، لأن الثورة عندما تبدأ لن يكبحها أي شيء.

قال له باييخوس:

ـ وباختصار، لقد أدهشتك ريكران. كنت أعرف أن ذلك سيحدث يا أخي.

كانوا قبالة محطة القطار،في مطعم صغير طاولاته مغطاة بمشمع ضارب إلى الزرقة وستائره من قماش البروكار «مطعم الخالاباتو». ومن الطاولة التي يشغلونها كان بإمكان مايتا رؤية الجبال، في الجانب الآخر من سياج السكة الحديد،وهي تصير رمادية وسوداء بعد أن كانت ذات لون أمغر وذهبي. لقد أمضوا في المطعم عدة ساعات، منذ وقت الغداء. وقد تعرف صاحب المطعم على أوبييوث وباييخوس وصار يدنو منهم بين وقت وآخر لتبادل الحديث. وعندئذ كانوا يغيرون موضوع حديثهم، ويوجه مايتا أسئلة حول خاوخا. لماذا سمي المطعم «خالاباتو»؟ بسبب عادة يمارسونها في احتفالات العشرين من

كانون الثاني (يناير) في حي ياويوس: إذ يرقصون رقصة «العصابة» ويعلقون بطة حية في الشارع ويحاول الفرسان والراقصون قطع رأسها وهم منطلقون بأقصى سرعة.

يزمجر الأستاذ أوبييوث:

ـــ بوركت تلك الأزمنة التي كان يوجد فيها بط لقطع رؤوسه في حفلات الخالاباتو. كنا نظن أننا نلامس القاع. ولكن كان هناك مع ذلك بط في متناول أي جيب، وكان الناس في خاوخا يأكلون وجبتين في اليوم، وهذا شيء لا يستطيع الأطفال اليوم أن يصدقوه. ـــ وتنهد من جديد ـــ لقد كانت احتفالات بديعة، بل إنها كانت أكثر مرحا وشرابا من الكرنفالات.

قال باييخوس:

ـــ الشيء الوحيد الذي نطلبه هو أن يقوم الحزب بواجبه عندما نبدأ العمل. إنهم ثوريون، أليس كذلك؟ لقد قرأت صوت العمال التي أعطيتني إياها من أولها إلى آخرها. الثورة هي الشغل الشاغل في كل مقال. حسن، فليكونوا منسجمين مع ما يكتبونه.

أحس مايتا بشيء من الانزعاج: فهذه هي المرة الأولى التي يشعره فيها باييخوس بأنه يحتفظ ببعض الشكوك حول دعم ح ع ث (ت). لم يكن قد أخبره كلمة واحدة مما دار في المناقشات الداخلية حول مشروعه وشخصه.

ـــ الحزب سيفي بمسؤولياته. ولكنه يريد أن يتأكد من أن هذا العمل جدي، ومخطط له، وأن له احتمالات في النجاح.

ويعود الأستاذ أوبييوث إلى الموضوع قائلا لي:

ـــ حسن، في تلك الأيام لم ير ذاك التروتسكي أن هناك أي تسرع أو جنون. فرأسه لم يكن يستوعب أننا قد أعددنا كل شيء على أحسن وجه.

والتفت مايتا إلى بايخوس:

ـــ صحيح، الأمر أكثر جدية مما كنت أعتقد. أتعرف أنك اســـتطعت خداعي تماما؟ لقد أقمت شبكة متكاملة للانتفاضة، بما في ذلـــك الفلاحـــون والعمال والطلاب: إنني أخلع قبعتي احتراما لك يا رفيق.

أشعلوا الأنوار في المطعم. ورأى مايتا أن بعض الحشرات الطنانـــة قـــد بدأت ترتطم بالمصابيح التي تتأرجح معلقة على حبل طويل جدا.

ـــ لقد كان علي أنا أيضا أن أتخذ بعض الاحتياطات، مثلما فعلت أنت معي. ـــ قال الملازم ذلك متكلما بتلك الصرامة التي ما إن تظهر فيـــه حـــتى تحوله إلى شخص آخر. ـــ لقد كان علي أن أتأكد أيضا من أنه يمكنني الثقـــة بك.

ـــ لقد تعلمت الدرس جيدا ـــ قال له مايتا ذلك مبتسما. وتوقف عـــن الكلام ليلتقط أنفاسه. لقد كان تأثير داء المرتفعات عليه اليـــوم أقـــل، فقـــد استطاع أن ينام بضع ساعات بعد يومين من الأرق. هل بدأت سلسلة الجبـــال تتقبله؟ ثم أضاف: ـــ هناك رفيقان آخران، هما أناتوليو وخـــاثينتو، ســـيأتيان الأسبوع القادم. وسيكون تقريرهما حاسما في انغماس الحزب تماما في العمليـــة. وعندما يريان ما رأيته، سيدركان أنه ليست هناك أي مبررات للتراجع.

هنا دون شك، خلال رحلته الأولى إلى خاوخا، خطرت لذهن مايتـــا تلك الفكرة التي جلبت له مشاكل كثيرة. هل أطلعهما عليها في الخالابـــاتو؟ هل طرحها بصوت خافت، منتقيا الكلمات، كي لا يبلبلهما بانقسامات ذلك اليسار الذي يظنانه متجانسا؟ الأستاذ أوبييوث يؤكـــد لي أن لا. «إذا كـــان جسدي قد ضعف وتهلهل بفعل السنين، فإن ذاكرتي مـــازالت ســـليمة و لم تضعف.» ومايتا لم يطرح عليه مطلقا نيته في الطلب من جماعات وأحـــزاب

أخرى المشاركة في العملية. هل طرح هذه الفكرة إذن مع بايبخوس وحـــده؟ مما لا شك فيه على أي حال أنه قد حسم أمر تلك المبادرة في خاوخا، ذلـــك أن مايتا لم يكن متهورا. وإذا كان قد ذهب لدى رجوعـــه إلى ليمـــا للقـــاء بلاكير، وربما التقى كذلك أناسا من ح ع ث الآخر، فلأنه كان قـــد قلـــب الأمر كثيرا أثناء وجوده في سلسلة الجبال في الأيام السابقة. لقد فعل ذلـــك في إحدى ليالي الأرق وتسرع النبض تلك، في نزل شارع تاراباكا، بينمـــا هـــو يسمع في الظلام أنفاس صديقه الهادئة وطفرات قلبه بالذات. ألم يكـــن مـــا سيجري عظيم الشأن بحيث لا يمكن لحزب صغير مثل ح ع ث (ت) أن يتولى منفردا مسؤولية الانتفاضة؟ الجو بارد، وهو ينكمش على نفسه تحت الدثـــار. يده على صدره، يستمع إلى نبضاته. المنطق العقلاني كـــان واضحـــا جـــدا. فالانقسامات في صفوف اليسار سببها، إلى حد بعيد، غياب الممارسة العمليـــة الحقيقية، والانشغال بأعمال عقيمة: وهذا يجعل قوى اليسار تنحدر وتلتـــهم ذاهّا، أكثر مما تفعل ذلك الخلافات الأيديولوجية. ويمكـــن لخـــوض حـــرب العصابات أن يعدل الوضع وأن يوحد الثوريين الحقيقيين مظهرا لهـــم مـــدى بيزنطية اختلافاهم. أجل، ستكون الممارسة العملية هي الدواء ضد الفئوية الـــتي تتولد من العجز السياسي. العمل المباشر سيكسر الدائرة المغلقة، وسيفتح عيون الرفاق المتخاصمين. لا بد من الجرأة، ومن الوقوف على مستوى الظـــروف. «ما أهمية ''البابلوية'' و''مناهضة البابلوية'' أيها الرفاق حين يتعلق الأمر بمصير الثورة؟» وتصور في ليل خاوخا البارد، القبة السماوية الملطخة بالنجوم وفكر: «هذا الهواء النقي أنار لك الطريق يا مايتا». أنزل يده من صدره إلى عضـــوه، وبدأ يداعبه بينما هو يفكر في أناتوليو.

وأسأله بإصرار:

ــ أو لم يقل لكما إن الخطة على قدر من الأهمية بحيث لا يمكن لها أن تكون احتكاراً لفئة تروتسكية صغيرة؟ وإنه سيحاول الحصول على مشاركة حزب العمال الثوري الآخر، بل والحزب الشيوعي كذلك؟

فيجيب الأستاذ أوبييوث في الحال:

ــ لم يفعل ذلك بالطبع. لم يقل لنا أي شيء في هذا الشأن وحلول أن يخفي عنا أن اليسار منقسم على نفسه وأن ح ع ث (ت) هو حزب لا قيمة له. لقد خدعنا بكل أشكال المراوغة المخاتلة. فقد كان يحدثنا عن **الحزب**. الحزب من هنا والحزب من هناك. وأنا كنت أفهم أن المقصود هو الحزب الشيوعي بالطبع، وأظن أن ذلك يعني آلاف وآلاف العمال والطلاب.

تُسمع من بعيد زخة رصاص. أم تراه يكون رعداً؟ ثم تتكرر مرة أخرى بعد ثوان قليلة، فيخيم علينا الصمت ونصيخ السمع. وتسمع من بعيد أيضاً زخة أخرى فيتمتم الأستاذ أوبييوث: «إنها مفرقعات من الديناميت يفجرها رجال العصابات في الجبال لكي يحطموا أعصاب جنود الثكنة. حرب نفسية.» لا: بل هي طيور بط، إنه سرب منها يطير وينعق فوق نباتات القصب. كانا قد خرجا للقيام بجولة وكان مايتا يحمل حقيبته في يده. فبعد ساعة تقريباً سيركب القطار إلى ليما.

قال له بابيخوس:

ــ هناك متسع للجميع بالطبع. وكلما كانوا أكثر يكون الوضع أفضل. وستكون هناك أسلحة لكل من يريد أن يطلق النار. الشيء الوحيد الذي أطلبه منك هو أن تقوم بمساعيك بسرعة.

كانا يمشيان على ضفاف المدينة وكانت تبدو من بعيد بعض الأسطح ذات القرميد المائل إلى الحمرة. وكانت الريح تصفر بين أشجار الأوكالبتوس والصفصاف.

وقال مايتا:

ـــ لدينا كل الوقت الذي نحتاجه. لا يوجد مبرر للتسرع في الأمور.

ـــ بل يوجد مبرر ـــ قال بابيخوس ذلك بجفاء. وعاد ينظر إليه وكان في عينيه تصميم أعمى. ففكر مايتا: «هناك شيء آخر، سأعرف شيئاً جديداً»، وواصل بابيخوس قائلاً: ـــ القائدان الرئيسيان في أوتشوبامبا، من قادا الاستيلاء على مزرعة آينا موجودان هنا.

فقال مايتا:

ـــ هنا في خاوخا؟ ولماذا لم تعرفني عليهما؟ كنت أود التحدث معهما.

فابتسم بابيخوس:

ـــ إنهما في السجن ولا يمكن زيارتهما. إنهما معتقلان، أجل.

كانت قد نقلتهما إلى السجن دورية من الحرس الأهلي الذي كُلف بقمع عمليات الاستيلاء على الأراضي. إنما لم يكن من المؤكد أن يبقيا في السجن لوقت طويل. ففي أي لحظة يمكن أن تأتي أوامر بتحويلهما إلى هوانكايو أو إلى ليما. والخطة الموضوعة تعتمد في معظمها عليهما. فهما سيقودانهم من خاوخا إلى أوتشوبامبا بصورة سريعة ومضمونة، وهما من سيضمن مشاركة الفلاحين في الانتفاضة. فهل ترى كيف أن الوقت المتوفر محدود جداً؟

ـــ إنهما أليخاندرو كوندوري وثينون غونثالس ـــ أقول له ذلك مستبقاً نطقه بالاسمين. فيفتح أوبييوث فمه من الدهشة. وكان ضوء المصباح قد تضاءل كثيراً حتى صرنا وكأننا في الظلام.

يقول متلعثماً:

ـــ أجل، هكذا يسميان. إنك واسع الإطلاع.

أأنا واسع الإطلاع؟ أظن أنني قرأت كل ما ظهر في الصحف والمجلات حول هذه القصة، وتحدثت مع عدد كبير من المشاركين والشهود. ولكنني كلما كنت أتقصى أكثر، أشعر بأنني أعرف أقل عما حدث فعلا. فمع كل معلومة جديدة، يبرز مزيد من التناقضات، والتخمينات، والأسرار، والتنافرات. كيف أمكن أن ينتهي الأمر بهذين القائدين الفلاحيين اللذين ينتميان إلى جماعة عريقة من منطقة الأدغال في خونين، ليصلا إلى سجن خاوخا؟

وأوضح له بايبخوس:

ـــ صدفة رائعة. أنا لم أتدخل في هذا الأمر بأي حال. فقد كان هذا هو السجن الذي يجب إحضارهما إليه، لأنه يجب على القاضي أن يفتح التحقيق معهما هنا. لو كانت أختي معنا لقالت إن الرب يساعدنا، أترى؟

ـــ وهل كانا مرتبطين بكم قبل اعتقالهما؟

فيقول لي أوبييوث:

ـــ بصورة عامة فقط. تحدثنا معهما خلال الرحلة التي قمنا بها إلى أوتشوبامبا وساعدانا في إخفاء الأسلحة. ولكنهما لم يلتزما معنا بالكامل إلا هنا، خلال الشهر الذي أمضياه في الاعتقال. فقد صارا صديقين حميمين لسجانهما، أي الملازم. وأنا أعرف أنه لم يطلعهما على التفاصيل إلى أن اندلعت الأحداث.

هذا الجزء من القصة، الجزء الأخير، يسبب قلقا للأستاذ أوبييوث، على الرغم من الوقت الطويل الذي مضى على الأحداث. إنه يتحدث في هذا الجزء بحقد، ودوره في هذا الجزء موضع نقاش وشك. سمعنا دفقة أخرى من إطلاق النار، آتية من بعيد. فزمجر:«ربما هم يعدمون بعض المتواطئين مع الإرهابيين».

فهذا هو الوقت الذي يخرجونهم فيه من بيوتهم، ويحملونهم في سيارة جيب أو في مصفحة، ويأخذونهم إلى خارج المدينة. وتظهر الجثث في اليوم التالي على الدروب. ويسألني فجأة، دون أي تمهيد: «وما مغزى كتابة الرواية بينما البيرو في هذه الحال التي هي عليها، حيث جميع البيرويين يعيشون حياة غير مضمونة؟» هل لهذا أي مغزى؟ وأقول له إنه لا بد أن يكون له مغزى بالتأكيد، ذلك أنني أكتب الرواية فعلاً. هنالك شيء مُحبِط في الأستاذ أوبييوث: فكل ما يقوله يسبب لي طعماً من الحزن. إنه حكم مسبق، ولكنني غير قادر على التخلص من الإحساس بأنه يتخذ على الدوام موقفاً دفاعياً وأن كل ما يرويه لي ليس له من هدف سوى تبرير موقفه. ولكن، ألا يفعل الجميع ذلك؟ من أين إذن يتولد ارتيابي به؟ هل من بقائه حياً؟ أم من الأقاويل والهمسات الكثيرة التي سمعتُ بها ضده؟ ولكن، ألست أعرف أن هذه البلاد كانت، في مجال المشاحنات السياسية، مزبلة ضخمة قبل أن تتحول إلى المقبرة التي صارت إليها الآن؟ ألا أعرف الحقارات الكثيرة التي يمكن للخصوم أن ينسبوها إلى بعضهم البعض بالتبادل دون أن يكون لها أي أساس؟لا، لا يمكن أن يكون هذا هو ما يبدو لي مدعاة للرثاء فيه، وإنما ببساطة انحداره،ومرارته، والحجر الذي يعيش فيه.

أقول له:

ــ أنت تعني، باختصار، أن مشاركة مايتا في خطة العمل كانت معدومة تماماً.

ــ لكي أكون عادلاً، أقول إنها كانت في الحدود الدنيا ــ صحح لي وهو يهز كتفيه. ثم تثاءب فامتلأ وجهه بالتجاعيد قبل أن يضيف:ــ ثم إن مشاركته أو عدم مشاركته ما كانت ستغير شيئاً في النتائج. لقد تقبلناه

معتقدين أنه قائد سياسي ونقابي له بعض الوزن.كنا بحاجة إلى الدعم العمالي والثوري في بقية أرجاء البلاد. وكنا نتصور أن تلك ستكون مهمة مايتا. ولكن تبين أنه لم يكن يمثل حتى جماعته الصغيرة في ح ع ث (ت).لقد كان، بعبارة سياسية، يتيماً كاملاً.

«يتيماً كاملاً». بقيت العبارة ترن في مسمعي بينما أنا أودع الأستاذ أوبييوث وأخرج إلى شوارع خاوخا المقفرة،متوجهاً إلى نزل باكا، تحت سماء متألقة بالنجوم. لقد قال لي الأستاذ إنه بإمكاني البقاء للنوم في صالة بيته الصغيرة إذا ما كنت أخشى اجتياز الطريق الطويل إلى النزل. ولكنني فضلت الانصراف: إنني بحاجة ماسة إلى الهواء والوحدة. إنني بحاجة إلى تهدئة طنين رأسي والابتعاد بعض الشيء عن شخص يُفقدني حضوره الحماس لعملي. لقد توقفت رشقات الرصاص وبدا كما لو أن هناك حظراً للتجول لأنه لم يكن ثمة أحد في الشوارع. أسير في منتصف الشارع، وأخطو بقوة، باذلاً جهدي في أن أكون مرئياً حتى لا تظن أي دورية قد تظهر فجأة أنني أحاول التخفي. هناك ضياء يجعل السماء أكثر انخفاضاً، وأشد فرادة بالنسبة إلى شخص يعيش في ليما، حيث لا تكاد النجوم تظهر على الإطلاق، أو أنها تُلمح منطفئة بسبب الضباب. البرد يقصم الشفاه. لقد فارقني الجوع الذي كنت أشعر به في المساء. يتيم كامل. عادت العبارة إلى ذهني، فقد ناضل دوماً متنقلاً إلى فئات أصغر حجماً وأكثر راديكالية في كل مرة، بحثاً عن نقاء أيديولوجي لم يتوصل إلى العثور عليه أبداً، وكان يتمه الأكبر في إلقائه بنفسه وسط هذه المؤامرة الغريبة، من أجل بدء حرب في مرتفعات خونين، مع ملازم سجان في الثانية والعشرين من عمره وأستاذ مدرسة عامة، كليهما منفصل تماماً عن حركة اليسار البيروي. لقد كان ذلك مذهلاً، أجل. وما زال يذهلني بعد سنة أمضيتها في

التحري والبحث، مثلما ذهلتُ في ذلك اليوم في باريس عندما علمت بما حدث في خاوخا... الضوء الزنخ المنبعث من مصابيح الأعمدة المتباعدة يلف بظلال سرية واجهات المباني القديمة، لبعضها بوابات ضخمة ومقارع، وأسيجة حديد مشغول وشرفات ذات ستائر معدنية، أتخيل أن وراءها دهاليز وباحات فيها أشجار ونباتات متسلقة، وحياة منظمة ومُضجرة منذ القدم انكمشت اليوم دون شك بفعل الخوف. ولكن اليتيم الكامل كان يشعر دون شك في زيارته الأولى تلك إلى خاوخا بالحماس والسعادة مثلما لم يشعر بذلك من قبل. فهو سيعمل فعلاً، والانتفاضة اتخذت شكلاً ملموساً: هناك وجوه، وأماكن، وحوارات، ووقائع محسوسة. وكأن كل حياته كمناضل، كمتآمر، كتقدمي ومعتقل سياسي قد وجدت فجأة مبرر وجودها وانقذفت بقوة نحو واقع أسمى. ثم إن ذلك يتوافق مع تحقيق ما كان يبدو له قبل أسبوع مجرد حلم هذياني. ألم يكن يحلم؟ لا، إنها الحقيقة والواقع مثلما هي الانتفاضة الوشيكة: إنه يحتضن بين ذراعيه الفتى الذي رغب فيه سراً لسنوات طويلة. لقد أمتعه واستمتع معه، أحس به يئن تحت مداعباته.أحس بدغدغة في خصيتيه، بسابقة للانتصاب وفكر: «هل أُصبتَ بالجنون؟ أتفعل ذلك هنا؟ في وسط المحطة؟ هنا، أمام بايبخوس؟» وفكر: «إنها السعادة. فأنت لم تشعر أبداً بمثل هذا الشعور يا رفيق». لا وجود لأي شيء مفتوح، وأتذكر رحلة سابقة، منذ سنوات، قبل كل هذا، حين كانت دكاكين خاوخا الصغيرة التي لا تنسى عند الغروب، مضاءة بمصابيح كيروسين: محلات الخياطة، والشموع، والحلاقة، وتصليح الساعات، ومتاجر الخبز، ومحلات القبعات. وكان بإمكان المرء أن يرى على الشرفات أحياناً، صفوفاً من الأرانب تجفف نفسها في العراء. يعاودني الجوع فجأة، ويمتلئ فمي باللعاب. أفكر بمايتا:متهيجاً، سعيداً، وهو

يستعد للعودة إلى ليما، واثقاً من أن رفاقه في ح ع ث (ت) سيؤيدون خطة العمل دون تردد. وفكر: «سألتقي بأناتوليو، وسنقضي الليل في الحديث، سأخبره بكل شيء، سنضحك، وسيساعدني في تشجيعهم. وبعد ذلك...» يخيم صمت مطبق، يقطعه أحياناً نعيب طائر ليلي، غير مرئي تحت أفاريز السطوح القرميدية. إنني أخرج من البلدة. هنا حدث الأمر، هنا فعلوا ذلك، في هذه الأزقة التي كانت شديدة الهدوء واللازمانية في ذلك الحين، في هذه الساحة ذات الأبعاد البديعة والتي كان فيها قبل خمس وعشرين سنة شجرة صفصاف ودائرة من أشجار السرو. هنا،في هذه البلاد التي خيل إليهم أنها لا يمكن أن تكون في وضع أسوأ مما كانت عليه، وأنه لا يمكن للمجاعة والمجازر وخطر الانقسام أن تصل إلى الأبعاد الحالية. هنا، وقبل أن يرجع إلى ليما، وبينما هما يتبادلان الوداع في المحطة،أشار اليتيم الكامل إلى الملازم المندفع بأنه من أجل تحقيق اندفاعة أعظم في بداية الانتفاضة، من المناسب التفكير ببعض أعمال الدعاية المسلحة.

فقال بايبخوس:

ــ وما هي هذه الدعاية المسلحة؟

كان القطار على الرصيف والناس يصعدون متزاحمين. وكانا يتبادلان الحديث قرب السلم، مستغلين اللحظات الأخيرة.

قال مايتا:

ــ إذا ترجمنا هذا إلى اللغة الكاثوليكية فإنه يعني الوعظ بالمثال. القيام بأعمال لتثقيف الجماهير، تترسخ في مخيلتها، وتقدم لها أفكاراً، وتُظهر لها قوتها. إن عملاً من أعمال الدعاية المسلحة يساوي أكثر من مئات الأعداد من مجلة **صوت العمال**.

كانا يتكلمان بصوت خافت،ولكن لم يكن هناك خطر من أن يسمعهما أحد في صخب الهجوم على عربات القطار.

ـ وهل تريد دعاية مسلحة أكبر من احتلال سجن خاوخا والاستيلاء على الأسلحة؟ وأكبر من احتلال المفوضية ومركز الحرس الأهلي؟

فقال مايتا:

ـ أجل، أريد ما هو أكثر من ذلك.

فاحتلال هذه المواقع هو عمل عسكري، حربي،يشبه إلى حد ما أجواء الثكنة منذ أن يتزعمه ملازم. وهو غير واضح كفاية من الوجهة الأيديولوجية. يجب استغلال هذه الساعات الأولى إلى أقصى مدى.فالصحف والإذاعات ستنقل الأخبار بتواتر. وكل ما سيفعلونه في هذه الساعات الأولى سيكون له صدى وسيبقى محفوراً بعمق في ذاكرة الشعب. يجب استغلال هذه الساعات جيداً، وتنفيذ أعمال ذات شحنة رمزية، وأن تصل رسالتها الثورية والطبقية إلى المناضلين الحزبيين، وإلى الطلاب والمثقفين، وإلى العمال والفلاحين.

فقال بايبخوس:

ـ هل تعرف؟ أظن أنك على حق.

ـ المهم هو أن نعرف مقدار الوقت المتوفر لدينا.

ـ سيكون لدينا عدة ساعات. فبعد قطع خطوط الهاتف والتلغراف وتعطيل جهاز اللاسلكي، ستكون الطريقة الوحيدة لنقل الخبرهي في الذهاب إلى هوانكايو. والذهاب والعودة وتعبئة رجال الشرطة يتطلب حوالى خمس ساعات.

فقال مايتا:

ـ هذا يكفي إذن من أجل بعض الأعمال التثقيفية. لتعريف الجماهير بأن حركتنا موجهة ضد السلطة البرجوازية، وضد الإمبريالية والرأسمالية.

ضحك بايبخوس وهو يعانقه:

ــ إنك تلقي خطاباً. اصعد، اصعد. وبما أنك عائد الآن، فلا تنس المفاجأة التي أهديتك إياها. ستحتاج إليها كثيراً.

«لقد كانت الخطة متكاملة»، قال ذلك الأستاذ أوبييوث عدة مرات خلال محادثتنا معاً. أين كان العيب إذن يا أستاذ؟ العيب كان في تبديلها، في التسرع، في قلبها رأساً على عقب. ومن الذي قلب الخطة وتسرع بها؟ «لا يمكنني تحديد ذلك بدقة. لقد كان بايبخوس بالطبع. ولكن،ألا يكون قد فعل ذلك بتأثير ذلك التروتسكي. سأذهب إلى القبر وأنا أحمل هذا الشك.» ويقول إن هذا الشك قد أكل حياته، ومازال يأكلها، أكثر من تلك الافتراءات التي تشاع ضده، بل وأكثر من كونه على القائمة السوداء لدى رجال حرب العصابات. لقد اجتزت نصف الطريق نحو النزل دون أن ألتقي بأية دورية أو دبابة أو إنسان أو حيوان: لا شيء سوى نعيب غير مرئي. النجوم والقمر تتيح رؤية الحقول الهادئة بلونها المائل إلى الزرقة، والمزروعات،وأشجار الأكالبتوس والجبال، والبيوت الصغيرة على جانبي الطريق مسورة بالحجر والطين مثل بيوت المدينة. لا بد أن مياه البحيرة تستحق الرؤية في ليلة مثل هذه. عندما أصل إلى النزل سأخرج لأراها. المسيرة أعادت إليّ الحماس لكتابي. سأطل على الشرفة وعلى المرسى، ولن تأتي أي رصاصة طائشة أو متهورة لتقطع عليّ متعتي. وسأفكر، وأتذكر، وأتخيل إلى أن أتوصل قبل أن يبدأ النهار إلى إعطاء شكل لهذا الفصل من قصة مايتا. دوت صافرة وبدأ القطار يتحرك.

الفصل السادس

ـــ كانت زيارته هي الأشد رعباً بين الزيارات التي أتتني ـــ يقـــول لي بلاكير ـــ لقد بقيت أرمش، وكأنني أريد ولا أريد التعرف عليه. أكان هـــو حقاً؟

ـــ أجل، إنني أنا ـــ قال له مايتا بسرعة ـــ هل يمكنني الدخول؟ الأمـــر مستعجل.

ـــ تصور! تروتسكيّ في بيتي ـــ ابتسم بلاكير متذكراً القشعريرة الـــتي أحس بها في ذلك الصباح، حين وجد نفسه أمام تلك الزيارة المفاجئـــة:ـــ لا أظن أن هناك حديثاً يمكن أن يجمع بيني وبينك يا مايتا.

ـــ الأمر مهم، مستعجل، إنه فوق كل خلافاتنـــا ـــ «كـــان يتكلـــم باحتدام، وكان بادياً عليه أنه لم ينم و لم يغتسل، وبدا شـــديد الانفعـــال» ـــ أتخشى أن أورطك بمجيئي إلى بيتك؟ فلنذهب إلى أي مكان تشاء إذن.

ويضيف بلاكير:

ـــ كنا قد التقينا ثلاث مرات. المرتان الأوليان قبل اجتمـــاع ح ع ث (ت) الذي طردوه فيه باعتباره خائناً. أي بسبب مجيئه للقاء بي. أنا، الستاليني.

ويبتسم من جديد بأسنانه الملوثة بالتبغ، ويتأملني للحظة من وراء نظـارة قصر البصر السميكة بفتور. إننا في **مقهى هايتي في** حي ميرافلوريس، والمقـــهى ما يزال في حالة النقاهة، لم يُنه بعد إصلاح الأضرار التي ألحقها به الانفجـــار: فنوافذه مازالت دون زجاج، وطاولة الكونتوار والأرضية مـــازالت مهشـــمة

ومتشظية. ولكن ذلك لا يظهر هنا في الشارع. فالجميع فيما حولنا يتكلمون في المسألة نفسها، وكأن زبائن العشرين طاولة التي على الرصيف يشاركون في محادثة واحدة: أيكون صحيحاً أن قوات كوبية قد اجتازت حدودنا مع بوليفيا؟ وأن المتمردين مع «المتطوعين» الكوبيين والبوليفيين الذين يدعمونهم يدفعون الجيش منذ ثلاثة أيام إلى التقهقر، وأن المجلس العسكري الحاكم قد نبه الولايات المتحدة إلى أن عدم تدخلها سيتيح للمتمردين احتلال مدينة آريكيبا خلال بضعة أيام والإعلان هناك عن قيام جمهورية البيرو المستقلة؟ ولكنني أنا وبلاكير تجنبنا الخوض في هذه الأحداث الكبرى وتحدثنا عن تلك الحادثة الضئيلة والمنسية منذ ربع قرن والتي تدور حولها روايتي.

ـــ لقد كنتُ ستالينياً في الواقع ـــ يضيف بلاكير بعد لحظة ـــ مثلما كان الجميع في ذلك الحين. أو لم تكن ستالينياً أنت أيضاً؟ ألم تكن تنفعل حماساً لسيرة ستالين المقدسة التي كتبها باربوس؟ ألم تكن تحفظ عن ظهر قلب قصيدة نيرودا في تبجيله؟ ألم يكن لديك ملصق لرسمه الذي رسمه بيكاسو؟ أو لم تبكِه عندما مات؟

لقد كان بلاكير أستاذي الماركسي الأول ـــ قبل خمس وثلاثين سنة ـــ في حلقة دراسية سرية نظمتها الشبيبة الشيوعية، في بيت صغير في بويلو ليبري. صحيح أنه كان في ذلك الحين ستالينياً، مجرد آلة مبرمجة على ترديد البيانات، إنسان آلي يتكلم بنمطية مرسومة. أما الآن فهو رجل مسن، يعيش حياة بائسة بمزاولة أعمال مطبعية. أما زال عضواً في الحزب؟ ربما، ولكنه عضو تابع لن يتوصل مطلقاً إلى تسلق المراتب القيادية: والدليل على ذلك أنه هنا، معي، أمام العيان في وضح النهار، في هذا اليوم الرمادي بغيومه الملبدة التي تبدو وكأنها نذر خبيثة، تتفق تماماً مع الإشاعات حول التدويل النهائي للحرب في جنوبي البلاد. ليس هناك من يطارده بينما أدنى قيادات الحزب الشيوعي ـــ أو

أي حزب آخر من أحزاب اليسار ــ قد توارت عن الأنظار، أو أنها اعتقلت أو قُتلت. أعرف قصته المشوشة من بعض ما سمعته عنه فقط ولست أنوي التقصي عنها الآن. (لأنه إذا ما صحت الأخبار عن أن الحرب قد تعممت، فلن يكون لدي ما يكفي من الوقت إلا لإنجاز الرواية وحدها؛ وإذا ما وصلت الحرب إلى ليما، وإلى باب بيتي، فإنني أشك في إمكانية إنجازها.)ما يهمني من بلاكير الآن هو شهادته حول تلك الاجتماعات الثلاثة التي عقدها مع مايته قبل خمس وعشرين سنة ــ اجتماعهما هما النقيضين معاً: التروتسكي والستاليني ــ عشية الانتفاضة في خاوخا. ولكنني كنت مأخوذاً طوال الوقت لكون بلاكير الذي كان مهيّاً دون ريب للوصول إلى اللجنةالمركزية وربما إلى زعامة الحزب الشيوعي، أصبح الآن السيد لا أحد. ما جرى له وقع في أحد بلدان وسط أوربا، في هنغاريا أو تشيكوسلوفاكيا، حيث كان قد أُرسل إلى مدرسة للكوادر، وحيث وجد نفسه متورطاً في مشكلة. وحسب الاتهامات التي شاعت همساً ــ الشائعات المعتادة: نشاطات انقسامية، فردية متطرفة، عجرفة برجوازية صغيرة، عدم انضباط، تخريب في خط الحزب ــ كان من المستحيل معرفة ما قاله أو فعله ليستحق الحرمان. أيكون قد اقترف الجريمة القصوى: أي انتقاد الاتحاد السوفييتي؟وإذا كان قد فعل ذلك، فلماذا انتقده؟ الشيء المؤكد هو أنه طُرد من الحزب بضع سنوات، عاش خلالها في المطهر الكئيب للشيوعيين المتطهرين ــ ليس هناك من هو أشد يتماً من عضومطرود من الحزب، حتى ولا الخوري الذي يخلع مسوح الكهنوت ــ، متردياً بكل المعاني، إلى أن تمكن من الرجوع كما يبدو،بعد تقديم النقد الذاتي اللازم على ما أعتقد. ولكن عودته إلى الحظيرة لم تنفعه كثيراً، إذا حكمنا على ما صار إليه منذ ذلك الحين. فالحزب، حسب علمي، أوكل إليه مهمة تصحيح بروفات جريدة **أونيداد** وبعض الكراسات والمنشورات، إلى أن اتخذت

الانتفاضة الأبعاد التي وصلت إليها، فأعتُبر الشيوعيون خارجين على القانون وبدأت ملاحقتهم أو اغتيالهم على يد كتائب الحرية. ولكن من غير المحتمل أن يسجنوا أو يغتالوا الرجل المحطم الذي صار إليه،اللهم إلا نتيجة خطأ أو حماقة هائلة. لا بد أن مرارة ذكريات الماضي قد وضعت حداً لأوهامه. ففي كل المرات التي رأيته فيها خلال السنوات الأخيرة ــ ودائماً ضمن جماعة من الناس، وهذه هي المرة الأولى منذ عشر أو خمس عشرة سنة التي نتحدث فيها على انفراد ــ كان يبعث فيّ الانطباع بأنه كائن مرير ودون فضول.

أقول له مصححاً:

ــ لم يطردوا مايتا من ح ع **ث** (ت). وإنما هو الذي استقال. في ذلك الاجتماع الأخير بالتحديد. رسالة استقالته نُشرتْ في **صوت العمال** (ت). ولدي قصاصة منها.

فيصحح لي هو بدوره مؤكداً:

ــ بل طردوه. أعرف ما جرى في جلسة التروتسكيين تلك كما لو كنتُ معهم.لقد روى لي مايتا نفسه تفاصيلها في المرة الأخيرة التي التقينا بها. المرة الثالثة. سأطلب فنجان قهوة آخر، إذا كنت لا تمانع.

الشيء الوحيد الذي يمكن طلبه هو القهوة والمياه الغازية، فحتى قطع البسكويت أصبحت مقننة الآن، ومن المفترض ألا يقدموا أكثر من فنجان قهوة واحد فقط لكل زبون. ولكنه ترتيب لا يحترمه أحد. الناس منفعلون جداً، فالجميع على الطاولات المجاورة يتكلمون بصوت عال. وعلى الرغم مني أجد نفسي مشدوداً لسماع ما يقوله شاب يضع نظارة: في وزارة العلاقات الخارجية يقدرون أن عدد الأميين الكوبيين والبوليفيين الذين عبروا الحدود «يصل إلى بضعة آلاف». وتفتح الفتاة التي معه عينيها: «أيكون فيدل كاسترو قد دخل أيضاً؟» فيخيب الشاب أملها:«لقد كبر كثيراً على مثل هذه

المشقات». الصبيان الحفاة ذوو الثياب الرثة في شارع دياغونال يتهافتون مثل النحل على كل سيارة تريد التوقف، عارضين غسلها، حراستها، تنظيف زجاجها. وآخرون يتجولون ما بين الطاولات، عارضين على زبائن مقهى هايتي مسح أحذيتهم وتحويلها إلى مرآة. (يقال إن القنبلة التي انفجرت هنا، وضعها أطفال مثل هؤلاء.) وهناك أيضاً جماعات من النساء يقفزن ما بين المارة والسائقين ــ حين يتوقف هؤلاء عند إشارات المرور ــ عارضين عليهم سجائر مهربة. ففي ندرة المواد الرهيبة التي تعيشها البلاد، بقيت السجائر هي الشيء الوحيد الذي لم يختف. لماذا لا يهرِّبون كذلك معلبات أغذية محفوظة، وبسكويت، وشيء لقتل الجوع الذي ننام ونقوم به؟

ــ هذه هي المسألة ــ قال مايتا لاهثاً. وكان قد تكلم بهدوء، بترتيب، دون أن يقاطعه بلاكير. وكان قد قال ما أراد قوله. هل أحسن صنعاً بذلك أم أساء؟ لم يكن يعرف ذلك ولا يهمه أن يعرف: كان يشعر كما لو أن كل نعاس الليلة التي أمضاها ساهراً قد داهمه دفعة واحدة ــ. أترى، لقد كنتُ محقاً عندما طرقت بابك.

بقي بلاكير صامتاً، ينظر إليه والسيجارة تحترق بين أصابعه النحيلة المصفرة. الحجرة الضيقة كانت غرفة هجينة ــ فهي مكتب، وغرفة طعام، وغرفة استقبال ــ، مترعة بالمفروشات، والكراسي، وبعض الكتب، وكانت تبدو في ورق الجدران الباهت بقع من الرطوبة. وبينما كان مايتا يتكلم، سمع في الأعلى صوت امرأة وبكاء طفل. وقد بقي بلاكير جامداً دون حراك، ولولا عيناه المثبتتان عليه لظنه نائماً. لقد كان هذا القطاع من حي خيسوس ماريا هادئاً، ودون سيارات.

ــ لا يمكن أن يكون هناك استفزاز ضد الحزب أشد فَظاظة من هذا ــ قال بلاكير أخيراً بصوته الخالي من التلونات. وسقط رماد سيجارته على

الأرض فداسه بقدمه، وأضاف:ـــ كنت أظن التروتسكيين أكـــثر تهذبـــاً في مكائدهم. يمكنك أن توفر على نفسك هذه الزيارة يا مايتا.

لم يفاجأ: فقد قال بلاكير ما كان يجب عليه أن يقوله، ربما باســتخدام كلمة أقل أو كلمة أكثر. وقد رأى بينه وبين نفسه أنه على حق: فعلى المناضل أن يرتاب وبلاكير مناضل جيد، وهذا أمر يعرفه عنه مذ كانا معتقلين معـــاً في تلك المرة. وقبل أن يرد عليه، أشعل سيجارة وتثاءب. وعاد الطفل في الأعلـى إلى البكاء. وكانت المرأة تهدئه هامسة.

قال له مايتا:

ـــ تذكر أنني لم آت لأطلب شيئاً من حزبك. وإنما لإطلاعك وحسب. وهذا أمر فوق كل خلافاتنا. إنه يخص جميع الثوريين.

فدمدم بلاكير:

ـــ بمن في ذلك الستالينيون الذين خانوا ثورة أكتوبر؟

ـــ أجل، بما في ذلك الستالينيون الذين خانوا ثورة أكتوبـــر ـــ وافـــق مايتا، ثم بدل نبرة صوته قائلاً:ـــ لقد فكرتُ في الأمر طوال الليل، قبل أن أقوم بهذه الخطوة. إنني أرتاب فيك بقدر ما ترتاب أنت فيّ. ألا تلاحـــظ ذلـــك؟ أتظنني لا أُدرك مدى مجازفتي؟ إنني أضع بين يديك ويدي حزبـــك ســـلاحاً رهيباً. ومع ذلك، ها أنا ذا هنا. فلا تتكلم عن استفزازات لستَ مؤمناً بهـــا. فكر قليلاً.

هذا أحد الأمور التي لا أستطيع فهمها تماماً في هذه القصة، إنه الحـــدث الأكثر غرابة. ألم يكن من العبث كشف تفاصيل انتفاضة مسلحة أمام عـــدو سياسي لن يقترح عليه ـــ وهذا هو الأسوأ ـــ عقد تحالف، أو القيام بعمـــل مشترك، أو تقديم مساعدة محددة؟ ما هو معنى كل ذلك؟ ويقول أحدهـــم في

المقهى: «صباح هذا اليوم، قالوا في إذاعة الثورة هذه، إن الرايـــات الحمـــراء ترفرف فوق مدينتي اريكيبا وكوسكو». فيرد آخر «أوهام».

ويوافقني بلاكير:

ـــ وعندما جاء لرؤيتي، لم يَبدُ لي أن للأمر أي معنى. فقد ظننـــت أول الأمر أنها مكيدة. أو أنه قد تورط في أمر ما وندم عليه ويريد التملص منه بخلق تعقيدات ومصاعب... وفيما بعد، على ضوء الأحداث التي جرت، اتضـــح الأمر.

ـــ الأمر الوحيد الواضح هو الخنجر المسدد إلى الظهر ـــ زمجر الرفيـــق بيّاردي ـــ. فتسول الدعم من الستالينيين من أجل هذه المغامرة ليس عملاً ينـم عن عدم انضباط. بل هو ببساطة ووضوح: خيانة.

ـــ سأشرح لك مجدداً إذا اقتضى الأمر ـــ قاطعه مايتا دون غضـــب. وكان يجلس على رزمة من أعداد **صوت العمال** ويسند ظهره إلى مصلق لوجه تروتسكي. وخلال ثوان قصيرة سيطر توتر مكهرب على الكراج في شـــارع ثوريتوس ـــ ولكن علينا أيها الرفاق أن نوضح أمراً قبل كل شيء. فهل مـــا تعنيه هو الثورة عندما تتكلم عن مغامرة؟

يتذوق بلاكير ببطء قهوته كثيرة الماء ويمر بطرف لسانه علـــى شـــفتيه المزمومتين. يغمض عينيه ويبقى صامتاً، وكأنه يفكر في الحوار الدائـــر علـــى طاولة مجاورة: «إذا كان الخبر صحيحاً، فغداً أو بعد غد ستكون الحرب هنـــا في ليما.» «أتعتقد ذلك يا باتشو؟ آه، كيف ستكون الحرب، أليس كذلـك؟» يتقدم المساء، وحركة مرور السيارات تزداد كثافة. شارع دياغونال مختنـــق. أعداد الصبية المتسولين وبائعات السجائر قد ازدادت أيضاً. ويصرخ شـــخص حانق: «يسعدني أن يدخل الكوبيون والبوليفيـــون. فـــالآن لم يعـــد لـــدى

"المارينـــز" الذين في الإكوادور ذرائع لعدم التدخل. بل ربما يكونـــون قـــد أصبحوا في بيورا، في تشيكلايو. فليقتلوا كل من يجب قتلهم ويضعـــوا حـــدا لكل هذا، اللعنة!» أنا أكاد لا اسمعه، لأن تكهناته الدموية أقـــل حيويـــة في الحقيقة من ذلكما الاجتماعين، في مدينة ليما نفســـها، ولكنـــها ليمـــا ذات سيارات أقل، وبائسين أقل، ومهربين أقل، ويبدو من المستحيل فيها وقـــوع الأحداث التي تجري الآن: مايتا يذهب في الاجتماع الأول ليشـــاطر أعـــداءه الستالينيين أسراره التآمرية، ومايتا يتجادل في الاجتماع الثاني مـــع رفاقـــه في الجلسة الأخيرة للجنة المركزية لـــ **حزب العمال الثوري (التروتسكي)**.

ـــ مجيئه لرؤيتي هو التصرف العاقل الوحيد الذي قام به وسط الرعونـــة التي ورط نفسه بها ـــ يضيف بلاكير. وكان قد خلع نظارته لينظفـــها فبـــدا وكأنه أعمى ـــ. إذا ما توطدت جماعة حرب العصابات، فسوف يحتـــاجون لدعم من المدينة. شبكات ترسل إليهم الأدوية والمعلومات، ويمكنـــها إخفـــاء ومعالجة الجرحى، وتجنيد مقاتلين جدد. شبكات تكون أجهزة إعلام وتشـــهير بالعمليات الانتقامية. من سيشكل هذه الشـــبكات؟ أيشـــكلها العشـــرون تروتسكيا الذين كانوا في البيرو؟

قال له مايتا محددا:

ـــ الواقع أننا سبعة فقط.

هل فهمه بلاكير؟ جموده كان مرة أخرى مثل تمثال. كان يقرب رأسه، شاعرا بأنه يتعرق، متابعا الكلمات التي يختلسها مني التعب والقلق، سامعا مـــن حين لآخر، في هذه الأعالي المجهولة، صوت الطفل والمرأة. وقد أوضحت لـــه مجددا: لا أحد يطلب من أعضاء الحزب الشيوعي الذهاب إلى الجبال ـــ وكان قد احتاط و لم يأت على ذكر بابيخوس أو خاوخا أو أي موعد محـــدد ـــ، ولا

أن يتخلوا عن طروحاتهم، وأفكارهم، وأحكامـــهم المســبقة، ومعتقداتهـــم الدوغمائية وأي شيء آخر. وإنما أن يعرفوا بالأمر فقط ويكونوا متأهبين. فعما قريب سينشأ وضع يجدون أنفسهم فيه أمام خيار تطبيق قناعـــاتهم عمليـــاً أو التنكر لها، عما قريب سيتوجب عليهم أن يبرهنوا للجماهير عمـــا إذا كـــانوا يريدون فعلاً إسقاط النظام المستغِل واستبداله بنظام عمالي- فلاحي ثـوري، أو أن كل ما كانوا يقولونه هو مجرد خطابية للعيش في خمـــول في ظـــل القـــوة العظمى الحليفة التي تتبناهم بانتظار أن يأتي يوم تسقط الثورة فيه على البـــيرو كهدية من السماء.

وقال بلاكير:

ــ عندما هاجمنا تبدو أنك أنت نفسك. ما الذي جئت تطلبه؟ حدد ما تريده قليلاً.

ــ أن تكونوا جاهزين. ــ وفكرتُ: «هل سينقطع صوتي؟» فأنـــا لم أشعر مطلقاً بمثل هذا الإنهاك؛ كان علي أن أبذل جهداً كبيراً كي أنطق كـــل حرف. وفي الأعلى، انطلق الطفل يبكي صارخاً من جديد ــ لأننا عندما نبـدأ العمل، سيكون هناك هجمة مضادة شرسة. وأنتم لن تنجوا من القمع بالطبع.

فتلعثم بلاكير:

ــ بالطبع. إلا إذا كان ما تقوله مجرد هـــراء. فالحكومـــة والصحافـــة والجميع سيقولون إننا نحن من خططنا للأمر ونفذناه بذهب موسكو وأوامرها. أليس كذلك؟

ــ من المحتمل أن يكون الأمر كذلك ــ قلت موافقاً. وكـــان بكـــاء الطفل يزداد قوة وبكاؤه يشوشني ــ. ولكن، ها أنتم قد علِمتم الآن. يمكنكـم اتخاذ الاحتياطات. أضف إلى ذلك...

بقيت مفتوح الفم وليس بي رغبة في إكمال كلامي، وللمرة الأولى منذ بداية دردشتي مع بلاكير أحسست بالتردد. كان وجهي مغطى بالعرق، والحدقتان متسعتين، ويداي ترتعشان. أمغامرة وخيانة؟

ـــ إنهما الكلمتان المناسبتان وأنا أؤكد عليهما ـــ قال الرفيق كارلوس بجفاء، ثم أضاف: ـــ فالرفيق بياردي لم يقل سوى الحقيقة.

فنبهه الأمين العام:

ـــ يجب التركيز على بايخوس الآن. لقد اتفقنا على مناقشة مسألة خاوخا أولاً. أما مقابلة الرفيق مايتا مع بلاكير، فسنناقشها فيما بعد.

ـــ صحيح ـــ أجاب الرفيق كارلوس، وفكر مايتا: «إنهم يقلبون لي كل شيء»، وتابع كارلوس: ـــ إنه ملازم يطرح ثورة على شكل «انقلاب»، دون دعم نقابي، ودون مشاركة من جانب الجماهير. ماذا يمكننا أن نطلق على هذا كله سوى أنه مغامرة؟

ـــ يمكننا أن نسميه استفزازاً أو تهريجاً ـــ تدخل الرفيق ميداردو. ثم نظر إلى مايتا دون رحمة وأضاف بحركة حاسمة: ـــ لا يمكن للحزب أن يقدم على التضحية في سبيل أمر ليس له أدنى حظ من النجاح.

أحس مايتا بأن رزمة **صوت العمال** التي يجلس عليها أخذت تميل وفكر بكم سيكون مضحكاً الانزلاق عنها والسقوط قاعداً على مؤخرته. نظر بطرف عينه إلى رفاقه وفهم سبب تحيتهم له عن بعد عندما وصل، وسبب عدم تغيب أحد عن هذه الجلسة. أيكونون جميعهم ضده؟ بمن في ذلك أعضاء فريق العمل؟ وأناتوليو أيضاً ضده؟ وبدلاً من اليأس أحسست بغثيان غضب.

ـــ أضف إلى ذلك أي شيء؟ ـــ شجعني بلاكير على مواصلة الكلام.

فقلت بطرف صوتي:

ـــ البنادق. لدينا أكثر مما نحتاج إليه. فإذا أراد الحـــزب الشـيوعي أن يدافع عن نفسه عندما يبدأ إطلاق النار، فسنعطيه أسلحة. وبالمجان طبعاً.

رأيت أن بلاكير، وبعد بضع ثوان من الصمت، قد أشـعل سـيجارته ذات العدد غير المحدد في هذا الصباح. ولكن الثقاب انطفأ مرتين وحين سحب النفس الأول منها اختنق. «هذه المرة اقتنعت بأن الأمر جدي.» رأيته ينـهض واقفاً، ينفث الدخان من أنفه وفمه، ويطل إلى الغرفة المجاورة ويصرخ: «خذيه للقيام بجولة. إنه لا يتركنا نتكلم ببكائه هذا». لم يأته أي جـواب، ولكـن الطفل توقف عن البكاء فوراً. عاد بلاكير للجلوس.. ليتـأملني.. ليسـتعيد هدوءه. ثم دمدم:

ـــ لست أدري إذا كانت هذه مكيدة يا مايتا. ولكنني أعـرف أمـراً واحداً مؤكداً. لقد أصابك الجنون. هل تعتقد فعلاً أنـه يمكـن أن تكـون للحزب، في أي حال، ولأي سبب، قضية مشتركة مع التروتسكيين؟

فأجبته:

ـــ مع الثورة، وليس مع التروتسكيين. أجل، أعتقد بذلك. ولهذا جئت لمقابلتك.

ـــ إنها مغامرة برجوازية صغيرة، إذا ما توخينا الدقـة ـــ قـال ذلـك أناتوليو، وبمجرد ملاحظتي أنه بدأ يتلعثم، عرفت ما الذي سيضيفه، وعرفـت أنه قد حفظ ما سيقوله: ـــ الجماهير غير مدعوة وليس لها أي دور في الخطـة. ومن جهة أخرى، ما هي الضمانة بأن قرويي أوتشوبامبا سينتفضون إذا مـا ذهبنا إلى هناك؟ لا توجد أي ضمانة. ومن منا رأى هذين القائدين السـجينين؟ لا أحد. ومن سيقود كل هذا؟ هل سنكون نحن؟ لا. من سيقود العمل هـو ملازم ذو عقلية انقلابية ومغامر إلى أقصى الحدود. وما هو الدور الذي يقدمه

لنا؟ أن نكون العربة الأخيرة في القطار، ولحم المدافع. ــ ثم التفت الآن وكانت لديه الجرأة على النظر إلى عيني مباشرة ليضيف: ــ واجبي أن أقول ما أفكر به يا رفيق.

«لم يكن هذا ما كنت تفكر به ليلاً» أجبته في ذهني. أو ربما كان كذلك بينما لم يكن موقفه في العشية إلا مجرد تصنع لتضليلي. ولكي أفعل شيئاً يشغلني، قمت بتسوية الصحف التي أجلس عليها بتأنٍ وأعدت إلصاقها إلى الجدار. فعندما وصلت الأحوال إلى هذا المستوى، أصبح الأمر جلياً: لقد كان هناك اجتماع مسبق، اتفقت فيه اللجنة المركزية لـ ح ع ث (ت) على ما يدور الآن. ولا بد أن أناتوليو قد حضر ذلك الاجتماع. أحسست بطعم لاذع، وبتوعك في العظام. إنه تهريج مبالغ فيه. ألم نكن قد تحدثنا مطولاً في الليلة السابقة في غرفتي في شارع ثيبيتا؟ ألم نراجع معاً خطة العمل؟ هل ستودع أحداً قبل أن تصعد إلى الجبال؟ سأودع أمي فقط. وماذا ستقول لها؟ سأقول لها بأني قد حصلت على منحة دراسية في المكسيك، وسأكتب إليك كل أسبوع يا أماه. وهل كان لديه آنذاك تردد، قلق، شكوك، تناقضات؟ ولا أي شيء من هذا، بل كان يبدو متحمساً وثابت الجأش تماماً. كنا مستلقيين في الظلام، وكان السرير الضيق يصر بنفور جسده المجاور لجسدي كلما سمع ركض الجرذان في بطانة السقف. تلك الاهتزازات المفاجئة كانت تكشف لي لهنيهة أجزاء من بشرة أناتوليو، وكنتُ انتظرها بلهفة. وبينما فمي قبالة فمه قلت له فجأة: «لا أريدك أن تموت أبدا.» ثم قلت بعد لحظة من ذلك: «هل فكرت في أنك قد تموت؟»، وبصوت جعلته الرغبة لزجا وخافتا، أجابني في الحال: «لقد فكرت في ذلك بالطبع. ولست أبالي» وبينما أنا متألم ومزعزع فوق رزمة **صوت العمال** التي تهدد بالانفراط ثانية، فكرت: «الواقع أنك تبالي».

ـــ ظننت أنه يريد التظاهر، أو أنه يعاني مشاكل عصبية، ظننت أنــــه...

ـــ ويصمت بلاكير لأن الفتاة التي على الطاولة المجاورة أطلقت ضحكـــــة. ثم يضيف: ـــ قد يحدث للرفاق أحياناً مثلما يحدث للعسكريين الذين يظنون يوماً أنهم نابليون. وقد فكرت يومذاك: حين استيقظ مايتا صباح اليوم أحس أنــــه لينين لدى وصوله إلى محطة فنلندا.

يصمت ثانية بسبب ضحكات الفتاة. وعلى طاولة أخرى هناك ســـيد يوجه تعليمات بملء حنجرته: املؤوا مغاطس البانيو، والمغاســـل، والــدلاء، والبراميل، وضعوها في كل الغرف والأركان، املؤوها ولو بماء البحر. لأنه إذا دخل الشيوعيون، فالولايات المتحدة ستقصف، والحرائق ستكون عندئذ أخطر من القنابل. هذه هي الأولوية، صدقوني: يجب أن يكون الماء في متناول اليــــد لإطفاء الحرائق فور اشتعالها.

وواصل بلاكير:

ـــ ولكن على الرغم من الوقع الخيالي لكلامه، فقدكان صحيحاً. كـــل ما قاله كان صحيحاً. كان لديهم فائض من البنادق. فالملازم كان قد ســـرق بعض الأسلحة من أحد مستودعات الجيش، هنا في ليما. وكـــان يخفيـــها في مكان ما. أنت تعرف أنه كان قد أهدى إلى مايتا مسدساً رشاشـــاً، أليـــس كذلك؟لقد كان من تلك الغنائم المخبأة على ما يبدو. لا بد أن فكرة التمـــرد المسلح كانت متسلطة على عقل بايبخوس مذ كان تلميذ ضـــابط. لم يكـــن مجنوناً، فقد كان عرضه صريحاً. عرض أحمق، ولكنه صريح.

طيف ابتسامة يكشف عن أسنانه الملوثة.وبحركة فظة يبعد صبياً يحـــاول أن يمسح له حذاءه، ويقول ساخراً:

ـــ لم يكن لديهم من يعطونه السلاح، كانت تنقصهم الأيدي لحمـــــل تلك البنادق.

ــ وماذا كانت ردة فعل الحزب؟

ــ لم يول أحد الأمر اهتماماً،و لم يصدق أحد كلمة واحدة من ذلك. لا بشأن البنادق، ولا بخصوص حرب العصابات. ففي صيف ١٩٥٨، وقبل شهور من دخول الملتحين إلى هافانا، من كان سيصدق مثل هذه الأمور؟ وكان رد فعل الحزب مثلما هو متوقع منطقياً. لا بد من قطع الاتصال مع هذا التروتسكي، لأنة يحمل في يديه ألعوبة ما. وقد قطعتُ علاقتي به بالطبع.

هناك سيدة تتهم رجل دلاء الماء بالجهل. ففي مواجهة القنابل لا سبيل سوى تسليم الأمر لله! دلاء ماء لمواجهة القصف!أيظن هذا التعيس البائس أن الحرب هي كرنفال؟ فيزمجر الرجل: «من المؤسف أنكِ لستِ رجلاً، وإلا كنتُ هشمت وجهك» فيرد عليه مرافق السيدة بشهامة: «أنا رجل، هيا هشم وجهي لأرى». يبدو أهما سيتشاجران.

ــ مكيدة أو جنون أو أي شيء آخر، لا نريد معرفة أي شيء عن القضية ــ قال بلاكير لمايتا ــ ولا نريد رؤيتك أنت أيضاً.

ــ كنت أتوقع ذلك. فأنتم ما أنتم عليه وستبقون كذلك لوقت طويل.

يفصلون بين الرجلين المتشاجرين، وبالسرعة التي اشتدت بها حميتهما عادت تهدأ من جديد. وقالت الفتاة: «لا تتشاجروا، علينا في هذه اللحظات أن نكون متحدين». وكان هناك رجل أحدب ينظر إلى ساقيها.

ــ لقدكانت صفعة قاسية بالنسبة إليه ــ يقول بلاكير ذلك وهو يُبعد ماسح أحذية آخر كان يحاول إمساك حذائه ــ فمن أجل المجيء للقاء بي، كان عليه أن يحطم كوابح كثيرة. لا شك في أنه توصل إلى القناعة بأنه يمكن للانتفاضة أن تزيح الحبال التي تفصل ما بيننا. إنها السذاجة القصوى.

يرمي عقب السيجارة على الأرض، وفي الحال يرتمي شبح يرتدي ما يشبه ممسحة ملطخة بالسواد، فيحمل العقب ويحاول مصه، يحاول سحب

نفس أخير من دخانه. أهكذا كنت عندما أقدمت على الخطوة التي لا تصدق بالذهاب إلى بلاكير؟ أهكذا كنت متلهفا عندما أدركت أن ساعة الصفر قد أزفت ولسنا سوى حفنة نحن الذين سننتفض، وأننا نفتقر إلى أدنى حد من تنظيمات الإسناد في المدينة؟

ــ وكان ما يزال بحاجة إلى طلقة الرحمة ــ يضيف بلاكير ــ فقد طرده حزبه بتهمة الخيانة.

كان هذا ما قاله خاثينتو ثيفايوس حرفيا. فأن يقول ذلك المناضل المجرب، العامل، لقية البيرو التروتسكية، كان الأمر الأكثر بلبلة في تلك الجلسة التي سمع فيها الكثير من العبارات المعادية. لقد كانت أقسى من بهلوانيات أناتوليو. لأنه كان ينظر باحترام ومحبة إلى العجوز ثيفيايوس. لقد تكلم الأمين العام بسخط و لم يتحرك أحد:

ــ أجل يا رفيق، فطلب التعاون مع الستالينية المحلية في هذا المشروع، ومن وراء ظهرنا، مستخدما اسم الحزب، هو أمر أكبر من أن يكون عملا انشقاقيا. إنه الخيانة. وتوضيحاتك تزيد الأمور سوءا، فأنت تقدم التبريرات بدل أن تعترف بأخطائك. يجب علي أن أطلب فصلك من الحزب يا مايتا.

أي توضيحات قدمت إليهم؟ مع أن أيا ممن حضروا تلك الجلسة لا يوافق على أنها قد جرت، إلا أنني أشعر بالحاجة إلى أن تكون قد حدثت مثلما يرويها لي بلاكير. ماذا يمكن أن يقال لهم لتبرير زيارتي للعدو اللدود؟ ولكن بالنظر إلى ما جاء فيما بعد، فإن هذا العدو لم يعد يبدو لدودا جدا. فهؤلاء «الحمر» الذين يمكن لهم أن يدخلوا إلى ليما غدا أو بعد غد ينتمون إلى طيف واسع من الماركسيين، ممن يقاتلون الآن ظاهريا تحت راية واحدة، فهناك بينهم موسكوبيين وتروتسكيين وماويين. فالثورة بالغة الأهمية والجدية والصعوبة

بحيث لا يمكن لها أن تكون احتكارا لأحد، أو امتيازا لمنظمة بعينها، حتى وإن كانت هذه المنظمة قد حللت الواقع البيروي بصورة صحيحة أكثر من سواها. فالثورة لن تكون ممكنة ما لم يستبعد جميع الثوريين خلافاتهم، ولكن دون أن يتخلوا في المرحلة الأولى عن مبادئهم الخاصة، ويتوحدوا في عمل محدد ضد العدو الطبقي. سيئ اللباس، أربعيني، متعرق، منفعل بإفراط، عيون ترمش بكثرة، كان يحاول أن يبيعهم هذه الدمية الغرائبية التي بدلت حياته وهو متأكد من أنه يمكن لها أن تبدل أيضا حيواتهم وحياة اليسار كله: الممارسة العملية، الممارسة المطهرة، الفادية، المبرئة. فهي التي ستهذب الفظاظة والعداوات وليدة الأنانية والشخصانية، وستوحد الجماعات والاتجاهات في تيار منيع سيجرف كل الثوريين، يا رفاق. ولهذا ذهب للتكلم مع بلاكير. لا ليكشف له أي عنصر حساس، لأنه لم يخرج من فمي أي اسم أو موعد محدد أو مكان، و لم أفعل ذلك لأورط ح ع ث (ت)، لأن أول ما لفت نظر بلاكير إليه هو أنني أتكلم بصفتي الشخصية وأن أي اتفاق مستقبلي يجب أن يتم حزبا لحزب. وقد ذهبت للقائه دون طلب تفويض من أجل كسب الوقت يا رفاق. ألا يستعد للذهاب إلى خاوخا؟ وقد ذهب ببساطة لينبههم إلى أن الثورة ستبدأ، حتى يستخلصوا النتائج اللازمة إذا كانوا ثوريين وماركسيين، مثلما يدعون. لكي يكونوا مستعدين للدخول في النضال. لأن الرجعية ستدافع عن نفسها، وستضرب مثل وحش محاصر، ومن أجل مواجهة أنيابها ومخالبها لا بد من تشكيل جبهة موحدة... هل استمعوا إليه حتى النهاية؟ هل أجبروه على الصمت؟ هل طردوه بصفعات وشتائم من الكراج في شارع ثوريتوس؟

ويؤكد لي بلاكير:

ـــ تركوه يتكلم عدة مرات. كان الجو متوتراً جداً،وظهرت إلى العلـــن شؤون شخصية، وكاد مايتا وخواكين أن يتبادلا الضرب. وبعد أن صوتـــــوا ضده، بعد أن قتلوه وأجهزوا عليه، رفعوه عن الأرض،حيث كانوا قد حولـــوه إلى خرقة قذرة، وقدموا إليه مخرجاً. نوع من الميلودراما التروتســـكية. هـــذا الاجتماع الأخير **لحزب العمال الثوري (التروتسكي)** سيكون مفيداً جداً لك على ما أظن.

ـــ أجل، أظن ذلك. ولكنني لم أفهم بعد، لماذا ينكر موسيس وأنـــاتوليو وبياردي وخواكين إنكاراً حاسماً انعقاد هذا الاجتماع؟ إن رواياهم تتعارض في مواقع كثيرة، ولكنها تتفق تماماً في هذه النقطة: فهم يقولون إن استقالة مايتـــا قد وصلتهم بالبريد، استقال بمبادرته الشخصية عند ذهابه إلى خاوخا، حـــين قرر ح ع ث **(ت)** عدم المشاركة في الانتفاضة. أهو ضعف ذاكرة جماعي؟

فهمس بلاكير:

ـــ بل ضعف ضمير جماعي. لم يكن بإمكان مايتـــا أن يختلـــق هـــذه الجلسة. جاء ليروي ما جرى فيها بعد انعقادها بساعات. لقد كانت طلقـــــة الرحمة ولا شك في أنه قد أزعجهم. لأنهم في وسط الحملة عليه، واجهوه بكل شيء، بما في ذلك عقب أخيله. أتتصور مدى القسوة؟

ـــ من الأفضل أن تقول إننا مقبلون على نهاية العالم يا صديقي ـــ هتف زبون ساه. وكانت الفتاة تضحك ضحكة مجنونة وسعيدة، بينمـــا الأطفـــال المتسولون لا يتركون لحظة تمر بهدوء، فقد راحوا يتقاذفون بأقدامـــهم علبـــة صفيح بين أرجل المارة في الشارع.

وأقول متفاجئاً:

ـــ وهل أخبرك بهذا الأمر أيضا؟ لقد كان موضوعا لا يتطـــرق إليـــه مطلقا، حتى مع أفضل أصدقائه. لماذا بحث عنك أنت بالذات في تلك اللحظة؟ لست أفهم ذلك.

ويقول بلاكير:

ـــ وأنا لم أفهم الأمر في البداية، أما الآن فأظن أنني أفهمه. يجـــب ألا تنسى أنه كان ثوريا مئة بالمئة. وقد طردوه من ح ع ث (ت). ربمـــا أمكـــن لذلك أن يدفعنا إلى إعادة النظر بموقفنا السلبي. وربما نأخذ على محمل الجـــد خطة انتفاضته.

ـــ لقد كان علينا في الواقع أن نطردك منذ زمـــن ـــ يؤكـــد الرفيـــق خواكين، وينظر مجددا إلى مايتا بطريقة دفعتني إلى التفكير: «لماذا يكرهـــني؟»، ويتابع: ـــ سأقول لك دون مواربة، كماركسي وثوري. أنـــا لا أســـتغرب إقدامك على ما أقدمت عليه، هذه المكيدة، وذهابك للتحدث خفية مع ذلـــك الشرطي الستاليني المدعو بلاكير. لست رجلا سويا لأنك بكل صراحة لســـت رجلا في الأصل يا مايتا.

فقاطعه الأمين العام:

ـــ غير مسموح التحدث في الشؤون الشخصية.

ما قاله خواكين فاجأ مايتا فلم يستطع قول شيء: سوى هز كتفـــي. لماذا فوجئت إلى هذا الحد؟ أليس أمرا في إحدى ثنايا الدماغ السرية، وكنـــت أخشى أن يبرز في كل المناظرات، ضربة مفاجئة إلى أسفل تمنع الهـــواء عـــني وتتركه كسيحا طوال ما تبقى من المناقشة؟ كان يحس تشنجا في جسمه كلـه، فعدل من وضعه فوق رزمة الصحف، وفكر مذعورا: «ســـينهض أنـــاتوليو ويعترف بأننا نمنا معا في الليلة الماضية». ماذا سيقول؟ ماذا سيفعل؟

ـــ الأمر ليس شخصياً، بل له علاقة بما جرى ـــ رد الرفيق خواكـــين، ووسط خوفي وتشوشي، عرف مايتا أنه يكرهه فعلاً: هل فعلتُ له شيئاً خطيراً وجارحاً في أحد الأيام ليوجه إليّ مثل هذا الانتقام؟ وواصل الرفيق خواكين:ـــ هذه الطريقة الملتوية والنـــزوية في التصرف، وهذا الذهاب بحثاً عن أعدائنـــا، هو تصرف مخنث يا رفاق. لم يقل أبداً من قبل بسبب بعض الاعتبـــارات أن مايتا لم يكن معنا. فهل يمكن للمرء أن يكون ثورياً مخلصاً ومثلياً في آن واحد؟ هذا هو جوهر المسألة يا رفاق.

وفكرت بسخف: «لماذا يقول مثلياً ولا يقول مخنثاً؟ أليست كلمة مخنث هي التسمية الدقيقة؟» وبينما هو يستعيد السيطرة على نفسه رفع يده مشـــيراً إلى الرفيق خاثينتو بأنه يريد الكلام.

ـــ هل أنت متأكد من أن مايتا نفسه هو الذي أخبرهم بأنه ذهب للقاء بك؟

فيؤكد بلاكير:

ـــ أكيد. كان يظن أنه يفعل الصواب. أراد أن يقوم بحركة ناجحـــة. فعندما يذهب الثلاثة الذين عليهم الذهاب إلى خاوخا،يحاول الآخرون الذيـــن سيبقون في ليما الاتفاق معنا مجدداً.لقد كان ذلك التصرف هو تماديه الأكـــبر. فالتروتسكيون الذين ما كانوا يعرفون كيف يتملصون من مسألة خاوخا الـــتي لم يؤمنوا بها مطلقاً، والتي رأوا أن مايتا قد جرهم إليها، وجدوا في تصرفه ذاك الذريعة المناسبة. لكي يتخلصوا من الالتزام، ولكي يتخلصوا فوق ذلك منـــه بالذات. أو بكلمة أخرى، لكي ينقسموا على أنفسهم مرة أخـــرى. فـــهذه كانت على الدوام هي الرياضة الكبرى للتروتسكيين: التطـــهير، الانقســـام، التشرذم، الطرد.

ويضحك مظهراً لي أسنانه النيكوتينية.

ــ المسائل الشخصية لا علاقة لها،مسائل الجنس والأسرة الشخصية لا علاقة لها ــ كررت ذلك دون أن أستطيع رفع نظري عن رقبة أناتوليو الذي كان يجلس على أحد مقاعد الحلابات وينظر بعناد إلى الأرض، وأضفتُ:ــ ولهذا لن أرد على استفزازاتك. ولهذا لن أرد عليك بما تستحق يا خواكين.

فرفع الأمين العام صوته:

ــ ليس مسموحاً تحديد شخص بعينه، وليس مسموحاً توجيه التهديدات.

وسمع الرفيق خواكين يقول له:

ــ هل أنت كذلك أم لا يا مايتا؟ ــ ولاحظتُ أنه يطبق قبضتيه،وأنه مستعد للدفاع عن نفسه أو للهجوم ــ. كن صريحاً بشأن رذيلتك على الأقل.

وأصر الأمين العام:

ــ غير مسموح بالحوارت الشخصية. وإذا كنتما تريدان الشجار فاذهبا خارجاً.

ــ معك حق يا رفيق ــ قال مايتا ذلك متوجهاً إلى خاثينتو ثيفايوس ــ. لا حوارات شخصية ولا مشاجرات، ولا أي شيء قد يبعدنا عن الموضوع. هذه المناقشة ليست حول قضايا الجنس. سنناقش ذلك في مرة أخرى إذا كان الرفيق خواكين يعتبره أمراً مهماً. فلنعد إلى جدول أعمال اليوم. ولا تقاطعني على الأقل.

كنتُ قد استعدت توازني، وتركوني أتكلم بالفعل، ولكنني بينما كنت أتكلم، كنت أقول في نفسي إن ذلك لن يفيد كثيراً:فقد كانوا قد قرروا، من وراء ظهري، الانسحاب من التمرد المسلح، ولا يمكن لأي حجة أن تبدل

قرارهم. لم أسمح لتشاؤمي بالظهور حين كنت أتكلم. وكررت عليهم بتأثر كل الحجج التي كنت قد عرضتها عليهم، تلك المبررات التي ما زالت حتى الآن، بالرغم من المعارضات، ترن في مسمعي بطريقة لا يمكن دحضها. أليست الظروف الموضوعية متوفرة؟ ألا يشكل ضحايا الإقطاع والتسلط والاستغلال الرأسمالي والإمبريالي قوة ثورية؟ حسن إذن، الظروف الذاتية تخلقها الطليعة، بعمليات دعائية مسلحة، بتوجيه ضربات إلى العدو في عمليات تثقيفية تعبئ الجماهير وتضمها تدريجيا إلى العمل. ألا توجد أمثلة كثيرة على ذلك؟ أمثلة الهند الصينية، الجزائر، كوبا موجودة وماثلة تثبت أنه يمكن للطليعة المصممة أن تبدأ الثورة. وليس صحيحا أن مسألة خاوخا هي مغامرة برجوازية صغيرة. إنها عملية متماسكة تماما وتعتمد على بنية تحتية صغيرة ولكنها كافية. وستتكلل بالنجاح إذا ما قمنا جميعنا بدورنا. وليس صحيحا أيضا أن **ح ع ث (ت)** سيكون في العربة الأخيرة: بل سيكون القيادة الأيديولوجية بينما يقتصر دور باييخوس على القيادة العسكرية. لا بد من رؤية واسعة الأفق، كريمة، ماركسية، تروتسكية، وليس نظرة فئوية أيها الرفاق. الدعم هنا في ليما ضعيف. ولهذا كان لا بد من لنا من التساهل أمر في التعاون مع قوى يسارية أحرى، لأن النضال سيكون طويلا وشاقا و...

وذكر الرفيق بياردي:

ـــ هناك اقتراح يطالب بطرد مايتا وهذا هو ما نناقشه.

ـــ ألم يكن واضحا لك بأننا يجب ألا نلتقي ثانية؟ ـــ قال بلاكير ذلك وهو يغلق أمامه الطريق إلى بيته.

فرد مايتا:

ـــ إنها قصة طويلة. لم يعد بإمكاني توريطك. فقد طردوني من **ح ع ث (ت)** لأني تحدثت معك.

ويقول لي بلاكير بنبرته المشاكسة:

ــ وقد طردوني أنا لأنني استقبلته. فعلوا ذلك بعد مرور عشر سنوات.

ــ هل كانت مشاكلك مع الحزب بسبب تلك المحادثات؟

كنا قد غادرنا مقهى هايتي ورحنا نتمشى في حديقة ميرافلوريس، باتجاه ناصية لاكرو حيث سيركب بلاكير الميكروباص. كان هناك حشد كثيف يحوم حول باعة البضائع الرخيصة المنثورة على الأرض والتي تتشابك بأقدام المارة. الهياج بسبب أخبار الغزو صار عاما، ومحادثتنا تتلطخ بأصوات تقول «كوبيون»، «بوليفيون»، «قصف»، «مارينز»، «حرب»، «حمر».

ويوضح لي بلاكير:

ــ لا، ليس صحيحا. مشاكلي مع الحزب بدأت لأنني بدأت أناقش خط القيادة. ولكنهم عاقبوني لأسباب ليست لها في الظاهر علاقة بانتقاداتي. وبين التهم العديدة، خرج إلى النور تقاربي المزعوم مع التروتسكية. قيل إنني كنت قد اقترحت على الحزب عملا مشتركا مع التروتسكيين. إنه الوضع المألوف: تسفيه الناقد أخلاقيا، بحيث يصبح كل ما يأتي منه قمامة لمجرد أنه آت منه. لم يتفوق علينا أحد في ذلك أبدا.

وأقول له:

ــ أي أنك كنت أيضا واحدا من ضحايا خاوخا.

ــ بطريقة ما. ــ ويعيد النظر إلي بوجهه العجوز الذي له لون رق جلدي أكسبته ابتسامته ملمحا إنسانيا، ويضيف: ــ كانت هناك أدلة أخرى على التواطؤ مع التروتسكيين، ولكنهم لم يكونوا يعرفونها. لأنني كنت قد ورثت كتب مايتا عندما ذهب إلى الجبال.

قال له مايتا بنبرة ساخرة:

ـــ ليس هناك من أترك له كتبي. لقد صرت بلا رفاق. ومن الأفضل أن تأخذها أنت بدل أن يأخذها المخبرون. افهم الأمر على هذا النحو حتى لا تشعر بتأنيب الضمير. احتفظ بأوراقي وتثقف.

ـــ كان هناك قدر كبير من البراز التروتسكي الذي قرأته خفية، مثلما كنا نقرأ فارغاس فيلا في المدرسة ـــ يقول لي بلاكير ذلك ضاحكا ـــ أجل، خفية. انتزعت من الكتب الصفحات التي كتب عليها مايتا الحروف الأولى من اسمه، كيلا يبقى أي أثر للجريمة.

ويضحك من جديد. هناك جوقة من الناس تتقدم برؤوسها محاولة سماع نشرة أخبار من مذياع نقال يحمله أحد المشاة عاليا. وتصل إلينا نهاية بيان رسمي: مجلس الإصلاح الوطني يشكو لهيئة الأمم غزو التراب الوطني من قبل قوات كوبية-بوليفية-سوفيتية، وأنها منذ صباح هذا اليوم قد خرقت حرمة تراب البيرو المقدس من ثلاث نقاط على الحدود، في مقاطعة بونا. وفي الساعة الثامنة ليلا سيتوجه المجلس إلى البلاد عبر الإذاعة والتلفزيون لإطلاعها على أخبار هذه الإهانة التي هزت البيرويين، الذين اتحدوا الآن مثل قبضة واحدة للدفاع عن... الأمر صحيح إذن، لقد دخلوا. ومن المؤكد إذن أن «المارينز» سيأتون كذلك، من قواعدهم في الإكوادور، هذا إذا لم يكونوا قد فعلوا ذلك. نواصل طريقنا بين أناس مذهولين أو مذعورين بسبب الأخبار.

ويقول لي بلاكير فجأة بنبرة ضجر أكثر مما هي خوف:

ـــ سيان من سيكسب، لأنني سأخرج خاسرا. فإذا كسب «المارينز»، فلا بد أن أكون واردا في قوائمهم باعتباري عميلا قديما للشيوعية العالمية. وإذا انتصر المتمردون، سيعتبرونني تحريفيا، واشتراكيا — إمبرياليا وخائنا سابقا للقضية. لن أعمل بنصيحة ذلك الشخص الذي في مقهى هاييتي. لن أضع دلاء ماء في غرفتي. فالحريق بالنسبة إلي قد يكون الحل.

في الموقف، قبالة محل تيديثيتا بلانكا هناك ازدحام يستدعي انتظاراً طويلاً قبل التمكن من صعود أحد الميكروباصات. ويقول لي إنه في السنوات التي أمضاها في مطهر المطرودين من الحزب تفهم بصورة أفضل حال مايتا في ذلك اليوم. وأنا أسمعه ولكنني أمشي منفصلاً عنه، مفكراً. فكون أحداث خاوخا قد نفعت، بعد سنوات، وإن كان بصورة غير مباشرة، في تردي بلاكير إلى حافة العدم الذي عاش فيه، لهو دليل آخر على مدى غرابة وعدم توقع ما هي عليه تشعبات الأحداث،تلك الآلية المعقدة جداً لأسباب ونتائج، لانعكاسات وحوادث، هي التاريخ البشري. وهو لا يحقد كما يبدو على مايتا بسبب تلك الزيارات المفاجئة. بل يبدو أنه، مع مرور الزمن، قد بدأ يكن له التقدير.

ــ لا أحد يمتنع عن التصويت، يمكنك أن تعد الأيدي ــ قال خاثينتو ثيبايوس ــ إنه إجماع يا مايتا. لم تعد تنتمي منذ الآن إلى ح ع ث (ت). لقد طردت نفسك بنفسك.

كان يخيم صمت كصمت القبور و لم يتحرك أحد. هل يتوجب عليه أن ينصرف؟ هل يتوجب عليه أن يتكلم؟ أيترك الأبواب مفتوحة أم يلعن أمهاتهم؟

ــ قبل عشر دقائق كنا نعرف كلانا بأننا عدوان حتى الموت ــ قال بلاكير متنقلاً بترق قبالة كرسي مايتا ــ وها أنت تتصرف الآن كما لو كنا رفاقاً منذ الأزل. هذا مضحك!

ــ لا تنصرفوا ــ قال الرفيق ميداردو بنعومة ــ. لدي طلب لحفظ الاعتبار يا رفاق.

ــ إننا في خندقين مختلفين، ولكننا ثوريان كلانا ــ قال مايتا لبلاكير، وأضاف: ــ ونحن نتماثل في شيء آخر: فأنت وأنا نرى أن الشؤون الشخصية تأتي بعد القضايا السياسية. ولهذا دعك من التنكر ولنتحدث بصراحة.

حفظ اعتبار؟ كل العيون اتجهت نحو الرفيق ميداردو. كان هناك دخان كثير، حتى أن مايتا من مكانه إلى جانب رزم أعداد صوت العمال، كان يرى الوجوه مطموسة.

ـــ أكان يائساً، مثقلاً، يشعر بأن الأرض تنشق تحته؟

وينفي بلاكير بحركة من رأسه:

ـــ كان واثقاً، هادئاً بل ومتفائلاً، أو أنه كان يتظاهر بذلك على أحسن وجه. كان يريد أن يُظهر لي أن الطرد لم يؤثر عليه. وربما كان ذلك صحيحاً. هل تعرفت على أولئك الرجال الذين يكتشفون الجنس أو التدين وهم في سن الشيخوخة؟ إنهم يصبحون متلهفين، متوقدين، لا يملون. وهكذا كان هو. فقد اكتشف الممارسة العملية وصار يبدو مثل صبي صغير. لقد كان يثير انطباعاً مضحكاً، مثل أولئك الشيوخ الذين يحاولون أن يرقصوا الرقصات الحديثة. وكان من الصعب في الوقت نفسه عدم الإحساس بشيء من الحسد تجاهه.

ـــ لقد كنا أعداء لأسباب أيديولوجية، ولهذه الأسباب نفسها يمكننا أن نكون الآن أصدقاء ـــ ابتسم مايتا وهو يقول له ذلك، وأضاف: ـــ الصداقة والعداء فيما بيننا هي مسألة تكتيكية محضة.

فضحك بلاكير أخيراً:

ـــ هل ستقدم نقدك الذاتي وتطلب الانضمام إلى الحزب الشيوعي؟

الثوري المجرب، الذي صار في طور الأفول، ويكتشف في يوم طيب النضال العملي ويندفع فيه دون تحفظ، بتلهف، آملاً في أن المعارك والمسيرات ستعوضه خلال أسابيع قليلة أو شهور عن سنوات العجز السابقة: إنه مايتا في تلك الأيام، الذي ألمحه بصورة أفضل من كل المايتات الآخرين. هل كانت الصداقة والحب من الأشياء التي يديرها وفق المصلحة السياسية؟ لا: إنها

كلمات لكي يكسب بها بلاكير. فلو أنه تحكم بهذه الصورة بعواطفه وغرائزه، لما كان عاش الحياة المزدوجة التي عاشها، حياة التمزق التي كانت عليها دون شك ميول المناضل السري المستغرق تماماً في مهمة تغيير العالم، وحياة الموبوء الذي يبحث في الليل عن مخنثين. مما لا شك فيه أنه كان قادراً على اللجوء إلى أقصى الوسائل، وتُثبت ذلك محاولته الأخيرة في التوصل إلى ما هو مستحيل، أي التحالف مع ألد أعدائه في سبيل حركة تمرد غير واضحة المعالم. مرت حافلتان، ثلاث حافلات ميكروباصات دون أن يتمكن بلاكير من ركوبها. فقررنا التزول عبر لاركو، فربما يكون الركوب أسهل في بينابيداس.

ــ ليكن معروفاً أن هذا لن يفيد أحداً سوى الرجعية، وسيضر بالمقابل بالحزب ــ أوضح الرفيق ميداردو بحساسية ــ. سيفرك أعداؤنا أيديهم، بمن في ذلك جماعة ح ع ث الآخر. وسيقولون: ها هم ينقسمون مرة أخرى في صراعاتهم الداخلية. لا تقاطعني يا خواكين، لن أطالب بسر الغفران المسيحي أو أي شيء مماثل. أجل، سأوضح أي نوع من إعادة الاعتبار أعني.

كانت أجواء الكراج في شارع ثوريتا قد توترت؛ وكان الدخان كثيفاً حتى أن عيني مايتا توقدتا. ولاحظ أنهم يستمعون إلى موسيس براحة تتفتح في وجوههم، وكأنهم بعد أن فوجئوا بأنهم قد هزموه بسهولة، سعدوا بوجود من يقدم لهم إثباتاً معاكساً يتيح لهم أن يغادروا من هناك بضمائر مطمئنة.

وأضاف الرفيق ميداردو:

ــ لقد تم إنزال العقوبة بالرفيق مايتا. وهذا أمر يعرفه هو ونعرفه نحن. ولن يعود إلى ح ع ث (ت)، لا الآن ولا في الظروف الحالية. ولكن، أيها الرفاق، لقد قال لنا إن خطط بايبخوس ما زالت قائمة. والتمرد المسلح سيقع سواء أشاركنا فيه أم لم نشارك. أي أنه سيحدث سواء شئنا أم أبينا.

إلى أين يريد موسيس الوصول؟ لقد فوجئ مايتا بأنه مـــازال يدعــوه «رفيقاً» عند الحديث عنه. ارتاب إلى أين وتبددت في لحظة اليأس والغضـــب اللذان أحس بهما حين رأى كل الأيدي ترتفع مؤيدة الاقتراح: يجب انتـــهاز هذه الفرصة بسرعة.

ــ التروتسكية لن تدخل حرب العصابات ــ قال ــ فحزب العمـــال الثوري (التروتسكي) قرر بالإجماع أن يدير ظهره. و ح ع ث الآخر لا علـم له بالقضية كلها. الخطة جدية، ومتماسكة. ألا ترى ذلــك؟ لــدى الحــزب الشيوعي الآن فرصة عظيمة لملء الفراغ.

فزمجر بلاكير:

ــ بوضع الرأس في المقصلة. يا للامتياز العظيم! تناول هــــذه القـــهوة وحدثني، إذا أردت، عن غرامياتك المأساوية مع التروتسكيين. أما عن التمـــرد فلا أريد سماع كلمة واحدة يا مايتا.

فواصل مايتا دون أن يوليه اهتماماً:

ــ لا تحسموا هذه المسألة الآن، ولا خلال أسبوع، خذوا ما تحتاجونـــه من الوقت. العقبة الأساسية بالنسبة إليكم كانت تتمثـــــل في ح ع ث (ت). وهو لم يعد موجوداً الآن. التمرد صار الآن لجماعة عمالية فلاحية من الثوريين المستقلين وحسب.

فصفر بلاكير:

ــ أنت ثوري مستقل؟

وقال مايتا:

ــ اشتر العدد القادم من **صوت العمال** (ت) وستقتنع. فهذا ما صرتُ إليه: ثوري بلا حزب. أترى؟ لديكم فرصة عظيمة. فرصة القيادة، فرصـــة أن تكونوا الرأس.

ويقول لي بلاكير:

ــ كانت تلك هي الاستقالة التي قرأتها أنت. ــ وخلع نظارته لينفخ عليها بخاراً من فمه ويمسحها بالمنديل ــ. مجرد تظاهر. لم يكن يؤمن بتلك الاستقالة من وقعها ولا من نشروها. لماذا كانت هناك إذن؟ أمن أجل خداع القراء؟ أي قراء؟ وهل كان هناك قارئ واحد لـ **صوت العمال** (ت) باستثناء أولئك، كم قلت عددهم؟، سبعة؟، التروتسكيون السبعة؟ هكذا يُكتب التاريخ يا رفيق.

جميع محلات شارع لاركو كانت مغلقة، بالرغم من أن الوقت كان ما يزال مبكراً. هل السبب هو أخبار الغزو في الجنوب؟ في هذا القطاع من المدينة هناك أناس أقل مما في دياغونال أو في باركي. وحتى جماعات المتسولين التي تعج بها هذه المنطقة في العادة، ما بين السيارات، هي أقل من المعهود. تظهر على جدار البلدية كتابة هائلة بطلاء أحمر ــ «انتصار الحرب الشعبية يقترب» ــ ومعها المنجل والمطرقة. لم تكن هذه الكتابة موجودة عندما مررت من هنا، قبل ثلاث ساعات. أتكون جماعة ثورية قد جاءت حاملة الفراشي وعلب الطلاء وكتبتها أمام رجال الشرطة؟ ولكنني أنتبه إلى أنه لا وجود لشرطيين يحرسون المبنى.

وواصل الرفيق ميداردو بحذر:

ــ فليجنب الحزب مزيداً من الأذى على الأقل. فليستقل. ولننشر استقالته في **صوت العمال** (ت). فيقدم دليلاً على الأقل على أن الحزب غير مسؤول عما يمكن أن يذهب لعمله في خاوخا. إنني أعني إعادة اعتبار من هذا النوع يا رفاق.

ورأى مايتا أن عدداً من أعضاء اللجنة المركزية لحزب العمال الثوري (ت) يهزون رؤوسهم موافقين. اقتراح موسيس/ميداردو يتمتع بإمكانيات

القبول. فكر في الأمر، قام بمراجعة سريعة للمنافع والمَضار. أجل، إنه أهون الشرور. رفع يده: أيمكنه التكلم؟

هناك أناس كثيرون في بينافيديس ينتظرون الميكروباصات مثلما في تينديثيتا بلانكا. هز بلاكير كتفيه: الصبر. أقول له إنني سأبقى معه إلى أن يركب. أجل، ثمة عدد من الناس هنا يتكلمون عن الغزو.

ويقول بلاكير:

ــ مع مرور الوقت توصلت إلى ملاحظة أنه لم يكن معتوها تماماً. فلو تمكنت البؤرة الثورية من الاستمرار، لكانت الأمور جرت وفق حسابات مايتا. لو أن التمرد ترسخ، لوجد الحزب نفسه مضطراً إلى الدخول، إلى محاولة تولي القيادة. مثلما يجري مع هذا التمرد الآن. من يتذكر أننا كنا نعارض طوال السنتين الأولين؟ ونحن الآن ننازع الماويين القيادة، أليس كذلك؟ ولكن الرفيق "تاريخ" لا يسامح. لقد أجرى حساباته قبل الوقت المحدد بخمس وعشرين سنة.

ولتشوشي من الطريقة التي يتكلم بها عن الحزب، سألته إذا ما كان قد أعيد قبوله أخيراً أم لا. فرد علي بطريقة مُشفّرة: «بصورة وسطية فقط». هناك سيدة تحمل طفلة بين ذراعيها بدت وكأنها تسمعه، قاطعتنا فجأة: «هل صحيح أن الروس قد دخلوا؟ ما الذي فعلناه لهم؟ ماذا سيحدث لابنتي الآن؟» وتصرخ الطفلة أيضاً. فيواسيها بلاكير:«اهدئي، لن يحدث شيء، إنها مجرد إشاعات» ويشير في الوقت نفسه إلى حافلة ميكروباص مزدحمة تواصل طريقها دون توقف. وفي جو لا يشبه على الإطلاق الجو الذي كان مخيماً قبل دقائق، همس الأمين العام بأن اقتراح الرفيق ميداردو عقلاني: فهو يحرم منشقي ح ع ث الآخر من استغلال الأمر. ونظر إليه: لا مانع من أن يتكلمِ صاحب الشأن. «الكلمة لك يا مايتا».

ــ تحدثنا لوقت طويل. وعلى الرغم مما فعلوه به، كان يشعر بالغبطة وهو يتكلم عن التمرد ــ يقول بلاكير ذلك وهو يشعل سيجارة ــ. لقد عرفت أن العمل سيبدأ خلال أيام، ولكنني لم أعرف المكان. و لم أكن أتصور على الإطلاق أن يكون خاوخا. فكرت بكوسكو، حيث كانت قد جرت في ذلك الحين عمليات استيلاء على الأراضي. ولكن، من كان سيخطر بباله أن هناك ثوريا في سجن خاوخا؟

وأسمع من جديد ضحكته التي بلا طعم. ونواصل المشي، دون اتفاق مسبق، باتجاه موقف ٢٨ تموز. تمر الساعات وهو ما يزال هناك، متعرقا، ملابسه مجعدة ومتسخة، وحول عينيه دوائر بنفسجية والشعر المموج مشعث، على حافة المقعد، في الصالة الصغيرة المكتظة البائسة في بيت بلاكير: يتكلم، يومئ، يدعم كلماته بإيماءات حازمة وهناك في عينيه قناعة راسخة. «هل ترفضون دخول التاريخ، صنع التاريخ؟»، يقول مقرعا بلاكير.

وأسمع هذا الأخير يقول لي، بعد أن مشينا نصف كوادرا أخرى:

ــ كل شيء صار إلى نقيضه في تلك القضية. فحزب العمال الثوري (ت) نفسه الذي طرد مايتا لأنه أراد إدخاله في مسألة خاوخا، اندفع بعد وقت قصير من ذلك إلى ما هو أشد عقما: السطو على المصارف.

أيكون دخول فيدل كاسترو إلى هافانا، الذي جرى ما بين الأمرين، هو الذي حول ح ع ث (ت) الحذر الذي تملص من مؤامرة مايتا إلى الجهاز المحارب الذي انهمك في سلب مصارف البرجوازية؟ لقد هاجموا هذا الفرع للبنك الدولي بالذات الذي تجاوزناه الآن ــ وقد جرى اعتقال خواكين في العملية ــ،ثم بعد أيام من ذلك، الهجوم على مصرف ويز في لافكتوريا، حيث سقط بياردي. هاتان العمليتان أدتا إلى انفراط عقد ح ع ث (ت). أم أنه

كان في ذلك شيء من تأنيب الضمير، نوع من الاندفاع لإثبات أنهم يستطيعون رغم تخليهم عن مايتا وباييخوس، أن يقامروا بكل شيء؟

وقال بلاكير:

ـــ لا تأنيب ضمير ولا أي شيء مشابه. السبب هو كوبا. فالثورة الكوبية كسرت المحرمات. قتلت الأنا الأعلى الذي كان يأمرنا بالإذعان إلى أن «الظروف لم تنضج بعد»، وإلى أن الثورة هي تآمر بلا نهاية. فمع دخول فيدل إلى هافانا، بدت الثورة وكأنها في متناول يد جميع من يتجرؤون على خوض القتال.

ـــ إذا لم تأخذهم أنت فسوف يبيعهم صاحب بيتي في مزاد لابارادا ـــ ألح مايتا ـــ. يمكنك أن تأخذهم منذ يوم الاثنين. وهي ليست كتبا كثيرة أيضا.

فاستسلم بلاكير:

ـــ حسن، سآخذ كتبك. ولنقل إنني سأحفظها لك في أثناء غيابك.

في موقف ٢٨ تموز هناك الازحام نفسه الذي في المواقف السابقة. ثمة رجل بقبعة يحمل مذياعا نقالا، يبحث فيه ـــ وسط لهفة الحاضرين ـــ عن محطة تبث أخبارا. لا يجد ما يريده: جميع المحطات تبث موسيقى. أنتظر مع بلاكير حوالى نصف ساعة، وفي هذه الأثناء يمر ميكروباصان، ممتلئين حتى الذروة، ولا يتوقفان، أودعه، فأنا أريد أن أصل إلى بيتي في الوقت المناسب لأسمع رسالة المجلس العسكري حول الغزو. عند زاوية شارع مانكو كاباك، ألتفت إلى الوراء وأرى بلاكير ما يزال هناك، يمكن تمييزه بهيئته المدمرة وسلوكه التائه، على حافة الشارع، وكأنه لا يعرف ما عليه عمله، أو إلى أين يذهب. لا بد أن مايتا كان في مثل هذا الوضع في ذلك اليوم، بعد تلك

الجلسة. ومع ذلك فإن بلاكير يؤكد لي أنه بعد أن ورّثه كتبه وأخبره أين يخبئ مفتاح غرفته، ودعه وهو ينضح تفاؤلاً.«لقد كبُر بالعقاب»، هذا ما قالــه لي. وهذا تعبير دقيق دون شك: فقدرته على الصمود، وتحديه، ازدادا من خــلال المواجهة.

بالرغم من أن المتاجر مغلقة أيضاً في هذا الجزء من شارع لاركو، إلا أن الشوارع ما تزال ممتلئة بباعــة المنــاظر الأنديزيــة، والصــور، والرســوم الكاريكاتورية، والمشغولات اليدوية والتفاهات. أتفادى البسط المغطاة بأساور وعقود يحرسها شبان بشعور طويلة وصبايا يلبسن الساري. أشم هواء مفعمــاً بالبخور. في منطقة الحالمين وأزقة المتصوفين تلك لا تُلحظ حالة الاستنفار، ولا حتى الفضول، تجاه أحداث الجنوب. ويمكن القول أنهم لا يعرفون أن الحــرب قد اتخذت، في الساعات الأخيرة، مظهراً أشد خطورة وأنها قد تصل إليــهم في أية لحظة. عند ناصية شارع أوتشران أسمعُ نباح كلب:إنها ضجة غريبة، تبــدو وكأنها آتية من الماضي، فمنذ بدأت المجاعة اختفت الحيوانات الأليفــة مــن الشوارع. كيف كان يشعر مايتا في ذلك الصباح، بعد الليلة الطويلــة الــتي بدأت في كراج شارع ثوريتوس، بطرده من ح ع ث (ت)، والاتفاق علــى تمويه الطرد بالاستقالة، وانتهت بتلك المحادثة في بيت بلاكير الــذي حولتــه الأحداث من عدو إلى موضع سره ومنديل دموعه؟ لقد كان يشعر بالنعــاس، وبالجوع والإنهاك،ولكنه يحتفظ بالاستعداد الحماسي نفسه الذي رجع به مــن خاوخا وبالقناعة نفسها بأنه قد أحسن التصرف. لم يطردوه لأنه قابل بلاكير؛ إذ أنهم كانوا قد قرروا التراجع قبل ذلك. غضبــهم المزعــوم، والاتهامــات بالخيانة، كانت وسيلة لإغلاق الطريق على أي محاولة لمراجعة ما تم إقــراره. أهو الخوف من خوض القتال؟لا، فالأصح أنه التشاؤم، فقدان الإرادة، العجــز

النفسي عن كسر الروتين والانتقال إلى العمل الحقيقي. كان قد ركب أومنبوس، ومضى فيه واقفاً، يمسك بمسند الأيدي، محشوراً ما بين زنجيتين تحملان سلالاً. ألم يكن يعرف هذا السلوك؟ «ألم يكن سلوكه طوال سنوات؟» إنهم لا يؤمنون بالجماهير بسبب عدم اتصالهم بها، وهم يرتابون بالثورة وبأفكارهم نفسها لأن حياة التآمر بين الفئات جعلت قدرتهم على العمل تصاب بالضمور. أخذت إحدى الزنجيتين تضحك وهي تنظر إليه، وانتبه مايتا إلى أنه يكلم نفسه. فضحك أيضاً. من الأفضل أن يمتنعوا عن المشاركة وهم في مثل هذه الحالة المعنوية، لأنهم سيكونون عقبة. أجل، سيفتقدهم، ولن يجد في ليما مساندة مدينية. ولكن كلما تصاعد النضال، ستبدأ بالظهور منظمة مساندة، هنا وفي كل مكان.وعندما يرى الرفاق في ح ع ث (ت) أن الطليعة تكتسب السمعة وأن الجماهير تنظم، سيندمون على ترددهم. وكذلك الفجليون. المسعى مع بلاكير كان قنبلة موقوتة. عندما يرون أن الساقية قد تحولت إلى تيار جارف، سيتذكرون أن الباب كان مفتوحاً لهم، وأنهم كانوا مدعوين. وسيأتون، سيذعنون.كان مستغرقاً تماماً حتى أنه لم ينزل عند ناصية بيته وإنما بعد كوادراتين.

وصل إلى الزقاق منهوكاً. كان هناك في الفناء صف طويل من النساء يحملن دلاء، ويتذمرن لأن الأولى بينهن تبقى دهراً على الصنبور. دخل إلى غرفته وتمدد على السرير دون أن يخلع حذاءه. لم يتحمسن للنزول والوقوف في الصف. ولكن، كم سيكون رائعاً لو أنه يستطيع الآن تغطيس قدميه المتعبتين في مغطس ماء بارد. أغمض عينيه، وبينما هو يصارع النعاس، بحث عن الكلمات من أجل الرسالة التي عليه أن يوصلها هذا المساءِ إلى خاثينتو ليضمها إلى عدد **صوت العمال** (ت) الذي يجري إعداده في المطبعة. إنه عدد

يكاد لا يزيد عن أربع صفحات، ملزمة واحدة،وهو أصفر إلى حد أنني حين أمسكته ــ وأنا جالس قبالة جهاز التلفزيون الذي لم يظهر فيه جنرالات المجلس العسكري بعد رغم تجاوز الساعة للثامنة ــ أحسست بأنه سيتفتت بين يدي. الاستقالة ليست في الصفحة الأولى المقسومة إلى مقالين طويلين وذكرى صغيرة. الافتتاحية، بخط أسود، تملأ العمود الأيسر: «توقفوا أيها الفاشست!» وهي تشير إلى بعض الأحداث التي وقعت في سلسلة الجبال الوسطى،على اثر إضراب في موقعين منجميين لشركة ثيرو دي باسكو كوبر كوربوريشين. فلدى إجلاء العمال المضربين، جرحت الشرطة عدداً منهم، ويبدو أن أحدهم قد مات. ليست صدفة، وإنما هو جزء من خطة تخويف وإضعاف الطبقة العاملة التي تنفذها الشرطة والجيش والرجعية وفق مخططات البنتاغون وCIA لأميركا اللاتينية. ما هو المضمون في الحساب الأخير؟ لقد بدأت بعض المارشات العسكرية،وتلت صور الشعار والعلم الوطنيين، في التلفزيون، تماثيل وصور شخصيات بارزة. هل سيبدؤون أخيراً؟ زحف الجماهير العمالية نحو الاشتراكية يتقدم، وهو في كل يوم أشد اندفاعاً ولا يمكن كبحه. وهذه الأساليب لا يمكنها أن تفاجئ من فهموا دروس التاريخ: فقد استخدمها موسوليني في إيطاليا، وهتلر في المانيا، وتطبقها واشنطن اليوم في أميركا اللاتينية. ولكنها لن تجد النجاح، وستأتي بناتج عكسية، وستكون سماداً مخصباً، لأن ضربات القمع، مثلما كتب ليون تروتسكي، هي أشبه بالتقليم للنباتات. أجل، ها هم الآن:قادة البحرية والطيران والمشاة، ووراءهم الضباط المرافقون، والوزراء، وقادة الحاميات والفرق العسكرية لمنطقة ليما. الوجوه المكفهرة تبدو وكأنها تؤكد أسوأ الشائعات. افتتاحية صوت العمال تنتهي إلى حث العمال والفلاحين والطلاب والفئات التقدمية على رص الصفوف في

مواجهة المؤامرة النازية الفاشية. إنهم ينشدون الآن ــ في التلفزيون ــ النشيد الوطني.

المقال الآخر حول سيلان. صحيح، ففي تلك الفترة وصل مد التروتسكية إلى أقصاه هناك. والنص يؤكد أن التروتسكيين هم القوة الثانية في البرلمان والقوة الأولى في النقابات السيلانية. ومن خلال استخدام أزمنة الأفعال، يبدو أنه مترجم عن الفرنسية. أيكون مايتا هو من ترجمه؟ والأسماء، ابتداء من السيدة باندرانايكا، رئيسة الوزراء، يصعب حفظها. ها قد انتهى النشيد الوطني وتقدم قائد الجيش، الناطق الرسمي المعهود باسم المجلس العسكري. وعلى غير عادة، بدلاً من أن يوغل كعادته في الخطابة الوطنية الرنانة، يدخل فوراً في الموضوع. رنة صوته أقل عسكرية وأكثر ارتعاشاً. ثلاث فرق عسكرية، من الكوبيين والبوليفيين، قد توغلت عميقاً في التراب الوطني، مدعومة بطائرات حربية تقصف منذ الليلة الماضية أهدافاً مدنية في أقاليم بونو وكوسكو وآريكيبا، في خرق سافر لكل القوانين والمعاهدات الدولية؛وقد تسببوا في وقوع أعداد من الضحايا وأضرار جسيمة، بما في ذلك في مدينة بونو نفسها حيث دمرت القنابل جزءاً من مستشفى الضمان الاجتماعي، وأوقعت عدداً لم يحصر بعد من القتلى. هل سيقول إذا ما كان «المارينز» قد اجتازوا الحدود مع الإكوادور؟ المربع الصغير يعلن أن **ح ع ث (ت)** سيُقيم قريباً جداً، في مقر نقابة البناء المدني، المهرجان المؤجل حول: «الثورة المغدورة: رؤية تروتسكية للاتحاد السوفييتي». ومن أجل العثور على الاستقالة لا بد من قلب الصفحة. ففي زاوية، تحت مقال طويل «فلننشئ السوفيتات في الثكنات العسكرية!»، ودون ترويسة أو حواش: «استقالة من ح ع ث (ت)». قائد الجيش يؤكد الآن أن قوات البيرو، بالرغم من أنها

تقاتل في ظروف أدنى عددياً ولوجستياً، فإنها تتصدى ببطولة للغزو الإجرامي الذي يقوم به الإرهاب الشيوعي الدولي، بدعم حاسم من جانب الأهالي المدنيين. والمجلس العسكري أصدر هذا المساء مرسوماً سامياً يدعو فيه إلى الالتحاق ثلاث مستويات جديدة من قوات الاحتياط. هل سيقول إذا ما كانت هناك طائرات أمريكية تقصف الغزاة؟

الرفيق الأمين العام

لـ ح ع ث (ت)

المدينة

أيها الرفيق:

أُعلمكم في هذه الرسالة باستقالتي النهائية من صفوف **حزب العمال الثوري (التروتسكي)** الذي أنا عضو فيه منذ أكثر من عشر سنوات. وقراري هذا هو نتيجة أسباب شخصية. إنني راغب في استرداد استقلاليتي لأتمكن من العمل تحت مسؤوليتي المطلقة، دون أن يكون ما أقوله أو أفعله ملزماً بأي حال للحزب.إنني بحاجة إلى حريتي في العمل في هذا الوقت الذي تشهد فيه بلادنا الجدل مرة أخرى حول الخيار القديم ما بين الثورة والرجعية.

إن ابتعادي عن ح ع **ث (ت)** بمحض إرادتي لا يعني قطيعتي مع الأفكار التي أوضحت طريق الاشتراكية الثورية لعمال العالم. وأريد أيها الرفيق، أن أؤكد مرة أخرى على أن إيماني بالبروليتاريا البيروية هو أشد قوة من أي وقت مضى، وقناعتي بأن الثورة ستصبح واقعاً وستحطم نهائياً أغلال الاستغلال والظلامية التي تُثقل منذ قرون على شعبنا وأن عملية التحرر ستتحقق على ضوء النظرية التي وضعها ماركس وانجلز وجسدها لينين وتروتسكي.

أطلب نشر استقالتي في **صوت العمال** (ت) بهدف إطلاع الرأي العام.

بكل ثورية.

آ. مايتا آبيندانيو

لقد قال قائد الجيش ذلك في النهاية فقط، وبسرعة كبيرة، وبنبرة أقل رسوخاً، كما لو أنه غير متأكد: باسم شعب البيرو الذي يقاتل قتالاً مجيداً للدفاع عن الحضارة الغربيةوالمسيحية للعالم الحر ضد هجمة الإلحاد الجماعي والشمولي، طلب المجلس العسكري وحصل من حكومة الولايات المتحدة الأمريكية على إرسال قوات إسناد ومواد لوجستية لصد الغزو الشيوعي الروسي-الكوبي-البوليفي الذي يرمي إلى استعباد وطننا. أي أن هذا صحيح أيضاً. لقد انتهى الأمر. فالحرب لم تعد بيروية، البيرو ليست إلا مسرحاً آخر للنزاع الذي تخوضه القوى العظمى، مباشرة ومن خلال أفلاكها وحلفائها. أياً يكن الرابح فإن مئات الألوف، وربما الملايين سيموتون، وستبقى بلادنا البيرو منهوكة مستنزفة، إذا بقيت على قيد الحياة. أحسست بنعاس شديد لم أجد معه الحماسة لإطفاء التلفزيون. لقد اتضح قلق مايتا عندما التفت: كان أناتوليو يصوب نحوه مسدساً. لم يشعر بالخوف وإنما بالأسى: التأخير الذي سيعنيه ذلك! وماذا عن باييخوس؟ المواعيد يجب إنجازها بدقة ميليمترية، وقد كان الأمر واضحاً، فأناتوليو لا ينوي قتله وإنما منعه من السفر إلى خاوخا. تقدم خطوات حازمة نحو الفتى، لجعله يتعقل، ولكن أناتوليو مدّ ذراعه بقوة ورأى مايتا أنه سيضغط على الزناد. رفع ذراعيه مفكراً: «سأموت دون أن أكون قد قاتلت».وأحس بحزن جارح، فهو لن يكون معهم، هناك في الجلجلة، عندما سيبدأ «عيد الغطاس». «لماذا تفعل هذا يا أناتوليو؟» وأحس بالاستياء من صوته: فالثوري الحقيقي منطقي وبارد الأعصاب، وليس عاطفياً. «لأنك

مخنث»، قال أناتوليو ذلك بصوت هادئ، ثابت، حاسم، لا عودة عنــــه، أراد إظهاره في تلك اللحظة. «لأنك مخنث وهذا أمر يجب دفع ثمنه»، أكد ذلــــك الأمين العام وهو يطل برأسه الكئيب ذي الأذنين المدببتين. «لأنك مخنث وهذا يبعث على القرف»، أضاف الرفيق موسيس/ميداردو وهو يطل ببروفيله مــــن فوق كتف الرفيق خاثينتو. اللجنة المركزية لــ ح ع ث (ت) كلها كـــانت هناك، واحداً وراء الآخر وكانوا كلهم مسلحين بمسدسات. لقــد حُوكــم، وأدين وسينفذون به الحكم. ليس بسبب عدم الانضباط، أو الخطأ،أو الخيانــة، وإنما ــ يا للبؤس، ويا للسخف ــ لأنه أدخل لسانه مثل خنجر ما بين أســنان أناتوليو. وبفقدان كل اتزان، راح يصرخ منادیـــاً بـــاييخوس، وأوبييـــوث، ولوريتو، وفلاحي ريكران، والفتيان التلاميذ: «أخرجوني من هذه المصيدة يــا رفاق». استيقظ وظهره مبلل: ومن حافة السرير كان أناتوليو يتأمله، وسمعـــه يهمس:

ــ لم يكن ما تقوله مفهوماً.

فتلعثم مايتا دون أن يكون قد خرج تماماً من الكابوس:

ــ ما الذي تفعله هنا؟

ــ لقد جئت ــ قال أناتوليو. وكان ينظـــر إليــه دون أن يرمــش، وبوميض خبيث في حدقتيه ــ هل أنت غاضب مني؟

ــ الحقيقة أنك صفيق ــ دمدم مايتا دون أن يتحــرك. كـــان يحـس بالمرارة في فمه، وبأن عينيه مغمصتان، وبقشعريرة الخوف ما تزال تســري في جلده ــ الحقيقة أنك وقح يا أناتوليو.

ــ أنت علّمتني ــ قال الفتى بنعومة،وهو ينظر إلى عينيه مباشرة بتعبــير غير محدد كان يستثير غضب مايتا ويسبب له الندم. بدأت حشرة طيارة تحـوم حول بؤرة النور.

ـــ أنا علمتك أن تتصرف كرجل، لا أن تكون منافقا ـــ قال مايتا وهو يبذل جهدا لكبح غضبه. وفكر: «اهدأ، لا تشتمه، لا تضربـــه، لا تنـــاقش. أخرجه من هنا.»

ـــ مسألة خاوخا عمل جنوني. لقد ناقشنا الأمر وكنا جميعنا متفقـــين على وجوب وضع حد له ـــ قال أناتوليو بشيء من الجفاء، دون أن يتحـــرك ـــ. لم يكن هناك من يفكر بطردك. لماذا ذهبت إلى بلاكير؟ لولا ذلك ما كان أحد سيطردك.

وقال مايتا:

ـــ لن أتناقش معك. كل هذا صار قصة قديمة. هيا، انصرف.

لكن الفتى لم يتحرك و لم يتوقف عن النظر إليه بتلك الطريقة التي تنطوي على استفزاز وشيء من السخرية.

فقال مايتا:

ـــ لسنا رفاقا ولا أصدقاء. أي براز تريد؟

ـــ أريدك أن تمصه لي ـــ قال الفتى بتمهل، ناظرا إلى عينيه وملامســـا ركبته بأصابعه الخمسة.

الفصل السابع

ـــ ما الذي تفعله هنا يا مايتا؟ ـــ هتفت آديلايدا ـــ لماذا جئت؟

يقع قصر روسبيغليوسي على الحد الفاصل ما بين لينثي وسانتا بياتريث، وهما حيّان لا يمكن التمييز بينهما الآن. أما في الزمن الذي تزوج فيه مايتا من أديلايدا فكان هناك بين الحيين صراع طبقي. فقد كان لنثي حياً متواضعاً على الدوام، حي طبقة متوسطة تميل نحو البروليتاريا، فيه بيوت ضيقة وبلا لون، وأديرة وأزقة، ودروب متصدعة وحدائق صغيرة وعرة. أما سانتا بياتريث بالمقابل، فكان حياً مزهواً، حيث شيدت بعض الأسر الثرية بيوتاً كبيرة على الطراز «الاستعماري» أو «الاشبيلي» أو «القوطي المحدث»، مثل نصب الشذوذ هذا الذي يمثله قصر روسبيغلوسي، قصر ذو شرفات وقناطر قوطية من الإسمنت المسلح. وكان أهالي لينثي ينظرون بحقد وحسد إلى أهالي سانتا بياتريث، لأن هؤلاء بدورهم كانوا ينظرون إليهم باستعلاء ويزدروهم.

قال لها مايتا:

ـــ أرغب في أن أتحدث إليكِ لحظة. وأن أرى ابني إذا كنتِ لا تمانعين.

لقد صار حيا سانتا بياتريث ولينثي الآن شيئاً واحداً؛ فقد انحدر الأول وتحسن الثاني إلى أن التقيا في نقطة وسطية: حي بلا هوية، يسكنه موظفون وتجار وحرفيون ليسوا أثرياء ولا معدمين ولكنهم يواجهون المشاكل للوصول إلى نهاية الشهر. وهذه الوسطية تبدو ممثلة على أحسن وجه في زوج آديلايدا، دون خوان ثاراتيه، موظف البريد والبرق الذي لديه سنوات طويلة من الخدمة.

صورته معلقة إلى جانب النافذة التي بلا ستارة والتي يمكن من خلالها رؤية قصر روسبيغليوسي: وبسبب وجود هيئة تابعة لوزارة الطيران هناك، فقد أحيط القصر بأسلاك وأكياس رمل، تبرز من فوقها خوذات وبنادق الحراس. إحدى تلك الدوريات أوقفتني وأنا قادم إلى هنا، وفتشتني من قدميّ حتى رأسي قبل السماح لي بالمرور. جنود سلاح الطيران كانوا عصبيين جداً، أصابعهم على الزناد. وهذا ليس كثيراً بالنظر إلى الأحداث. في الصورة، يظهر دون خوان ثاراتيه ببدلة وربطة عنق، وقوراً، وآديلايدا ممسكة بذراعه، وهي عابسة أيضاً.

هذه الصورة التقطت عندما تزوجنا، في كانييي. ذهبنا لقضاء ثلاثة أيام هناك في بيت شقيق لخوان. وكنتُ حبلى في الشهر السابع. يكاد لا يظهر ذلك عليّ، أليس كذلك؟

بالفعل، لا يمكن لأحد أن يقول إنها امرأة بمثل ذلك الحمل المتقدم. لا بد أن عمر الصورة حوالى ثلاثين سنة. وهذه المرأة التي كانت، لوقت قصير، زوجة زميلي في مدرسة ساليسيانو ما زالت تحتفظ بجمالها بصورة غريبة.

وتضيف آديلايدا:

ـــ كنتُ حبلى من مايتا.

أستمعُ إليها باهتمام وأتأملها. لم أخرج من المفاجأة التي سببتها لي رؤيتها، لدى الدخول إلى البيت الصغير الكئيب. كنتُ قد تحدثت معها قبل ذلك بالهاتف فقط، و لم أتصور مطلقاً أن صاحبة ذلك الصوت هي امرأة ما تزال جذابة، على الرغم من سنوات عمرها. لها شعر رمادي متموج يصل حتى كتفيها، ووجه ناعم التقاطيع، تبرز فيه شفتان ممتلئتان وعينان عميقتان. إنها تُقاطع ساقيها: وهما ساقان ناعمتان، مسبوكتان، طويلتان، ثابتتان. لا بد أنها كانت آية في الجمال عندما كانت زوجة لمايتا.

وصرخت به آديلايدا:

ـــ ها أنت تتذكر ابنك الآن.

فرد مايتا:

ـــ إنني أتذكره دوماً. فعدم رؤيته شيء وعدم التفكير فيه شيء آخـــر. لقد عقدنا اتفاقاً وأنا أتقيد به.

ولكنني ألمحُ فيها شيئاً من الكآبة، من القنوط، ملمح هزيمة. ولا مبـــالاة شاملة: لا يبدو عليها أنها مهتمة بكون المتمردين قد اســـتولوا علـــى مدينـــة كوسكو وأقاموا هناك حكومة، ولا بأصوات الرصاص التي لا يمكن تفســـيرها في شوارع ليما ليلاً، ولا بما إذا كان صحيحاً أو زائفاً نزول مئات «المارينـــز» في الساعات الأخيرة في قاعدة خويا، في آركيبا، لتعزيز الجيش الذي يبدو أنـــه قد انهار في الجبهة الجنوبية كلها. إنها لا تأتي ولو مرة واحـــدة علـــى ذكـــر الأحداث التي تُقلق ليما بأسرها ويشد انتباهي للحظة عابرة ـــ على الرغم من الانتصار الذي يمثله بالنسبة إلي التحدث معها ـــ مشهد رايات حمراء، وبنـادق مشهرة، وهتافات انتصار في شوارع كوسكو.

وقالت له آديلايدا وهي تزيح خصلة من شعرها عن جبهتها:

ـــ ولكنك لا تتقيد بالاتفاق عندما تصل بك الجرأة إلى الحضور إلى بيتي . ألا تدرك المشكلة التي قد تسببها لي مع زوجي؟

بينما أنا أسمعها تتحدث عن تعجيل زواجها من خوان ثاراتيه لكي يولـد ابن مايتا بكنية أخرى وأب آخر، في بيت مستقر، أكرر لنفسي بأنني أســـيء التصرف بعدم الانتباه؛ فقد بقي لي وقت قصير. فوجودي معها هنـــاك هـــو مكافأة لمثابرتي. لقد رفضتْ آديلايدا مرات كثيرة اللقاء بي، وفي المرة الثالثـة أو الرابعة أغلقت الهاتف. فكان لا بد من الإلحاح، التوسل، والقسم لها بأنه لـــن

يظهر اسمها ولا اسم خوان ثاراتيه ولا اسم ابنها أبداً في ما سأكتبه، ثم الاقتراح عليها أخيراً ــ وكأن الأمر يتعلق بعمل ــ أن تروي لي حياتها مع مايتا ولقاءها الأخير معه، قبل ساعات من ذهابه إلى خاوخا ــ وأن تحدد تعويضاً مالياً مقابل الوقت الذي ستضيعه معي. وافقت على منحي ساعة من الحديث مقابل مئتي ألف سول. وستلتزم الصمت عن كل ما يبدو لها «شديد الخصوصية».

وألح مايتا:

ــ إنه ظرف خاص. سأغادر الآن بالذات. أقسم لكِ.

وتقول آديلايدا:

ــ ظننت أنه بحاجة إلى مخبأ وليس لديه مكان يذهب إليه. شأنه في حياته كلها. لأنه منذ تعرفت عليه إلى أن انفصلنا، كان يعيش وهو يشعر بأنه مُطَارَد. سواء أكانت هناك مبررات أم لم تكن. وكان ممتلئاً بالأسرار، يخفيها حتى عني.

هل توصلتْ إلى حبه؟ لم يكن لديها سبب آخر للعيش معه. كيف تعرفتْ عليه؟ في سوق خيري، في ساحة سوكري. لقد راهنتْ هي على الرقم ١٧، وكان هو إلى جانبها وراهن على الرقم ١٥. وتوقف الدولاب على الرقم ١٥ بالضبط. فهتفت آديلايدا «آي، يا للحظ. إنه سحبٌ على الدب الصغير». فقال لها جارها: «يمكنني أن أهديك إياه. أتسمحين لي بأن أهديك إياه؟ فلنتعارف. أنا أدعى مايتا.»

ــ حسن، أدخل، أفضل ألا تراني الجارة الحشرية التي مقابلنا معك هنا في الشارع ــ وفتحت له أخيراً الباب، وأضافت: ــ خمس دقائق فقط، أرجوك. إذا ما اكتشف خوان أنك هنا فسيغضب مني. لقد سببتَ لي ما يكفي من أوجاع الرأس في الحياة.

ألم ترتب بسبب اضطرابه وعصبيته بأن هذه الزيارة الفريدة تأتي عشية إقدامه على أمر استثنائي؟ ولا بأي شكل. لأنها فوق ذلك لم تلاحظ أنه كان عصبيا أو منفعلا. كان كعادته وحسب: هادئا، سيئ الملابس، وأكثر نحولا بقليل. عندما أحسا ببعض الثقة، اعترف لها مايتا بأن اللقاء في سوق ساحة سوكري الخيري لم يكن صدفة: لقد كان قد رآها من قبل، وبعد ذلك كان قد طاف حولها باحثا عن طريقة للتحدث معها.

ــ جعلني أعتقد بأنه قد أحبني من النظرة الأولى ــ أضافت آديلايدا ذلك بنبرة ساخرة. وفي كل مرة تذكر فيها اسمه تبدو وكانها تحس بشيء من المرارة. فعلى الرغم من مرور السنوات، ما زال هناك جرح ينز قيحا، وتواصل قائلة: ــ إنها مهزلة عظيمة، وقعت فيها مثل بلهاء. لم يكن مغرما بي على الإطلاق. وبسبب أنانيته الكبيرة لم ينتبه حتى إلى الأذى الذي ألحقه بي.

ألقى مايتا نظرة فيما حوله: بحر من الرايات الحمراء، بحر من القبضات المرفوعة، غابة من البنادق المشرعة، وعشرة آلاف حنجرة مجرحة من كثرة الهتاف والصراخ. بدا له من غير المفهوم وجوده هنا، في بيت آديلايدا، وأنه بين هذه المقاعد ذات الأغطية البلاستيكية وهذه الجدران المقشرة يعيش طفل هو ابني على الرغم من أنه يحمل كنية أخرى. أحسست باستياء عميق. هل أحسنت صنعا بالمجيء؟ أهذا الذي ينشدونه هو **النشيد الأممي** بلغة الكيتشوا؟

ــ سأسافر ولا أعرف متى سأعود إلى البيرو ــ أوضح لها مايتا وهو يجلس على ذراع أقرب مقعد ــ. لم أشأ الذهاب دون أن أتعرف عليه. هل يضايقك أن أراه لحظة؟

فقاطعته آديلايدا بجفاء:

ــ يضايقني كثيرا بالطبع. إنه لا يحمل اسمك، وخوان هو أبوه الوحيد الذي يعرفه. ألا تعرف كم تحملت من أجل الحصول له على بيت طبيعي وعلى أب حقيقي؟ ولن أسمح لك بأن تقوض كل هذا الآن.

وقال مايتا:

ـ لا أريد تقويض أي شيء. لقد احترمتُ طوال الوقت اتفاقنا. وأنـــا أريد ببساطة أن أتعرف عليه. لن أقول له من أنا، بل لـــن أكلمـــه إذا أنـــتِ رغبت.

لم يخبرها بكلمة واحدة عن نشاطاته الحقيقية في لقاءاهما الأولى؛ بـــل قال لها فقط أنه يكسب عيشه من العمل كصحفي. لم يكن بالإمكان القـــول إنه كان شاباً رائعاً بطريقته تلك في المشي وكأنه يطأ بيضاً وبأسنانه المتبـــاعدة، أو إنه في وضع مادي جيد بالنظر إلى ملابسه. ولكن هناك شيء أعجبها فيـــه على الرغم من كل ذلك. ما الذي أعجب الجميلة الموظفة في مصرف الاعتماد في لينثي بالشاب الثوري؟ جنود سلاح الطـــيران الذيـــن يحرســـون قصـــر روسبيغليوسي عصبيون جداً، أجل: إنهم ينقضون على أي عابر سبيل ويطلبون منه وثائقه ويفتشونه بإسهاب مهووس. هل حدث شيء جديد؟ أيعرفون شيئاً لم يُقَلْ بعد من المذياع؟ لقد وجهوا ضربة بعقب بندقية إلى فتاة تحمل ســـلتين أبدت تمنعاً حين أرادوا تفتيشها.

وتقول آديلايدا:

ـ إلى جواره كنتُ أشعر بأنني أتعلم شيئاً. هذا لا يعني أنه كان عالمـــاً. لقد كان يحدثني في أمور لم يكن يقربها الشبان الآخرون المعجبون بي. وبما أنـــي لم أكن أفهم شيئاً من ذلك، فقد كنت أبقى مثل العصفور الصغير أمام الثعبان.

وقد أثر فيها كذلك كونه وقوراً، أنيساً، متحكماً بنفسه. كان يقول لها أشياء جميلة. لماذا لم يكن يقبّلها؟ لقد أخذها في أحد الأيام لزيارة خالة لـــه في سوركييو. وهي القريب الوحيد لمايتا الذي تعرفتْ عليه. وقد أعـــدت لهمـــا السيدة خوسيفا وجبة خفيفة، قطع حلوى، وعاملت آديلايدا بحنان. جلســـوا

يتبادلون الحديث، وفجأة اضطرت دونيا خوسيفا إلى الخروج. بقيا في الصالة الصغيرة يستمعان إلى المذياع، وفكرت آديلايدا: «الآن سيقبلني». كان مايتا إلى جوارها، على المقعد، وكانت هي تنتظر. ولكنه لم يحاول أن يمسك يدها وقالت لنفسها: «لا بد أنه مغرم بي جداً». كانت الفتاة ذات السلتين قد أذعنت ووافقت على أن يفتشوها. عندئذ سمحوا لها بالمرور. وعندما مرت قبالة النافذة لاحظتُ أنها تحرك شفتيها، إنها تشتمهم.

ـــ أرجوكَ ألا تلح ـــ قالت آديلايدا ـــ. ثم إنه الآن في المدرسة. لماذا تريد أن تراه، ما الهدف من ذلك؟ إذا ما أحس بشيء، فسيكون الأمر رهيباً.

وقال مايتا ساخراً:

ـــ هل سيكتشف بمعجزة أنني أبوه عندما يرى وجهي؟

فتلعثمت آديلايدا:

ـــ إنني خائفة، أحس بأنني أستدعي سوء الطالع.

وبالفعل، كان الخوف البالغ يأكل صوتها ووجهها. لا فائدة من مواصلة الإلحاح. أليس عارضاً خبيثاً هذا النزوع العاطفي لرؤية ابن نادراً ما يتذكره؟ إنه يضيع دقائق ثمينة، وقد كان مجيئه تهوراً. إذا ما وجده خوان في البيت، سيقع في مشكلة. وأي فضيحة، مهما صغر شأنها، سيكون لها تأثير سلبي على الخطة. «انصرفْ، ودّعْها وانصرفْ.» ولكنه كان ملتصقاً بذراع المقعد.

وتقول لي آديلايدا:

ـــ كان خوان مسؤولاً عن مركز البريد هنا في لينثي. وكان يأتي ليراني وأنا أدخل إلى مكان عملي، وليراني وأنا أخرج. وكان يلاحقني، ويوجه لي الدعوات، ويعرض علي الزواج كل أسبوع. وكان يتحمل صدي ورفضي له دون أن يستسلم.

ـــ أكان هو من عرض عليك منح اسمه للطفل؟

ـــ كان هذا هو الشرط الذي فرضتُه عليه لكي نتزوج. ـــ ألقيتُ نظرة على الصورة الملتقطة في كانيتي وفهمتُ الآن لماذا رضيت الموظفة الجميلة الزواج من موظف البريد القبيح والمتقدم في السن. لا بد أن ابن مايتا قد تجاوز الآن الثلاثين من عمره. هل عاش الحياة الطبيعية التي أرادتها له أمه؟ أتراه يقف إلى جانب المتمردين والأمميين أم إلى جانب الجيش و«المارينز»؟ أم تراه يعتقد مثل أمه بأن هذا الطرف أو ذاك ليس إلا قمامة؟.. وأضافت آديلايدا:ـــ ودون أن يكون قد قبلني، فاجأني في المرة الخامسة أو السادسة التي خرجنا فيها معاً.

ـــ ماذا ستقولين إذا ما عرضتُ عليك الزواج يوماً؟

فقالت بتغنج:

ـــ فلننتظر ذلك اليوم وستعرف جوابي.

وقال مايتا:

ـــ ها أنذا أعرض الأمر عليك. هل توافقين على الزواج مني يا آديلايدا؟

وتكرر وهي تهز رأسها:

ـــ لم يكن قد قبلني ولو قبلة واحدة. وعرض علي الأمر دون مقدمات. ودون مقدمات كذلك وافقت على العرض. أنا من ورطت نفسي بنفسي، لا يمكنني أن ألقي اللوم على أحد.

ـــ هذا دليل على أنك كنت واقعة في الحب.

ـــ ليس الأمر هو أنني كنت أتلهف للزواج ـــ أكدت ذلك وهي تقوم بالحركة التي لاحظت أنها قامت بها عدة مرات: دفع شعرها إلى الوراء. وأضافت:ـــ لقد كان شابا، على قدر من الوسامة. لم تكن تنقصني الخيارات. و لم يكن خوان ثاراتيه هو المتقدم الوحيد لي. ولكنني وافقت على من لم يكن

يملك مكاناً يموت فيه، على الثوري، والذي كان من كان فوق ذلك. أليس هذا جنوناً؟

ـــ حسن، لن أراه ـــ دمدم مايتا، ولكنه لم ينهض في هذه المرة أيضاً عن المقعد ـــ. حدثيني عنه على الأقل. وعن نفسكِ. هل أنت على ما يرام بهذا الزواج؟

وقالت آديلايدا بصبر.. بل بكآبة:

ـــ أفضل من زواجي منك. إنني أعيش مطمئنة، ودون أن أفكر بأن المخبرين قد يأتون في أي لحظة لينشروا الفوضى في أرجاء البيت وليأخذوا زوجي. إنني أعرف وأنا مع خوان بأننا سنأكل كل يوم وبأنهم لن يطردونا لعدم دفع الإيجار.

ـــ بالنظر إلى طريقتكِ في الكلام، لا يبدو أنك سعيدة جداً ـــ دمدم مايتا. أليس من العبث الخوض في مثل هذا الحديث في هذه اللحظة بالذات؟ أما كان يتوجب عليه الآن أن يذهب لشراء المواد اللازمة، وأن يقبض تصفية حسابه من فرانس برس، وأن يُعدّ حقيبته؟

ـــ لستُ كذلك ـــ قالت آديلايدا. وكانت تبدو مضيافة أكثر منذ أن وافق هو على عدم رؤية الطفل ـــ. لقد جعلني خوان أستقيل من المصرف. لو أنني واصلت العمل لكان بإمكاننا أن نعيش حياة أفضل ولكنتُ التقيت بالناس، والشارع. إنني أقضي الوقت هنا في الكنس والغسل والطبخ. وهذا لا يشجع على الشعور بسعادة كبيرة.

وقال مايتا وهو يلقي نظرة على الصالة الصغيرة:

ـــ لا، لا يشجع. مع أنك تعيشين حياة جيدة يا آديلايدا بالمقارنة مع ملايين غيرك.

فانتفضت هي:

ــ هل ستحدثني في السياسة؟ فلتنصرف إذن. لقد صرت بسببك أكره السياسة أكثر من أي شيء آخر.

تزوجا بعد ثلاثة أسابيع من تعارفهما، وكان زواجهما مدنياً، في بلدية لينثي. وحينئذ بدأت تتعرف على مايتا الحقيقي: تحت السماء الصافية وفوق أسطح القرميد الأحمر في كوسكو تخفق مئات، بل آلاف الرايات الحمراء، وواجهات كنائسها وقصورها القديمة، وأحجار شوارعها المغرقة في القدم مضمخة بحمرة دماء المعارك الأخيرة. في البدء لم تفهم جيداً ما سمعته عن حزب العمال الثوري. لقد كانت تعرف أن هناك حزباً في البيرو، هو حزب أبرا، وأن الجنرال أودريا قد اعتبره حزباً خارجاً على القانون، وعندما صعد برادو إلى السلطة، سمح للحزب بالعمل من جديد. أما عن حزب يدعى ح ع ث؟... مظاهرات صاخبة، إطلاق نار في الفضاء، خطابات حماسية تطالب بالبدء بعصر آخر، بقيامة الإنسان الجديد. بدأت اعدامات الخونة، الوشاة، الجلادين، المتعاونين مع النظام القديم في ساحة السلاح البديعة حيث مزقت سلطات الفاتحين الاسبان الأوائل توباك آمارو؟ وشرح لها مايتا الأمر بصورة تقريبية: **حزب العمال الثوري** ما يزال حزباً صغيراً.

وتقول لي وهي تُبعد الشعر عن وجهها:

ــ لم أولِ الأمر أهمية، وبدا لي لعبة ما. ولكن لم يكن قد انقضى شهر عندما طرقوا الباب في إحدى الليالي، وكنت وحدي. فتحتُ وكان هناك تحريان. وبحجة القيام بالتفتيش أخذا حتى عبوة رز كنت أضعها في المطبخ. وهكذا بدأ الكابوس.

وكانت لا تكاد ترى زوجها، ولم تكن تعرف إذا ما كان في اجتماعات أم في المطبعة أو مختبئاً. لم تكن حياة مايتا هي الفرانس برس، فقد

كان يذهب إلى هناك بضع ساعات فقط، وكان يكسب أجراً بائساً ما كان له أن يكفيهما مطلقاً لو أنها لم تواصل العمل في المصرف. وسرعان ما اكتشفت أن الشيء الوحيد الذي يهم مايتا هو السياسة. وكان يأتي إلى البيت أحياناً مع أولئك الأشخاص ويستغرقون في النقاش حتى الساعة ألف وخمسمئة. «أهـذا يعني أن ح ع ث هو حزب شيوعي؟» هكذا سألتهُ يوماً. فقال لهـا: «نحـن الشيوعيون الحقيقيون». وبدأت تسأل نفسها: ممن تزوجتِ؟

ـــ كنت أظن أن خوان ثاراتيه يحبك وأنه سيُنهك نفسه ليوفـر لـك السعادة.

فدمدت هي:

ـــ كان يحبني قبل أن تظهر أنت. ولا بد أنه كان يحبني عندما وافق على منح اسمه لابنك. ولكنه ما إن فعل ذلك حتى بدأ بإظهار الحقد تجاهي.

أهو يسيء معاملتها إذن؟ لا، إنه يعاملها جيداً، ولكنه يُشعرها بأنه هـو الذي كان كريماً. أما مع الصبي بالمقابل، فكان طيباً، وكان يهتم بتربيته. مـا الذي تفعله هنا يا مايتا؟ أتضيع ساعاتك الأخيرة في ليما في هـذا الحديـث؟ ولكن نوعاً من العطالة كان يمنعه من الانصراف. لقد كان يحبطني حديثـهما عن المشاكل الزوجية في هذا اللقاء الأخير، في الوقت الذي كان فيه مايتا يضع إحدى قدميه في خاوخا. كنت أتشوق، في هذه المحادثة الأخـيرة، إلى شـيء استعراضي، دراماتيكي، يلقي ضوءاً على التعارض حول ما كان يشعر ويحلـم به مايتا عشية الانتفاضة. ولكنني أرى، من خلال ما أسمعه، أنكمـا تحدثتمـا عنكِ أكثر مما تحدثتما عنه. أعذريني للمقاطعة، ولنواصل. أتعنين أن نشـاطاته السياسية سببت لكِ آلاماً كثيرة؟

ـــ ما آلمني أكثر هو كونه مخنثـاً ـــ أجـابت، وتـوردت حيـاء ثم أضافت:ـــ اكتشافي أنه قد تزوج مني للتغطية على ما كانه.

ها هي ذي تكشف عن شيء دراماتيكي أخيراً. ومع ذلك، مازال اهتمامي معلقاً ما بين آديلايدا والرايات، والدماء، والاعدامات وهجة المتمردين والأمميين في مدينة كوسكو. هل ستصبح ليما هكذا أيضاً خلال بضعة أسابيع؟ في الحافلة التي جئت بها إلى لينتي كان السائق يؤكد بأن الجيش قد بدأ، منذ الليلة السابقة، باعدامات علنية لإرهابيين مزعومين في فييا السلفادرور، وكوماس، وثيوداد دل نينيو وقرى شابة أخرى. هل ستجري عمليات شنق ومجازر مثل تلك التي جرت عندما دخل التشيليون في حرب الباسفيك؟ وأعود لأسمع بوضوح محاضرة أحد المؤرخين في لندن، وهو يروي شهادة القنصل الإنكليزي في تلك الحقبة: بينما كان المتطوعون البيرويون يتمزقون وهم يصدون الهجوم التشيلي في تشوريوس وميرافلوريس، كان رعاع ليما يقتلون الصينيين أصحاب الحانات، بشنقهم وطعنهم بالسكاكين وإضرام النار بأجسادهم في الطريق العام، بتهمة أنهم متواطئون مع العدو، ثم راحوا ينهبون بعد ذلك بيوت الأغنياء، بينما السيدات والسادة المذعورون يستغيثون من المفوضيات الدبلوماسية التي التجؤوا إليها، ويطالبون بدخول الغزاة بسرعة، وقد اكتشفوا في تلك اللحظة أن خوفهم من الغزاة الأجانب أقل من خوفهم من تلك الحشود المنفلتة من الهنود والخلاسيين والزنوج الذين سيطروا على المدينة. هل سيحدث شيء مماثل الآن؟ هل ستدخل جموع الجائعين لنهب بيوت أحياء سان إيسيدرو، وكاسواريناس، وميرافلوريس، وتشاكارياس، بينما آخر بقايا الجيش تتفكك أمام الهجوم الأخير للمتمردين؟ أيكون هناك هروب إلى السفارات والقنصليات بينما الجنرالات والأميرالات والموظفون والوزراء يتعلقون بالطائرات والسفن ومعهم كل المجوهرات والدولارات والأوسمة التي ينبشون عنها ويُخرجونها بتعجل من مخابئها؟ وهل ستحترق ليما مثلما تحترق في هذه اللحظات مدينة الشموس الأربع؟

وأقول لها:

ـــ يبدو أنك أنتِ أيضاً لم تغفري له ذلك؟

وتوافق آديلايدا:

ـــ أتذكر الأمر فيتجمد دمي.

أهي تعني تلك المرة؟ تلك الليلة، أو بكلمة أدق، في ذلك الفجر. حين سمعتْ صوت مكابح سيارة تتوقف، صوت انزلاق عجلات مقابل البيت، ولأنها كانت تعيش في خوف من الشرطة، فقد قفزت من السرير لترصد ما يجري. ورأت السيارة من خلال النافذة: في ضوء الفجر المائل إلى الزرقة كان شبح مايتا الذي بلا وجه ينزل من السيارة، ونزل السائق من الباب الآخر. وكانت سترجع إلى السرير عندما أثار قلقها شيء ـــ شيء غريب، فريد، يصعب شرحه وتحديده ـــ. أبقت وجهها ملتصقاً بالزجاج. لأن الآخر قام بحركة لوداع مايتا لم تبدُ لها طبيعية في حالة زوجها، فمثل تلك الألاعيب يمكن أن تحدث بين أناس يحبون المزاح واللهو، أو بين سكارى. ولكن مايتا لم يكن من النوع اللاهي ولا منفتحاً على المزاح. كيف إذن؟ فقد كان الرجل قد أمسكه، على سبيل الوداع، من مقدمة سرواله. وكان ما يزال يمسك به عندما دنا مايتا منه بدل أن يزيح له يده ـــ أبعد يدك أيها السكير! أفلت أيها المخمور! ـــ وراح يعانقه. وأخذا يتبادلان القبلات. في الوجه، في الفم. «أيكون الشخص الآخر امرأة»، رغبتْ، فكرتْ، توسلتْ أن يكون كذلك وهي تشعر بيديها وساقيها ترتجفان. امرأة ببنطال وسترة؟ البريق الضبابي لم يكن يسمح لها أن ترى بوضوح مع من يتبادل زوجها القبلات ويحك جسده في ذلك الزقاق المقفر، ولكن لم يكن ثمة مجال للشك في أنه رجل ـــ بسبب ضخامة جسده، وهيئته، ورأسه، وشعره ـــ. أحست بدافع يدفعها إلى

الخروج، وهي شبه عارية مثلما كانت، لتصرخ بهما: «مخنثان، شاذان». ولكن بعد ثوان من ذلك، عندما انفصل الرجلان وتقدم مايتا باتجاه البيت، تظاهرت بالنوم. وفي الظلمة، بينما هي تموت خجلاً، راقبته خفية وهو يدخل. كان تتضرع بأن يكون في حالة من السكر يمكنه أن يقول معها: «لا أدري ما الذي كنت أفعله ولا مع من كنت» ولكنه لم يكن قد شرب بالطبع، وهل تراه كان يشرب؟ رأته يخلع ملابسه في الظلام، ويبقى بسرواله الداخلي الذي كان بيجامته، وينزلق إلى جانبها باحتراس، لكي لا يوقظها. وعندئذ داهم آديلايدا الغثيان.

ــ لستُ أدري لكم من الوقت ــ رد مايتا وكأن السؤال قد فاجأه

ــ. هذا يعتمد على الحالة التي ستسير عليها أموري. أريد أن أبدل حياتي. بل إنني لا أدري إذا ما كنت سأرجع إلى البيرو.

وسألته آديلايدا متفاجئة:

ــ وهل ستتخلى عن السياسة؟

فقال:

ــ نوعاً ما. سأذهب لسببٍ كنتِ تلاحقينني به على الدوام. لقد وجدتُ أخيراً أنك كنتِ على حق.

فقالت:

ــ من المؤسف أن يأتي ذلك متأخراً.

ــ أن تصل متأخراً خيراً من ألا تصل أبداً ــ ابتسم مايتا. كان يشعر بالعطش، وكأنه قد أكل سمكاً. ما الذي ينتظره ليذهب؟

أبدت آديلايدا تعبير الاستياء ذاك الذي يتذكره وظهرت الطائرات غير المتوقعة تماماً في السماء فلم تتمكن الحشود من فهم ما يحدث إلى أن انفجرت

القنابل الأولى المدوية والكارثية. فبدأت تنهار أسقف، وجدران، وأبراج أجراس كوسكو، وتتطاير الأنقاض، والأحجار، والطوب، وتخرق الناس الذين يتراكضون ويطئون بعضهم بعضاً مسببين فيما بينهم إصابات لا تقل عن تلك التي تسببها رشاشات الطائرات المنخفضة. في أزيز الأمس، رصاص وهدير، كان من يملكون بنادق يطلقون النار باتجاه السماء المتسخة بالدخان.

أقولُ لها مؤكداً:

ـــ لقد كنتِ الشخص الوحيد الذي ودعه مايتا. فهو لم يودع حتى خالته خوسيفا. ألم تبد لك الزيارة غريبة، بعد كل تلك السنوات؟

وترد آديلايدا:

ـــ قال لي أنه سيسافر إلى الخارج، وأنه يريد أن يعرف شيئاً عن ابنه. ولكنني فهمت كل شيء بالطبع فيما بعد، من الصحف.

هناك في الخارج هياج مفاجئ عند بوابة قصر روسبيغليوسي، يبدو كأنهم يعززون الحراسة فيما وراء الأسلاك وأكياس الرمل. وهناك بعيداً، لم يستطع حتى رعب القصف أن يلغي التجاوزات: فشراذم الهاربين من مفوضيات الشرطة ومن السجن الهائجة تسلب وتنهب متاجر مركز المدينة. وقادة المتمردين يأمرون بإعدام من يُضبط متلبساً بالسلب برميه بالرصاص في عين المكان. وطيور الرحمة ترسم دوائر فيما حول جثث المقتولين رمياً بالرصاص الذين لا يعود بالإمكان تمييزهم بعد قليل عن ضحايا القصف. تنتشر رائحة بارود وجيف وشواط.

ـــ انتهزْ الفرصة إذن لكي يعالجوك ـــ همست آديلايدا بصوت خافت لم أكد أسمعه. ولكن كان لكلماتها عليّ تأثير ضربة سوط.

وتلعثم مايتا:

ـــ لستُ مريضاً. حدثيني عن الصغير قبل أن أذهب.

فألحت آديلايدا وهي تبحث عن عينيه:

ـــ بل أنت مريض. وهل تراك شفيت؟

وتلعثمت:

ـــ ليس هذا مرضا يا آديلايدا. ـــ وكنت أشعر بيدي مبللتين وبمزيد من العطش.

ـــ بل هو مرض في حالتك ـــ قالت هي، وفكر مايتا وقد انبعثت إلى حد ما كل ضغينة ذلك الزمن: إنه ذنبك. ما الذي تفعله هنا، لماذا لا تنصرف. وأضافت هي: ـــ إنه انحلال عند آخرين، أما أنت فلست فاسدا. أنا أعرف ذلك، لقد استشرت الطبيب. وقال إنه يمكنك الشفاء وأنت لم توافق على العلاج بالصدمات الكهربائية. عرضت عليك الحصول على قرض من المصرف من أجل العلاج وأنت لا ولا ولا. والآن بعد أن مضت السنون، قل لي الحقيقة: لماذا لم توافق؟ هل بسبب الخوف؟

ودمدم:

ـــ الصدمات الكهربائية لا تنفع في هذه الحالات. فلنترك الحديث في هذا الأمر. من الأفضل أن تقدمي لي كأس ماء.

ألا يمكن أن يكون زواجه منك هو «العلاج» يا سيدتي؟ ألا يكون قد تزوج منها مفكرا بأن معاشرة امرأة شابة وجذابة قد «يشفيه»؟

ـــ هذا ما حاول أن يقنعني به عندما تحدثنا في الأمر أخيرا ـــ دمدمت آديلايدا وهي تبعد بيدها خصلة الشعر ـــ. إنها كذبة بالطبع. لو أنه أراد أن يشفى لبذل جهدا. لقد تزوج من أجل التغطية. وخصوصا أمام أصدقائه الثوريين. وقد كنت أنا الستارة التي تخفي قذاراته.

وأقول لها:

ـــ لا تجيبي على هذا السؤال إذا شئت: هل كانت الحياة الجنسية بينكما طبيعية؟

لم يبد عليها الانزعاج. بما أن هناك موتى كثيرين و لم يكن من الممكن دفنهم، فقد أمر قادة المتمردين برشهم بأي مادة قابلة للاشتعال وإضرام النار فيهم. يجب الحيلولة دون أن تنشر البقايا المتعفنة المنتشرة في المدينة الأوبئة. الهواء كثيف وفاسد إلى حد لا يمكن معه التنفس. تقاطع آديلايدا ساقيها، تتخذ وضعا مريحا، تتفحصني؛ وفي الخارج ينفجر ضجيج مفاجئ: لقد أتت دبابة صغيرة لتقف أمام سياج الأسلاك وأصبح عدد الحراس أكبر. لا بد أن الأمور قد ساءت؛ يمكن القول إنهم يتهيؤون لشيء ما. وهمست آديلايدا وكأنها قد قرأت أفكاري: «إذا ما هاجموهم، فسنكون نحن أول من سيتلقى الرصاص». فرقعة الحرائق حيث تشتعل الجثث لا تسكت أصوات الأقارب والأصدقاء الغاضبين وفاقدي الصواب الذين يحاولون منع الحرق، مطالبين بدفن الضحايا وفق الطقوس المسيحية. ووسط الدخان، والنتانة، والهلع، والحزن، يحاول البعض اختطاف الجثث من الثوريين. ويخرج موكب من جمعية دينية، أو من كنيسة أو دير. يتقدم، شبحيا، وهو يرتل صلوات وأدعية، وسط الموت والدمار الذي صارت إليه مدينة كوسكو.

ـــ لم أكن أعرف ما الذي تعنيه علاقات طبيعية وغير طبيعية ـــ تدمدم وهي تبعد الشعر بحركتها الطقوسية ـــ لم أكن قادرة على المقارنة. ففي ذلك الزمن لم تكن إحدانا تتحدث في هذه الأمور مع صديقاتها. ولهذا ظننت أنها علاقات طبيعية.

ولكنها لم تكن كذلك. لقد كانا يعيشان معا، وبين حين وآخر يمارسان الحب. وهذا يعني أنهما في بعض الليالي كانا يتبادلان المداعبات، والقبلات، وينتهيان سريعا وينامان. شيء سطحي، روتيني، صحي، وهو شيء ـــ مثلما أدركت فيما بعد ـــ ناقص، أدنى من حاجاتهما ورغباتهما. ليست المسألة في

أنه لم تكن تروقها مظاهر حرج مايتا، مثل إطفائه النور مسبقا على الـــدوام. ولكنها كانت تحس بأنه مستعجل، قلق، وتفكيره في مكان آخر بينمـــا هـــو يداعبها. هل كان في مكان آخر؟ أجل: كان يتساءل في أي لحظـــة بـــدأت تتراجع هذه الرغبة التي أيقظت جنسه بقوة التخيل والذكريـــات وتنحـــرف، وتغرق في بئر القلق الذي كان يحاول الخروج منه متلعثما ببعض التفســـيرات التي كان يبدو على آديلايدا، لحسن الحظ، أنها تصدقها. لقد كان تفكيره يتجه إلى ليال وأصباح أخرى، حيث لم تكن رغبته تتضاءل بل تشتد وكانت يـــده وفمه يجتهدان، ليس مع آديلايدا، وإنما مع واحد من أولئك المخنثـــين الذيـــن كان يتجرأ، بتردد كبير، على الذهاب للبحث عنهم أحيانا إلى حانة بوربينـــير أو كايياو. الحقيقة أنهما كانا يمارسان الحب مرة من كل مرتـــين أو ثـــلاث مرات، ولكن آديلايدا لم تكن تعرف كيف تطلب منه ألا ينتهي بسرعة. وفيما بعد، عندما أحست بثقة أكبر، تجرأت على طلب ذلك. تجرأت على الطلـــب منه، على التوسل إليه بألا يبتعد عنها منهوكا في اللحظـــة الـــتي تبـــدأ هـــي الإحساس فيها بالدغدغة، بالدوار. و لم يكن ذلك يحدث في معظم الأحيـــان، لأن مايتا كان يبدو فجأة وكأنه يشعر بالندم. وكانت هي شديدة البلاهة حتى تلك الليلة تعذب نفسها بالسؤال: أأكون أنا المذنبة؟ هل أنا باردة؟ ألا أعـــرف كيف أستثيره؟

وقال مايتا:

ــ قدمي لي كأسا أخرى من الماء. فأنا سأنصرف الآن يا آديلايدا.

نهضت هي، وحين عادت إلى الصالة كانت تحمل معها كذلك حفنـــة من الصور. قدمتها إليه دون أن تنطق بكلمة واحدة. صورة الطفل حديـــث الولادة؛ وحين كان عمره بضعة شهور، بالأقمطة، يحمله خوان ثاراتيه بـــين

ذراعيه؛ في حفلة عيد ميلاد وإلى جانبه كعكة عليها شمعتان صغيرتان؛ وبسروال قصير وحذاء وهو ينظر إلى المصور بوضعية التأهب. تفحصتُ الصور مرة بعد أخرى، وكان يتفحص نفسه في الوقت ذاته الذي يدقق النظر فيه بملامح، وأوضاع،وحركات، وملابس هذا الابن الذي لم يره مطلقاً ولن يراه أيضاً في المستقبل: هل سيتذكر هذه الصور غداً، في خاوخا؟ هل سأتذكرها، وهل سترافقني، وتمنحني الحماسة في المسيرات عبر الجبال والأدغال، وفي الهجمات والكمائن؟ ما الذي أحس به عندما رآها؟ هل سيشعر عندما يتذكرها بأن النضال، والتضحيات، والموت هي من أجله، وله؟ والآن بالذات، أتراه يشعر بالحنان، بالندم، بالغم، بالحب؟ لا: إنه لا يشعر إلا بالفضول وبالامتنان تجاه آديلايدا لأنها أرته الصور. أهذا هو السبب الذي دفعه للمجيء إلى هذا البيت قبل أن يغادر إلى خاوخا؟ أم أنه كان يريد، أكثر من التعرف على ابنه،أن يتقصى إذا ما كانت آديلايدا مازالت تشعر نحوه بالحقد نفسه لأنه كان دون شك الشوكة التي في حياتها؟

وقالت آديلايدا:

ـ لست أدري. وإذا كان قد جاء من أجل ذلك، فقد انصرف وهو يعرف أنني، على الرغم من مرور السنوات، لم أغفر له أنه دمر حياتي.

ـ ولكنكِ على الرغم مما عرفتِه عنه، واصلتِ العيش معه لوقت لا بأس به. وإلى أن حبلتِ.

فدمدمت:

ـ إنها العطالة. وكان الحَبَل هو الذي منحني القوة لوضع حد للمهزلة.

كانت ترتاب بذلك منذ أسابيع،لأن الحيض لم يتأخر عندها هكذا من قبل. ويوم قدموا إليها نتيجة التحليل انفجرت بالبكاء متأثرة. ثم هيمنت عليها

على الفور فكرة أن ابنها أو ابنتها سيعرف عاجلاً أو آجلاً ما تعرفــــه هــــي. وكانا في الأسابيع الأخيرة تحديداً قد تجادلا عــــدة مــرات حــول العــلاج بالصدمات الكهربائية. وقد قال لها بصوت خافت وهو ينظر إليها:

ــ لم يكن السبب هو الخوف. وإنما لأنني لا أريد أن أشفى يا آديلايدا.

أي أنكما في ذلك اللقاء الأخير تطرقتما إلى الموضوع يا سيدتي.أجــل، وقد بدا مايتا أكثر صراحة مما كان عليه وهما يعيشــان معــاً. الموكــب راح يتعاظم بانضمام أناس إليه من الشوارع التي يجتازها، رجال ونساء مســرنمون بالرعب، أطفال ومسنون مذهولون على آبائهم، أبنائهم، اخوتهم، أحفــادهم الممزقين بالشظايا أو المسحوقين تحت الانهيــارات والمتفحمــين في المحــارق الوقائية.الموكب الأفعواني المنتحب والمرتل، المتزاحم في أزقة كوسكو المدمــرة، بدا وكأنه يعزي، يصالح، من بقوا على قيد الحياة. وفجأة، على مقربة مما كان فيما مضى ساحة الملك، اصطدم الموكب وجهاً لوجه مع مظــاهرة حازمــة لنشطاء ومقاتلين يحملون البنادق والرايات الحمراء محاولين رفــع معنويــات الشعب والحيلولة دون انتشار وهن العزيمة وضعف المعنويات. وتساقط وابــل من الصرخات، والأحجار، والرصاص وعويل الذعر.

قال لها مايتا وكأنه قد وجد الجملة الجاهزة:

ــ لو لم يكن ذلك مخالفاً لمبادئك، لطلبت منك الإجهاض. الأســباب أكثر من كافية. فالحياة التي أعيشها، التي نعيشها... هل يمكن تربية طفــل في هذا النوع من الحياة؟ ما أفعله يتطلب تفرغاً كاملاً. لا يمكن لأحدنا أن يربــط حزمة بعنقه. هذا إذا لم يكن الأمر مخالفاً لمبادئك، أما إذا كان كذلك، فسوف نتحمله.

لم تبك و لم يتجادلا.«لست أدري، سأرى، سوف أفكر بــالأمر.» وفي تلك اللحظة عرفتْ ما يتوجب عليها عمله، بمنتهى الوضوح ومنتهى الحسم.

ـ لقد كنت تكذب علي إذن ـ ابتسمت آديلايدا بإحساس بـالظفر ـ. عندما كنت تقول لي إن ذلك يسبب لك الخجل، ويجعلك تشعر بـأنك قمامة، وإنه نكبة حياتك. يسعدني أنك تعترف بحقيقتك أخيرا.

ـ إن ذلك يخجلني، ويجعلني أشعر أحيانا بأنني قمامة ـ قال مايتـا. كان خداي يتوقدان وأشعر بلساني ثقيلا، ولكنني لم أندم علـى التحـدث في الأمر:ـ وما زال نكبة في حياتي.

فكررت آديلايدا:

ـ لماذا لا تريد العلاج إذن؟

فتلعثمت:

ـ أريد أن أكون ما أنا عليه. إنني ثوري، لي قدمان مسطحتان. وأنـا مخنث كذلك. ولا أريد أن أتخلى عن كوني كذلك. من الصعب أن أشرح لك الأمر. ففي هذا المجتمع هناك مجموعة من القواعد، مجموعـة مـن الأحكـام المسبقة، وكل من لا يقيد نفسه بها يبدو غير طبيعي، ويعتبر تصرفه جريمـة أو مرضا. ولكن المجتمع متعفن، يغص بالأفكار الحمقاء. ولهذا لا بد من ثورة، ألا ترين ذلك؟

وتقول لي آديلايدا:

ـ ومع ذلك، فقد قال لي هو نفسه إنه لو كان في الاتحاد السـوفييتي لكانوا أدخلوه إلى مشفى للمجانين، أو لكانوا أعدموه رميـا بالرصـاص في الصين، فهذا ما فعلوه بالمخنثين. أمن أجل هذا تريد صنع الثورة؟

الاشتباك، وسط غبار الأنقاض، ودخان إحراق الجثـث، وصلـوات المؤمنين، وأنين الجرحى، ويأس المنكوبين السالمين، لم يكد يستمر سوى ثـوان، إذ تعالى فجأة هدير المحركات من جديد. وقبل أن يتاح لوقت لمـن كـانوا

يتبادلون تراشق الأحجار والضرب والشتائم لفهم ما يجري، تساقط المزيد من القنابل وصليات الرشاشات فوق كوسكو.

ــ من أجل هذا أريد صنع ثورة أخرى. ــ همس مايتا وهو يمر بلسانه على شفتيه الجافتين: إنه يموت ظمأ ولكنه لا يجرؤ على طلب كأس ماء ثالثة ــ. ليس نصف ثورة، وإنما ثورة حقيقية، شاملة. ثورة تقضي على كل المظالم، ولا يشعر فيها أحد، لأي سبب من الأسباب، بالخجل لكونه ما هو عليه.

ضحكت آديلايدا:

ــ وهذه الثورة ستصنعها أنت مع أصدقائك في ح ع ث؟

فابتسم لها مايتا:

ــ سيكون علي أن أصنعها بمفردي. فأنا لم أعد في ح ع ث. لقد استقلت في الليلة الماضية.

استيقظت في صباح اليوم التالي وكانت الفكرة قد اكتملت في رأسها خلال النوم. داعبتها، قلبتها، وأعادت تقليبها بينما هي ترتدي ملابسها، وفي أثناء انتظارها الامنبوس، وبينما هي تمشي مهتزة باتجاه مصرف الاعتماد في لينثي، وبينما هي تضبط حسابات الصندوق على مكتبها القزم. وعند الضحى، طلبت إذنا للذهاب إلى البريد. وكان خوان ثاراتيه ما يزال هناك، وراء الزجاج المحزز. تدبرت الأمر لكي يراها، وعندما حياها ردت على تحيته بابتسامة بالألوان. وبالطبع، نزع خوان ثاراتيه نظارته، ورتب وضع ربطة عنقه وخرج راكضا ليصافحها. الفوضى شاملة: هناك مزيد من الموتى في الشوارع التي تحولت إلى أنقاض، وهناك بيوت أخرى تتهدم، والبيوت التي ماتزال منتصبة تتعرض للسلب. وبين من يتأوهون أو يبكون أو يسرقون أو يحتضرون

أو يبحثون عن موتاهم، هناك قلة فقط كانوا يسمعون الأوامر التي تصدرها على النواصي دوريات المتمردين:«الشعار هو مغادرة المدينة يا رفاق، مغادرة المدينة، مغادرة المدينة.»

وتقول آديلايدا وهي تتأمل صورة شهر عسلها:

ــ يذهلني أنني تجرأت على ذلك.

هذا يعني أنه في ذلك اللقاء الأخير، في هذه الصالة الصغيرة، تحدث مايتا مع من كانت زوجته عن أشياء حميمة ومثالية: الثورة الحقيقية، الشاملة، التي ستقضي على كل أشكال الجور دون أن تتسبب في ظهور أشكال أخرى جديدة. أي أنه على الرغم من العراقيل والمعوقات التي واجهته في الساعات الأخيرة، كان يشعر، مثلما أكد لي بلاكير، بالغبطة.. بل وبالغنائية:

ــ عسى أن تضيء ثورتنا الطريق لثورات أخرى. أجل يا آديلايدا، عسى أن تكون بلادنا البيرو مثالاً يحتذي به العالم.

ــ الصراحة هي أفضل شيء وهكذا سأكلمك ــ لم يكن بإمكان آديلايدا أن تصدق أن تلك الثقة وتلك الجرأة هي منها، وأنها في الوقت الذي كانت تقول فيه هذا الكلام، كانت قادرة على الابتسام، وعلى الاستعراض وهز شعرها بطريقة جعلت مسؤول البريد في لينشي ينظر إليها بافتتان ــ. أنتَ كنتَ تسعى بجنون للزواج مني، أليس هذا صحيحاً يا خوان؟

فاقترب خوان ثاراتيه فوق الطاولة في مقهى"بيتيت ثيوارز" حيث كانا يتناولان شراباً مرطباً:

ــ أنتِ قلتِ ذلك يا آديلايدا. إنني مجنون بك وأكثر من مجنون.

ــ انظر إليّ جيداً يا خوان وأجبني بصراحة.هل ما زلتُ أعجبك مثلما كنت قبل سنوات؟

ابتلع مسؤول بريد لينشي لعابه:

ـــ بل تعجبيني أكثر. إنك الآن أجمل يا آديلايديتا!

ـــ إذا أنت أردت إذن، فيمكنك الزواج مني ـــ صوتها الذي لم يكن قد خانها من قبل لن يخونها الآن ـــ. لا أريد أن أخدعك يا خوان. فأنا لست مغرمة بك. ولكنني سأحاول أن أحبك، وأن أقولب نفسي وفق رغبتك، وسأحترمك وأفعل كل ما يمكنني عمله لأكون زوجة صالحة.

كان خوان ثاراتيه ينظر إليها وهو يرمش؛ وبدأ كأس المرطب الذي في يده يرتعش. وقال أخيرا:

ـــ هل تتكلمين بجد يا آديلايدا؟

و لم تتردد الآن أيضا:

ـــ إنني أتكلم بجد. ولكنني أطلب منك شيئا واحدا فقط. أن تمنح اسمك إلى الابن الذي سأنجبه.

ـــ أعطني كأسا أخرى من الماء ـــ قال ذلك مايتا ـــ. هذا العطش لا يفارقني، لست أدري ما الذي أصابني.

ـــ ما أصابك هو أنك ألقيت خطابا ـــ قالت له وهي تنهض. ثم واصلت القول من المطبخ:ـــ لم تتغير أبدا. بل يمكن القول إنك أسوأ مما كنت عليه. فأنت الآن لا تريد أن تصنع ثورة للفقراء فقط، وإنما للمخنثين أيضا. أقسم لك أنك تجعلني أضحك يا مايتا.

وفكر: «ثورة للمخنثين أيضا. أجل، ثورة للمخنثين البائسين.» لم يشعر بأدنى قد من الاستياء للقهقهة التي أطلقتها آديلايدا: ما بين الدخان والنتانة، تلمح أرتال الناس الهاربين من المدينة المدمرة، متعثرين بالأنقاض، مغلقين أفواههم وأنوفهم. لقد بقي بين الأنقاض القتلى والجرحى والمسنون والصغار جدا. والنهابون الذين يتحدون الاختناق والنار والقنابل المنثورة، ويدخلون إلى البيوت التي ما تزال منتصبة بحثا عن أموال وطعام.

وأقول لها:

ـــ وقد وافق. لا بد أن دون خوان ثاراتيه كان يحبك كثيرا يا سيدتي.

ـــ تزوجنا في الكنيسة، ريثما يتم طلاقي من مايتا ـــ تنهدت آديلايدا وهي تنظر إلى صورة كانيتي، وأضافت:ـــ تأخرت معاملة الطلاق سنتين. ثم سجلنا عقد زواجنا بعد ذلك على الطريقة المدنية كذلك.

كيف تعامل مايتا مع هذه القصة؟ دون مفاجأة، وبشيء من الراحة دون شك. كان يتصنع ليقول لها إنه قلق جدا لزواجها بهذه الطريقة، دون حساب المشاعر.

ـــ ألم يكن هذا هو ما فعلته أنت بي؟ مع الاختلاف. فأنت قد خدعتني، أما أنا فقلت لخوان كل شيء.

ـــ ولكن حساباتك كانت خاطئة. ـــ قال لها مايتا. وكان قد انتهى من تناول كأس الماء وبدأ يحس بالانتفاخ ـــ. أتتذكرين بأني حذرتك؟ لقد نبهتك منذ البداية بأنه...

فقاطعته آديلايدا:

ـــ لا تحاول إلقاء خطبة أخرى.

بقيت صامتة، تدق على ذراع المقعد، وأستطيع أن أقرأ في وجهها بأنها تقدر إذا ما كانت الساعة قد انقضت. ولكنني أنظر إلى ساعة معصمي وأرى أنه ما زال هناك خمسة عشر دقيقة. وفي هذه الأثناء، يسمع صوت إطلاق نار. طلقة معزولة، ثم اثنتان أخريان، ورشة. وبحركة واحدة نتطلع أنا وآديلايدا من خلال النافذة: لقد اختفى الحراس، لا بد أنهم ينحنون متوارين وراء الأسلاك وأكياس الرمل. ولكن هناك في الجهة اليسرى دورية من جنودِ سلاح الطيران تتقدم باتجاه قصر روسبغليوسي دون أن تبدي قلقا. صحيح أن الطلقات النارية

دوت في مكان بعيد. أهي عمليات إعدام في الأحياء الهامشية؟ هل بدأت المعارك في محيط ليما؟

ــ وهل نفع ذلك حقا؟ ــ أعود إلى حديثنا. فترفع هي بصرها عن النافذة وتنظر إلي: ملامح الذعر التي بدت عليها عندما سمعت إطلاق النار، تلاها مرة أخرى ذلك الوجه الفظ الذي يبدو أنه وجهها المألوف، فأقول:ــ أعني مسألة الطفل.

ــ بقي نافعا إلى أن عرف أن خوان ليس أباه ــ تقول ذلك. وتبقى شفتاها مفتوحتين، وتبدأ عيناها اللتان تنظران إلي بثبات بالتألق.

فأقول معتذرا:

ــ حسن، هذا أمر لا يدخل في القصة، لا حاجة لأن نتحدث عن الابن. من الأفضل أن نرجع إلى مايتا.

ــ لن ألقي أي خطبة أخرى ــ طمأنها. وشرب آخر رشفة في الكأس: وماذا إذا كان كل هذا العطش يعني أنك مصاب بالحمى يا مايتا؟ ثم أضاف:ــ سأكون صريحا معك يا آديلايدا. كنت أريد أن أعرف شيئا عن ابني قبل أن أغادر، ولكنني كنت أريد أن أعرف أخبارك أيضا. لم يسعدني المجيء. كنت أنتظر أن أجدك سعيدة، مطمئنة. ولكنني أجدك ممتلئة بالأحقاد ضدي وضد العالم بأسره.

ــ إذا كان هذا يعزيك فإنني أشعر نحوك بحقد أقل مما أشعر به نحو نفسي بالذات. لأنني أنا السبب في كل ما جرى لي في الحياة.

في البعيد، تدوي أصوات الرصاص من جديد. ومن الأفجاج، من السفوح، من القمم ومن النجود المحيطة، تبدو كوسكو دخانا وتأوهات.

وهمس هي بطريقة منفصلة:

ـــ لم يكن خوان هو الذي أخبره وإنما أنا. وخوان لن يغفر لي ذلــــك أبدا. لقد أحب خوانثيتو دوما كما لو كان ابنه.

وتروي لي القصة القديمة التي لا بد أنها تقرض أيامها ولياليــــها، قصــة يختلط فيها الدين بالغيرة بالإحباط. فخوانثيتو فضل منذ طفولته أباه المســـتعار على أمه، وكان يلتصق به أكثر مما يميل إليها ربما لأنه كان يشم بطريقة غامضة أن هناك كذبة كبيرة في حياته بسبب آديلايدا.

ـــ هل هذا يعني أن زوجك يأخذه إلى القداس كل يوم أحد؟ ـــ فكـــر مايتا بصوت عال. وأعادت إلي الذاكرة، في دوامة متزاحمة، صلوات وترتيلات ومناولات واعترافات الطفولة، مجموعات من الصور الملونة التي كان يخبئـــها كأشياء ثمينة في دفتر الواجبات ـــ. حسن، ففي هذا الأمر على الأقـــل لديـــه شيء مشترك معي. فعندما كنت في مثل سنه، كنت أواظب علـــى الصـــلاة يوميا.

وقالت آديلايدا:

ـــ خوان كاثوليكي. وهو يقول مازحا إنه كاثوليكي رسولي رومـــاني وورع. ولكنها الحقيقة الخالصة. وهو يريد أن يكون خوانثيتو هكذا بالطبع.

ـــ بالطبع ـــ وافق مايتا. ولكنه كان يفكر، بالتداعي، في فتية مدرســة سان خوسيه في خاوخا الذين استمعوا باهتمام، وهم شبه مذهولين، إلى كـــل ما قاله لهم عن الماركسية والثورة. تخيلهم: يطبعون بواسطة آلة طباعة بدائيـــة مخبأة تحت جلود وصناديق، البلاغات التي ترسلها إليهم القيـــادة، ويوزعـــون منشورات عند مداخل المصانع، والمدارس، وفي الأسواق، وفي دور الســـينما. رآهم في مخيلته يتكاثرون مثل خبز الإنجيل، ويجندون كل يوم عشرات الفتيـــان البائسين والمتفانين مثلهم، يذهبون ويجيئون على دروب خطرة وقمم جليديـــة

متجمدة في سلسلة الجبال، متجنبين حواجز الجيش ودورياتـــه، متســـللين في الليالي مثل القطط إلى أسطح المباني العامة وإلى ذرى الجبال لغرس رايات حمراء مرسوم عليها المنجل والمطرقة، ورآهم يأتون متعرقين، بـــاسمين، مـــهيبين، إلى معسكرات الأنصار النائية وهم يحملون الأدوية والمعلومات، الملابس والمـــؤن التي تحتاجها حرب العصابات. وتخيل ابنه واحدا منهم. إنهم فتيـــة في الرابعـــة عشرة، في الخامسة عشرة، في السادسة عشرة من عمرهم. وبفضلهم يمكـــن لقوات حرب العصابات أن تكون واثقة من الانتصار. وفكر: « واثقـــة مـــن اقتحام السماء». سننـــزل الفردوس من السماء، ونقيمه على الأرض فتختلـط السماء بالأرض في هذه الساعة الشفقية؛ سحب رماد الأعالي تلتقي بســـحب الرماد التي تطلقها الحرائق. وما هذه البقع السوداء الطيارة، الكثيرة، التي تـــأتي من الجهات الأربع نحو كوسكو؟ إنها ليست رمادا وإنما هي طيور جارحـــة، نهمة، جائعة، يوخزها الجوع، فتتحدى الدخان واللهيب، وتنحدر منقضة على جثث الطرائد المشتهاة. ومن الأعالي يمكن للناجين، للأقـــارب، للجرحـــى، للمقاتلين، للأميين، بأدنى حد من المخيلة، أن يسمعوا الانهماك في الطحـــن، ووقع المناقير المحمومة، وخفق الأجنحة الخسيسة، وأن يشموا رائحـــة النتانـــة المرعبة.

ــ أيعني هذا أنه...؟ ــ أشجعها على مواصلة الكلام. لقد صار إطلاق النار يسمع الآن في كل لحظة، يسمع بعيدا، ولكنني لم أعد أنا ولا آديلايدا إلى النظر إلى الشارع.

ــ هذا يعني أن الموضوع لم يكن يطرق أبدا أمام خوانثيتـــو ــ تقـــول مواصلة كلامها. وأستمع إليها وأنا أحاول جاهدا أن أهتم بقصتها، ولكنـــني أواصل رؤية المجزرة وشمها.

لقد كانت مسألة من المحرمات، تحتّ مثل حمض بطيء في أعماق علاقتهما الزوجية. كان خوان ثاراتيه يحب الفتى، ولكنه لم يغفر لها ذلك الاتفاق، ذلك الثمن الذي جعلته يدفعه مقابل أن تكون زوجة له. وقد اتخذت القصة أبعاداً غير متوقعة يوم اكتشف خوانثيتو ـــ وكان قد أنهى المدرسة الثانوية ودخل إلى الصيدلية ـــ أن لأبيه عشيقة. دون خوان ثاراتيه لديه عشيقة؟ أجل، وقد فتح لها بيتاً منفصلاً. ولم تشعر آديلايدا بالغيرة، وإنما بالتجمد حين فكرت أنه يمكن أن تكون هناك عشيقة لذلك العجوز الذي يجر قدميه، وذي البصر التالف. كان الأمر يسبب لها الموت ضحكاً. فالمرأة تشعر بالغيرة عندما تشاء وهي لم تحب خوان ثاراتيه مطلقاً، بل إنها كانت تتحمله بصبر. وما أغضبها فقط هو أنه كان يستطيع فتح بيتين بذلك الراتب الزهيد الذي يتقاضاه...

ـــ ولكن الأمر بالمقابل استثار غضب ابني، جننه ـــ تضيف وهي في حالة من التنويم المغناطيسي ـــ. وبدأ يتمرمر، يتآكل. فوجود عشيقة لدى أبيه بدا له نهاية العالم. أيكون ذلك بسبب تربيته الورعة؟ كان يمكن لي أن أفهم ردة الفعل تلك لدى طفل صغير. ولكن كيف يمكن فهمها لدى شاب في العشرين من عمره، يعرف أمور الدنيا؟

فأقول لها:

ـــ لقد كان الفتى يتألم من أجلك.

وتصر آديلايدا:

ـــ بل بسبب الدين. لقد رباه خوان تلك التربية، جعله متديناً ورعاً. لقد أصابه الجنون. فهو لم يكن يتقبل من أبيه الذي علمه كيف يكون كاثوليكياً كاملاً أن يتحول إلى منافق. لقد كان يقول هذه الأشياء وكان عمره عشرين سنة.

صمتتْ لأن إطلاق النار سُمع هذه المرة أقرب. نظرتُ من النافذة: يجب ألا يكون الأمر مثيراً للذعر لأن الحراس يبدون مطمئنين، من فوق سياج الأسلاك. إنهم ينظرون باتجاه الجنوب، وكأن تبادل إطلاق النار يأتي من جهة سان إيسيدرو أو ميرافلوريس.

أقول لها:

ـــ ربما يكون قد ورث ذلك عن مايتا. فقد كان هكذا في صغره: مؤمن بصرامة، مقتنع بأنه عليه التصرف باستقامة في كل حين. لم يكن يتقبل التسويات. و لم يكن هناك ما يغضبه أكثر من شخص يؤمن بشيء ويمارس خلافه. ألم يحدثك عن إضرابه عن الطعام من أجل أن يتماثل مع الفقراء؟ الناس الذين على هذه الشاكلة لا يكونون سعداء في الحياة يا سيدتي.

فتدمدم آديلايدا بوجه ممتقع:

ـــ لقد رأيت ابني يتعذب كثيراً فخطر لي أن أساعده بإخباره بالحقيقة. وأنا أيضاً أُصبت بالجنون، أليس كذلك؟

ـــ أجل، سأذهب، ولكنني أطلب منك خدمة أخيرة ـــ قال لها مايتا ذلك، وما كاد ينهض حتى ندم لأنه لم يغادر من قبل ـــ. لا تخبري أحداً بأنكِ قد رأيتني. مهما كان السبب.

لم تكن تقتنع أبداً بتلك الأسرار، والاحتياطات، والشكوك، والمخاوف، لم تكن قادرة على أخذها على محمل الجد على الإطلاق، بالرغم من أنها حين كانت تعيش معه، رأت الشرطة في مرات كثيرة تأتي إلى البيت. لقد كانت تشعر دوماً بأنها لعبة شيوخ يتظاهرون بأنهم أطفال، وأنها إحساس بالاضطهاد يسمم الحياة. كيف يمكن الاستمتاع بالحياة في ظل الخوف من مؤامرة كونية ضد المرء يشارك فيها الوشاة، والجيش، والأبرا، والرأسماليون، والستالينيون،

والإمبرياليون، إلى آخره، إلى آخره؟ كلمات مايتا ذكرتها بكابوس التحذيرات التي كانت تسمعها من قبل، لا تكرري قول ذلك، لا تقوليه، يجب عدم معرفته، لا يمكن لأحد...، عدة مرات في اليوم. ولكنها لم تجادل: لا بأس، لن أخبر أحدا. هز مايتا رأسه، وودعها بنصف ابتسامة، وابتعد مسرعا بمشيته تلك، مشية رجل يعاني من دمامل في باطن قدميه.

وتضيف آديلايدا ناظرة إلى الفراغ:

ـــ لم يبك، و لم تجر أي دراما. وجه إلي أسئلة قليلة، وكأنه يفعل ذلك بدافع الفضول فقط. كيف كان مايتا؟ ما سبب طلاقنا؟ ولا شيء غير ذلك. بدا مطمئنا إلى حد أنني فكرت: «لن يكون لإخبارك له بالأمر عواقب كبيرة».

ولكن الفتى اختفى في اليوم التالي. لقد مرت عشر سنوات و لم تعد آديلايدا خلالها إلى رؤيته. ينقطع صوتها وأراها تعتصر يديها وكأنها تريد أن تسلخ جلدهما. وتدمدم:

ـــ أهذا تصرف كاثوليكيين؟ يقطع علاقته بأمه إلى الأبد بسبب ما يمكن اعتباره في أسوأ الحالات مجرد خطأ. أو لم يكن كل ما فعلته من أجله يا ترى؟

لقد بحثا عنه حتى بمساعدة الشرطة، مع أن الفتى كان قد تجاوز سن الرشد. تحزنني رؤية عذابها وأدرك أنها أضافت هذه الحادثة إلى رصيد إهانات مايتا، ولكنني أشعر في الوقت نفسه بأنني أتحلل من عذابها، وبأنني قريب من مايتا، أقتفي أثره في شوارع لينثي وهو يتجه نحو جادة أريكيبا ليركب الحافلة. أكان يمضي متضايقا بسبب جفاء هذه الزيارة لزوجته السابقة وإخفاقه في رؤية ذلك الابن الذي لن يراه مطلقا بكل تأكيد؟ هل كان قانطا ومتألما؟ بل كان منبسطا، مفعما بالنشاط، نافد الصبر، يوزع في ذهنه الساعات المتبقية له في

ليما. لقد كان يعرف كيف يتجاوز المنغصات بقفزة انفعالية، وكيف يستخلص منها قوة لإنجاز المهمة التالية. لقد كان خروجه من خمود الهمة والإشفاق على الذات يتم في السابق بشغل نفسه في عمل بسيط، محدد، يومي، مهني، كأن ينهمك في طلاء الجدران، أو في الذهاب إلى مطبعة كوتشاركاس، أو في توزيع المنشورات في جادة الأرجنتين وفي ساحة الثاني من أيار(مايو)، أو تصحيح تجارب الطباعة، أو ترجمة مقال من الفرنسية لنشرة **صوت العمال**. أما الآن، فإنها الثورة بلحمها وعظمها وكل حروفها، الثورة الواقعية الحقيقية التي ستبدأ بين لحظة وأخرى. وفكر: «التي ستبدؤها أنت». هل سيضيع الوقت في تعذيب نفسه بمشاكل بيتيه؟ فتش جيوبه، وأخرج منها القائمة، وأعاد قراءة الأشياء التي سيشتريها. أتكون تصفية حسابه جاهزة في فرانس برس؟

وتقول آديلايدا وهي تفرك يديها بغضب:

ــ لقد فكرتُ في الأيام الأولى بأنه قد انتحر. وأنه عليّ أن أقتل نفسي أنا أيضاً ثمناً لموته.

لم يعرفا أي شيء عن الفتى خلال أسابيع، شهور، إلى أن تلقى خوان ثاراتيه رسالة منه في أحد الأيام. كانت رسالة هادئة، متروية ومكتوبة برصانة. يشكره فيها على ما فعله من أجله، ويقول له إنه يرجو أن يتمكن من ردّ جميله. ويعتذر لأنه غادر البيت بتلك الطريقة الفظة، ولكن كان من الأفضل لكليهما تجنب الاضطرار إلى تقديم تفسير شاق. يجب ألا يقلق من أجله. أيكون في أعالي المنطقة الجبلية التي بدأت تكنس الليل؟ أهو واحد من الرجال الذين يقفزون، يذهبون، يجيئون ما بين الأحياء ــ والبندقية الرشاشة تتدلى من كتفه والمسدس على خاصرته ــ محاولاً إعادة تنظيم الفوضى؟

وتقول آديلايدا:

ـــ كانت الرسالة مرسلة من بويكايّابا. ولكنه لم يذكرني فيها أبداً.

أجل، لقد كانت تصفية حساباته في مكتب فرانس برس جاهزة، نقــداً وليس شيكاً: إنها ثلاثة وأربعون ألف سول. تضخم قلبه. فقد كان يقدر المبلـغ بخمسة وثلاثين ألف سول في أقصى الحدود. إنه الأمر الطيب الوحيد الـــذي جرى له في الأيام الأخيرة: ثمانية آلاف سول إضافية. سيشتري كل مـــا هـــو وارد في القائمة وسيفيض لديه بعض المال فوق ذلك. لم يودع بالطبع المحرريـن في فرانس برس. وعندما سأله المدير عما إذا كان يســتطيع العمـــل في أيـــام الآحاد، ردّ عليه بأنه ذاهب إلى تشيكلايو. خرج متحمساً، مستعجلاً، باتجـــاه جادة ابانكاي. لم يكن يطيق الخروج للتسوق من قبل أبداً، ولكنه جـــاب في هذه المرة عدة متاجر بحثاً عن أفضل بنطال رعاة بقر كاكي اللـــون، يتحمـــل قسوة المناخ، والأرض الوعرة والعمل النشط. اشترى بنطالين مـــن متجريـــن مختلفين، ثم اشترى حذاء خفيفاً من بائع جوال على الرصيف. وقد قـــدم لـــه البائع مقعده الصغير، فجلس مستنداً إلى جدار المكتبة الوطنية ليجرب الحـــذاء. ودخل إلى صيدلية في جادة لامبا. وكان علـــى وشـــك أن يُخـــرج قائمـــة المشتريات ويقدمها للصيدلي، ولكنه كبح نفسه مكرراً في دخيلته، مثلما فعـــل آلاف المرات في حياته: «الاحتياطات لا تكتمل مطلقاً». قـــرر أن يشـــتري الضمادات الطبية، والمطهرات، وأدوية تخثر الجروح، والسلفات وبقية مـــواد الإسعافات الأولية التي أملاها عليه بايبخوس من عدة صيدليات.

ـــ و لم ترياه منذ ذلك الحين؟

فتقول آديلايدا:

ـــ أنا لم أره.

أما خوان ثاراتيه فرآه. لقد كان يأتي إلى ليما بين حين وآخر، كان يأتي من بوكايابا أو من يوريماغواس، حيث كان يعمل في مناشر الخشب، وكانا يتناولان الغداء معاً. ولكن منذ بدأ كل هذا ــ الاغتيالات، عمليات الاختطاف، القنابل، الحرب ــ توقف عن كتابة الرسائل وعن المجيء: إما أن يكون قد مات أو أنه صار واحداً منهم.لقد خيم الليل واستلقى المتبقون على قيد الحياة فوق بعضهم البعض ليتحملوا البرد في ظلمات كوسكو. وكانت الحشود تهذي في نومها، مستمعة إلى طائرات وقنابل شبحية تضاعف ما سمعوه في النهار. ولكن ابن مايتا لا ينام:فهو يجادل في مغارة القيادة الصغيرة، محاولاً فرض وجهة نظره. يجب على الناس أن يرجعوا إلى كوسكو فور انقشاع أبخرة عفونة الحرائق ويبدؤوا بإعادة البناء. هناك قادة لديهم وجهة نظر أخرى: سيكونون هناك أهدافاً سهلة لعمليات قصف ومذابح جديدة تشتت صفوف الناس مثل التي جرت اليوم. من الأفضل أن يبقى الناس في العراء، موزعين في قطاعات وملاحق في الأطراف،ومعسكرات أقل تأثراً بالغارات الجوية. ويرد ابن مايتا، ويجادل، ويرفع صوته، وعلى بريق نار الموقد الصغير، يلمع وجهه مدبوغاً، بقروح، وقوراً. لم ينزع البندقية الرشاشة عن كتفه ولا المسدس عن خاصرته. وكانت السيجارة بين أصابعه قد انطفأت دون أن ينتبه إليها. صوته صوت رجل هزم كل الشدائد ــ البرد، الجوع، الإنهاك، الهرب، الرعب، الجريمة ــ وهو واثق من الانتصار المحتم والوشيك. وهو لم يخطئ حتى الآن، وكل شيء يؤكد بأنه لن يخطئ كذلك في المستقبل.

وتكرر آديلايدا:

ــ في المرات القليلة التي جاء فيها كان يبحث عن خوان ويخرجان معاً. أما أنا فلم يبحث عني أبداً، ولم يتصل بي ولم يكن يسمح لخوان حتى بطرح

إمكانية اللقاء بي. أيمكن لك أن تفهم حقداً كهذا، غضباً كـــهذا؟ في البـــدء كتبتُ إليه رسائل كثيرة. ثم انتهيت فيما بعد إلى الاستسلام.

أُذكّرها:

ـــ لقد انتهت الساعة المتفق عليها.

تلقى مايتا اللفافة وسلم الإيصال وخرج. كان قد استنفد كل مــــا في القائمة بشراء السلفات والميركوركروم من الصيدلية الأخـــيرة. كـــانت رزم المشتريات كبيرة، ثقيلة، وحين وصل إلى بيته في شارع ثيبيتا كـــان ذراعـــاه يؤلمانه. لقد كانت الحقيبة جاهزة: الكنــــزات، القمصـــان، وفي منتصفـــها المسدس الرشاش الذي أهداه إليه بايبخوس مغطى بحذر ودقة. رتب الأدوية في الحقيبة وألقى نظرة على الكتب المبعثرة. هل سيأتي بلاكير ليأخذها؟ خـــرج، خبأ المفتاح ما بين دفتي صحن الدرج المفلتتين. إذا هو لم يأت فسوف يبيــــع صاحب البيت الكتب ليحصل على الإيجار. وما أهمية كل هذا الآن؟ ما أهميـــة غرفته، كتبه، آديلايدا، ابنه، رفاقه السابقين الآن؟ وما أهمية ليما الآن؟ وأحـــس بقلبه يضطرب وهو يرى السائق يضع الحقيبة على الحمالة. الحافلة ستنطلق إلى خاوخا خلال دقائق. وفكر:«هذه رحلة دون عودة يا مايتا».

أنهضُ واقفاً، أشكرها وترافقني هي حتى الباب وتغلقه فـــور تجـــاوزي العتبة. وأشعر بالغرابة وأنا أرى، في المساء الذي يميل إلى الغروب، واجهة قصر روسبيغليوسي المخادعة. يجب عليّ أن أخضع مرة أخـــرى لتفتيـــش جنـــود الطيران. يسمحون لي بالمرور. وبينما أنا أتقدم ما بين بيوت مسورة بأحجـــار وطين، لم تعد الأصوات التي في الأمام والخلف وإلى اليمـــين واليســـار هـــي أصوات تبادل رشقات نارية وحسب. بل أصوات انفجارات قنـــابل يدويـــة ومدافع كذلك.

الفصل الثامن

يبدو وكأنه إحدى شخصيات آرسيمبولد: أنفه جزرة هزيلة، خداه سفرجلتان، ذقنه حبة بطاطا نابتة وممتلئة بالعيون، ورقبته عنقود عنب نصف مسلوخ. يبدو قبحه لطيفاً لشدة استهتاره؛ ويمكن القول إن دون إتكيبل يُحمِّل قبحه بهذا الشعر الدهني الذي يتدلى متهدلاً على كتفيه. ويبدو جسده أكثر ترهلاً وهو محشور في البنطال والمئزر والكنزة المرقعة. إحدى فردتي حذائه فقط لها رباط؛ أما الأخرى فتهدد بالإفلات من قدمه في كل خطوة. وهو مع ذلك ليس شحاذاً، بل صاحب متجر المفروشات والأدوات المنزلية، في ساحة السلاح في خاوخا، الملاصق لمدرسة الكارمن وكنيسة الراهبات الفرانسيسكان. وتقول الألسنة في خاوخا إن هذا الذي يراه أحدنا، هو أغنى تاجر في المدينة. لماذا لم يهرب مثلما فعل آخرون؟ لقد اختطفه المتمردون قبل بضعة أشهر، وقد انتشرت إشاعة تقول إنه قد دفع لهم فدية كبيرة؛ فلم يعودوا إلى إزعاجه منذ ذلك الحين لأنه، كما يقولون، قد دفع «الحصة الثورية».

أوقفني بجفاء فور إطلالي على المتجر:

ــ أعرف من الذي أرسلك إلى هنا، أعرف أنه ابن العاهرة الأفطس أوبيبوث. لا جدوى من مجيئك، فأنا لا أعرف شيئاً و لم أرَ شيئاً و لم أكن متورطاً في تلك النذالة البرازية. ليس هناك ما يمكننا عمله. أعرف أنك تكتب عن بايبخوس. لا تُدخلني في هذه الأمور وإلا عليك أن تتحملَ النتائج. أقول لك هذا دون أن أغضب، لكي يدخل بوضوح في دماغك.

والواقع أنه كان يقول لي ذلك بعينين متوقدتين بالغضب. لقد كان يصرخ بطريقة جعلت إحدى الدوريات التي تجوب الساحة تقترب لتسأل إذا ما كان يحدث أي شيء. لا، لا شيء. وعندما انصرفوا، قمت بالدور المعهود: ليس هناك أي مبرر للذعر يا دون إثكييل، فأنا لا أفكر في ذكر اسمك ولو مرة واحدة. ولن يظهر في قصتي كذلك اسم الملازم باييخوس ولا مايتا ولا أي واحد من شخصيات الواقعة، ولن يتمكن أحد من أن يتعرف فيها على ما حدث في الواقع.

فيرد علي وهو يهز أصابع أشبه بالخطافات:

ــ وأي براز جاء بك إلى خاوخا إذن؟ ولأي براز تقوم بتوجيه الأسئلة في الشوارع والساحات حول ما جرى؟ ولماذا كل هذه التقولات البرازية؟

وأقول للمرة المئة في هذه السنة:

ــ لكي أكذب وأنا أعرف السبب. دعني أوضح لك الأمر على الأقل يا دون إثكييل. لن آخذ من وقتك أكثر من دقيقتين. هل تسمح لي؟ أيمكنني الدخول؟

الضوء الذي يحمم هواء خاوخا هو ضوء فجر: ضوء أولي، متلعثم، مائل إلى السواد، وفيه يظهر شبح الكاتدرائية، والشرفات المحيطة، والحديقة الصغيرة المسورة بسياج حديدي والأشجار التي في وسط الساحة، وكلها تظهر وتختفي. الهواء القاطع يسبب قشعريرة في الجلد. هل الأعصاب هي السبب؟ أهو الخوف؟ لم يكن عصبياً ولا خائفاً، إنه جزع بعض الشيء وحسب، ليس بسبب ما سيحدث وإنما بسبب الارتفاع اللعين الذي يذكّره به قلبه في كل لحظة. كان قد نام بضع ساعات، على الرغم من البرد الذي كان يتسرب من الزجاج المكسور، وعلى الرغم من أن كراسي محل الحلاقة لم تكن

السرير المثالي. وقد أيقظه صياح ديك في الخامسة، وكان أول ما فكر فيه، قبل أن يفتح عينيه: «إنه اليوم». نهض، تمطى في الظلام، وتعثر بالأشياء وهو يتوجه نحو الطست المملوء بالماء. السائل الجليدي أيقظه تماماً. كان قد نام بملابسه ولم يكن عليه سوى انتعال جزمته، وإغلاق حقيبته والانتظار. جلس على أحد الكراسي حيث يحلق إثكييل لزبائنه، وبينما هو يغمض عينيه، تذكر التعليمات. كان مطمئناً، هادئاً، وكان يمكن له أن يشعر بالسعادة لولا هذا الضيق. بعد دقائق من ذلك سمع الباب يفتح، وعلى ضوء مصباح يدوي، رأى إثكييل. لقد أحضر له قهوة ساخنة في فنجان من صفيح.

ــ هل كان نومك غير مريح؟

فقال مايتا:

ــ لقد نمتُ جيداً. هل صارت الساعة الخامسة والنصف؟

وهمس إثكييل:

ــ إلا قليلاً. اخرج من الباب الخلفي، ولا تُحدث ضجة.

وودعه مايتا:

ــ شكراً على حسن ضيافتك. وحظاً طيباً.

ــ بل حظاً خبيثاً. كل ما اقترفته من ذنب هو أنني كنت رجلاً طيباً، مغفلاً كبيراً.ــ وكان أنفه ينتفخ ويُبرز ما لا حصر له من العروق الخمرية؛ وعيناه تتحركان باحتدام ــ. ذنبي الوحيد هو أنني أشفقت على غريب لا أعرفه وسمحت له بالنوم ليلة واحدة في دكان حلاقتي. ومن هو الذي جاءني بحكاية أنه ليس لهذا المسكين سقف ينام تحته ويسألني عما إذا كان لا يوجد لدي مانع من إيوائه؟ من هو سوى ابن العاهرة الأفطس أوبييوث!

وأحاول تهدئته:

ـــ لقد مضت خمس وعشرون سنة يا دون إثكيبل. إنها قصة قديمــة، لم يعد هناك من يتذكرها. لا تغضب هكذا.

ويزمجر دون إثكيبل:

ـــ إنني أغضب لأنه لم يكتف بما فعله بي، وها هو هذا الكلب يشــيع أنني قد بعتُ نفسي للإرهابيين. لعل الجيش يرميني بالرصاص ويخلصــه مــن وجودي. إنني أغضب لأن العقل المدبر لتلك الحماقة لم يصبه شيء. أما أنــا الذي لم أكن أعرف شيئاً و لم أكن أفهم شيئاً و لم أر شيئاً، فقد زجــوا بي في السجن، وكسروا أضلاعي وجعلوني أتبول دماً من الركلات التي وجهوها إلى كليتي وخصيتي.

ـــ ولكنك خرجت من السجن، وبدأت من جديد وصرت اليوم رجلاً تحسده خاوخا يا دون إثكيبل. لا تغضب هكذا، انسَ ما حدث.

فيزمجر هو محركاً يديه وكأنه سيخمشني:

ـــ لا يمكنني النسيان إذا كنتَ قد جئت لتستنفد صبري طالباً مــني أن أروي لك أشياء لا أعرفها. أليس هذا هو أكثر الأمور غرابة؟ مَنْ كان أقــل الجميع إطلاعاً على ما حدث هو الوحيد الذي تخوزق.

ذرع مايتا الممر، تأكد من أنه ليس هناك أحد في الشارع، فتح بــاب صالون الحلاقة الخلفي وخرج منه ثم أغلقه وراءه. لم تكن هناك نفس واحــدة في الساحة، وكان الضوء الخجول لا يكاد يسمح له برؤية أكثر من موطــئ قدمه. ذهب إلى حيث المقعد. لم يصل بعد الرجال الذين سيأتون من ريكـران. جلس. وضع الحقيبة بين قدميه، حمى فمه بياقة الكترة ودس يديه في جيبيــه. يجب عليه أن يكون آلة. إنه أمر يتذكره من دروس التدريــب العســكري في المدرسة: رجل آلي واع، لا يتأخر ولا يتقدم، ولا يخامره التردد أبداً بصــورة

خاصة، مقاتل يطبق ما هو مبرمج بدقة خلاطة أو مخرطة. فإذا ما تصرف الجميع على هذا النحو، فسوف يكون بالإمكان تجاوز أي اختبار، اختبار اليوم. وسيكون الاختبار الثاني أسهل، وبتخطي اختبار بعد آخر، سيصبح الانتصار في مجال الرؤية يوماً. كان يسمع ديكة غير مرئية؛ وبعيداً، فيما وراء أعشاب الحديقة الصغيرة، يُسمع نقيق ضفدع. هل سيتأخرون؟ شاحنة ريكران ستتوقف في ساحة سانتا إيسابيل، حيث تتلاقى السيارات التي تحمل البضائع إلى السوق. من هناك سيتوزعون في مجموعات، ويحتلون مواقعهم. لم يكن يعرف حتى اسمي الرفيقين اللذين سينضمان إليه للذهاب إلى السجن، ثم إلى مقر شركة الهاتف بعد ذلك. «ذكرى أي قديس هي اليوم؟» «إنه يوم القديس ادموندو دانتيس». أنزل ياقة الكنزة التي كانت تغطي نصف وجهه، وابتسم: لقد خطرت له كلمة السر وهو يتذكر **الكونت دي مونت كريستو**. وفي هذه الأثناء وصل الفتى، دقيقاً في موعده. كان يدعى فيليثو تابيا وكان يرتدي زيه المدرسي ـــ بنطالاً وقميصاً كاكي اللون وقبعة من اللون نفسه، وكنزة رمادية ـــ ويحمل كتبه تحت إبطه. وفكر: «سيساعدوننا في البدء بالثورة ثم يذهبون إلى المدرسة. يجب أن نسرع حتى لا نضيع عليهم الدرس الأول.» لقد خُصص لكل جماعة فتى منهم كمراسل، فربما اضطرت إلى إيصال خبر طارئ. ولكن حين تبدأ كل جماعة بالانسحاب، يتوجب على الفتى الذي يرافقها أن يعود إلى حياته الطبيعية.

وقال مايتا:

ـــ لقد تأخرت جماعة ريكران. ألا يكون طريق سلسلة الجبال قد أُغلق؟

تأمل الصبي الغيوم:

ـــ لا، لم يهطل المطر.

من غير المحتمل أن تغلق الأمطار أو الانهيارات الطريق في هذه الفترة من السنة. ولو حدث ذلك، فقد تقرر مسبقاً أن ينطلق رجال ريكران إلى كـــيرو عبر سلسلة الجبال. كان الفتى ينظر إلى مايتا نظرة حسد. لقد كان فتياً جـــداً، له أسنان أرنب وبداية زغب.

ـــ هل كل زملائك دقيقون مثلك؟

ـــ روبيرتو موجود عند ناصية ملجأ الأيتام، وقد رأيت ميلكيادس ذاهباً باتجاه ساحة سانتا إيسابيل.

أوضح ذلك بسرعة، وأحس مايتا بالأسف لأنه لم يتفحص المســـــدس الرشاش مرة أخيرة. إنه في الحقيبة وهو لا يتوقف عن التفكير به. كان قد زيّتــه في الليلة السابقة وهو في صالون الحلاقة، وقبل أن ينام فتح مســـمار الأمـــان وأغلقه، متأكداً من امتلاء المخزن. ما الحاجة إلى تفحصه من جديد؟ كـــانت الساحة قد بدأت تشهد بعض الحركة. إذ بدأ مرور نسوة يضعن مناديل علـــى رؤوسهن ويتوجهن إلى الكتدرائية، وكانت تمر بين فينة وأخرى شاحنة صغيرة أو سيارة شحن كبيرة مملوءة بالأكياس أو البراميل. الساعة تشير إلى السادســـة إلا خمس دقائق. نهض واقفاً وتناول الحقيبة وقال للفتى:

ـــ أسرعْ إلى ساحة سانتا إيسابيل، وإذا كانت الشاحنة قد وصلــت إلى هناك فقل للجماعة أن يذهبوا مباشرة إلى السجن. في السادســـــة والنصـــف سأفتح لهم الباب. مفهوم؟

يقول لي دون إنكييل وهو يحك جلد عنقه المتدرن بأظفـــاره الســـوداء ويلهث:

ـــ ليس هناك ما يمنعني من الكلام وقول ما يجب أن يقال: المسؤول عن كل شيء لم يكن باييخوس وإنما أوبييوث. إنه المسؤول عن كل ما حدث وما

لم يحدث في ذلك الصباح.وأنت تضيع الوقت في النمّ مع هؤلاء ومع أولئك. يكفيك التكلم معه. فذلك القمامة هو الوحيد الذي يعرف بدقة وبتفصيل كل براز هذه القصة.

يطغى على صوته صوت مذياع يلعلع عالياً باللغة الإنكليزية. إنها المحطة المخصصة لجنود «المارينز» والطيارين الأمريكيين الذين وُضعت تحت تصرفهم أبنية مدرسة سان خوسيه.

ويزمجر دون إثكييل وهو يغلق أذنيه:

ــ ها هي ذي إذاعة ملعوني الأم الغرينغيين اللعينة!

أقول له إنني قد فوجئت لأني لم أرَ حتى الآن «مارينز» في الشوارع، وأن كل الدوريات التي تجتاز تقاطعات الشوارع مؤلفة من شرطة وجنود بيرويين.

فيجأر وقد تحول وحشاً:

ــ لا بد أنهم ينامون من شدة السُكْر أو يستريحون بعد المضاجعات الكثيرة. لقد أفسدوا خاوخا كلها، وحوّلو حتى الراهبات إلى مومسات. وكيف لا يحدث ذلك إذاكنا جميعنا نموت جوعاً بينما هم يملكون دولارات؟ يقال إنهم يحضرون لهم حتى الماء بالطائرات. ليس صحيحاً أنهم يساعدون التجارة المحلية بأموالهم. فلم يدخل أي واحد منهم لشراء شيء من متجري مثلاً. إنهم ينفقون المال فقط على الكوكائين، أجل.. إنهم يدفعون أي ثمن مقابل ذلك. والقول بأنهم جاؤوا لقتال الشيوعيين هو كذب. لقد جاؤوا لتعاطي الكوكائين ومضاجعة نساء خاوخا. بل إن هناك زنوجاً بينهم، أي لعنة هي هذه.

ومع أنني أتابع غضب دون إثكييل، إلا أنني لا أسهو لحظة واحدة عن مايتا في ذلك الصباح، قبل ربع قرن، في خاوخا بلا ثوريين وبلا «مارينز»،

يمشي في شارع ألفونسو أورغارتي الصباحي، حاملاً حقيبة المسدس الرشـاش. أهو قلق بسبب تأخر الشاحنة؟ بكل تأكيد. فمهما كان توقعه المسبق لإمكانية التأخر، إلا أنه شعر ببعض القلق لهذا العائق الأول، حتى قبل أن يبدأ تجسيـد الخطة. وهي خطة أظن أنني أستطيع، وسـط نسـيج عنكبـوت التحريـف والأكاذيب أن أحددها بصورة مناسبة حتى اللحظة التي يتوجب فيـها علـى الثوار، في ذلك الصباح، أن يخرجوا من خاوخا باتجاه جسر مولينوس. وابتـداء من هناك، أضيع في الروايات المتناقضة. ويتأكد لي مرة أخرى أن نواة محـدودة جداً ـــ ربما تقتصر على بابيخوس وأوبيبوث، وربما عليهما وعلى مايتا فقـط، وربما على الملازم وحده ـــ كانت تعرف بالضبط **كل** ما سيفعلونه: هذا القرار بعدم إطلاع الآخرين أضر بهم ضرراً رهيباً. بماذا كان يفكر مايتا وهو يجتـاز الكوادرا الأخيرة من شارع ألفونسو أوغارتي، حين رأى إلى يساره جـدران السجن الطينية وأفاريزه القرميدية؟ بأنه هناك إلى يمينـه، وراء سـتائر بيـت أوبيبوث، ربما يراه وهو يمر الأفطسُ والرفاق الذين من اورويـا وكاسـابالكا وموروكوتشا المجتمعين هناك منذ اليوم السابق أو منذ ساعات. هل يتوجـب عليه أن يخبرهم بأن الشاحنة لم تصل؟ لا، يجب عليه ألا يخالف التعليمات مهما كان السبب. ثم إنهم سيكونون قد أدركوا أن الشاحنة قد تأخرت حـين رأوه وحيداً. إذا ما وصل جماعة ريكران خلال نصف السـاعة التاليـة فسـوف يتمكنون من المشاركة في العمليات، أما إذا لم يصلوا، فسيلتقون بهم في كيرو، حيث يتوجب على المتأخرين أن يذهبوا. وصل إلى واجهة السجن الحجريـة، ولم يكن هناك حارس مثلما كان قد أخبره الملازم. فُتـح البـاب الحديـدي الصدئ وظهر بابيخوس. وبينما هو يضع إصبعه على شفتيه، أمسك بـذراع مايتا وأدخله ثم أغلق البوابة بعد أن تأكد من أنه ليس هناك من يرافقه. أشار له

بإيماءة من يده بأن يدخل إلى مكتب مدير السجن واختفى. تفحــص مايتـا الدهليز المفتوح ذا الأعمدة، وكان على الغرفة المقابلة لوحة تقول **مستودع الأسلحة**، وفي الفناء أشجار كرز ذات أوراق طويلة ورفيعة مثقلة بالقطوف. في الغرفة التي دخل إليها كان يوجد شعار وسبورة وطاولة مكتب وكرسي ونافذة يظهر الشارع من خلال زجاجها الغبش. وكان ما يزال يحمل الحقيبة في يده، لا يدري ما عليه أن يفعله عندما رجع بابيخوس. وقال له هذه المرة بصوت خافت:

ــ أردت أن أتأكد من أن أحداً لم يشعر بمجيئك. ألم تصل الشاحنة؟

ــ يبدو أنها لم تصل. لقد أرسلت فيليثيو لينتظرها وليقول لجماعتي بأن يحضروا إلى هنا في الساعة السادسة والنصف. ألن نكون بحاجة إلى جماعة ريكران؟

فقال بابيخوس:

ــ ليست هناك مشكلة. اختبئ هناك وانتظر دون إحداث ضجة.

هدوء الملازم وثقته عززا صلابة مايتا. كان الملازم يرتدي بنطالاً وجزمة وكنزة سوداء ذات ياقة عالية بدل القميص العسكري النظامي. لا بد أن هذه الخزانة هي مستودع أسلحة، ولا بد أنهم يضعون البنادق في هذه الكوى. وعند إغلاق الباب بقي في الظلام. بذل مجهوداً لفتح الحقيبة، لأن قفلها كان قد تعطل. أخرج المسدس الرشاش ودس علب الذخيرة في جيوبه. وانطفأ المذياع فجأة مثلما كان قد صدح فجأة. ما الذي جرى لشاحنة ريكران؟

ــ لقد وصلتْ إلى ساحة سانتا إيسابيل، حيث كان عليها أن تصل ــ ينفجر دون إثكييل ضاحكاً ويبدو كان كما لو أن سماً ينبجس من عينيه وفمه وأذنيه وهو يضيف: ــ وعندما بدأت عملية السجن كانت الشاحنة قد

غادرت. ولكن ليس إلى كيرو، حيث كان يفترض أن تذهب، وإنما إلى ليمـــا. و لم تكن تحمل الشيوعيين أو الأسلحة المسروقة. لا شيء من هذا. ما الـــذي كانت تحمله الشاحنة؟فول! أجل، اللعنة، انطلقت إلى ليما بحمولة من الفـــول. ألا تسألني لمن كانت حمولة الفول؟

فأقول له:

ـــ لن أسألك لأنك ستقول لي إنها كانت للأفطس أوبييوث.

ويطلق دون إتكييل ضحكة مروعة أخرى:

ـــ ألن تسألني من كان يقودها ـــ رفع يديه الوسختين وكأنه يوجـــه لكمات، وأشار إلى الساحة:ـــ أنا رأيته يمر، وتعرفت على ذلك الخائن. أنـــا رأيته ممسكاً بالمقود، وبقبعة مخنث زرقاء. وأنا رأيت أكياس الفول. أي لعنـــة تجري؟ ما الذي سيحدث! لقد تمكن هذا القواد من خوزقتنا أنا وبـــاييخوس والغريب.

ـــ أخبرني بأمر واحد آخر فقط وسأتركك بسلام يا دون إتكييل. لمـــاذا لم تذهب أنت أيضاً في ذلك الصباح؟ لماذا بقيت مطمئناً في دكان حلاقتـــك؟ لماذا لم تختبئ على الأقل؟

بقي الوجه المتدرن يتفحصني بنظرة رهيبة عدة ثوان، بغضب سفيه. أراه يحك أنفه، ويهرش بضراوة جلد رقبته. وعندما ردّ علي كان ما يزال يشـــعر بأنه مضطر إلى الكذب:

ـــ ومن أجل أي برازكان علي أن أختبئ طالما أنني لم أكن متورطـــاً في شيء؟ من أجل أي براز؟

وأقول له مؤنباً:

ـــ دون إتكييل، دون إتكييل. لقد مرت خمس وعشرون سنة، والبـــيرو تنتهي الآن، والناس لا يفكرون إلا بالنجاة من حرب لم تعد حربنا،ويمكن لنـــا

أنا وأنت أن نموت في الانفجار أو تبادل الرصاص التالي،فمن الذي يهمـه الآن ما جرى في ذلك اليوم؟ أخبرني بالحقيقة، ساعدني في إنهـاء قصـتي قبـل أن تلتهمك وتلتهمني أيضاً هذه الفوضى القاتلة التي صارت إليها بلادنا. لقد كان عليك أن تقطع خطوط الهاتف وأن تستأجر عدداً من سيارات التكسي متذرعاً بحفلة شواء في مولينوس. هل تتذكر في أي ساعة كان عليك التواجد في شركة الهاتف؟ لقد كان عليك أن تكون هناك بعد خمس دقائق من فتح المكـاتب. وكان على سيارات التكسي أن تنتظر عند تقاطع شارعي ألفونسو أوغـارتي ولامار، حيث تستولي عليها جماعة مايتا. ولكنك لم تستأجر سيارات التكسي و لم تذهب إلى شركة الهاتف، والفتى الذي جاء إلى هنا ليسألك عما جـرى، أجبته: «لم يجر أي شيء، لقد أخفق كل شيء، أسرع إلى مدرستك وانـس أنك تعرفني.» هذا الفتى هو تيليسفورو ساليناس، مدير التربية البدنية في الإقليم الآن يا دون إثكييل.

فيزمجر محمراً من الاستياء:

ـــ سلسلة أكاذيب! إشاعات معيبة يطلقها أوبييوث! أنا لم أعرف شيئاً و لم يكن هناك ما يدعوني إلى الاختفاء أو الهرب. هيا انصرف، ابتعد، اختـف. يا للمفتري المقرف! يا لمروج الإشاعات البرازي!

وبينما هو في مستودع الأسلحة المظلم، والمسدس الرشاش بين يديـه، لم يسمع مايتا أي صوت. و لم يكن يرى شيئاً كذلك، اللهم إلا شعاعي ضـوء يمران من حافة الباب. ولكنه لم يجد صعوبة في أن يخمن، وبدقة، بأن بابيخوس كان يدخل في تلك اللحظة إلى مهجع الأربعة عشر حارساً ويوقظهم بصـوت راعد: «انتبـاه!» «إلى تنظيف البنادق!» لأن ضـابط التسـليح في هوانكايو أبلغه للتو بأنه سيأتي للتفتيش في وقت مبكر من الصباح. «توخـوا

الحذر، وكونوا مهووسين بتنظيف البنادق من الخارج ومن الداخل، وحذار من أن تكون إحداها معطلة وتغفلوا عنها.» فالملازم بابيخوس لا يريد تلقي المزيد من توبيخات ضابط التسليح. يجب أن تُنقل البنادق الصالحة وذخيرة كل حارس جمهوري ــ تسعون طلقة ــ إلى مستودع الأسلحة. «وإلى الاصطفاف في الفناء!»وعندئذ يأتي دوره. ها قد بدأت الآلية تدور، الأجزاء تتحرك، هذه هي الممارسة العملية، هذه هي. أيكون رجال ريكران قد وصلوا؟ كان يراقب من خلال الستائر، منتظراً ظهور أشباح الحراس وهم يحملون بنادقهم وذخائرهم إلى الغرفة المقابلة، واحداً وراء الآخر، وبينهم أنتولين توريس.

إنه حارس جمهوري متقاعد يعيش في شارع مانكو كاباك، في منتصف الطريق ما بين السجن ودكان دون إثكييل. واضطررت إلى الانصراف لكي أتجنب أن يوجه إليّ الحلاق السابق لكمة أو أتسبب له بداء السكتة.وبينما أنا جالس على مقعد في ساحة خاوخا المهيبة ــ والمشوهة الآن بالحواجز والأسلاك عند ناصيتي البلدية والمحافظة ــ أفكر بانتولين توريس. لقد تبادلت الحديث معه هذا الصباح. إنه رجل سعيد منذ أن تعاقد معه «المارينز» ليكون دليلاً ومترجماً لهم (فهو يتكلم القشتالية جيداً مثلما يتكلم الكيتشوا). وقد كان لديه من قبل قطعة أرض زراعية صغيرة،ولكن الحرب دمرتها وكان يموت جوعاً إلى أن جاء الغرينغيون. أما عمله معهم فيتلخص في مرافقة الدوريات التي تخرج لتجوب المناطق المجاورة. إنه يعرف أنه يمكن لهذا العمل أن يكلفه حياته؛ وهناك كثيرون من أهالي خاوخا قد أداروا له ظهرهم وامتلأت واجهة بيته بكتابات تقول: «خائن» و«العدالة الثورية حكمت عليك بالموت». وحسب ما قاله لي أنتولين وحسب ثرثرات دون إثكييل، فإن

العلاقات بين «المارينـــز» وأهالي خاوخا سيئة أو أسوأ من سيئة. بل إن الناس المعادين للمتمردين يشعرون بالحقد على هؤلاء الأجانب الذين لا يفـــهموهم، وخصوصا أنهم يأكلون ويدخنون ولا يعانون أي حرمان في بلدة يعاني فيـــها العوز حتى الأغنياء السابقون. إنه ستيني له عنق ثور وكرش ضخــــم، وهـــو إياكوتشي من كانغايو أمضى حياته في خاوخا، ويتكلم أنتولين توريس قشتالية لذيذة، تتدفق وفق أساليب التعبير بالكيتشوا. «فليقتلـــوني، إذن، الشـــيوعيون قالوا لي. ولكنهم سيقتلونني وأنا آكل جيدا وأشرب جيدا وأدخــــن ســـجائر فاخرة.» إنه راو يتقن تدرج المؤثرات من خلال التوقفات والهتافات. في ذلـك اليوم، قبل خمس وعشرين سنة، كان عليه أن يدخل الخدمة في الساعة الثامنـة، بأن يتولى الحراسة على البوابة بعد الحارس هواسكار توليدو. ولكن هواســكار لم يكن في كشك الحراسة وإنما في الداخل، مع الآخرين، يقوم بتشحيم البندقية من أجل زيارة ضابط التسليح. كان الملازم باييخوس يستعجلهم وكان أنتولين توريس يرتاب من شيء ما.

ـــ ولكن، لماذا الريبة يا سيد توريس؟ ما هو الغريب في تفتيش علـــــى السلاح؟

ـــ الغريب هو أن الملازم كان يتنقل والمسدس الرشاش معلق في كتفـــه. لماذا كان مسلحا إذن؟ ولماذا علينا أن نترك البنادق في مستودع الأسلحة؟ هـذا غريب جدا يا رقيبـــي. منذ متى بدأت «موضة» تخلي الخفير عن بندقيته مـــن أجل التفتيش؟ لا تفكر كثيرا يا أنتولين، فهذا غير مناسب للترقية، هكذا قـــال لي الرقيب. وانصعت.. نظفت بندقيتي الماوزر وتركتها في مستودع الأســـلحة مع رصاصاتي التسعين. وخرجت للاصطفاف في الفناء. ولكنني كنت أشــــم شيئا غريبا. ليس ما سيحدث. بل شيء من السجناء. كـــان هنـــاك حـــوالى خمسين سجينا في الزنازين. محاولة هروب، لست أدري، شيء ما.

«الآن.» ويدفع مايتا الباب. لقد تشنجت ساقاه لكثرة ما بقي جامدا. كان قلبه طبلا وكان يسيطر عليه إحساس بالإقدام على شيء نهائي لا رجعة عنه، عندما ظهر في الباحة بمسدسه الرشاش المغطى بالشحم، أمام الحراس المصطفين، وانتصب بينهم وبين مستودع الأسلحة. وقال ما كان عليه أن يقوله:

ـــ آمل ألا يضطرني أحد إلى إطلاق النار، لأنني لا أريد قتل أحد.

ووجه بايبخوس مسدسه الرشاش أيضا إلى مرؤوسيه. وراحت عيون الأربعة عشر حارسا الغمصاء تنوس متنقلة منه إلى الملازم ومن الملازم إليه، دون أن يفهموا: هل نحن مستيقظون أم أننا نحلم؟ هل ما يجري حقيقة أم كابوس؟

ـــ وعندئذ تحدث إليكم الملازم، أليس كذلك يا سيد توريس؟ هل تتذكر ما قاله لكم؟

ـــ لا أريد توريطكم، أنا سأتحول إلى متمرد، إلى ثوري اشتراكي ـــ يقلده انتولين توريس ويومئ بينما حنجرته تصعد وتنزل بجموح في عنقه ـــ. إذا كان هناك من يريد أن يتبعني بمشيئته، فليأت. إنني أفعل هذا من أجل الفقراء، من أجل الشعب المعذب ولأن القادة قد خذلونا. وأنت أيها الرقيب المحاسب، اشتر من راتبي بيرة لكل العناصر يوم الأحد. وبينما الملازم يلقي خطبته كان العدو الآخر، القادم من ليما، يبقينا محتجزين بمسدسه الرشاش، مغلقا أمامنا الطريق إلى بنادقنا. لقد وقعنا مثل حمقى. وقد عاقبتنا القيادة العليا بعد ذلك بأسبوعين تأديبيين.

كان مايتا قد سمعه ولكن دون أن يتابع ما قاله لهم بايبخوس، لأن الإثارة كانت تطغى عليه. «مثل آلة، مثل جندي.» اقتاد الملازم الحراس إلى

المهجع وانصاعوا له بوداعة، دون أن يفهموا حقيقة الوضع. ورأى الملازم يضع سلسلة على باب المهجع بعد أن حبسهم فيه. ثم قام بعد ذلك، وبحركات سريعة ودقيقة، والمسدس الرشاش في يده اليسرى، بفتح بوابة حديدية. هل كان هناك سجينا أوتشوبامبا؟ لا بد أنهما رأيا وسمعا ما حدث. أما السجناء الآخرون بالمقابل، الذين هم في زنازين تقع وراء فناء أشجار الكرز، فكانوا بعيدين. ومن موقعه إلى جانب مستودع الأسلحة، رأى ظهور رجلين وراء بابيخوس. أجل، إنهما الرفيقان اللذان لم يكن يعرف حتى الآن سوى اسميهما. من منهما هو كوندوري وأيهما ثينون غونثاليس؟ وقبل أن يعرف ذلك نشب جدال بين بابيخوس وأصغرهما سنا، وهو شاب أبيض ذو شعر طويل. ومع أنه قد قيل لمايتا إن لفلاحي المنطقة الشرقية في العادة بشرة وشعرا فاتحين، إلا أنه تحير: فالمحرضان الهنديان اللذان قادا الاستيلاء على مزرعة آينا يبدوان أشبه بالغرينغيين. وكان أحدهما ينتعل صندلا.

سمع بابيخوس يقول وهو يقرب وجهه من أحدهما:

ــ هل ستتراجع الآن أيها النذل؟ الآن وقد بدأ الأمر، الآن وقد صرنا في النار، هل تنوي الانسحاب؟

فتمتم الآخر متراجعا:

ــ لست أنوي الانسحاب. المسألة... المسألة...

وصرخ بابيخوس:

ــ المسألة هي أنك أصفر يا ثينون. وهذا أسوأ بالنسبة إليك. ارجع إلى زنزانتك. فليحاكموك، وليسجنوك، ولتتعفن في سجن فرونتون. اللعنة، لا أعرف كيف لا أرميك برصاصة.

ــ انتظر، توقف، فلنتكلم دون شجار ــ قال ذلك كوندوري متدخلا بينهما. وكان هو من ينتعل الصندل، وقد ابتهج مايتا وهو يكتشف وجود

شخص هناك في مثل سنه ــ. لا تنفعل يا بابيخوس. دعني لحظة على انفراد مع ثينون.

خطا الملازم ثلاث خطوات واسعة أوصلته إلى جانب مايتا.

ــ لقد تخنث ــ قال ذلك دون الغضب الذي كان عليه قبل لحظة، ولكن بخيبة أمل فقط ــ. في الليل كان موافقا. ويأتي الآن ليقول لي إن لديه شكوكا، وإنه من الأفضل أن يبقى هنا وبعد ذلك سيرى ما يفعله. هذا اسمه خوف، وليس شكوكا.

ما هي الشكوك التي راودت قائد اتشوبامبا الفلاحي الشاب وجعلته يتسبب بهذا الحادث؟ هل فكر وهم على عتبة التمرد بأن عددهم قليل جدا؟ هل خامره الشك بقدرته هو وكوندوري على اجتذاب بقية أهالي قريته إلى التمرد؟ هل تراه تنبأ بالهزيمة؟ أم أنه تردد ببساطة أمام إمكانية اضطراره إلى أن يقتل أو يقتل؟

كان حوار كوندوري وغونثاليس يجري بصوت خافت. وكان مايتا يسمع كلمات متفرقة، ويراهما يومئان بين لحظة وأخرى. وفي إحدى اللحظات أمسك كوندوري رفيقه من ذراعه. لا بد أن له شيئا من السلطة على هذا الرفيق الذي كان يحتفظ، على الرغم من مجادلته، بسلوك ينم عن الاحترام. وبعد لحظة من ذلك تقدما معا، وقال كوندوري:

ــ لقد قضي الأمر يا بابيخوس. انتهى الأمر. كل شيء على ما يرام. لم يحدث أي شيء.

فمد بابيخوس يده إليه:

ــ حسن يا ثينون. اعذرني لأنني انفعلت. ألا توجد أحقاد؟

هز الشاب رأسه موافقا. وكرر بابيخوس وهو يصافحه: «بلا أحقاد وليكن كل شيء في سبيل البيرو يا ثينون.» وكان يبدو على وجه غونثاليس أنه مستسلم أكثر مما هو مقتنع. التفت بابيخوس إلى مايتا:

ـــ انقلوا الأسلحة إلى سيارات التكسي. سأذهب لأرى السجناء.

ابتعد باتجاه أشجار الكرز وركض مايتا باتجاه المدخل. وتفحص الشارع من خلال كوة الحراسة في البوابة. وبدلا من أن يرى سيارات التكسي وأوبييوث ومنجميي أورويا، رأى جماعة من التلاميذ الفتيان، يقودهم كورديرو اسبينوثا، البريغادير.

سألهم:

ـــ ماذا تفعلون هنا؟ لماذا لستم في مواقعكم؟

ويقول لي كورديرو اسبينوثا بتثاؤب يخفف من ابتسامته:

ـــ لأنه لم يكن هناك أحد في موقعه، لأن الجميع كانوا قد اختفوا. لأننا كنا قد تعبنا من الانتظار. و لم يكن هناك من نخدمه كمراسلين. لقد كان مركز الشرطة من نصيبي. وقد ذهبت إلى هناك مبكرا و لم يحدث أي شيء. وبعد قليل جاء هيرناندو هواساسكيتشي ليقول لي إن الأستاذ أوبييوث ليس موجودا في بيته ولا في أي مكان. وإن هناك من رآه يقود شاحنته على الطريق العام. وبعد ذلك بقليل علمنا أن جماعة ريكران قد تبخروا، وأن جماعة اورويا لم يحضروا أو أنهم رجعوا. إنه الذعر العام! اجتمعنا في الساحة. كان الحزن والخذلان باديين على وجوهنا، وكنا ننتظر مرور الوقت لنذهب إلى دروسنا. لقد سخروا منا، لقد جعلونا نلعب لعبة المسلسات. وفي أثناء ذلك جاء فيليثيو تابيا. قال لنا إن القادم من ليما قد ذهب إلى السجن بعد أن انتظر جماعة ريكران دون طائل. وهكذا ذهبنا جميعنا إلى السجن لنرى ما الذي يحدث. كان بايبخوس ومايتا قد حبسا الحراس، واستوليا على البنادق وأطلقا سراح كوندوري وغونثاليس. هل تتصور وضعا مضحكا أكثر من هذا؟

و لم يكن الدكتور كورديرو اسبينوثا يفتقر إلى مبررَات. وكيف لا يسميه وضعا مضحكا؟ لقد استولوا على السجن، وصار لديهم أربع عشرة

بندقية وألف ومئتي طلقة. ولكنهم بقوا دون ثوريين، لأنه لم يأت ولو شخص واحد فقط من الثلاثين أو الأربعين شخصا المتواطئين. أكان هذا هو ما فكر به مايتا حين نظر من الكوة ووجد نفسه وحيدا مع سبعة أطفال بالزي المدرسي فقط؟

ــ ألم يأت أحد؟ ولا واحد منهم؟ لا أحد؟

ــ لقد جئنا نحن ــ قال الصغير ذو الرأس شبه الحليق، في ذهوله. وتذكر مايتا ما قاله عنه أوبييوث حين قدمه إليه: «كورديرو اسبينوثا، البريغادير، والأول في صفه، إنه دماغ» ــ أما الآخرون فيبدو أنهم قد تراجعوا.

أكان الذهول، الغضب، هاجس الكارثة هو الذي أثقل عليه؟ أم أنه اليقين الهادئ بشيء كان يخشاه في أعماقه، دون تحديده تماما، منذ الفجر، حين لم يصل رجال ريكران، أو ربما منذ أن كان في ليما وقرر رفاقه في ح ع ث (ت) الابتعاد، أو منذ أن أدرك أن محاولته مع بلاكير لإشراك الحزب الشيوعي في التمرد كانت غير مجدية؟ أكان ينتظر رصاصة الرحمة منذ واحدة من تلك اللحظات دون أن يقول ذلك بوضوح لنفسه؟ ألن تبدأ الثورة يا ترى؟ بلى، ها هي ذي قد بدأت يا مايتا، ألا ترى ذلك، لقد بدأت.

ــ ولهذا نحن هنا، لهذا جئنا. ألا نستطيع أن نحل نحن محلهم؟

ورأى مايتا أن الفتيان قد تزاحموا حول البريغادير وهم يهزون رؤوسهم موافقين ومؤيدين. وكان الشيء الوحيد الذي تمكن من التفكير فيه هو أنه يمكن لهذه الجماعة من التلاميذ عند بوابة السجن أن تلفت انتباه أحد المارة أو أحد الجيران.

ويتذكر الدكتور كورديرو اسبينوثا:

ـ لقد خطر لي أن نتقدم كمتطوعين في تلك اللحظة، هناك بـالذات، دون أن أكون قد تشاورت في الأمر مع زملائي. لقد خطـرت لي الفكـرة فجأة، حين رأيت وجه المسكين مايتا بعد أن عرف بأن الآخرين لم يحضروا.

إننا في مكتبه في شارع خونين، وهو شارع تتكاثر فيه مكاتب المحامين. فالمحاماة مازالت هي المهنة المفضلة في خاوخا بالرغم من أن الحرب والكوارث في هذه الأزمنة الأخيرة قد قلصت النشاط القضائي المحلي. فإلى ما قبل زمـن قليل، كان واحد أو اثنان من مواليد كل أسرة في خاوخا يأتي إلى الدنيا وهـو يحمل ملف محام تحت إبطه. فرفع الدعاوى هو رياضة متعـددة الطبقـات في المقاطعة، واسعة الشعبية والانتشار مثل كرة القدم والكرنفالات. وبين حشـد محامي خاوخا، فإن البريغادير والتلميذ المثالي السابق في مدرسة سان خوسيه ـ حيث كان يلقي دروس الاقتصاد السياسي مرتين في الأسبوع، إلى أن توقفـت الدروس بسبب الحرب ـ ما زال هو النجم. إنه رجل واسع الحيلة ومـرح. مكتبه يتألق بدبلومات من مؤتمرات حضرها، وبشـهادات تقديـر أحرزهـا كعضو في المجلس البلدي، ورئيس لنادي ليونيز في خاوخا، ورئيـس لمجلس مؤيدي شق الطريق العام الشرقي وعدد من المهمات التمدنية الأخرى. وهـو، بين جميع الأشخاص الذين تحدثت معهم، من يذكر تلك الأحداث بأكبر قـدر من الحياد، والدقة، وخفة الظل ومن الموضوعية كذلك ـ كما يبـدو لي ـ. حسن ترتيب مكتبه ونظافته يتناقض مع ممر المدخل، حيث توجـد حفـرة في الأرض ونصف جدار منهار. وحين دعاني للدخول قال لي وهو يشير إليـهما: «لقد كانت مفرقعة من الإرهابيين. وقـد تركتـها هكـذا لكـي أتذكـر الاحتياطات التي علي اتخاذها كل يوم إذا أردت الحفـاظ علـى رأسـي في موقعه.» وبروح الاستخفاف نفسها روى لي بعد ذلك أن الإرهابيين كـانوا

أكثر فعالية في الاعتداء على بيته: فقد احترق البيت كله بشحنتي الديناميت اللتين استخدمتا. «لقد قتلوا طاهيتي، وهي عجوز في الستين من عمرها. أما زوجتي وأولادي فكانوا لحسن الحظ قد غادروا خاوخا.» إنهم يعيشون في ليما، وعما قريب سيغادرون إلى خارج البلاد. وهذا ما سيفعله هو نفسه أيضا بعد أن يصفي أعماله. ففي ظل هذه الظروف، حسب قوله، ما معنى أن يواصل المرء المجازفة بحياته؟ ألم يتحسن الوضع الأمني في خاوخا مع مجيء «المارينز»؟ بل ساء أكثر. لأن الحقد الذي يبعثه وجود قوات أجنبية في نفوس الناس، يدفع كثيرين منهم إلى مساعدة الإرهابيين بالعمل أو بالتهاون معهم ـــ بإخفائهم، والتستر عليهم، وبالصمت ـــ. «ويقال إن هناك شيئا مشابها يحدث ما بين رجال حرب العصابات البيرويين والأميين الكوبيين والبوليفيين. فثمة اشتباكات تقع ما بينهم. الحس القومي أقوى من أي أيديولوجية أخرى، وهذا معروف.» لا أستطيع إلا أن أشعر بالتعاطف مع البريغادير السابق: إنه يقول كل هذه الأشياء بتلقائية، ودون أدنى قدر من الحساسية المتكلفة أو العجرفة، بل وبشيء من الفكاهة.

ويواصل قائلا:

ـــ ما إن سمعوني أقترح مشاركتهم كمتطوعين حتى تحمسوا كلهم. والحقيقة أننا نحن السبعة كنا مثل ظفر ولحمته. أي لعبة أطفال كانت تلك بالمقارنة مع ما يجري الآن، أليس كذلك؟

ـــ أجل، أجل، سنحل محلهم.

ـــ افتح لنا الباب، دعنا ندخل، أجل، بإمكاننا أن نحل محلهم.

ـــ إننا قادرون يا مايتا، إننا قادرون!

ـــ نحن ثوريون وسنحل محلهم.

كان مايتا يراهم، يسمعهم، وكان رأسه فرقعة...فوضى.

ـــ كم كانت أعماركم آنذاك؟

فيقول لي كورديرو اسبينوثا:

ـــ أنا وهواساسكيشي كنا في السابعة عشرة. وكان الآخرون في الخامسة أو السادسة عشرة. وكان ذلك من حسن حظنا. إذ لم يستطيعوا محاكمتنا، لأننا لم نكن نتحمل مسؤولية قانونية. فأرسلونا إلى قاضي الأحداث، حيث لم يكن الأمر على قدر كبير من الجدية. أليس غريبا أن أكون أنا ـــ رائد الكفاح المسلح في البيرو ـــ هدفا عسكريا للإرهابيين الآن؟

وهز كتفيه.

وأقول له:

ـــ أعتقد أنه لم يعد حينئذ أمام مايتا وباييخوس أي قدرة على التراجع بعد أن وصلت الأمور إلى ذلك الحد.

ـــ بل كانت هناك إمكانية للتراجع. فقد كان بمقدور باييخوس أن يخرج الحراس من المهجع الذي حبسهم فيه وأن يقول لهم مؤنبا: «لقد أثبتم أنكم لا تنفعون في شيء، وأنكم مجرد نساء، في حال تعرض السجن لهجوم من قبل المتمردين. لم يستطع أي منكم أن يجتاز الاختبار الذي أخضعتكم له أيها الخصيان.» ـــ وقدم لي الدكتور كورديرو اسبينوثا سيجارة، ووضع سيجارته في مبسم قبل أن يشعلها، وأضاف: ـــ وأنا واثق من أن الحراس كانوا سيبتلعون القصة. وكان بإمكانهما أيضا أن يرسلانا إلى المدرسة وأن يعيدا غونثاليس وكوندوري إلى الزنزانة ويفرا. لقد كان بإمكانهما عمل ذلك. ولكنهما لم يفعلا أيا من الأمرين بالطبع. لأن مايتا وباييخوس على السواء لم يكونا ممن يسمحان بلي ذراعهم. وفي هذا المجال، وعلى الرغم من أن أحدهما أربعيني والآخر تجاوز العشرين، فقد كانا أكثر صبيانية منا.

هذا يعني أن مايتا هو الذي وافق أولا على تلك الفكرة الرومنسية التي لا أساس لها. لقد استمر تردده وحيرته لثوان قليلة فقط. ثم حسم الأمر فجأة. فتح البوابة وقال للفتيان : «بسرعة، بسرعة» وبينما هم يندفعون إلى الفناء، ألقى نظرة على الشارع: «كان خاويا من السيارات ومن الناس، وكانت البيوت مغلقة. لقد استعاد قواه، وأخذت الدماء تسري في عروقه، لم يكن هناك مبرر لليأس. وبعد دخول آخر الفتيان، أغلق البوابة. إنهم هناك: سبعة وجوه متلهفة ومنفعلة. وكان كل من كوندوري وغونثاليس يحمل الآن بندقية ماوزر في يده وينظران إلى الصبية مبهوتين. ظهر باييخوس من وراء أشجار الكرز بعد أن انتهى من جولته التفتيشية على السجناء. وتقدم مايتا للقائه.

ـــ أوبييوث والآخرون لم يحضروا. ولكن لدينا متطوعين للحلول محلهم.

هل توقف باييخوس متفاجئا؟ هل لاحظ مايتا أن وجهه ينقلب إلى تكشيرة؟ هل رأى أن الملازم الشاب يجاهد لإبداء الهدوء؟ هل سمعه يقول بصوت خافت، لامس وجهه برفق، «ألم يحضر أوبييوث؟ وكذلك إثكييل؟ وكذلك لوريتو؟؟»؟

وهزه مايتا من ذراعه:

ـــ لا يمكننا التراجع يا رفيق. لقد علمتك ذلك، لقد نبهتك إلى أنه سيحدث: الممارسة العملية تصفي. لم يعد بالإمكان التراجع بعد أن وصل الأمر إلى هذا الحد. ليس باستطاعتنا ذلك. وافق على قبول الفتيان. لقد تصلبوا بمجيئهم إلى هنا. هل سنتراجع يا أخي؟

كان يقتنع بينما هو يتكلم، وكانت تتكرر، كما في مرة ثانية، تعويذه في مواجهة الوعي: «مثل آلة، مثل جندي.» وكان باييخوس يستمع إليه

صامتاً، أكان متردداً؟ أكان يحاول التأكد من أن ما يقوله هو ما يفكر فيه؟ ولكن عندما صمت مايتا، كان الملازم قد تحول ثانية إلى حزمة الأعصاب المنضبطة والقرارات الفورية. دنا من الفتيان الذين سمعوا الحوار. وقال لهم وهو يدخل بينهم:

ــ يسعدني أن هذا قد حدث. يسعدني ذلك لأنني بفضله عرفت أن هناك شجعاناً مثلكم. أهلاً بكم في النضال أيها الشبان. أريد أن أصافحكم فرداً فرداً.

والواقع أنه بدأ بمعانقتهم، بضمهم إلى صدره. ووجد مايتا نفسه في وسط الجماعة يوزع ويتلقى المعانقات، وكان يرى كذلك، بصورة ضبابية، ثينون غونثاليس وكوندوري وسط الجمع. لقد باغته تأثر عميق. كانت هناك عقدة في حلقه. كان عدد من الفتيان يبكون والدموع تسيل على وجوههم المبتهجة بينما هم يعانقون الملازم ومايتا، وغونثاليس وكوندوري،أو يعانقون بعضهم بعضاً. صرخ أحدهم: «تحيا الثورة»، وصرخ آخر: «تحيا الاشتراكية». وطلب منهم بايبخوس أن يصمتوا.

ــ ربما لم أشعر بالسعادة مثلما شعرت بها في تلك اللحظة ــ يقول لي الدكتور كورديرو إسبينوثا ــ. لقد كان موقفاً بديعاً.. كل تلك السذاجة.. كل تلك المثالية. لقد شعرنا وكأن شعر شواربنا ولحانا قد نما، وكما لو أننا قد صرنا أطول قامة وأكثر قوة. هل تعلم أنه من المحتمل أن أياً منا لم يكن قد دخل الماخور؟ فأنا على الأقل كنت ما أزال بكراً. وبدا لي كما لو أنني أفقد عذريتي.

ــ وهل كان أي واحد منكم يتعرف كيف يستخدم السلاح؟

ــ في التدريب العسكري المدرسي أعطونا بعض دروس الرماية. وربما كان هناك من أطلق النار من بندقية صيد. ولكننا عالجنا مسألة هذا القصور

هناك بالذات. فأول شيء خطر لباييخوس بعد المعانقات هو تعليمنا ما هـــي بندقية الماوزر.

بينما كان الملازم يقدم للفتيان درسا حول استخدام البندقية، أوضــح مايتا ما جرى لكل من كوندوري وثينون غونثاليس. لم يحتجا حين علما أنـه، كما يبدو، لا وجود لأي شخص آخر سينضم إليهم؛ و لم يظهرا السخط حين علما أنهم قد يكونون الثوريين الوحيدين مع هذه الجماعة من الصبية المـــرد. استمعا إليه بوقار، دون توجيه أي سؤال. أمر باييخوس اثنين مـــن الفتيـــان بإحضار سيارتي تكسي. فانطلق فيليثيو تابيا وهواساسكيتشي راكضين. عندئذ جمع باييخوس مايتا والفلاحين. لقد عدل خطـــة العمـــل. سينقســـمون إلى مجموعتين، وسيستولون على المفوضية ومركز الحرس الأهلي. كـــان مايتـــا يستمع، ويتابع بطرف عينه ردود فعل الفلاحين. هل ســـيقول غونثـــاليس: «أترى كيف أنني كنت على حق حين ترددت»؟ لا، لم يقل شيئا؛ لقد كـــان يستمع إلى الملازم، والبندقية في يده، باستغراق لا يمكن سبر أغواره.

وصرخ بيريكو تيموتشي من البوابة:

ـــ هاقد وصلت سيارتا التكسي!

ـــ لم أكن سائق تكسي حقيقيا على الإطلاق ـــ يؤكد لي ذلك الســـيد أوناكا وهو يعرض علي بإيماءات محزنة رفوف دكانه الخاوية الـــتي تكـــون في العادة مترعة بالمواد الغذائية والأدوات المنزلية، ويضيف:ـــ لقد كنـــت علـــى الدوام وصاحب هذا المتجر والبائع فيه. وكان يضم أفضل تشكيلة من البضائع في خاوخا كلها، حتى وإن كنت لا تصدق ذلك.

المرارة تلوي وجهه الأصفر. لقد كان السيد أوناكا ضحيـــة مفضلـــة للمتمردين الذين داهموا محلة مرات عديدة، ويحدد لي: «ثمان مـــرات. والمـــرة

الأخيرة كانت قبل ثلاثة أسابيع، بعد أن كان "المارينـز" قد جاؤوا إلى هنـا. أي أن الأمور بقيت هي نفسها سواء بوجود الغرينغو أو عدم وجودهم. حضر المتمردون إلى المتجر في الساعة السادسة، وكانوا مقنعين. أغلقوا الباب وقالوا: أين تخبئ المؤن أيها الكلب؟ أتقولون أخبئ؟ ابحثوا وخذوا ما تجدونـه. لقـد صرت عاريا بسببكم. لم يجدوا شيئا بالطبع. ألا تريدون أن تأخذوا امرأتي؟ إنها الشيء الوحيد الذي تبقى لي. لم أعد أخافهم، أترى؟ في المرة الأخيرة قلـت لهم: لماذا لا تقتلونني؟ استمتعوا بذلك، أجهزوا على هذا الرجل الذي سممتـم حياته. فقال لي واحد منهم: نحن لا نهدر البارود على طيور الرخمـة العفنـة. وكل ذلك جرى في الساعة السادسة مسـاء، بوجـود شـرطة وجنـود، و"مارينـز" في شوارع خاوخا. أليس هذا دليلا على أنهم جميعهم من طغمـة اللصوص نفسها؟» يزفر، يأخذ نفسا ويلقي نظرة إلى زوجته التي تنحني علـى طاولة الكونتوار محاولة أن تقرأ الصحيفة، ملصقة عينيها بالصفحات. كلاهمـا عجوز هرم جدا.

ويواصل السيد أوناكا قائلا:

ــ بما أنها كانت قادرة وحدها في ذلك الحين على تسيير شؤون المتجر، فقد كنت أقوم بتلبية بعض الطلبات باستخدام سيارتي الفورد كتكسي. وكان هذا هو سوء الطالع الذي ورطني في مسألة بايبخوس. وهكذا أتلفت السـيارة وكان علي أن أنفق ثروة في إصلاحها. ونلت من أجل ذلك ضربة على رأسي شقت حاجبي هذا وسجنت ريثما قاموا بالتحقيقات واكتشفوا أنني لم أكـن متواطئا وإنما ضحية.

إننا في ركن من متجره المفلس، نقف على أقدامنا، كل واحد منا علـى أحد جانبي الكونتوار. وفي الطرف الآخر، ترفع السيدة أوناكا نظرهـا عـن

جريدهما كلما دخل زبون ليشتري شمعاً أو سجائر، وهما الشيئان الوحيدان المتوفران بكثرة كما يبدو في الدكان. الزوجان أوناكا من أصل ياباني ـــ إنهما حفيد وحفيدة مهاجرين ـــ ولكن الناس في خاوخا يدعونهما «الصينيين»، وهو خطأ لا يوليه السيد أوناكا أي اهتمام. كما أنه على عكس الدكتور كورديرو إسبينوثا، لا يأخذ مصائبه على محمل الهزل والفلسفة. يلاحظ عليه أنه قانط، وحاقد على الدنيا. وهو وكورديرو إسبينوثا الشخصان الوحيدان بين العشرات ممن تحدثت إليهم في خاوخا، اللذان يتكلمان على المكشوف عن «الإرهابيين». أما الآخرون، بمن فيهم أولئك الذين كانوا ضحايا اعتداءات، فإنهم يحتفظون بصمت مطبق حول الثوريين.

ـــ كنت قد فتحت المتجر للتو عندما ظهر لي ابن آل تابيا، الذين يسكنون في شارع بيارِيال. لدينا مشوار مستعجل يا سيد أوناكا. يجب نقل سيدة مريضة إلى المستشفى. أدرت محرك السيارة، وجلس أبن آل تابيا الصغير إلى جانبي، وكان ذلك المسرحي الصغير يقول: «أسرع، وإلا فإن السيدة ستموت». وكانت هناك أمام السجن سيارة تكسي أخرى، محملة ببعض البنادق. توقفت وراءها. وسألتُ الملازم بايبخوس: من هي المغمى عليها؟ فلم يرد عليّ. وفي أثناء ذلك، تقدم الآخر، الذي من ليما، أسمه مايتا، أليس كذلك؟ ووجه مسدسه الرشاش إلى صدري: أطع ما تؤمر به إذا كنت لا تريد أن يحدث لك شيء. أحسستُ بأن البراز يخرج مني، واعذرني لهذا التعبير. لقد شعرت عندئذ بالخوف حقاً. كم كنت غبياً. لقد كان لدي آنذاك الكثير من المال. وكان بإمكاني أن أذهب مع زوجتي. لو فعلت ذلك لكنا نمضي الآن شيخوخة هادئة.

صعد كوندوري، ومايتا، وفيليثيو تابيا، وكورديرو اسبينوثا وتيوفيلو ويرتاس إلى السيارة بعد أن حمّلوا نصف الذخائر والأسلحة. وأصدر مايتا

الأمر إلى أوناكا بالانطلاق: «لدى أدنى محاولة منك للفت الأنظار سأطلق عليك النار». كان يجلس في المقعد الخلفي، وكان فمه جافاً تماماً. ولكن يديه كانتا تتعرقان. وإلى جانبه كان البريغادير وبويرتاس يجلسان محشورين فوق البنادق. بينما جلس في المقدمة فيليثيو تابيا مع كوندوري.

ـــ لست أدري كيف لم أصطدم،وكيف لم أدهس أحداً ـــ يهمس فم السيد أوناكا الذي بلا أسنان ـــ. ظننت أهم لصوص، قتلة، هاربين من السجن. ولكن كيف يمكن أن يكون الملازم معهم؟وما الذي يفعله مع القتلة ابن آل تابيا وابن ذلك السيد المتأنق، الدكتور كورديرو؟ قالوا لي إنها الثورة ولست أدري أية أشياء. ما هو هذا؟ كيف يؤكل هذا؟ أمروني بأن آخذهم إلى مركز الحرس الأهلي، في شارع مانكو كاباك. وهناك نزل الذي من ليما وكوندوري والصغير تابيا. وتركوا الاثنين الآخرين لحراستي،وقال لهما مايتا: إذا ما حاول الفرار،اقتلاه. وفيما بعد أقسم الصبيان إن ذلك كله كان تمثيلاً، وإنهما ما كانا سيطلقان النار علي أبداً. ولكننا صرنا نعرف أن الأطفال يمارسون القتل الآن بالفؤوس وبالأحجار وبالسكاكين، أليس كذلك؟ وباختصار، نحن الآن نعرف أشياء كثيرة لم يكن يعرفها أحد في ذلك الحين. اهدءوا يا شباب، انتبهوا كي لا ينطلق الرصاص، أنتم تعرفونني، فأنا لا أستطيع قتل ذبابة، وقد بعتكم بالدَّيْن مرات كثيرة. لماذا تفعلون بي هذا؟ ثم ما الذي سيحدث هناك في الداخل؟ما الذي سيفعله هؤلاء في المركز؟ إنها الثورة الاشتراكية يا سيد أوناكا، ذلك ما قاله لي كورديرو الصغير، هذا الذي أحرقوا بيته ولولا قليل لكانوا نسفوا مكتب المحاماة الذي يخصه. الثورة الاشتراكية! ماذا؟ أي شيء هو هذا؟ أظن أنها كانت المرة الأولى التي أسمع فيها هذه الكلمة.وهناك علمتُ بأن أربعة بالغين وسبعة صبيان قد استولوا على سيارتي الفورد المسكينة من أجل القيام بالثورة الاشتراكية. آي، يا للعنة!

لم يكن هناك حراس عند بوابة المركز، وقد أومأ مايتا إلى كوندوري وفيليثيو تابيا: سيدخل هو أولاً، وعليهما أن يغطيا تحركه. بدا كوندوري هادئاً، أما تابيا فكان شاحباً جداً، ولاحظ مايتا أن يديه صارتا داكنتين بالزرقة بسبب القوة التي يشد بها على البندقية. دخل إلى الغرفة منحنياً وقد نزع مسمار أمان المسدس الرشاش، وصرخ:

ـــ ارفعوا أيديكم وإلا سأطلق النار!

كان في الغرفة شبه المظلمة رجل يرتدي سروالاً وقميصاً داخليين، وقد فوجئ بظهور مايتا وهو يتثاءب، فتجمد تثاؤبه في تعبير أبله. بقي ينظر إليه، ولم يرفع يديه إلا عندما رأى، وراء مايتا، ظهور كوندوري وفيليثيو تابيا وهما يوجهان بندقيتيهما نحوه.

ـــ احرساه ـــ قال مايتا ذلك وركض إلى الداخل. اجتاز ممراً ضيقاً يؤدي إلى فناء ترابي: كان هناك شرطيان يرتديان بنطالَ وجزمة الخدمة ولكن دون القميص، وكانا يغسلان وجهيهما وأذرعهما من صفيحة ماء يخالطه الصابون. ابتسم له أحدهما وكأنه يرى فيه أحد زملائهما.

ـــ ارفعا أيديكما وإلا سأطلق النار! ـــ قال مايتا دون أن يصرخ هذه المرة ـــ ارفعا أيديكما، اللعنة!

انصاع الاثنان، وقلب أحدهما صفيحة الماء على الأرض بحركته المفاجئة، فحول الماء المنسكب التراب قاتماً. وسُمع احتجاج صوت حالم: «يا للصخب الشديد، اللعنة». كم شخصاً هناك في الداخل؟ وكان كوندوري إلى جانب مايتا الذي همس له: «خذ هؤلاء»، ودون أن يرفع بصره عن الغرفة التي خرج منها صوت الاحتجاج. اجتاز الفناء الضيق راكضاً ومنحنياً، ومرّ تحت عريشة نبات متسلق، وعند عتبة الحجرة كبح مايتا عبارة «ارفعوا أيديكم!»

التي كان سيطلقها. لقد كانت الغرفة مهجع الحراس. وكان هناك صفان من الأسرة الضيقة الملتصقة بالجدار، وفي ثلاثة منها رجال مستلقون، اثنان نائمان والثالث يدخن وهو مستلق على ظهره. وكانت تصدر من مذياع إلى جانبه ألحان هواينيتو. حين رأى الرجلُ مايتا ارتعب وقفز ناهضاً وهو يحدق بالمسدس الرشاش.

ـــ ظننت الأمر مزاحاً ـــ تلعثم بذلك وهو يفلت السيجارة ويرفع يديه فوق رأسه.

فقال له مايتا وهو يشير إلى الآخرين النائمين:

ـــ أيقظ هذين. ولا تضطرني إلى إطلاق النار لأنني لا أريد أن أقتلك.

ودون أن يدير الشرطي ظهره أو يرفع عينيه عن السلاح، بدأ يتحرك مجانبة، مثل سرطان، إلى حيث ينام رفيقاه. وهزهما بيده:

ـــ استيقظا، استيقظا، لستُ أدري ما الذي يحدث.

ويقول لي السيد أوناكا:

ـــ كنت أتوقع حدوث إطلاق نار، وصخب عظيم. ورؤية مايتا وكوندوري وابن آل تابيا يترفون دماً، وأن تطلق فصيلة الشرطة النار عليّ معتقدين أنني مع المهاجمين. ولكن لم تُطلق رصاصة واحدة. وقبل أن نعرف ما الذي يحدث في الداخل، جاء التكسي الذي فيه بايبخوس. وكان قد سيطر على مفوضية الشرطة في شارع بوليفار وحبس الملازم الأول دونغو وثلاثة شرطيين في الزنزانة. سألَ الصبيين: هل كل شيء على ما يرام. لا ندري. فتوسلت إليه: دعني أذهب أيها الملازم، فزوجتي مريضة جداً. لا تخف يا سيد أوناكا، إننا بحاجة إليك لأنه لا يوجد بيننا من يحسن قيادة السيارة. وانظر إلى حجم الحماقة: يريدون أن يصنعوا الثورة وهم لا يعرفون حتى كيفية قيادة سيارة.

عندما دخل بايبحوس وثينون غونثـــاليس إلى المركـــز، كـــان مايتـــا وكوندوري وتابيا قد انتهوا من حبس الحراس في المهجع مقيدين إلى الأســـرة. وكانت البنادق والمسدسات مكومة عند المدخل.

قال مايتا براحة حين رآهم يصلون:

ـــ لم تقع أية مشكلة. وماذا عن المفوضية؟

فأجابه بايبخوس:

ـــ لا مشاكل. حسن جداً، أهنئكم. لقد صار لدينا عشر بنادق أخرى.

قال مايتا:

ـــ سنفتقر إلى أيد لحمل كل هذه البنادق.

ورد الملازم بينما هو يتفحص البنادق الجديدة:

ـــ لن نفتقر إلى أفراد. سيكون لدينا فائض منهم في أوتشوبامبا، أليـــس كذلك يا كوندوري؟

إنه لأمر لا يُصدق أن يجري كل شيء بهذه السهولة يا مايتا.

ويتنهد السيد أوناكا:

ـــ حمّلوا كومة أخرى من البنادق في سيارتي الفورد. وأمروني بالتوجـــه إلى مكتب الهاتف وبأن أبقى هناك ولا أغادر.

وتروي لي السيدة أدريانا تييو، وهي عجوز مجعدة وضئيلة، ذات صوت متماسك ويدان معقدتان:

ـــ حين وصلت إلى عملي في ذلك اليوم كانت هناك ســـيارتان وقـــد تعرفت في إحداهما على الصيني صاحب المتجر، ذاك الذي يدعى أوناكا، سائق السيارة. وكانت تبدو على وجهه امارات ظننتُ معها أنه قد استيقظ بقدمـــه اليسرى أولاً أو أنه صيني مصاب بالعصاب. وما إن رأوني قادمة حـــتى نـــزل

بعض الأشخاص ودخلوا معي إلى المكتب. ولماذا سيلفت ذلك انتباهي؟ فحتى السرقات لم تكن تحدث في تلك الأزمنة في خاوخا، فما بالك بالثورات، ولماذا سأنتبه إلى ذلك؟ انتظروا، فالوقت لم يحن بعد. ولكن، وكما لو أنهم سمعوا هطول مطر، قفزوا على حاجز الكونتوار وقلب أحدهم طاولة أسونتيتا آسيس، فلترقد روحها بسلام. ما هذا الذي يحدث؟ ماذا تفعلون؟ ماذا تريدون؟ نريد تعطيل التلغراف والهاتف. انقلعوا خارجا، ستبقونني بلا عمل. هاها، أقسم لك إن هذا هو ما فكرت به. لا أدري كيف ما زالت لدي روح الدعابة بالرغم من هذه الأحداث التي تقع الآن. هل رأيت قلة حياء هؤلاء الغرينغو الذين يقولون إنهم جاؤوا لمساعدتنا؟ إنهم لا يعرفون حتى التكلم بلغة المسيحية، وهم يتجولون ببنادقهم ويدخلون إلى البيوت، يا للعنجهية! كما لو أننا مستعمرتهم. لم يعد هناك وطنيون في بلادنا البيرو ما دمنا نتحمل هذا الإذلال.

حين رأت مايتا وباييخوس يدخلان حجرة عاملة مقسم الهاتف ويبدأان بتخريب لوحة المفاتيح بعقبي بندقيتيهما الرشاشتين وانتزاع كابلات الخطوط، حاولت السيدة أدريانا تييو الخروج إلى الشارع. ولكن كوندوري وثينون غونثاليس أمسكا بها ريثما ينهي الملازم ومايتا التكسير.

وقال باييخوس:

ـــ الآن يمكننا الاطمئنان. فبعد حبس حراس الشرطة وقطع الهاتف لم يعد هناك خطر مباشر. لم يعد من الضروري الانفصال عن بعضنا البعض.

وفكر مايتا بصوت عال:

ـــ أيكون الآخرون قد ذهبوا إلى كيرو على الخيول؟

هز باييخوس كتفيه: بمن يمكن للمرء أن يثق الآن.

ـــ بالفلاحين ـــ دمدم مايتا مشيرا إلى كوندوري وثينـــون غونثـــاليس اللذين كانا قد أفلتا المرأة بناء على إيماءة من الملازم، فخرجت إلى الشـــــارع. وأضاف مايتا:ـــ إذا ما وصلنا إلى أوتشوبامبا، فأنا واثق من أن الفلاحين لــــن يخذلونا.

وابتسم باييخوس:

ـــ سنصل بالطبع. ولن يخذلونا بالطبع.

توجهوا إلى الساحة يا رفاق، أصدر باييخوس الأمر إلى غوالبيرتو برابـــو وبيريكو تيموتشي بأن يأخذا سيارتي التكسي إلى ناصية التقاء ساحة الســـلاح وشارع بولوغنيسي. فهناك ستكون نقطة الاجتماع. ثم وقـــــف علـــى رأس المتبقين وأصدر أمرا كان له وقع في جسد مايتا: «أمام سر!». لا بد أن أولئك البالغين الأربعة والتلاميذ الخمسة المسلحين الذين يسيرون في مشية عســـكرية على الشوارع المرصوفة بالأحجار متوجهين إلى ساحة السلاح كانوا يشكلون جماعة غريبة، لا يمكن وصفها، لا يمكن حدس هدفها، تثير البلبلة. لقد كـــانوا يلفتون الأنظار، يجعلون الناس يتوقفون في الشوارع، ويخرجـــون إلى النوافـــذ والأبواب. ما الذي فكر فيه أهالي خاوخا الذين رأوهم يمرون؟

ـــ كنت أحلق ذقني، لأني في ذلك الحين كنت أستيقظ متأخرا ـــ يقول لي دون خواكين ثاموديو، صانع القبعات السابق، والتاجر السابق الذي تحـــول الآن إلى بائع يانصيب على أبواب خاوخا، ويضيف:ـــ رأيتهم مـــــن غرفـــتي وفكرت في أنهم يتدربون من أجل الاحتفالات بالعيد الوطـــــني. منـــذ الآن؟ أخرجت رأسي من النافذة وسألت: ما هذا الاستعراض؟ وبدلا من أن يـــــرد الملازم على سؤالي، صرخ قائلا: «تحيا الثورة». ورد عليه الجميع كجوقـــــة: «تحيا، تحيا». أي ثورة هذه؟ سألتهم ذلك وأنا أظن بأن هناك لعبة نلعبها. فرد

علي كورديرو الصغير: «إنها الثورة التي نصنعها.. الثورة الاشتراكية». وبعد ذلك عرفت أنهم في تلك الحال التي رأيتهم بها، بمشيتهم وهتافاتهم، كانوا ذاهبين للسطو على مصرفين.

وصلوا إلى ساحة السلاح، ورأى مايتا أن المارة قليلون. وأنهم يلتفتون للنظر إليهم دون مبالاة. وكانت هناك جماعة من الهنود بعباءات بونتشو وحزم يجلسون على أحد المقاعد، فهزوا رؤوسهم وهم يتابعونهم. لم يكن هناك بعد ما يكفي من الناس للقيام بمظاهرة. وكان من المضحك المشي بخطوات منتظمة، ليس كثوريين وإنما كصبية الكشافة. ولكن بايبخوس كان قد قدم المثل، وحذا حذوه الفتيان وكوندوري وغونثاليس، بحيث لم يعد ثمة مفر من مجاراة إيقاع خطواتهم. كان يشعر بإحساس غامض، مزيد من الحماس والجزع، فعلى الرغم من أن رجال الشرطة محبوسون، ومن أن الأسلحة صارت بحوزتهم، وخطوط الهاتف والتلغراف مقطوعة، أليس من الممكن النيل بسهولة من جماعتهم الصغيرة؟ هل يمكن البدء بثورة هكذا؟ ضغط أسنانه. أجل. هذا ممكن. يجب أن يكون ممكنا.

ويقول لي دون إرنستو دوران هواركايا، المدير السابق للمصرف الدولي، الذي يستلقي الآن في سريره في مصح أولافيغويا، شاحبا من داء السرطان الذي ينخر جسمه كله:

ــ دخلوا من الباب الرئيسي، وهم يغنون تقريبا. رأيتهم من النافذة وفكرت بأنهم غير قادرين حتى على ضبط إيقاع خطواتهم، لقد كانت مشيتهم العسكرية سيئة. وبما أنهم كانوا يتوجهون مباشرة إلى المصرف، فقد قلت لنفسي ها قد جاء متطفل آخر بحجة الاحتفال الخيري، أو الاستعراض أو التمثيل. خرجت بدافع الفضول ولكنهم ما إن دخلوا حتى وجهوا إلينا

الأسلحة وصرخ بابيخوس: «لقد جئنا لنأخذ الأموال التي هي ملك الشعب وليست ملكا للإمبرياليين». آه، هذا أمر لا أتحمله. آه، وقد وقفت في وجههم.

ــ بل زحف على أربع تحت طاولته ــ تقول لي أديليتا كامبوس، موظفة المصرف المتقاعدة التي تبيع الآن أشربة أعشاب مغلية ــ. لقد كان فحلا جدا حين يصرخ علينا مؤنبا بسبب تأخر بسيط، أو حين يمد يده عندما تمر إحدانا بجانبه. أما عندما رأى البنادق، زاس، انحنى على أربع واختبأ تحت طاولته، دون أي خجل. هل كان المدير يفعل ذلك، هل كان يلمسنا نحن الموظفين؟ كنا خائفين بالطبع. وكان خوفنا من الصغار أكثر من خوفنا من الكبار. لأنهم كانوا يصرخون مثل خنازير: «تحيا البيرو»، «تحيا الثورة» ولشدة حماسهم كان يمكن أن تفلت منهم رصاصة. أما من خطرت له الفكرة العظيمة فكان أمين الصندوق، العجوز روخاس. ما الذي حل به. أظنه قد مات، أو أنه قتل بكلمة أصح، لأن الناس في هذه الحياة التي تجري في خاوخا، لم يعودوا يموتون، وإنما يقتلونهم. ولا أحد يعرف من هم القتلة مطلقا.

ويقول العجوز روخاس، أمين الصندوق السابق في المصرف الدولي، وهو في جحر احتضاره في ملجأ العجزة في خاوخا:

ــ عندما رأيتهم يقتربون من كوتي، فتحت الصندوق الذي إلى اليسار. وكنت أضع فيه إيداعات ذلك الصباح، ومبلغا بسيطا من أجل رد الفراطة.. مبلغ تافه. رفعت ذراعي وتضرعت بيني وبين نفسي: «فليبتلعوا الطعم أيتها العذراء المقدسة.» وقد ابتلعوه. فقد توجهوا مباشرة إلى الصندوق المفتوح وأخرجوا ما كان فيه: أكثر قليلا من خمسين ألف سول. إنه الآن مبلغ تافه جدا، ولكنه كان لا بأس به في ذلك الحين، وهو مع ذلك مجرد فتات بالمقارنة

مع ما كان موجودا في الصندوق الذي إلى اليمين: ما يقارب مليون سـول لم تكن قد أدخلت بعد إلى الخزنة الرئيسية. لقد كانوا مبتدئين، وليس مثل مـن بدؤوا يأتون فيما بعد. هس، هس، لا تكرر ما قلته لك يا سيدي.

ــ أهذا هو كل شيء؟

وارتجف أمين الصندوق:

ــ أجل، أجل، هذا هو كل شيء. الوقت ما يزال مبكـرا، وليسـت هناك حركة تعامل بعد.

فقاطعه مايتا:

ــ هذا المال ليس لنا وإنما هو للثورة. ــ ثم توجه إلى وجوه الموظفـين غير المصدقة: ــ إنه من أجل الشعب، من أجل من بذلوا عرقهم مقابل هـذا المال. هذه ليست عملية سطو، وإنما هي مصادرة. ليس هناك ما يدعوكم أنتـم إلى الخوف. فأعداء الشـعب هـم أصحـاب المصـارف والأوليغارشـية والإمبرياليون. وأنتم أيضا مستغلون من قبلهم.

فارتجف أمين الصندوق:

ــ أجل، بالطبع. هذا الذي تقوله صحيح يا سيدي.

لدى الخروج إلى الساحة، واصل الفتيان إطلاق الهتافات. ودنا مايتـا الذي كان يحمل كيس النقود من بـاييخوس: فلنذهـب أولا إلى مصـرف الريخيونال، إذ ليس هناك ما يكفي من الناس بعد من أجل إقامـة مـهرجان دعائي. وكان يرى مارة قليلين ينظرون إليهم بفضول، دون أن يقتربوا منهم.

فوافق باييخوس:

ــ ولكن علينا الذهاب بالخطوة السريعة، قبل أن يغلقـوا البـاب في وجهنا.

انطلق يعدو وتبعه الجميع مصطفين بالترتيب نفسه الذي جـاؤوا بـه. وبعد ثوان قليلة، عطل الجري قدرة مايتا على التفكير. لقد عاوده الاختنـاق

والضغط في الصدغين والغثيان،بالرغم من أنهم لم يكونوا يركضون مسـرعين، وإنما ما يشبه التحمية قبل المباراة. وعندما توقفوا بعد كوادرتين أمام مصـرف ريخيونال كان يشعر بأن هناك نجوماً تطفو حول رأسه، وكان فمه مفتوحـاً على مصراعيه.لا يمكنك أن تصاب بالإغماء الآن يا مايتا. دخل مع الجماعـة، ومثلما في حلم، رأى وهو يستند إلى الكونتوار وجه المرأة التي مقابله، وسمـع بابيخوس يوضح: «هذه عملية ثورية، لقد جئنا لنسترد الأموال المسروقة مـن الشعب» وسمع أن هناك من يحتج. ودفع الملازم رجلاً وصفعه. يجب عليـه أن يساعد، أن يتحرك، ولكنه لم يفعل ذلك لأنه كان يعرف بأنه سيسقط أرضـاً إذا ما أفلت ذلك المسند. كان يسند مرفقيه إلى الكونتوار ويوجـه مسدسـه الرشاش إلى جماعة الموظفين ــ كان بعضهم يصرخون ويبدو على بعضهم أنهم يوشكون على التحرك للدفاع عن ذاك الذي احتج ــ رأى كوندوري وثينـون غونثاليس يثبتان ذراعي رجل طاولة المكتب الكبيرة الذي كان بابيخوس قـد ضربه. وكان الملازم يقرّب مسدسه الرشاش منه بحركة متوعدة. وأخيراً وافـق الرجل على فتح صندوق الخزنة الذي كان بجوار طاولتـه. وعندمـا انتـهى كوندوري من نقل الأموال إلى الحقيبة، بدأ مايتا يتنفس بصورة أفضل. كـان عليك أن تأتي قبل أسبوع، لكي يعتاد جسدك شيئاً فشيئاً على المرتفعات، إنك لا تُحسن عمل الأشياء.

وسأله بابيخوس لدى خروجهم:

ــ هل تشعر بالمرض؟

ــ قليل من دوار المرتفعات، بسبب الركض. فلنُقم المهرجان الدعـائي .بمن هم موجودين. يجب علينا إقامته.

وصرخ أحد الفتيان بحماس:

ــ تحيا الثورة.

وزمجر الآخرون:

ــ تحيا!

وسدد أحدهم بندقيته نحو السماء ودوى صوت طلقة. إنها الرصاصة الأولى في هذا اليوم. فحذا الأربعة الآخرون حذوه. ثم داهموا الساحة وهم يهتفون بحياة الثورة، ويطلقون الرصاص نحو السماء ويصرخون بالناس أن يقتربوا.

ــ الجميع قالوا لك إنه لم يكن هناك اجتماع دعائي، لأن أحدا منهم لم يشأ الاستماع إليه. لقد استدعوا الناس الذين كانوا يسيرون في الميدان، وفي محيطه، وعند البوابات، و لم يستجب إليهم أحد ــ يقول لي ذلك انتيرو هويمو، المصور الجوال السابق الذي هو الآن أعمى يبيع أدعية وصور قديسين ومسابح منذ الثامنة صباحا حتى الثامنة ليلا عند بوابة الكتدرائية. ويضيف قائلا:ــ بل إنهم كانوا يتوسلون إلى سائقي الشاحنات العابرة «توقفوا»، «انزلوا»، «تعالوا». فكان هؤلاء يزيدون من سرعتهم مرتابين. ولكن المهرجان الدعائي أقيم. وكنت هناك، رأيته وسمعته. وكان ذلك الزمن سابقا للقنبلة المسيلة للدموع التي شاءت إرادة الرب أن تحرق وجهي. لو أنه جرى الآن لما كان بإمكاني رؤيته، أما في ذلك الحين فقد رأيته. والحقيقة أنه كان مهرجانا لي وحدي.

أهو المؤشر الأول إلى أن الحسابات لم تكن خاطئة فيما يتعلق بالمشاركين في المؤامرة وحسب، وإنما كذلك بشأن أهالي خاوخا أيضا؟ لقد كانت وظيفة الاجتماع الدعائي واضحة تماما في رأسه: إطلاع رجل الشارع على أحداث الصباح، وتوضيح مغزاها التاريخي والاجتماعي للنضال الطبقي، وإظهار العزيمة التي انتفضوا بها، وربما قاموا كذلك بتوزيع جزء من المال على الفقراء. ولكن لم يكن هناك أحد أمام عريشة الساحة التي تسلقها مايتا سوى

المصور الجوال، وجماعة الهنود الصغيرة المتحجرة على أحد المقاعد متجنبة النظر إليهم، والفتيان الخمسة. ودون طائل كانوا يستدعون بأيديـــهم وصرخــاتهم جماعات الفضوليين الواقفين عند ناصية الكتدرائية ومدرسة الكارمن. والذيــن كانوا يركضون هاربين إذا ما حاول الفتيان التوجه نحوهم. أتكون العيـــارات النارية قد أخافتهم؟ أيكون الخبر قد شاع وصاروا يخافون أن يجدوا أنفســـهم متورطين، أو يخشون أن تظهر الشرطة في أي لحظة؟ وهل هنـــاك أي معـــنى لمواصلة الانتظار؟ ووضع مايتا يديه حول فمه وصاح:

ــ لقد انتفضنا ضد النظام البرجوازي لكي يحطم الشعب أغلاله! مـــن أجل وضع حد لاستغلال الجماهير! من أجل توزيع الأرض على من يشتغلون فيها! من أجل وضع حد للنهب الإمبريالي لبلادنا!

فقال له باييخوس وهو يقفز عن سور العريشة:

ــ لا حاجة لأن تمزق حنجرتك. إنهم بعيدون ولن يسمعوك. إننا نضيع الوقت.

انصاع مايتا، ومشى إلى جانبه باتجاه ناصية بولوغنيسي، حيث تنتظـــر سيارتا التكسي تحت حراسة غوالبيرتو برابو وبيريكو تيموتشـــي. حســـن، لم يكن هناك اجتماع دعائي، ولكنه تخلص على الأقل من دوار المرتفعات. هـــل سيتمكنون من الوصول إلى كيرو؟ وهل سيكون هناك من سينتظرونهم ومعـهم الخيول والبغال؟ وسمع باييخوس يقول له، كما لو أن هناك تخاطرا بين الاثنين:

ــ إذا لم نجد رجال ريكران في كيرو فلن تكون ثمة مشـــكلة أيضـــا. فهناك يوجد الكثير من البهائم. إنها قرية لتربية المواشي.

ــ سنشتري الخيول والبغال إذن ــ قال مايتا ذلك وهو يلمس الكيـــس الذي يحمله في يده اليمنى. ثم التفت إلى كوندوري الذي كان يمشـــي وراءه:ـــ كيف هي الطريق إلى أوتشوبامبا؟

فرد كوندوري:

ـــ عندما لا يكون هناك مطر، يكون الطريق سهلا. لقد سلكته ألــــف مرة. إنه صعب في الليل فقط، بسبب البرد. ولكن ما أن تصل الغابــــة حــــتى يصبح مثل الخبز الجاهز للأكل.

غوالبيرتو برابو وبيريكو تيموتشي اللذان كانا يجلسان إلى جانب سائقي التكسي، نزلا لاستقبالهم. كانا يشعران بالحسد لأنهما لم يرافقاهم في مداهمـــة المصرفين، وقالا: «أخبرونا، أخبرونا». ولكن بابيخوس أصدر الأمر بالانطلاق فورا.

ـــ يجب ألا نفترق مهما كان السبب ـــ قال بابيخوس ذلك وهو يدنـو من مايتا الذي كان قد ركب في تكسي السيد أوناكا مع كوندوري والفتيـــان الثلاثة ـــ. لا حاجة إلى الإسراع كثيرا. وإلى اللقاء في مولينوس.

مضى نحو سيارة التكسي الأخرى، وفكر مايتا: «ســـنصل إلى كـــيرو ونحمل البنادق على الدواب، ثم نجتاز سلسلة الجبال، ونترل إلى الغابة حيــث سيستقبلنا الفلاحون في أوتشوبامبا بأذرع مفتوحة. فنسلحهم ونجعـــل منـــها قاعدتنا الأولى.» لا بد له من أن يكون متفائلا. فعلى الرغم مـــن حـــدوث انشقاقات، وعلى الرغم من أن جماعة ريكران لم يظهروا في كيرو، إلا أنـــه لا يستطيع الارتياب. أو لم يجر كل شيء على أحسن حال هذا الصباح؟

ـــ هذا ما كنا نظنه ـــ يقول لي الكولونيل فيليثيو تابيـــا، وهـــو الآن طبيب منتسب إلى الجيش، متزوج وله أربعة أبناء، أحدهـــم معـــاق وآخـــر عسكري جرح في أثناء الخدمة في منطقة آثانغارو؛ إنه في زيـــارة عـــابرة إلى خاوخا، ذلك أنه يجول باستمرار على المراكز الصحية في كل أرجاء خاوخـــا، ويضيف:ـــ كنا نظن أن الحراس والملازم الأول الذين تركنـــاهم محبوســين

سيتأخرون في الخروج، وحيث أن الاتصالات مقطوعة، فإنه سيكون عليهم أن يذهبوا إلى هوانكايو لطلب التعزيزات. وهذا يتطلب خمس أو ست ساعات على الأقل. وفي أثناء ذلك سنكون قد بدأنا النزول باتجاه الأدغال. ومن الذي سيجدنا عندئذ؟ لقد أحسن بايبخوس على خير وجه اختيار المنطقة. إنها المنطقة التي نجد الآن أكبر صعوبة في العمل فيها. إنها مثالية للكمائن. الحمر موجودون هناك، في جحورهم، والطريقة الوحيدة للتعامل معهم هي القصف العشوائي، دك كل شيء، أو الذهاب للبحث عنهم ومواجهتهم بالحراب، والتضحية بأعداد كبيرة من الجنود. لو عرف كم من الرجال فقدنا في تلك المنطقة وحدها، لأصاب الناس الذهول. حسن، أظن أنه لم يعد هناك من يصاب بالذهول لأي سبب في البيرو. ماذا كنا نقول؟ أجل، كنا نظن ذلك. ولكن الملازم أول دونغو خرج من زنزانته على الفور. ذهب إلى مكتب التلغراف ورأى كل شيء مخربا. فهرع إلى المحطة، ووجد التلغراف هناك سليما معافى. أبرق وانطلقت حافلة الشرطة من هوانكايو عندما كنا نغادر خاوخا تقريبا. وبدلا من خمس ساعات، كنا نتقدمهم بساعتين فقط على أبعد تقدير. يا للبلاهة! لأن تعطيل تلغراف محطة القطار لم يكن ليستغرق أكثر من ثانية واحدة.

ــ ولماذا لم تعطلوه إذن؟

يهز كتفيه وينفث الدخان من فمه وأنفه. إنه رجل شائخ، له شاربان ملطخان بالنيكوتين، لاهث. كنا نتكلم في عيادة ثكنة خاوخا، وبين الحين والآخر كان الكولونيل تابيا يلقي نظرة على الصالة المزدحمة بالمرضى والجرحى والذين تتجول بينهم الممرضات.

ــ أتدري أنني لا أعرف؟ أعتقد أنه التخلف. ففي الخطة الأصلية، الخطة التي كان سيشارك فيها حوالى أربعين شخصا على ما أظن، دون أخذنا

نحن الفتيان في الحساب، كانت هناك جماعة ستتولى احتلال المحطة. هذا ما أظن أني أتذكره على الأقل. وفيما بعد، في فوضى تبديل الخطط، لم يخطر الأمر لباييخوس. أو ربما أن أحدا لم يتذكر أن هناك جهاز تلغراف في محطة القطار. وما حدث هو أننا انطلقنا مطمئنين ومعتقدين أن لدينا كل الوقت الذي في الدنيا.

الحقيقة أنهم لم يكونوا مطمئنين جدا. فعندما انطلق السيد أوناكا بالسيارة (متباكيا وقائلا إنه لا يستطيع الذهاب حتى مولينوس بينما زوجته مريضة، وإن محرك السيارة بحاجة إلى مزيد من البنزين من أجل الوصول إلى هناك)، وقعت حادثة الساعاتي. لقد رآه مايتا يبرز فجأة وهو يرغي ويزبد مثل ثور هائج من البوابة الزجاجية الصغيرة المكتوب عليها بحروف قوطية: «ساعات ومجوهرات بيدرو باوتيستا لوثادا». كان رجلا مسنا، نحيلا، يضع نظارة، وكان وجهه محمرا من الغضب ويحمل في يده بندقية صيد. هيأ مايتا مسدسة الرشاش، ولكن امتلك ما يكفي من برود الأعصاب لكي لا يطلق النار، ذلك أنه على الرغم من أن الرجل كان يزمجر كمن به مس من الجنون، إلا أنه لم يكن يصوب بندقيته نحوهم. بل كان يهزها وكأنها عكاز:

ــ لن تخيفوني أنا يا شيوعيي البراز ــ كان يتعثر على رصيف الشارع، ونظارته تتقافز على أنفه ــ يا شيوعيي البراز، ترجلوا إذا كنتم تملكون خصيات، اللعنة!

ــ تابع، لا تتوقف ــ أمر مايتا السائق وهو يربت على كتفه. لحسن الحظ أن أحدا لم يوجه رصاصة إلى هذا النزق. «هذا الإسباني»، ويضحك فيليثيو تابيا: «ما الذي تعنيه كلمة ترجلوا؟»

ــ جميع أهالي خاوخا يقولون إنك أكثر شخص مسالم في الدنيا يا دون بيدرو، شخص لا يتدخل مع أحد. فلماذا خرجت في ذلك الصباح لتشتم الثوريين؟

ـــ لا أدري ما الذي أصابني ـــ يخن دون بيدرو باوتيستا لوثادا بفمه اللعابي الذي بلا أسنان، وهو تحت دثار من وبر الفيكونيا، على كرسي محل الساعات الذي أمضى فيه أكثر من أربعين سنة منذ مجيئه إلى خاوخا،ويضيف قائلاً:ـــ أو أن الأمر أثار غضبي بكلمة أصح. لقد رأيتهم يدخلون إلى المصرف الدولي ويأخذون النقود في كيس. ولكن ذلك لم يهمني. ثم سمعتهم بعد ذلك يطلقون الهتافات الشيوعية والعبارات النارية، دون أن يفكروا بأنه يمكن للرصاصات الطائشة أن تسبب نكبات. أي جنون هذا؟وهكذا تناولت بندقية الصيد، هذه التي أضعها ما بين ساقيّ تحسباً للزيارات الخبيثة. وقد اكتشفت فيما بعد بأنني لم أكن قد حشوتها.

إن الغبار في المحل، والموجودات التافهة، والفوضى، وشيخوخة الرجل التي لا تُصدق، تذكرني كلها بفيلم رأيته في طفولتي:**الساحر العجيب**. فوجه دون بيدرو هو حبة زبيب وحاجباه كتان وهائلان. لقد أخبرني بأنه يعيش وحيداً وأنه يُعدّ طعامه بنفسه، لأن مبادئه تمنعه من استخدام الخدم.

ـــ أخبرني أمراً آخر يا دون بيدرو. عندما وصل رجال الشرطة من هوانكايو ومعهم الملازم أول دونغو بدؤوا يبحثون عن أدلاء لكي يقتفوا أثر المتمردين، فرفضت أنت الذهاب معهم. أو لم تكن غاضباً جداً منهم؟ أم أنك لم تكن تعرف شعاب سلسلة جبال خاوخا؟

ـــ إنني أعرفها أفضل من أي شخص آخر، بحكم كوني صياد غزلان جيد ـــ يريل ويتلعثم، ويمسح الماء الذي يسيل من عينيه ـــ. ولكن على الرغم من أنني لا أحب الشيوعيين، فإنني لا أحب الشرطة أيضاً. وأنا أتكلم عن الماضي، لأني وأنا في هذه السن، لم أعد أعرف بوضوح ما يعجبني يا صاحبي. لم يبق لدي سوى عدد قليل من الساعات وهذا اللعاب الذي يسيل بسبب

افتقاري إلى الأسنان. إنني فوضوي وسأموت على ذلك. إذا ما اجتاز أحدهم هذا الباب بنوايا خبيثة، سواء أكان إرهابياً أو مخبراً، فستنطلق عليه بندقية الصيد هذه. فلتسقط الشيوعية، اللعنة. والموت للشرطة.

مرّت سيارتا التكسي إحداهما ملتصقة بالأخرى، من ساحة سانتا إيسابيل، حيث كان يفترض أن ينقلوا إلى شاحنة ريكران الأسلحة التي استولوا عليها من السجن والمفوضية ومركز الحرس الأهلي. ولكن أحداً لم يتحسر على ذلك التبدل ممن هم حول مايتا، في السيارة المزدحمة التي لا يكادون يستطيعون التحرك فيها. لم يتوقف الفتيان عن تبادل المعانقات وإطلاق الهتافات. وكان كوندوري يراقبهم بتحفظ، دون أن يشارك في الحماس. وبقي مايتا صامتاً. ولكن تلك السعادة والحماس كانا يهزانه. وقد كان هناك في سيارة التكسي الأخرى مشهد مماثل دون شك. ولكنه كان في الوقت ذاته متنبهاً إلى عصبية السائق، وقلقاً للرعونة التي يقود بها السيارة. لقد كانت السيارة تتقافز وتهتز، وكان السيد أوناكا يدخل في كل الحفر ويهجم على كل الأحجار ويبدو مصمماً على صدم كل الكلاب أو الحمير أو الخيول أو الأشخاص الذين يمر بهم. أهو الخوف أم أنه تكتيك مدبر؟ أكان يهيئهم لما حدث بعد ذلك؟ عندما خرجت السيارة فجأة عن الطريق، وهم على بعد بضع مئات من الأمتار فقط عن خاوخا، واصطدمت بحاجز حجري محاذ للمنخفض، فسحقت واقية العجلات، وجعلت الركاب يرتطمون ببعضهم البعض وبالأبواب والزجاج، وظن الخمسة أن السيد أوناكا قد فعل ذلك متعمداً. أنبوه، وشتموه، ووجه إليه كوندوري لكمة شقت حاجبه. ولدى الخروج من السيارة، شمّ مايتا شذى أكاليبتوس يحمله نسيم بارد من الجبال المجاورة. وكانت سيارة بايخوس تقترب منهم متراجعة وهي تثير سحابة من الغبار المائل إلى الحمرة.

ـــ تلك المزحة كلفتنا تبديد ربع ساعة، وربما أكثر. ـــ يقول لي خـــوان روساس المقاول، وسائق الشاحنة، وصاحب قطعـــــة أرض لزراعـــة الفـــول ودرنات الأويوكو، والذي يمضي الآن فترة نقاهة في بيت صهره في وســـــط خاوخا بعد عملية فتاق أجريت له ـــ. انتظرنا مرور سيارة أخرى لتحل محـــل سيارة الصيني. ولكن لم يمر ولا حتى حمار. إنه سوء حظ صاف، لأن ذلــــك الطريق لا يخلو عادة من الشاحنات الذاهبة إلى مولينوس أو كـــيرو أو بوينـــا بيستا. أما في ذلك اليوم، فلا شيء. فقال مايتا لبايبخوس: «واصل التقدم مـــع جماعتك ـــ وكنت أنا في تلك الجماعة ـــ واشتر الخيول.» لأن أحدا لم يعـــد يعتقد بأننا سنجد رجال ريكران ينتظروننا في كيرو. و لم يوافق بايبخوس علـــى ذلك، وبقينا جميعنا. وأخيرا ظهرت شاحنة. كانت جديدة تقريبا، وخزانهـــــا ممتلئ بالوقود، وإطاراتها مجددة. لحسن الحظ. أوقفناها، وجرى جدل، فالسائق لم يوافق، وكان علينا أن نخيفه. وأخيرا صادرنا الشـــــاحنة. جلـــس المـــلازم وكوندوري وغونثاليس في المقدمة. وتسلق مايتا إلى القسم الخلفي مع العامـــة، أي معنا، ومع كل البنادق. كان الانتظار قد أقلقنا، ولكننا ما إن انطلقنا حـــتى عدنا من جديد إلى الغناء.

كانت السيارة تتقافز في الدرب الممتلئ بالحفر بينما الفتيان بشـــعورهم المشعثة وقبضاتهم المرفوعة يطلقون الهتافات بحياة البيرو والثورة الاشـــــتراكية. وكان مايتا يجلس على حافة صندوق الشاحنة، ينظر إليهم. وفجأة خطر له أن يقول:

ـــ ولماذا لا ننشد **النشيد الأممي** يا رفاق؟

وافقت الوجوه الصغيرة المعفرة بغبار الطريق، وقال بعضهم: «أجـــــل، أجل، فلننشده.» ثم فهم الوضع في الحال: ليس هناك بينـــــهم مـــن يعـــرف

الكلمات، أو من سمع من قبل **بالنشيد الأممي**. لقد كانوا هناك، تحت سماء سلسلة الجبال النقية، بزيهم المدرسي المجعد، ينظرون إليه وينظرون إلى بعضهم بعضاً،وكل واحد منهم ينتظر أن يبدأ الآخرون الغناء. أحس بدفقة حنان تجاه الصبيان السبعة. ما زالت أمامهم سنوات ليصبحوا رجالاً، ولكنهم تخرجوا كثوريين. إنهم يجازفون بكل شيء في هذا اللا وعي الرائع لسنوات عمرهم الخمس عشرة أو الست عشرة أو السبع عشرة، بالرغم من أنهم يفتقرون إلى التجربة السياسية ولأي شكل من أشكال التكوين الأيديولوجي.أوليسوا أثمن من ثوريي **ح ع ث (ت)** المجربين الذين بقوا هناك في ليما، أو من مدعي المعرفة الدكتور أوبييوث وفرقه العمالية-الفلاحية التي تبخرت صباح هذا اليوم بالذات؟ أجل، فقد اختاروا الممارسة العملية. وأحس برغبة في معانقتهم.

ـــ أنا سأعلمكم كلمات النشيد ـــ قال وهو ينهض في الشاحنة المتأرجحة ـــ. فلنغن، غنوا معي. يحيا فقراء العالم...

صارخون، زاعقون، هائجون، منفجرون بالضحك للأخطاء والنشاز، محيين بالقبضة اليسرى المرفوعة عالياً، وهاتفين للثورة، والاشتراكية، والبيرو، رأى مرورهم البغالون والفلاحون في المناطق المحيطة بخاوخا، والمسافرون القليلون الذين كانوا ينزلون نحو المدينة ما بين شلالات وأشجار تشاغوال وارفة، عبر ذلك الاختناق الصخري الرطب الذي ينزل من كيرو إلى عاصمة المقاطعة. حاولوا إنشاد **النشيد الأممي** لوقت لا بأس به، ولكنهم لم يتمكنوا من التقاط الإيقاع الموسيقي بسبب سمع مايتا. وأخيراً تخلوا عن ذلك. وانتهى بهم الأمر إلى ترتيل النشيد الوطني ونشيد مدرسة سان خوسيه دي خاوخا الوطنية. وهكذا وصلوا إلى جسر مولينوس. ولكن الشاحنة لم تتوقف. فأوقفها مايتا بالطرق على سطح قمرة القيادة.

ــ ماذا هناك؟ ــ قال بايبخوس وهو يطل برأسه من الباب الموارب.

ــ ألم يكن علينا أن ننسف هذا الجسر؟

فقال الملازم بإيماءة كوميدية:

ــ أننسفه بأيدينا؟ لقد بقي الديناميت مع أوبيوث.

وتذكر مايتا بأن بايبخوس كان يصر في كل المحادثات التي جرت على ضرورة نسف الجسر؛ فبقطعه يتوجب على رجال الشرطة أن يصعدوا إلى كيرو مشيا على الأقدام أو على الخيول، مما سيوفر لهم مزيدا من الفرص.

طمأنه بايبخوس:

ــ لا تقلق. إننا متقدمون كفاية. واصلوا الغناء، لأنه يبهج الرحلة.

انطلقت الشاحنة من جديد، وعاد الفتيان السبعة إلى أناشيدهم ومداعباتهم. ولكن مايتا لم يشاركهم. جلس على سطح قمرة القيادة، وبينما كان يرى مرور مشهد الأشجار الضخمة، سمع خرير الشلالات وتغريد عصافير الخيلغويرو ، وأحس بالهواء النقي يملأ رئتيه بالأوكسجين. المرتفعات لم تعد تزعجه. وعلى هدهدة سعادة أولئك المراهقين، بدأ يتخيل: كيف ستصبح البيرو خلال بضع سنوات؟ ستكون مثل خلية نحل تعج بالشغل، وستنعكس، على مستوى البلاد، أجواء هذه الشاحنة المهتزة بمثالية هؤلاء الفتيان. فمثلهم سيشعر الفلاحون الذين سيصبحون أسياد أرضهم، والعمال الذين سيكونون سادة مصانعهم، والموظفون الذين سيعون بأنهم يخدمون المجتمع كله وليس الإمبريالية ولا المليونيريين ولا الزعماء أو الأحزاب المحلية. وبإلغاء أشكال التمييز والاستغلال، وترسيخ دعائم المساواة بإلغاء الوراثة، واستبدال الجيش الكلاسيكي بالميليشيات الشعبية، وتأميم المدارس الخاصة ومصادرة كل الشركات والمصارف والمتاجر والعقارات المدينية، سيشعر ملايين البيرويين بأنهم يتقدمون حقا، وأشدهم فقرا أولا وقبل الجميع.

وسيشغل الوظائف العامة من يبذلون جهدا أكبر، ومن هم أكثر موهبة وثورية، وليس من هم أكثر ثراء وأوسع اتصالات، وفي كل يوم ستضيق أكثر فأكثر الهوة التي تفصل ما بين البروليتاريين والبرجوازيين، وما بين البيض والهنود والزنوج والأسيويين، وما بين الساحليين والجبليين وسكان منطقة الأدغال، وما بين الناطقين بالإسبانية والناطقين بالكيتشوا، وسيشارك الجميع، باستثناء الجماعة الصغيرة التافهة ممن هربوا إلى الولايات المتحدة أو ممن ماتوا وهم يدافعون عن امتيازاتهم، سيشاركون في الجهد الإنتاجي العظيم من أجل تطوير البلاد والقضاء على الأمية والمركزية الخانقة. وستأخذ ضبابية الدين بالانقشاع مع التنامي المنهجي للعلم. وستحول المجالس العمالية الفلاحية على مستوى المصانع والمزارع الجماعية والوزارات دون النمو غير المحسوب وما يتبعه من تبلور بيروقراطية تجمد الثورة وتبدأ بمصادرتها لمصلحتها الخاصة. ما الذي سيفعله هو في ذلك المجتمع الجديد إذا ما قيض له أن يبقى على قيد الحياة؟ لن يقبل أي منصب مهم؛ لن يقبل وزارة ولا قيادة عسكرية ولا منصبا دبلوماسيا. وإنما سيوافق في أبعد الحدود على تولي مسؤولية سياسية، في القاعدة، وربما في الريف، في مزرعة جماعية في جبال الأنديز أو مشروع إعماري في منطقة الأمازون. وستبدأ بالاختفاء شيئا فشيئا الأحكام المسبقة الاجتماعية والأخلاقية والجنسية، وفي بوتقة العمل والإيمان بالمستقبل تلك التي ستتحول إليها البيرو، لن يهتم به أحد إذا ما عاش مع أناتوليو ــ ذلك أنهما سيكونان قد تصالحا ــ وسيكون واضحا تقريبا أنهما متحابان ومستمتعان كل منهما مع الآخر، على انفراد، ومتحرران من النظرات الفضولية، مع بعض التكتم اللازم. ولمس مقدمة سرواله خفية بقبضة سلاحه. إنه لأمر بديع، أليس كذلك يا مايتا؟ بديع جدا. ولكن، كم يبدو بعيدا...

الفصل التاسع

قرية كيرو هي واحدة من أقدم قرى خونين، وهي مثلما كانت قبل خمس وعشرين سنة، ومثلما كانت منذ قرون، تزرع البطاطا، والأويكا، والفول والكوكا وترعى مواشيها في القمم التي يتم الصعود إليها من خاوخا عبر درب شديد الوعورة. فإذا لم تكن الأمطار قد غمرت الطريق بمستنقعات، فإن الرحلة تستغرق نحو ساعتين. الحفر والمطبات تحول الشاحنة إلى بغلة شرسة، ولكن المشهد يعوض عن ذلك: فج صخري ضيق، تحيط به جبال توائم، موازية لنهر مزبد متواثب يسمى أولاً مولينوس، ثم يصبح اسمه كيرو بالقرب من القرية.أشجار كينغوالي ذات أغصان وارفة وأوراق تجعلها رطوبة النهار أشد خضرة تخط الطريق نحو القرية الصغيرة المتطاولة التي دخلناها عند الضحى.

لقد سمعتُ في خاوخا روايات متناقضة حول ما سأجده في كيرو. إنها في منطقة متأثرة مباشرة بالحرب التي شهدت في هذه السنوات اغتيالات وإعدامات متواصلة، وعمليات تمدد سواء من جانب المتمردين أو من جانب القوى المناهضة للتمرد.فكيرو حسب قول البعض تخضع لسيطرة الثوار الذين حصّنوا الساحة. بينما يقول آخرون إن الجيش قد نشر فيها كتيبة مدفعية،بل وأقام فيها كذلك معسكراًللتدريب يعمل فيه مستشارونِ أمريكيون شماليون. وقد أكد لي أحدهم بأنهم لن يسمحوا لي مطلقاً بالدخول إلى كيرو، لأن

الجيش يستخدم المكان كمعسكر اعتقال ومركز تعذيب. «إنهم يـــأخذون إلى هناك المعتقلين من كل أنحاء وادي مانتارو لإجبارهم على الكلام باســـتخدام أكثر أساليب التعذيب تطوراً، ومن هناك تنطلق بهم طائرات الهليكوبتر، بعـــد عصرهم بالتعذيب، لتلقي بهم أحياء في الأدغال، ليكونوا عبرة للحمر الذيـــن هم، حسب تقديرهم، ينظرون من أسفل.» إنها خرافات. فليس هناك في كيرو أي أثر للمتمردين أو الجنود. و لم يفاجئني كذلك هذا التكذيب الواقعي الجديد للإشاعات:فالمعلومات في البلاد لم تعد أمراً موضوعياً، بل تحولت إلى خيـــال، سواء في الصحف والإذاعة والتلفزيون أو في أفواه الناس. «الإعلام»بيننـــا الآن صار يعني تفسير الواقع وفق الرغبات والمخاوف والمصالح، إنه شيء يصبـــو إلى ملء الجهل حول ما يجري، ونحن نتقبله في دخيلتنا كأمر نهائي ولا مفر منـــه. وحيث أنه من المستحيل معرفة ما يجري حقاً، فإن البيرويين يكذبون، يختلقون، يحلمون، يلتجئون إلى الوهم. لقد تحولت الحياة في البيرو،حيث قلة هم الذيـــن يقرؤون، إلى حياة أدبية عبر أقل الدروب توقعاً. فكيرو الواقع التي أطأهـــا الآن لا تتفق مع الروايات المتخيلة التي سمعتها عنها. فليس هناك من أثر للحـــرب أو للمقاتلين من هذا الفريق أو ذاك. لماذا القرية مقفرة هكذا؟ يُفترض أن يكـــون جميع الرجال الذين هم في سن مناسبة للقتال قد انضمـــوا إلى الجيـــش أو إلى حرب العصابات، ولكن ليس هناك من وجود حتى للشيوخ والأطفال. لا بـــد أنهم يعملون في الحقول أو أنهم في بيوتهم؛ لا شك في أن كل غريـــب يـــأتي يخيفهم. وبينما أنا أجتاز الكنيسة الصغيرة المشيدة في عـــام ١٩٤٦، ببرجـــها الحجري وسقفها القرميدي، وعريشة الساحة المستديرة المحاطة بأشجار ســـرو وأكاليبتوس، أحس بأنها قرية شبحية. أتكون هذه هي صورة كيرو التي وصلها الثويون في ذلك اليوم؟

ــ كانت هناك شمس مشرقة، وكانت الساحة تغص بالناس لأنه كان يوم عمل ــ يؤكد لي ذلك دون أوخينيو فيرناندث كريستوبال، وهو يشير بعكازه إلى السماء المشحونة بغيوم رمادية: ــ وكنتُ أقف هنا، في هذه الفسحة. وقد ظهروا من تلك الناصية. في مثل هذه الساعة تقريباً.

كان دون أوخينيو في ذلك الحين يشغل وظيفة قاضي سلام كيرو. وهو الآن متقاعد. والأمر العجيب هو أنه، بعد الأحداث التي كان متورطاً فيها حتى الرقبة ــ على الأقل منذ مجيء بابيخوس ومايتا وكوندوري وثينون غونثاليس ومعيتهم من الأطفال السبعة ــ، قد عاد إلى ممارسة مهماته القضائية وعاش عدة سنوات في كيرو إلى أن بلغ سن التقاعد. إنه يسكن الآن في محيط خاوخا. وهو لم يضطرني إلى التوسل إليه من أجل مرافقتي إلى كيرو، على الرغم من الإشاعات الكارثية حول أوضاع المنطقة. بل قال لي: «لقد كنت محباً للمغامرات على الدوام». وهو لم يضطرني إلى التوسل كذلك من أجل الإشارة إلى ذكرياته عن ذلك اليوم، أهم يوم في حياته المديدة. إنه يجيب على أسئلتي بسرعة وبثقة تامة، حتى في التفاصيل التافهة. وهو لا يبدي التردد، ولا التناقض، ولا يترك خيوطاً مفلتة يمكن لها أن توقظ الشكوك حول ذاكرته. وهذه ليست بالمأثرة الضئيلة لثمانيني لا يراودني أدنى شك كذلك في أنه يخفي أو يحرّف أشياء مهمة. ماذا كان دوره بالضبط في تلك المغامرة؟ لا أحد يعرف ذلك بصورة مؤكدة. وهل يعرف هو نفسه ذلك أم أنه انتهى إلى الاقتناع أيضاً بالرواية التي صاغها هو نفسه؟

ــ لم يلفت وصولهم انتباهي، لأنه لم يكن مستغرباً مجيء شاحنات إلى كيرو محملة بأناس من خاوخا. نزلوا هناك، بالقرب من بيت تاديو كانتشيس. وسألوا أين يمكنهم أن يأكلوا. لقد كانوا جائعين جداً.

ـــ أو لم يلفت انتباهك أنهم مسلحون يا دون أوخينيو؟ وأنهم أحضـــروا معهم في الشاحنة أسلحة كثيرة، فضلاً عن أن كل واحد منهم يحمل بندقية؟

ـــ سألتهم عما إذا كانوا ذاهبـــين إلى الصيـــد ـــ يـــرد علـــيّ دون أوخينيو:ـــ لأن هذا الوقت غير مناسب لصيد الغزلان أيها الملازم.

ويقول إن باييخوس قد قال له:

ـــ نحن ذاهبون للتدرب على الرماية أيها القاضي. هناك في الأعلـــى، في البامبا.

ويتساءل دون أوخينيو:

ـــ ألم يكن من الطبيعي أن يأتي بعض فتيان مدرسة سان خوسيه لإجراء تدريبات حربية؟ أليس لديهم دروس في التدريب العسكري؟ أوليس المــــلازم عسكرياً؟ وقد بدا لي الجواب أكثر من مُرْضٍ.

ـــ أتريد أن أخبرك أمراً؟ حتى هنا لم أكن قد فقدتُ الأمل.

فابتسم باييخوس:

ـــ الأمل بأن يكون رجال ريكران بانتظارنا هنا على خيولهم؟

واعترف مايتا:

ـــ وكذلك الأفطس أوبييوث والمنجميون. أجل، لم أكن قد فقـــدت الأمل.

كان يتفحص مرة بعد أرى ساحة كيرو الصغيرة الخضراء كما لو أنـــه يريد، بقوة الإرادة، أن يجسد الغائبين. كان جبينه مقطباً وفمه يرتعش. وبعيـــداً عنه بعض الشيء كان كوندوري وغونثاليس يتبادلان الحديث مع جماعة مـــن الفلاحين. أما الفتيان فبقوا إلى جانب الشاحنة لحراسة البنادق.

ـــ لقد غرسوا الخنجر في ظهرنا إذن. ـــ أضاف ذلك بصوت لا يكـــاد يكون مسموعاً.

فقال قاضي السلام بجانبه:

ـــ إلا إذا كان هناك عائق آخّرهم في الطريق.

وقال مايتا:

ـــ ليست هناك أي عقبات، إنهم غير موجودين لأنهم لم يشاؤوا المجيء. و لم يكن علينا انتظار شيء آخر منهم أيضاً. لماذا نضيع الوقت في التحسـر. لم يحضروا و كفى، ما أهمية ذلك.

فربت باييخوس على كتفه:

ـــ هذا الكلام يعجبني. فمن الأفضل أن نكون وحدنا من أن نكون مع رفاق سوء، اللعنة.

بذل مايتا جهداً. لا بد من تجاوز هذا القنوط. يجب البدء بالعمل. من أجل الحصول على البهائم، وشراء المؤن، ومواصلة الطريق. فكرة واحدة يجب أن تكون في الرأس يامايتا: اجتياز سلسلة الجبال والوصول إلى أوتشـوبامبا. حين يصلون إلى هناك سيكونون في أمان، وسيتمكنون من تعزيز كوادرهم، ومراجعة استراتيجيتهم بهدوء. لقد كان دوار المرتفعات قد تلاشى حين كان جالساً دون حراك في الشاحنة، ولكنه عندما بدأ التحرك الآن في كيرو، عاد يشعر بالضغط في الصدغين، وبالتسرع في القلب، وبعدم الاستقرار والدوار. حاول إخفاء ذلك وهو يجوب بيوت كيرو ما بين باييخوس وقاضي السلام، للتقصي عمن يمكنه أن يؤجرهم بعض الدواب. أما كوندوري وثينون غونثاليس اللذان كان لهما معارف في القرية، فذهبا ليوصيا على بعض الطعام ولشراء المؤن. نقداً بالطبع.

كان عليه أن يعقد اجتماعاً دعائياً هنا، لكي يشرح عملية التمرد للفلاحين. ولكنه استبعد الفكرة دون الحاجة إلى تبادل أي كلمة حول

الموضوع مع بابيخوس. فهو لا يريد تذكير الملازم بهذا الأمر بعد الإخفاق الذي لقيه في الصباح. لماذا هذا القنوط؟ لم تكن هناك وسيلة ليزيحه عن كاهله. كانت بهجة الطريق قد حررته من التفكير. وها هو يعود الآن، مرة بعد أخرى، إلى التفكير في وضعهم: أربعة راشدين وسبعة مراهقين مصرين على السير قدماً في تنفيذ خطط تنهار في كل خطوة. هذه الهزامية يا مايتا، وهي طريق الإخفاق. يجب أن تكون مثل آلة، تذكر ذلك. ابتسم وأبدى وجهه امارات فهم ما يقوله بالكيتشوا قاضي السلام والمرأة صاحبة البيت الذي توقفوا أمامه. كان عليه أن يتعلم الكيتشوا قبل الفرنسية.

يعب دون أوخينيو نفساً أخيراً من عقب سيجارته ويقول:

ـــ لقد أصروا على البقاء وقتاً طويلاً هنا. كم من الوقت؟ ساعتان على الأقل. وصلوا في حوالى الساعة العاشرة وغادروا بعد منتصف النهار.

كان عليه أن يقول «غادرنا». أو لم يذهب معهم؟ ولكن دون أوخينيو، وعلى الرغم من تجاوزه الثمانين، لا يقترف مطلقاً أدنى زلة لسان يمكن أن توحي بأنه كان متورطاً مع المتمردين. إننا تحت العريشة في الساحة، يحاصرنا مطر متماد تسكبه على القرية السحب الرصاصية المحدبة. وابل كثيف وسريع، تلاه قوس قزح بديع. عندما تصحو السماء، يتواصل هطول مطر خفيف، غير مرئي، أشبه برذاذ ليما يُلمِّع أعشاب ساحة كيرو الصغيرة. وشيئاً فشيئاً ينبعث الفلاحون الذين مازالوا يعيشون في القرية. يطلّون من البيوت، مثل صور غير واقعية: هنديات ضائعات تحت تنانيرهن المتعددة، صبية يضعون قبعات، فلاحون عريقون جداً ينتعلون الصنادل. يقتربون ليحيوا دون أوخينيو، ويعانقوه. ويبتعد بعضهم بعد أن يتبادلوا بضع كلمات معه، ويبقى آخرون معنا. يسمعونه يتذكر ذلك الحدث البعيد، فيهزون رؤوسهم أحياناً بصورة

طفيفة؛ ويدلون في أحيان أخرى بتعليقات قصيرة. ولكن عند محاولة الاستفسار عن أمر حول الوضع الحالي، يلزمون جميعهم الصمت المطبق. أو أنهم يعمدون إلى الكذب: لم يروا جنوداً ولا رجال حرب عصابات، ولا يعرفون شيئاً عن الحرب. وعلى حد تقديري، ليس هناك بينهم أي رجل أو امرأة في سن مناسبة للقتال. أما قاضي سلام كيرو السابق، بصدريته المشدودة جيداً، وقبعته القماشية الغاطسة حتى عينيه، وكتفي سترته اللامعة والواسعة كثيراً، فيبدو مثل شخصية من الحكايات، مثل جني أفرزته هذه الجبال الأنديزية. لصوته رنة معدنية، وكأنه يخرج من نفق منجمي.

ـــ لماذا تأخروا طويلاً في كيرو؟ ـــ يتساءل، وإبهاماه محشوران في عروتي الصدرية وهو يتأمل السماء وكأن الجواب على سؤاله موجود في السحب ـــ لأنه لم يكن من السهل عليهم الحصول على الدواب. فالناس هنا لا يمكنهم التخلي عن وسيلة عملهم. لا أحد يريد تأجير البهائم، حتى ولو عُرضت عليهم مبالغ جيدة. وأخيراً أقنعوا دونيا تيوفراسيا؟ ـــ تُسمع دمدمة وعبارات بالكيتشوا، وترسم النساء إشارة الصليب ـــ. آه، ماتت. في القصف؟ لقد كان رجال حرب العصابات هنا إذن يا أماه. كانوا قد ذهبوا؟ هل مات كثيرون؟ ولماذا أعدمت الميليشيا ابن دونيا تيوفراسيا؟

وبفضل هوامش دون أوخينيو بالاسبانية على حواره بالكيتشوا مع الفلاحين آخذ بفهم الحدث الذي يدخله الحاضر على قصة مايتا. لقد كان رجال حرب العصابات في كيرو وقد «أعدموا» عدة أشخاص، من بينهم ابن دونيا تيوفراسيا. ولكنهم كانوا قد غادروا عندما حلقت طائرة فوق القرية، وأطلقت زخات من الرصاص. وبين الضحايا سقطت دونيا تيوفراسيا التي خرجت لترى ما يحدث عندما سمعت صوت الطائرة. لقد ماتت عند بوابة الكنيسة.

ويعلق دون أوخينيو:

ـــ أي أن تلك المسكينة قد انتهت نهاية سيئة. لقد كانت تعيش في هـذا الزقاق. وكانت حدباء وساحرة إلى حد ما، مثلما تقول الإشاعات. حســن، هي التي وافقت على تأجيرهم الدواب، بعد أن توسلوا إليها. ولكن بهائمـها كانت في الحقل وبينما ذهبت لإحضارها انقضت أكثر من ساعة. وقد أخرهم الطعام من جهة أخرى. لقد قلت لك من قبل إنهم كانوا جـائعين، فـأوصوا بإعداد الغداء عند خيرتروديس سابوياكو التي كان لديها مطعمـها الصغـير، وكانت توفر مكاناً لمن يريد النوم.

ـــ لقد كانوا مطمئنين تماماً إذن.

ووافق دون أوخينيو:

ـــ لم يكن قد تبقى سوى وقت قصير لكي تنقض عليهم الشرطة بينمـا هم منهمكون في توزيع مرق الدجاجة.

هذا التركيب للوقت واضح جداً. فالجميع متفقون: قبل ســاعة مـن وقوع الأحداث، كانت حافلة هوانكايو تصل إلى خاوخا محملة بفرقـة مـن الحرس الأهلي بقيادة ملازم أول كنيته سيلفا وعريف يدعى ليتومـا. توقفـوا لوقت قصير جداً في المدينة لكي يجدوا دليلاً يرشدهم في الجبال ولكي ينضـم إليهم الملازم الأول دونغو والحراس الآخرون الذين تحـت أمرتـه. وبـدأت المطاردة فوراً.

ـــ وكيف ذهبت أنت معهم يا دكتورثيتو؟ ـــ أسأله وأنا أضع راحـتي حول فمي، لأرى إذا كان سيرمش.

حاول الملازم بايبخوس أن يبقيه في كيرو. وأيده مايتا في ذلك: فـهم بحاجة إلى أحد يكون جسر اتصال ما بين الريف والمدينة، وخصوصاً بعد الذي حدث؛ إنهم بحاجة إلى إقامة شبكات للمساعدة، ولتجنيد الناس، والحصـول

على معلومات. وكان هو الشخص المناسب لهذه المهمة. ولكن محاولتهما لم تثمر. وتحولت أوامر باييخوس وحجج مايتا إلى هشيم أمام إصرار القاضي: لا يا سادة، إنه ليس مجنوناً، فهو لن يبقى هنا ليستقبل الشرطة ويدفع ثمن الأطباق المحطمة. بل سيذهب معهم في كل الأحوال. وما بدأ كتبادل للآراء تحول إلى جدال. وارتفع صوتا باييخوس وقاضي السلام، وفي الحجرة الظليلة المشبعة برائحة الدهن والثوم، انتبه مايتا إلى أن كوندوري وثينون غونثاليس والفتيان قد توقفوا عن الأكل ليستمعوا. لم يكن من المناسب أن يتسمم الجدال. فلديهم ما يكفي من المشاكل وهم قليلو العدد جداً بحيث لا يمكن لهم الاختلاف فيما بينهم.

ــ ليس هناك ما يستحق مواصلة الجدال يا رفاق. إذا كان القاضي مصمماً إلى هذا الحد، فليأت معنا.

خشي أن يعارضه الملازم، ولكن باييخوس اختار التركيز على طبقه. وحذا حذوه القاضي، فانفرج الجو بعد قليل. كان باييخوس قد أوقف البريغادير كورديرو اسبينوثا على مرتفع ليراقب الطريق بينما هم يأكلون. طالت الاستراحة في كيرو، وبينما كان مايتا يعض قطع لحم الدجاج الملطخة بالهباب، قال إنه من التهور التأخر على هذا النحو.

ــ علينا أن نغادر بسرعة.

وافق باييخوس وهو يلقي نظرة إلى ساعة معصمه. ولكنه واصل الأكل دون إسراع. وقد وجده على حق في دخيلة نفسه. أجل، فكم هو ثقيل النهوض، شد الساقين، تنشيط العضلات، الاندفاع إلى الجبال، المشي. كم ساعة سيمشون؟ وماذا لو أغمي عليه بسبب دوار المرتفعات؟ سيحملونه على إحدى البهائم مثل كيس. لقد كان من المضحك المعاناة من دوار المرتفعات. وأحس كما لو أن دوار الجبال هو ترف غير مسموح به في الثورة. ومع ذلك،

كان الإنهاك الجسدي حقيقياً جداً: ارتعاشات قشعريرة، ألم في الرأس، انحلال عام. وفوق كل ذلك، هذا القلب المدوي في صدره. أحس بالراحة حين رأى بابيخوس وقاضي السلام يتبادلان الحديث بحماسة. كيف يمكن تفسير ذعر جماعة ريكران؟ أتراهم قرروا عدم المجيء في اجتماع عقدوه يوم أمس بالذات؟ أتراهم تلقوا أمراً مخالفاً من الأفطس أوبييوث؟ سيكون توافقاً غريباً أن يتراجع أوبييوث، والمنجميون، وجماعة ريكران كل منهم بقرار منفصل، ودون أن يبلغ الآخرين بذلك. وهل لهذا أية أهمية الآن يا مايتا؟ ليس له أية أهمية. ولكنه سيكون ذا أهمية فيما بعد، عندما تراجعُ القصةُ الحسابات وتُقر الحقيقة (ولكنني أعرف، أنا الذي أمثل القصة في هذه الحالة، بأن الأمر ليس سهلاً، فالزمن لا يتكفل بإبراز الحقيقة على الدوام؛ وفي هذه القضية، في إلحاح اللحظة الأخيرة، ليست هناك طريقة لنعلم علم اليقين إذا ما كان المتخلفون عن الحضور قد انشقوا أم أنهم قد استبقوا الموعد المتفق عليه أم أن كل شيء حدث بسبب عدم تنسيق في الأيام والساعات. وليست هناك طريقة لمعرفة ذلك لأن شخصيات الأحداث أنفسهم لا يعرفونه.) ابتلع آخر لقمة ونظف يديه بمنديله. لقد أخفت عنه عتمة الغرفة الذباب في أول الأمر، ولكنه الآن يراه: لقد كان الذباب يملأ الجدران والسقف، ويتمشى بوقاحة على أطباق الطعام وأصابع الآكلين. لا بد أن كل بيوت كيرو على هذا النحو: لا نور، ولا ماء شرب، ولا مجارير، ولا حمامات. والذباب والقمل وألف نوع من الحشرات تشكل جزءاً من الأثاث التافه، أصحاب وسادة الأواني المصنوعة من ثمار القرع، والجلود، والفراش الخشن المركون بجانب جدران الطين والقصب، وصور السيدة العذراء والقديسين المعلقة على الجدران. إذا ما أحسوا بالرغبة في التبول ليلاً، و لم يكن لديهم الحماس للنهوض والخروج خارجاً، فإنهم يتبولون هناك بالذات، إلى جوار الفراش الذي ينامون عليه والموقد الذي

يطبخون عليه. فالأرضية في نهاية المطاف ترابية، والتراب يمتص البول ولا يبقى منه أثر. والرائحة لا تهم كثيراً أيضاً لأنها تختفي، فهي تختلط بروائح القمامة والوساخة المتعددة التي تكوّن جو البيت وتزيدها كثافة. وماذا إذا ما رغبوا في التغوط في منتصف الليل؟ أيجدون الحماسة للخروج إلى الظلام والبرد، إلى الريح والمطر؟ إنهم يتغوطون هناك أيضاً، مابين الفراش والموقد. عندما دخلوا، قامت صاحبة البيت، وهي هندية عجوز، ذات تجاعيد وغمص في عينيها، ولها جديلتان تصفعان ظهرها حين تمشي، بزرب بعض أرانب الكويه التي كانت تتنقل في الغرفة، وراء الصندوق. هل تنام معها هذه الحيوانات، ملتصقة بجسدها الهرم بحثاً عن الدفء؟ كم من الشهور، كم من السنوات مضت دون أن تبدل هذه السيدة التنانير التي تلبسها والتي قد هرمت معها، فوقها، دون ريب؟ منذ متى لم تقم بغسل كامل لجسدها، بالصابون؟ منذ شهور، سنوات؟ أتراها فعلت ذلك ولو مرة واحدة في حياتها؟ لقد تلاشى توعك داء المرتفعات، وحلت محله الكآبة. أجل يا مايتا، في هذه القذارة، في هذا الهجران يعيش ملايين البيرويين، ما بين البول والبراز، دون ضوء ودون ماء، يعيشون هذه الحياة النباتية نفسها، هذا الروتين الذي يبعث على الخبل نفسه، وهذا النشاط البدائي وشبه الحيواني الذي تعيشه هذه المرأة التي لم يستطع، على الرغم من جهودهما، أن يتبادل معها إلا بضع كلمات قليلة، إذ أن قشتاليتها كانت بداية جداً. ألا يكفي أن يفتح المرء عينيه قليلاً لكي يجد مبرراً لما قاموا به، وما سيقومون به؟ عندما يدرك البيرويون الذين يعيشون مثل هذه المرأة بأنهم يملكون القوة ــ لأنه يكفيهم أن يعوا قوتهم ويستخدموها ــ سينهار هرم الاستغلال والعبودية والرعب الذي تشكله البيرو مثل سقف منخور. عندما يدركون أنه بتمردهم ستبدأ إنسانية حيواتهم غير الإنسانية، فإن الثورة ستصبح قوة لا تُهزم.

ـــ جاهزون، فلننطلق ـــ قال باييخوس ذلك وهو ينهض واقفاً، وأضاف: ـــ فلنحمّل الأسلحة.

سارع الجميع في الخروج إلى الشارع. وأحس مايتا بالحماس من جديد، بالانتقال من الظلمة إلى النور. ذهب لمساعدة الفتيان الذين كانوا يُخرجون البنادق من الشاحنة ويثبتونها على البغال. وكان الهنود ما يزالون يتاجرون في ساحة كيرو الصغيرة، غير مبالين بهم.

ويقول دون أوخينيو باستغراب، مشفقاً على سذاجته وسرعة تصديقه:

ـــ لقد أقنعوني بأبسط الطرق. فقد شرح لي الملازم باييخوس أنه، إضافة إلى تدريب الفتيان، سيقوم بتسليم مزرعة آينا إلى قرية أوتشوبامبا. وهي القرية التي كان رئيسها، كما تذكر، كوندوري ونائب رئيسها ثينون غونثاليس. ولماذا لا أصدقه؟ فمنذ شهور كانت هناك مشاكل في آينا. وكان فلاحو أوتشوبامبا قد احتلوا جزءاً من أراضي المزرعة وكانوا يطالبون بها متعللين بصكوك من العهد الاستعماري. أو لم يكن الملازم سلطة عسكرية في المقاطعة؟ فكان علي أن أقوم بواجبي، فلسبب ما كنت قاضياً يا سيدي. وهكذا رافقتهم بطيب نية، على الرغم من أن المسيرة لم تكن مزاحاً ـــ فقد كنت قد تجاوزت الستين آنذاك ـــ. ألم يكن ذلك هو أكثر التصرفات طبيعية في الدنيا؟

ولا أجد ما أقوله سوى ذلك، للطريقة الطبيعية التي يروي بها الأمر. لقد طلعت الشمس. وبدا وجه دون أوخينيو متألقاً.

ـــ يا للمفاجأة التي سيطرت عليك إذن عندما بدأ تبادل إطلاق الرصاص.

فيرد دون تردد:

ـ كانت مفاجأة ربي ومولاي. لقد بدأ تبادل إطلاق النار بعد وقت غير طويل من مغادرتنا، لدى دخولنا في صَدْع هوايخاكو الصخري.

يفرك عينيه قليلاً ـ فقد كانت جفونه تتجعد وحاجباه يتغضنان ـ فصارت نظراتهما سائلة. لا بد أن السبب في ذلك هو وهج الشمس؛ لا يمكنني أن أصدق أن عيني قاضي سلام كيرو السابق تدمعان حنيناً لما جرى في ذلك المساء، حتى ولو كان كل شيء من الماضي، في مثل سنه، يوقظ مشاعر الحنين، بما في ذلك أشد الأحداث إيلاماً.

ويدمدم:

ـ لقد كانوا مستعجلين لدرجة أنني لم أتمكن من إعداد حقيبة للضروريات التي لا بد منها. خرجت مثلما تراني الآن، بربطة عنق، وصدرية وقبعة. انطلقنا في المسير وبعد ساعة أو ساعة ونصف بدأت الحفلة.

يطلق ضحكة، فيضحك على الفور كذلك الأشخاص الذين يحيطون بنا. إنهم ستة: أربعة رجال وامرأتان، وجميعهم متقدمون في السن. وهناك أيضاً عدة أطفال على شرفة العريشة الصدئة. أسألُ الشيوخ عما إذا كانوا موجودين عندما وصل رجال الشرطة. وبعد أن ينظروا بطرف أعينهم إلى القاضي، وكأنهم يطلبون منه الإذن بالكلام، يومئون مؤكدين وجودهم. فأُلحُ وأنا أنظر إلى أكبر الفلاحين سناً: كيف حدث ذلك.. ما الذي جرى بعد ذهاب الثوريين. فيشير إلى زاوية الساحة حيث ينتهي الطريق: لقد جاؤوا من هناك. وكم كان عددهم؟ كانوا كثيرين. كم تعني بكثيرين؟ ربما حوالى خمسين شرطياً. ويتحمس الآخرون ويبدؤون بالتكلم أيضاً، وفي الحال يأخذون بمقارنة ذكرياتهم معاً. وأجد مشقة في متابعة خيط الكلام في تلك المتاهة التي تختلط فيها الكيتشوا بالإسبانية ويتداخل فيها فجأة الحدث الذي

جرى قبل خمس وعشرين سنة مع القصف الذي وقع قبل أيام أو أسابيع — وهذا أمر غير واضح أيضاً — ومع «اعدامات» رجال حرب العصابات. وتجري في أذهان أولئك الشيوخ بالطبع مشاركة تكلفتُ جهداً غير قليل في فهمها ولا يراها إلا القليل من مواطنيّ. وما أخرج به في النهاية بوضوح هو أن الخمسين أو الستين شرطياً كانوا يظنون أن المتمردين مازالوا مختبئين في كيرو، فقد أمضوا حوالى نصف ساعة في تفتيش القرية، يدخلون إلى البيوت ويخرجون منها، ويسألون هؤلاء وأولئك أين اختبأوا. هل كانوا يسألون عن الثوريين؟ عن الشيوعيين؟ لا، لم يستخدموا هذه المفردات. بل كانوا يقولون عنهم: اللصوص، حرامية المواشي، قطاع الطرق. أأنتم متأكدون من ذلك؟

— إنهم متأكدون بالطبع — يمثلهم دون أوخينيو في الرد —. يجب أن تنتبه إلى أنها كانت أزمنة أخرى، فمن سيخطر له أن تلك كانت ثورة. وتذكر أيضاً أنهم كانوا قد سطوا على مصرفين قبل أن يغادروا خاوخا...

يضحك ويعودون جميعهم إلى الضحك. وهل وقع خلال نصف الساعة تلك التي أمضوها هنا أي حادث بين رجال الشرطة والفلاحين؟ لا، لم يقع أي حادث، فقد اقتنع الشرطيون هناك بالذات بأن «اللصوص» قد غادروا وأنه ليس لأهالي كيرو أي علاقة بهم، وأنهم لا يعرفون بما جرى في خاوخا. لقد كانت أزمنة أخرى، لا شك في ذلك: فرجال الشرطة لم يكونوا يعتبرون أي شخص يضع عباءة بونتشو وطاقية أوخوتا متواطئاً مع المتمردين — ما لم يُثبت العكس —. ولم يكن عالم الأنديز قد استُقطب إلى الحدود الحالية حيث لم يعد بإمكان سكانه إلا أن يكونوا متواطئين مع المتمردين أو متواطئين مع قامعيهم.

ويقول قاضي السلام، وقد صارت نظرته سائلة من جديد:

— وفي أثناء ذلك، كنا نحن نبتل على أحسن ما يكون الحال.

لقد انفلت وابل المطر بعد ربع ساعة من مغادرتهم كيرو. مطر قــوي، قطراته كبيرة، تبدو للحظات وكأنها حبات بَرَد. فكروا في البحث عن ملجــأ ريثما يتوقف المطر، ولكن لم يكن هناك مكان يؤون إليه. وكان مايتا يقــول: «كم تغير المشهد». وربما كان الوحيد الذي لم يكن وابل المطر يضايقه. كـان الماء يسيل على بشرته، يتغلغل في شعره، ينــزلق ما بين شفتيه ويبـــدو لــه بلسماً. ابتداء من تجاوز أراضي كــيرو الزراعيــة، كــانت الأرض انحــداراً متواصلاً. و لم تكن للمشهد أية علاقة بذلك الذي يفصل ما بـــين خاوخــا وكيرو، فكانوا كما لو أنهم قد انتقلوا إلى منطقة أخرى، إلى بلد آخر. فقــد اختفت أشجار الكينغوال الكثيفة، والنباتات العشـــبية، والطيــور، وهديــر الشلال، والأزهار البرية، وعيدان القصب المتمايلة إلى جانب الطريق. في هــذا المنحدر الأجرد، حيث لا أثر لطريق، كان النبات الوحيد الذي يظهر بين حين وآخر هو نبتات صبار عملاقة، ذات أذرع ثخينة مغطاة بالشوك، لها شــكل شمعدانات. صارت الأرض تميل إلى السواد وتتحدب بأحجار وصخــور ذات مظهر مشؤوم. وكانوا يتقدمون منقسمين إلى ثـــلاث جماعـــات. البــهائم والأسلحة في المقدمة، مع كوندوري وثلاثة فتيان. يليهم بقية الفتيان على بعــد حوالي مئة متر، ومعهم ثينون غونثاليس كقائد للجماعة. ويختم المسيرة، لتغطية الآخرين، كلٌّ من الملازم ومايتا وقاضي السلام الذي كان يعـــرف كذلــك الطريق إلى مزرعة آينا، ليدلهم إذا ما فقدوا الاتصال بالآخرين. ولكن مايتــــا مايزال يرى الجماعتين الأخريين، هناك في المقدمة، في مكان أكثر ارتفاعاً، عند سفوح الجبال، إنهما بقعتان تظهران وتختفيان حسب ارتفاع وانخفــاض الأرض وكثافة المطر. لا بد أن الوقت هو منتصف ما بعد الظهر، مـــع أن الســماء الرمادية توحي بالغروب. «كم الساعة؟» توجه بالسؤال إلىَ باييخوس. «إنهــا

الثانية والنصف.» وحين سمعه تذكر طرفة كان يتداولها تلاميذ مدرسة ساليسيانو حين يسألهم أحد عن الساعة. «عقربها واقف، انظر إليه» ويشيرون إلى سروالهم. ابتسمأعدموا»أ، وبسبب هذا السهو كاد أن يقع. وقال له بابيخوس: «وجّه البندقية نحو أسفل، حتى لا يدخل إليها ماء كثير»، كان المطر قد أوحل الأرض فكان مايتا يحاول أن يدوس على الأحجار، ولكن تلك الأحجار التي خلخلها وابل المطر كانت تتقلقل وتنزلق بكثرة. وإلى جانبه بالمقابل، كان قاضي سلام كيرو ـــ ضئيلاً، مستغرقاً في التفكير، قبعته مبللة، يغطي أنفه وفمه بمنديل ملون، وتبدو جزمته الدهرية موحلة ـــ يمشي في الوعورة الجبلية وكأنه يمشي على درب مستوٍ. وبابيخوس أيضاً كان يتقدم بيسر ويسبقهما بعض الشيء، بينما المسدس الرشاش يتدلى من كتفه ورأسه منحن لكي يرى أين يضع قدميه. وكان طوال الوقت يسبق مايتا ودون أوخينيو فيضطران إلى الركض قليلاً للحاق به. لم يتبادلوا الكلام منذ خروجهم من كيرو تقريباً. لقد كان هدفهم هو الوصول إلى شعب جبلي يدعى «بيّنا»، على السفح الشرقي، مناخه أكثر لطفاً. وكان كوندوري وثينون غونثاليس يريان أنه يمكن الوصول إلى هناك قبل الغروب إذا ما أسرعوا. إذ لم يكن من الملائم قضاء الليل في أعالي الجبال، حيث خطر الثلوج والعواصف. وبالرغم من الإرهاق، ومن إحساسه بالاضطراب بسبب المرتفعات أحياناً، إلا أن مايتا كان يشعر بالراحة. هل ستتقبله جبال الأنديز أخيراً بعد معاداتها له؟ أيكون قد تجاوز مرحلة التعميد؟ ولكنه على الرغم من ذلك، وعندما أشار بابيخوس بعد قليل إلى أنه يمكنهم التوقف للراحة، ألقى بنفسه على الأرض الموحلة، مستنفداً. كان المطر قد توقف، والسماء بدأت تصفو و لم تعد تظهر لهم الجماعتان الأخريان. إنهما في منخفض عميق، محاطين بجدران من الصخر تبوز

منها خصل من أعشاب الإيتشو. جاء بايبخوس للجلوس بجانبه وطلب منه مسدسه الرشاش، فتفحصه باهتمام، فاتحاً ومغلقاً الأمان. وأعاده إليه دون أن يقول شيئاً ثم أشعل سيجارة. كان وجه الملازم الشاب ممتلئاً بقطرات صغيرة، ورآه مايتا من وراء دفقة الدخان متوتراً بالقلق. فقال:

ــ أنت من لا يفقد التفاؤل أبداً.

فرد بايبخوس وهو يسحب نفساً من السيجارة ويطلق الدخان من أنفه وفمه:

ــ و لم أفقده. كل ما هنالك...

فقال مايتا:

ــ كل ما هنالك هو أن رأسك لا يتسع لما تحقق هذا الصباح. لقد فقدت الآن عذريتك السياسية حقاً. فالثورة أكثر تعقيداً من حكاية حوريات يا أخي.

فقاطعه بايبخوس:

ــ لا أريد التحدث عما حدث في الصباح. هناك أمور أكثر أهمية الآن.

سمعا شخيراً. وكان قاضي السلام قد استلقى على ظهره على الأرض، واضعاً القبعة فوق وجهه، ويبدو أنه قد غفا.

نظر بايبخوس إلى ساعته:

ــ إذا كانت حساباتي صحيحة، فلا بد أنهم قد بدؤوا الآن بالوصول إلى خاوخا. إننا نسبقهم بنحو أربع ساعات. ونحن في هذا القفر مثل إبرة في كومة قش. لقد صرنا خارج الخطر على ما أظن. حسن، فلنوقظ القاضي ونواصل المسير.

ما كاد دون أوخينيو يسمع كلمات بايبخوس الأخيرة حتى نهض واقفاً. واعتمر على الفور القبعة المبللة. ثم قال وهو يحيي تحية عسكرية:

ـــ أنا جاهز على الدوام يا سيدي الملازم. إنني بومة، أنام بعين واحـــدة فقط.

فقال مايتا:

ـــ يذهلني وجودك معنا أيها القاضي. ففي مثل سنك ووظيفتك، لديك أسبابك حقا لتوخي الحذر.

فاعترف قاضي السلام دون أي مواربة:

ـــ بصراحة، لو أن أحدا كان قد أخبرني، فإنني كنت أنا أيضا ســأتبخر على الأغلب.ولكنهم لم يتذكروني، لقد أهملوني. فماذا تبقى لي، أأنتظر هنــاك مجيء الشرطة لأكون نعجة التكفير؟ ولا بأي حال يا سادتي.

انفجر مايتا ضاحكا. وكانوا قد عادوا إلى المسير وراحـــوا يتســـلقون المنحدر منـــزلقين، عندما رأى مايتا أن بايبخوس يقف ساكنا، متلبدا. لقـــد كان يتلفت من جهة إلى أخرى ويصيخ السمع.

وسمعه مايتا يقول بصوت خافت جدا:

ـــ إطلاق نار.

فقال مايتا:

ـــ بل رعد يا رجل. أأنت متأكد من أنه إطلاق نار؟

وقال بايبخوس وهو يبتعد:

ـــ سأذهب لأرى من أين يأتي الصوت. ابقيا هادئين هنا.

ـــ وهل صدقت الشرطة كل هذا الذي قلته يا دون أوخينيو؟

ـــ لقد صدقوني بالطبع. أليست الحقيقة؟ ولكنهم قبل ذلك جعلوني أمر بوقت عصيب.

بينما إبهاماه في عروقي الصدرية ووجهه الهرم الذاوي يتوجه نحو السماء، يخبرني ـــ هناك الآن في عريشة كيرو مايقرب من عشرين شيخاوطفلا يحيطون

بنا ـــ بأنهم قد أوقفوه ثلاثة أيام في مفوضية خاوخا ثم أسبوعين في قيادة الحرس الأهلي في هوانكايو، وكانوا يطالبونه بأن يعترف بأنه متواطئ مع الثوريين. ولكنه عنيد بالطبع، ولا يكل، فكان يكرر بأنه قد ذهب معهم مخدوعاً، معتقداً أنهم بحاجة إلى قاضي سلام من أجل تسليم مزرعة آينا لفلاحي أوتشوبامبا وأنهم كانوا يحملون الأسلحة من أجل تدريب الفتيان عسكرياً. وكان عليهم أن يتقبلوا روايته، أجل يا سيدي: وبعد ثلاثة أسابيع رجع ثانية إلى كيرو ليمارس وظيفة قاضي السلام، نظيفاً من التراب والقش ولديه حكاية جيدة للسخرية. لقد صار الهواء جافاً الآن، وفي بيوت القرية، والأراضي، والجبال المجاورة، يلتقي اللون الأمغر والكلسي والذهبي مع بعض الخضرة. ويقول دون أوخينيو متحسراً: «كم هو محزن مرأى هذه الأراضي شبه الميتة.كلها كانت فيما مضى أراض زراعية رائعة. يا للحرب اللعينة! إنها تقتل كيرو، وهذا غير عادل. ولو فكرنا فإن القرية قبل خمس وعشرين سنة كانت تبدو فقيرة.ولكن يمكن للأوضاع أن تسوء دوماً، فليس هناك من قرار للنكبات.» لا أتركه يسهو في أمور الحاضر وأعيده إلى الماضي وإلى الخيال الروائي. وما الذي فعلته أنت خلال تبادل إطلاق الرصاص؟ وكم استمر إطلاق النار؟ وهل توصلتم إلى الخروج من صدع هوايخاكو؟ أخبرني بكل ما جرى منذ بدأ إطلاق النار وحتى انتهائه دون أن تغفل عن أي تفصيل يا دون أوخينيو.

إنه إطلاق رصاص، لا شك في ذلك. كان مايتا يستند بإحدى ركبتيه على الأرض، ويمسك بالمسدس الرشاش ويراقب في كل الاتجاهات. ولكن مجال رؤيته في المنخفض كان محدوداً إلى أدنى الحدود: يتوقف عند الأفق المسنن ببعض القمم.مر ظل يخفق بأجنحته. أيكون نسر كوندور؟ لا يتذكر أنه رأى

نسر كوندور حياً،وإنما في صور فقط. انتبه إلى أن قاضي السلام يرسم إشـارة الصليب، وإلى أنه أخذ يصلي وهو يغمض عينيه ويضم راحتيه. ثم سمع زخة رصاص أخرى، من الاتجاه السابق نفسه. متى سيعود باييخوس؟ وكما لو أن الملازم قد استجاب لرغبته،فأطل في تلك اللحظة من فوق حافة المرتفع.ومن ورائه برز وجه أحد فتيان الجماعة الوسطى: إنه بيريكو تيموتشي. انزلقا على السفح باتجاههما. كان وجه تيموتشي شاحباً ويداه وأخمص بندقيته ملوثة بالوحل، كما لو أنه كان قد وقع أرضاً.

قال باييخوس:

ـــ إنهم يطلقون النار على جماعة الطليعة. ولكنهم بعيدون، فالجماعة الثانية لم ترهم.

فقال مايتا:

ـــ وماذا سنفعل؟

ورد باييخوس بحماس:

ـــ سنتقدم. فالجماعة الأولى هي الأهم، يجب إنقاذ تلك الأسلحة. سنحاول مناوشتهم وإلهاءهم ريثما تتمكن جماعة الطليعة من الابتعاد. هيا بنا بسرعة. وليبتعد كل واحد منا مسافة كافية عن الآخر.

وبينما هم يتسلقون جدار المنحدر،تساءل مايتا لماذا لم يخطر ببال أحد أن يعطي بندقية لدون أوخينيو و لم يخطر له هو نفسه أن يطلب واحدة.إذا ما كانت هناك ضرورة للقتال، فسوف يواجه القاضي مصيراً أسود. لم يكن يشعر بالاضطراب، ولا بالخوف. وكانت قد سيطرت عليه جدية عظيمة. لم يفاجأ بأصوات الرصاص. لقد كان ينتظرها منذ خروجهم من خاوخا، إذ لم

يكن مقتنعاً بأنهم يسبقونهم بوقت طويل مثلما يقول الملازم. يا لحماقة تأخرهم في كيرو.

عندما أصبحوا في أعلى المنحدر، كمنوا للمراقبة. لم يكن يظهر أي شيء: لا شيء سوى الأرض الرمادية المتعرجة، ترتفع دوماً، مع بعض الأجمات والصخور الطارئة، حيث يمكنهم، مثلما فكر، أن يختبئوا إذا ما ظهر المطارِدون من وراء إحدى القمم.

ـــ احتموا بالصخور ـــ قال ذلك بابيخوس. وكان يحمل مسدسه الرشاش في يده اليسرى ويشير لهم باليمنى بأن يتفرقوا أكثر عن بعضهم البعض. كان يركض تقريباً وهو منحنٍ، وينظر فيما حوله. ووراءه كان يمضي القاضي، وبعده بقليل بقي مايتا وبيريكو تيموتشي جاثيين. لم تعد تسمع أصوات طلقات نارية. وكانت السماء تصفو: فقد صارت الغيوم أقل و لم تعد رصاصية اللون وحبلى بعاصفة، وإنما بيضاء وإسفنجية. وفكر: «يا لسوء الحظ، من المناسب الآن أن يهطل المطر». راح يتقدم مصغياً إلى قلبه، وهو يخشى أن يداهمه الآن الاختناق وتسارع النبض والإنهاك. ولكن لا، إنه يشعر بأنه على ما يرام، على الرغم من بعض البرد. حدق ببصره محاولاً أن يرى المجموعتين المتقدمتين. كان ذلك مستحيلاً بسبب طبيعة الأرض وكثرة الزوايا الميتة. وخيل إليه في إحدى اللحظات أنه يميز نقاطاً متحركة ما بين مرتفعين صغيرين. فاستدعى بيريكو تيموتشي بحركة من يده:

ـــ هل أولئك هم جماعتك؟

فأومأ الفتى برأسه عدة مرات، دون أن يتكلم. لقد بدا أكثر طفولة بوجهه الممتقع. كان يتشبث ببندقيته وكأن هناك من يحاول انتزاعها منه وبدا كما لو أنه فقد صوته.

حاول مايتا أن يشجعه:

ـــ لم تعد تُسمع أصوات الرصاص. ربما كان إنذاراً زائفاً.

فتلعثم بيريكو تيموتشي:

ـــ لا، لم يكن إنذاراً كاذباً. لقد كان حقيقياً.

ثم بدأ يتكلم بصوت خافت جداً، محاولاً استعادة تماسكه،وأخبره بأنهم حين سمعوا الرصاصات الأولى، تمكن جميع أفراد جماعتة من رؤية جماعة الطليعة التي أمامهم تتفرق، بينما رفع أحدهم ـــ وهو كوندوري في الغالب ـــ بندقيته ليرد على الهجوم. عندئذ صرخ بهم ثينون غونثاليس:«انبطحوا أرضاً، انبطحوا أرضاً». وبقوا منبطحين إلى أن ظهر باييخوس وأمرهم بمواصلة التقدم. وقد أحضره معه ليكون مراسلاً. فابتسم له مايتا:

ـــ أعرف لماذا اختارك أنت بالذات. لأنك أسرع الجميع. أولست الأشد جرأة كذلك؟

ابتسم الفتى ابتسامة خفيفة،دون أن يفتح فمه. وواصلا السير معاً وهما ينظران من جهة إلى أخرى. كان باييخوس والقاضي قد سبقوهم بحوالى عشرين متراً. وبعد بضع دقائق سمعوا زخة أخرى من الرصاص.

ويقول لي دون أوخينيو:

ـــ الطريف في الأمر هو أنني أُصبت بالرشح في أوج إطلاق النار.كان قد هطل مطر غزير وكنت مبللاً بالكامل، أترى؟

أجل، فالرجل الضئيل الذي يمضي ببدلة وقبعة ما بين محاربي حرب العصابات،وتحت نيران الحراس الذين يطلقون الرصاص عليهم من القمم، بدأ يعطس. وأحاول أن أجعله يسرع في روايته، فأسأله في أي لحظة أدرك أن أولئك الرجال هم متمردون وأن مسألة تدريب الفتيان وتسليم مزرعة آينا هي مجرد أكاذيب. فلا يتململ، بل يقول بقناعة مطلقة:

ـــ عندما بدأ إطلاق الرصاص، اتضح كل شيء من تلقاء نفسه. يا للعنة، تصور الوضع الذي وجدت نفسي فيه. فقد وجدت نفسي دون أن أعرف السبب وسط أزيز الرصاص.

يتوقف قليلاً،وتتخضل عيناه من جديد فتعيدني الذاكرة إلى عصر ذلك اليوم،في باريس، بعد يومين أو ثلاثة أيام على اليوم الذي نتذكره. لقد كانت تلك هي الساعة التي أتوقف فيها عن الكتابة بانتظام صارم وأخرج لأشتري صحيفة **ليموند** وأقرأها بينما أنا أتناول فنجان قهوة اكسبريس في مقهى تورنون، عند ناصية بيتي. لقد كان ثمة خطأ في كتابة اسم مايتا، فقد استبدلوا حرف y بحرف I، ولكن لم يراودني أدنى قدر من الشك:فالمقصود هو زميلي في مدرسة ساليسيانو. لقد ظهر الاسم في خبر عن البيرو، خبر لا يكاد يكون مرئيا لصغره، لا يتجاوز ستة أو سبعة سطور، وليس أكثر من مئة كلمة. تحت عنوان «إحباط محاولة تمرد» أو شيء من هذا القبيل، و لم يكن واضحاً إذا ما كان للحركة تفرعات، ولكن الواضح هو أن قادتها قد قتلوا أو اعتقلوا. هل كان مايتا معتقلاً أم ميتاً؟ كان هذا هو أول ما فكرت فيه، بينما كانت تفلت من فمي سيجارة الجولواز وأنا أقرأ وأعيد قراءة الخبر دون أن أتمكن من تقبل حدوث أمر كهذا في بلادي النائية، وأن يكون زميلي في قراءة **الكونت دي مونت كريستو** هو بطل الأحداث. ولكنني كنت موقناً منذ اللحظة الأولى من أن مايتا المكتوب دون y في ليموند هو زميلي نفسه.

ـــ في أي ساعة بدأ وصول الأسرى إلى هنا؟ ـــ يكرر دون أوخينيو السؤال الذي وجهته، كما لو أنني كنت أسأله هو. لقد وجهتُ السؤال في الواقع إلى شيوخ كيرو، ولكن من المناسب أن يكون قاضي السلام، الرجل الموثوق به من الأهالي، هو الذي يبدي اهتماماً بمعرفة ذلك ـــ.لا بد أن ذلك حدث في الليل، أليس كذلك؟

هناك موجة من اللاءات،من الرؤوس النافية، من الأصوات التي تتنازع الكلام. لم يكن الليل قد حل بعد؛ وإنما كان الوقت مساء. وقد رجع حراس الشرطة في جماعتين؛ الجماعة الأولى أحضرت رئيس قرية أوتشوبامبا محمولاً على إحدى البهائم. هل كان كوندوري ميتاً عند وصوله؟ كان يحتضر. فقد أصيب برصاصتين، في ظهره وفي رقبته، وكان ملطخاً بالدم. وقد أحضروا كذلك عدداً من الفتيان موثوقي الأيدي. في ذلك الزمن كانوا يأخذون أسرى.أما الآن، فمن الأفضل أن يموت المرء وهو يقاتل لأن من يمسكون به، بعد أن يستخلصوا منه كل ما يعرفه، سيأمرون بقتله في كل الأحوال، أليس كذلك يا سيدي؟ وباختصار، كانوا قد نزعوا أربطة أحذية الفتيان حتى لا يحاولوا الهرب. فكانوا يمشون وكأنهم يطئون بيضاً، وبالرغم من أنهم كانوا يجرجرون أقدامهم، فقد كان بعضهم يتفادى ضربات السوط. أخذوا كوندوري إلى بيت الحاكم العسكري وقدموا له بعض الإسعافات، ولكن دون جدوى، فقد مات في الحال. وبعد حوالى نصف ساعة وصل الآخرون. كان باييخوس يشير إليهم بأن يسرعوا.

وسمعه مايتا يصرخ:

ـــ بسرعة أكبر، بسرعة أكبر.

حاول مايتا أن يسرع ولكنه لم يستطع. لقد سبقه بيريكو تيموتشي الآن أيضاً بضعة أمتار. سُمعت طلقات متفرقة و لم يستطع تحديد مصدرها ولا إذا كانت أقرب أم أبعد من الطلقات السابقة. لقد كان يرتجف، ولكن ليس من داء المرتفعات وإنما من البرد. وعندئذ رأى باييخوس يرفع مسدسه الرشاش: ودوت الطلقة في طبلتي إذنيه. نظر إلى القمة التي أطلق الملازم النار باتجاهها،

ولم ير سوى صخور، وأرض، وأعشاب إيشو، وقمم انكسارية، وسماء زرقاء، وغيوم بيضاء. سدد هو أيضا سلاحه بذلك الاتجاه، وكان إصبعه على الزناد.

وصرخ بهم باييخوس من جديد:

ـ لماذا تتوقفون، يا للعنة. واصلوا التقدم، واصلوا.

انصاع له مايتا، مشى بسرعة لبعض الوقت، راكضا أحيانا، ومتعثرا، وشاعرا بأن البرد ينخر عظامه وبأن قلبه يجن. سمع صوت طلقات جديدة، وكان واثقا للحظة من أن إحدى الرصاصات قد فتتت بعض الأحجار على مقربة منه. ولكنه مهما تطلع إلى القمم، لم يكن يرى أي مهاجم. لقد صار في النهاية آلة لا تفكر، لا تتردد، لا تتذكر، إنه جسد يركز على مهمة مواصلة الجري كي لا يتخلف. وفجأت تراخت ركبتاه وتوقف لاهثا. تقدم بضع خطوات وهو يترنح وانكمش على نفسه وراء بعض الصخور المغطاة بالطحالب. كان قاضي السلام وباييخوس وبيريكو تيموتشي يواصلون التقدم بسرعة. لم يعد بإمكانك أن تلحق بهم يا مايتا. التفت الملازم، فأشار له مايتا بأن يواصل تقدمه. وبينما هو يقوم بهذه الإشارات، أحس هذه المرة دون أي مجال للشك برصاصة تنفجر على بعد خطوات منه:لقد فتحت ثقبا صغيرا في الأرض وأثارت بعض الدخان الخفيف. انكمش على نفسه بأقصى ما يستطيع، نظر، بحث، وعندئذ رأى بوضوح رأس أحد الحراس يطل من فوق ساتر صخري إلى يمينه وبندقية مصوبة إليه. إنه يحتمي في الجهة الخاطئة. التف حول الأحجار زاحفا، ثم انبطح على الأرض وأحس بالرصاصات تمر فوق رأسه. وعندما تمكن في النهاية من التسديد وإطلاق النار، محاولا تطبيق تعليمات باييخوس ـ الهدف يجب أن يتطابق مع الشعيرة ـ كان الشرطي قد اختفى من فوق الساتر الصخري. وجعلته زخة الرصاص التي أطلقها يهتز ويضطرب.

ورأى رصاصاته تكشط الصخر على بعد متر إلى أسفل الموقع الـــذي كـــان الشرطي قد أطل منه.

وسمع بايبخوس يقول له:

ـــ اركض، اركض وأنا سأغطيك.

وكان الملازم يصوب سلاحه باتجاه الساتر الصخري.

نهض مايتا وركض. كان البرد يخدره، وبدت عظامه كمـــا لـــو أنهـــا تصطك تحت جلده. لقد كان برداً جليداً وملتهباً يجعله يتعرق، مثلما تفعـــل الحمى. عندما وصل إلى جوار بايبخوس جثا على ركبتيه وصوب سلاحه أيضاً باتجاه الصخور.

قال الملازم وهو يشير بيده:

ـــ ثمة ثلاثة أو أربعة هناك.فلنتقدم في وثبات متسلسلة. يجب ألا نبقـــى ساكنين لأنهم سيحاصروننا.وعلينا ألا نسمح لهم بالفصل بيننا وبين الآخريـــن. غطني.

ودون أن ينتظر رده، نهض وانطلق يعدو. واصل مايتا مراقبة الصخـــور التي إلى اليمين وإصبعه على زناد مسدسه الرشاش، ولكن لم يظهر من هنـــاك أي شبح. وبحث أخيراً عن بايبخوس ورآه.. بعيداً، يشير إليه بأن يتقدم وبأنـــه سيغطي تقدمه. ينطلق راكضاً، وبعد خطوات قليلة يسمع صوت الرصاص من جديد، ولكنه لم يتوقف، بل واصل تقدمه ثم تبين له على الفور أن الملازم هـــو الذي يطلق النار. وعندما وصل إليه وجد إلى جانبه بيريكو تيموتشي وقـــاضي التحقيق.كان الفتى يذخر بندقيته بمخزن سعة خمس طلقات أخرجه من جعبـــة مثبتة على خصره. لقد كان يطلق النار إذن.

ـــ وماذا عن أفراد الجماعتين الأخريين؟ـــ سأل مايتا. وكان أمامهم حاجز صخري يمنعهم من الرؤية.

ـــ لقد أضعناهم، ولكنهم يعرفون بأنه لا يمكنهم التوقف ـــ قال ذلك بابيخوس بحدة دون أن يتوقف عن التجول ببصره في محيط المكان. ثم أضاف بعد صمت قصير:ـــ إذا ما حاصرونا سننتهي. يجب أن نواصل التقدم إلى أن يخيم الظلام. ففي الليل لن يكون ثمة خطر.لأنه ليست هناك مطاردة مجدية في الليل.

وفكر مايتا: «إلى أن يخيم الظلام».كم من الوقت بقي لذلك؟ ثلاث، خمس، ست ساعات؟ و لم يسأل بابيخوس عن الساعة. بل دس يده في جعبته وتأكد مرة أخرى ـــ لقد فعل ذلك عشرات المرات خلال اليوم ـــ من أن لديه الكثير من مخازن الذخيرة الاحتياطية.

أمرهم بابيخوس:

ـــ لنتقدم اثنان اثنان. أنا والقاضي، وأنت مع بيريكو. ونغطي تقدم بعضنا البعض. كونوا على حذر، ولا تتهاونوا، وليكن الركض مع الانحناء. هيا بنا أيها القاضي.

انطلق راكضا، ولاحظ مايتا الآن أن قاضي السلام يحمل مسدسا في يده. من أين جاء به؟ لا بد أنه مسدس الملازم، لهذا السبب كان قراب مسدسه مفتوحا. وعندئذ رأى ظهور شبحين بشريين فوق رأسه، ما بين سبطانات البنادق. وسمع صرخة: «استسلموا، عليكم اللعنة». فأطلق هو وبيريكو النار في الوقت نفسه.

ويقول لي دون أوخينيو:

ـــ لم يقبضوا عليهم جميعاً في ذلك اليوم نفسه. لقد أفلت منهم اثنان من الفتيان: تيوفيلو بويرتاس وفيليثيو تابيا.

إنني أعرف هذه القصة من لسان بطليها، ولكنني لا أقاطعه لكي أرى نقاط التوافق ونقاط الخلاف. هناك بعض التفاصيل الزائدة وبعض التفاصيل الناقصة، ولكن رواية قاضي سلام كيرو تشبه إلى حد كبير الرواية التي سمعتها مسبقاً. فقد كان بويرتاس وفيليثيو في جماعة الطليعة، تحت قيادة كوندوري، وهي الجماعة الأولى التي اكتشفتها إحدى الدوريات التي انقسم إليها رجال الشرطة لتمشيط المنطقة. وعملاً بتعليمات بايبخوس، حاول كوندوري أن يواصل التقدم، وأن يصد الهجوم في الوقت ذاته، ولكنه سقط جريحاً بعد قليل. فأثار ذلك الهلع. وانطلق الفتيان يركضون تاركين البهائم مع حمولتها من الأسلحة. واختبأ بويرتاس وتابيا في مغارة فيسكاش. وبقيا هناك طوال الليل، وكادا أن يتجمدا من البرد. وفي اليوم التالي اجتازا الطريق وهما جائعان، مضطربان، ومصابان بالرشح، ووصلا إلى خاوخا دون أن يكتشفهما أحد. وقد حضرا كلاهما إلى مفوضية الشرطة برفقة أبويهما.

ويؤكد القاضي:

ـــ كان فيليثيو متورماً من الضرب المبرح الذي تلقاه في البيت لأنه يريد أن يكون ثورياً.

لم يبق الآن من أهالي كيرو الذين كانوا معنا تحت العريشة سوى اثنين من الشيوخ. وكلاهما يتذكران دخول ثينون غونثاليس مربوطاً إلى حصان، حافي القدمين، وقميصه ممزق، كما لو أنه قد تعامل بعنف مع رجال الشرطة، ووراءه كان البقية، وكانوا مقيدي الأيدي أيضاً، وأحذيتهم دون أربطة. وكان واحد منهم يبكي ـــ لا أحد يتذكر أيهم ـــ. يقولون إنه أسمر، وإنه

واحد من الصغار. أكان يبكي لأهم ضربوه؟ أم لأنه جريح، أو خائف؟ مــــن يدري. ربما بسبب سوء حظ الملازم المسكين.

وهكذا واصلوا التسلق، والتسلق، اثنان اثنان، وبقوا على تلك الحـــــال وقتاً بدا لمايتا ساعات، ولكنه لا يمكن أن يكون كذلك لأن ضوء النـــــهار لم يتراجع ولو في أدنى الحدود. في الثنائيين اللذين انقسم إليهما بــــاييخوس مـــع رجل القانون ومايتا مع بيريكو تيموتشي، أو بايخوس مع الفتى ومايتـــا مـــع القاضي، كان اثنان يركضان بينما يغطيهما الآخران، وكانوا يلتقون معاً بمـــا يكفي لبث الحماسة واسترداد الأنفاس، ثم يواصلون الجري. وكــــانوا يــــرون وجوه الجنود في كل لحظة ويتبادلون إطلاق رصاص يبدو أنه لم يكن يصيــــب الهدف مطلقاً. لم يكن هناك ثلاثة أو أربعة مهاجمين مثلما اعتقد بــــاييخوس، وإنما أكثر بكثير، إذ لا يمكنهم أن ينتشروا بحيث يبدون وكــــأهم في أمــــاكن مختلفة. لقد كانوا يطلون من الأجزاء العلوية، وهم يظهرون الآن من الجـلنبين، مع أن الجانب الأخطر هو الأيمن، حيث الحاجز الصخري القريب جداً مــــن الأرض التي يركضون فيها. لقد كانوا يلاحقوهم من حافة القمة، ومع أن مايتا كان يعتقد أحياناً بأهم قد تجاوزوهم وخلفوهم وراءهـــم، إلا أهـــم كـــانوا يعودون إلى الظهور دوماً. لم يكن يشعر بالمرض؛ إنه يشعر بالـــبرد، أجـــل.. ولكن جسده كان يستجيب للجهود الهائلة، وللركض في مثل هذا الارتفـــاع. وفكر: كيف لم يُجرح أحد؟ فقد أطلقوا عليهم كثيراً من الرصاص. المســـــألة هي في أن الحراس يتصرفون بحذر، يطلون برؤوسهم قليلاً ويطلقــــون النـــار بعشوائية لمجرد تنفيذ الأوامر، دون أن يتمهلوا ليسددوا جيداً، خوفـــاً مـــن أن يتحولوا إلى هدف سهل للمتمردين. راوده إحساس بأهما لعبة، وأهما طقـــوس صاخبة ولكنها غير مؤذية. هل ستستمر على هذا النحو إلى أن يخيم الظـــلام؟

هل سيتمكنون من الإفلات من رجال الشرطة؟ يبدو أنه من المستحيل مجـــيء الليل، وإطباق الظلام على هذه السماء المنيرة. لم يكن يشعر بخمود العزيمــــة. وفكر دون عجرفة ودون شجون: «مهما يكن من أمر، فإنك تقوم بما كنـــت تريده يا مايتا».

ـــ جاهز يا دون أوخينيو. فلنركض. إنهما يغطياننا.

فرد عليه قاضي السلام ببطء شديد:

ـــ اذهب أنت وحدك، ساقاي لم تعودا قادرتين على الجري. أنا سأبقى هنا. وخذ هذا معك أيضاً.

وبدلاً من أن يعطيه المسدس، رمى به إليه، فكان على مايتا أن ينحـــني ويلتقطه. وكان دون أوخينيو قد جلس مباعداً ما بين ساقيه. لقد كان يتعـــرق بغزارة وكان فمه معوجاً في تكشيرة جزعة، وكأنه يفتقد الهواء. وكان وضعــه وهيئته كوضع وهيئة رجل وصل إلى أقصى حدود الصمود و لم يعد الإنهـــاك يؤثر فيه. فأدرك مايتا أنه لم تعد ثمة فائدة من الجدال معه.

ـــ حظاً طيباً يا دون أوخينيو ـــ قال له ذلك وانطلق يعـــدو. اجتـــاز بسرعة الثلاثين أو الأربعين متراً التي تفصله عن بابيخوس وبيريكو تيموتشـــي، دون أن يسمع إطلاق نار. وعندما وصل إلى حيث هما، وجدهمـــا جـــاثيين ويطلقان النار. حاول أن يوضح لهما ما جرى لقاضي السلام، ولكنـــه كـــان يلهث بطريقة لم يخرج معها صوته. حاول وهو على الأرض أن يطلق النار فلم يستطع؛ لقد استعصى رشاشه. فأطلق الرصاصات الثـــلاث الأخـــيرة مـــن المسدس، وهو يشعر بأنه يفعل ذلك لمجرد إطلاق النار. لقـــد كـــان الســـاتر الصخري قريباً جداً وكان هناك صف من البنادق المصوبة نحوهم: وكـــانت القبعات العسكرية تظهر وتختفي. سمع صرخات تهديد حملتها الريـــح إليـــهم

بوضوح: «استسلموا، عليكم اللعنة»، «استسلموا يا أبناء العاهرة»، «شركاؤكم قد استسلموا جميعهم»، «صلوا يا كلاب». وخطر له: «لديهم أوامر باعتقالنا أحياء». لهذا السبب لم يُجرح أحد. إنهم يطلقون النار لتخويفهم فقط. أيكون صحيحاً أن جماعة الطليعة قد استسلمت؟ أحس باطمئنان أكبر وحاول أن يحدث باييخوس عن دون أوخينيو. ولكن الملازم قاطعه بحركة متحمسة:

ـــ اركضا، وأنا سأغطيكما ـــ وأدرك مايتا، من صوته وملامح وجهه بأنه يشعر بالخطر حقاً هذه المرة، وأضاف الملازم: ـــ بسرعة، هذا مكان سيئ، إنهم يحاصروننا. اركضا، اركضا.

وربت على ذراع مايتا. انطلق بيريكو تيموتشي يعدو، ونهض هو وركض أيضاً، وسمع على الفور أزيز رصاصات فيما حوله. ولكنه لم يتوقف، وبينما هو يختنق، أحس بالجليد يخترق عضلاته، عظامه، دمه، وواصل الجري، وبالرغم من أنه تعثر وسقط مرتين، وفقد في إحداهما المسدس الذي كان يحمله في يده اليسرى، إلا أنه نهض مستنداً على كلتا يديه وواصل الركض باذلاً جهوداً تفوق طاقة البشر، إلى أن تراخت ساقاه وسقط على ركبتيه. انكمش على نفسه على الأرض. وسمع بيريكو تيموتشي يقول له:

ـــ لقد تجاوزناهم. أين هو باييخوس؟ هل تراه أنت ـــ وكان صمت طويل، يتخلله اللهاث قبل أن يقول الفتى: ـــ مايتا، مايتا، أظن أن أبناء العاهرة هؤلاء قد أصابوه.

ومن خلال العرق الذي يغشى بصره بسحابة ضبابية، لمح هناك في الأسفل، حيث بقي الملازم لتغطيتهما ـــ وكانا قد ركضا حوالى مئتي متر ـــ تحرك عدد من الأشباح المائلة إلى الخضرة.

ـــ فلنركض، فلنركض ـــ لهث وهو يحاول النهوض. ولكن ذراعاه وساقاه لم تسعفه، فزمجر عندئذ: ـــ أركض أنت يا بيريكو. أنا سأغطيك. أركض، أركض.

ـــ لقد أحضروا باييخوس في الليل، وأنا نفسي رأيته، أو لم تروه أنتم؟

ـــ يقول ذلك قاضي السلام. ويؤيد المسنان الآخران في العريشة ما يقوله بتحريك رأسيهما. ويشير دون أوخينيو مجدداً إلى البناء الذي يحمل رسم شعار البلاد، مقر الحاكم، ويضيف: ـــ رأيته من هناك. فقد كانوا يحتجزوننا نحن الأسرى في تلك الغرفة ذات الشرفة. لقد أحضروه على حصان، وكان مغطى بحرام تكلفوا مشقة في نزعه لأنه كان ملتصقاً بالدم الذي أحدثته الطلقات. وقد كان ميتاً تماماً لدى الوصول إلى كيرو.

أسمعه يتكلم حول كيف قُتِلَ ومن الذي قتل باييخوس. إنه موضوع سمعت الكثير عنه من كثيرين في خاوخا وفي ليما، حتى صرت أعرف جيداً أنه لم يعد هناك من يمكنه أن يقدم لي تفاصيل لا أعرفها. وقاضي سلام كيرو لا يساعدني في توضيح أي واحدة هي الصحيحة بين كل الفرضيات. أيكون قد مات في أثناء تبادل إطلاق النار ما بين المتمردين وحراس الشرطة. أم أنه جُرح فقط ثم أجهز عليه الملازم أول دونغو، انتقاماً للإذلال الذي عرّضه له عندما استولى على مفوضيته وحبسه في زنزانتها. أم أنهم قبضوا عليه سليماً وأعدموه، بناء على أوامر عليا، هناك في أعالي جبال هوايخاكو، ليكون عبرة لغيره من الضباط ذوي الميول الثورية. لقد أورد قاضي السلام كل هذه الاحتمالات في منولوجه التذكري، وإن يكن قد أوحى إليّ ـــ بشيء من الحذر ـــ بأنه يميل إلى نظرية أن الملازم الشاب قد أُعدم على يد الملازم الأول دونغو. إنه الانتقام الشخصي.. المواجهة بين المثالي والمتوافق مع النظام، بين المتمرد والسلطة: إنها

صور تتوافق مع الشهية الرومانسية لشعبنا. وهذا لا يعني بالطبع أنه لا يمكن لذلك الاحتمال أن يكون صحيحاً. المؤكد هو أن هذه النقطة من القصة ــ نقطة الظروف التي مات فيها باييخوس ــ لن تتوضح أيضاً. ولن يتضح كذلك عدد الرصاصات التي تلقاها: إذ لم يجر تشريح للجثة، وتقرير الوفاة لا يذكر ذلك. أما الشهود فيقدمون أشد الروايات تباعداً: ابتداء من رصاصة وحيدة في العنق وحتى الحديث عن جسد أشبه بمصفاة. الشيء الوحيد المؤكد هو أنهم أحضروه إلى كيرو جثة هامدة، على صهوة جواد، وأنهم نقلوه من هنا إلى خاوخا حيث تسلمت الأسرة الجثمان في اليوم التالي لنقله إلى ليما. وقد دفن في مقبرة سوركو القديمة. وهي مقبرة لم تعد تُستخدم اليوم، على قبورها لوحات حجرية مخربة، وقد غزت الأعشاب ممراتها. وفيما حول قبر الملازم الذي لا يحمل سوى اسمه وتاريخ وفاته، نمت أجمة من الأعشاب البرية.

ــ وهل رأيت مايتا عندما أحضروه كذلك يا دون أوخينيو؟

مايتا الذي لم يكن يرفع بصره عن الحراس المتجمعين هناك في الأسفل، حيث بقي باييخوس، كان يسترد أنفاسه.. وحياته. وكان ما يزال على الأرض، يسدد مسدسه الرشاش المستعصي إلى الفراغ. لقد كان يحاول عدم التفكير في باييخوس، وبما يمكن أن يكون قد حدث له، وإنما في استعادة قواه، والنهوض والوصول إلى حيث بيريكو تيموتشي. عب الهواء، ونهض، وانطلق يجري وهو منحن على نفسه، إلى أن اضطر إلى التوقف. ارتمى على الأرض وهو يغمض عينيه، منتظراً أن يخترق الرصاص جسده. ستموت يا مايتا، هذا هو ما يعنيه أن تكون ميتاً.

وتلعثم الفتى بجانبه:

ــ ماذا سنفعل، ماذا سنفعل؟

ـــ أنا سأغطيك. ـــ لهث مايتا محاولاً أن يشـــهر مسدســه الرشـــاش ويصوبه.

وأجهش الفتى:

ـــ إننا محاصران. سيقتلوننا.

ومن خلال العرق الذي يقطر من جبهته، رأى مايتا حراس الشــرطة في كل مكان، بعضهم ينبطحون أرضاً وبعضهم يجثون، وبنادقهم موجة إليـــهما. وكانوا يحركون أفواههم وتوصل إلى سماع بعض الأصوات غـــير المفهومـــة. ولكنه لم يكن بحاجة إلى الفهم ليعرف ما الذي يصرخون به:«استسلما! ألقيـــا سلاحيكما!» الاستسلام؟ سيقتلونهما في كل الأحوال؛ أو أنهم ســيخضعونهما للتعذيب. وشد بكل قواه على الزناد، ولكـــن المســـدس الرشـــاش مـــازال مستعصياً. حاول معالجة أكرته لبضع ثوان دون جدوى وهو يسمع بـــيريكو تيموتشي يبكي.

وزمجر صوت قريب جداً:

ـــ ألقيا سلاحيكما! ارفعا أيديكما إلى رأسيكما! وإلا فإنكما ميتان.

فقال مايتا للفتى:

ـــ لا تبك، لا تمنحهم هذه المتعة. هيا يا بيريكو، ألق بندقيتك.

ألقى مسدسه الرشاش بعيداً، وحذا حذو بيريكو تيموتشي، فنهض وهو يضع يديه على رأسه.

ـــ أيها العريف ليتوما! ـــ بدا الصوت كأنه يخرج من مكبر للصـــوت ـــ. فتشهما. ولدى أول حركة يقومان بها سأحرقهما.

ـــ حاضر يا سيدي الملازم الأول.

أشباح بالزي العسكري تحمل بنادق راحت تقترب راكضة من كـــل الجهات. انتظر دون حراك أن يصلوا إليه ـــ كان التعب والبرد يزدادان في كل

ثانية ـــ، وكان موقنا من أنهم سيضربونه. ولكنه لم يشعر إلا بالدفش بينما هم يفتشونه من قدميه إلى رأسه. انتزعوا منه الجعبة التي على خصـــــره، وكـــانوا يسمونه «لص مواشي» و«حرامي»، وأمروه بأن ينـــزع ربـــاط حـــذاءه. ثم ربطوا يديه وراء ظهره بحبل. كانوا يفعلون الشيء نفسه مع بيريكو تيموتشي، وسمع صوت العريف ليتوما يوبخ الفتى، ويسأله عما إذا كان لايشعر بـــالخجل من التحول إلى «لص مواش» وهو ما يزال «جروا صغيرا». لصوص مـــواش؟ أهم يظنونهم لصوص مواش؟ غالب رغبته في الضحك من معتقليه. وفي هـــذه اللحظة بالذات وجهوا إلى ظهره ضربة بعقب بندقية وأمروه بأن يتحرك.فعـــل ذلك، مجرجرا قدميه اللتين كانتا تتراقصان في حذائه المفلت. لقد بـــدأ يفقـــد وضع الآلة التي كان قد تحول إليها؛ وصـــار يفكـــر، يتشـــكك، يتذكـــر، ويستجوب نفسه. أحس بأنه يرتعش. ألم يكن من الأفضل له أن يكون ميتـــا على أن يتجرع كؤوس المرارة التي تنتظره؟ لا يا مايتا، لا.

ويقول لي قاضي السلام:

ـــ التأخر في العودة إلى خاوخا لم يكن بسبب القتيلين اللذين ســـقطا. بل بسبب الأموال. أين ذهبت النقود؟ لقد جن جنونهم وهم يبحثـــون عنـــها دون أن يجدوا لها أثرا. كان مايتا وثينون غونثاليس والفتيان يقســـمون بـــأن النقود كانت محملة على البهائم، باستثناء المبلغ الصغير الذي أعطوه للســـيدة تيوفراسيا سوتو، أرملة ألماراث، مقابل البغـــال الـــتي اســـتأجروها منـــها، ولخيرترود يس سابوياكو مقابل الغداء. وكان الجنود الذين اعتقلوا كونـــدوري يقسمون بأنهم لم يجدوا شيئا على ظهور البهائم، اللهم إلا البنادق والرصـــاص وبعض قدور الطعام. وانقضى وقت طويل في الاستجواب، محاولين معرفة مـــا جرى للنقود. ولهذا السبب وصلوا إلى خاوخا عند الفجر.

نحن أيضاً سنصل متأخرين أكثر مما هو مقدر. لقد تسربت منا الساعات ونحن في عريشة ساحة كيرو، وها قد بدأ الغروب يخيم بسرعة. تضيء الشاحنة مصابيحها: لا نميز في المشهد الوارف سوى جذوع أشجار شاحبة متملصة وصخور وأحجار لامعة تتقافز فوقها في الشاحنة. وأفكر بالتباس في إمكانية الوقوع صدفة في كمين عند أحد منحنيات الدرب، أو في انفجار لغم، أو في الوصول إلى خاوخا بعد موعد حظر التجول وتعرضنا للاعتقال.

ويتساءل دون أوخينيو دون أن يتوقف عن تذكر تلك الوقائع:

ـــ ما الذي جرى للنقود التي استولوا عليها إذن؟ هل تقاسمها رجال الشرطة فيما بينهم؟

هذا لغز آخر من الألغاز التي بقيت طافية دون حلّ. ولكن لدي في هذه الحالة على الأقل رؤية متماسكة. فكثرة الأكاذيب تغطي على القضية. كم كان المبلغ الذي استولى عليه المتمردون في خاوخا؟ لدي انطباع بأن موظفي المصرفين قد ضخموا الأرقام وأن الثوريين لم يعرفوا مقدار الأموال التي أخذوها، لأنه لم يتح لهم الوقت لعدّ الغنيمة. وكان المال موضوعاً في أكياس على ظهور البغال. هل هناك من يعرف كمية النقود التي كانت في الأكياس؟ ربما لا. وربما دسّ بعض من شاركوا في القبض على المتمردين، شيئاً من المال في جيوبهم، ولهذا فإن المبلغ الذي أعيد إلى المصرفين يكاد لا يتجاوز الخمسة عشر ألف سول، وهو مبلغ أقل بكثير مما أعلن المصرفان عن فقدانه.

وأفكرُ بصوت عالٍ:

ـــ ربما كان هذا هو أشد الأمور حزناً في القضية. فما بدأ على أنه ثورة ـــ وأعرف أنها ثورة بلا أساس ولا رأس، ولكنها ثورة على أي حال ـــ انتهى إلى خلاف حول المبلغ الذي سرقوه ومن الذي احتفظ بالأموال المسروقة.

ويفلسف دون أوخينيو الأمر:

ــ إنها شؤون الحياة.

كان مايتا يتصور ما الذي ستقوله صحف ليما غداً وبعد وبعده، وما الذي سيقوله رفاقه في ح ع ث (ت) وخصومهم في الحزب الشيوعي حين يقرؤون الروايات المبالغ فيها، والمتخيلة، والحسية، والصفراء التي ستنشرها الصحف حول ما حدث. وتصور الجلسة التي سيعقدها ح ع ث (ت) ويكرسها لاستخلاص الدروس الثورية من الحدث،وكاد أن يسمع تقريباً كل واحد من رفاقه القدماء يؤكد بنبرته ولهجته التحليل العلمي، الماركسي، التروتسكي الذي توصل إليه الحزب والذي يبرر تماماً عدم ثقة الحزب ورفضه المشاركة في مغامرة برجوازية صغيرة محكومة بالإخفاق. هل سيلمّح أحدهم إلى أن ذلك الرفض وعدم الثقة قد ساهما في الكارثة؟ لن يخطر مثل ذلك لأذهانهم. وهل كانت ستتغير نتيجة التمرد لو أن كل كوادر ح ع ث (ت) قد ساهموا فيه بصورة حاسمة؟ وفكر: أجل. لأنهم كانوا سيجرون معهم العمال المنجميين والأستاذ أبييوث وجماعة ريكران الذين تخلفوا، ولكان كل شيء قد جرى بتخطيط وتنفيذ أفضل، ولكانوا الآن بالذات يتوجهون نحو مزرعة آينا واثقين وآمنين. هل أنت نزيه فيما تفكر فيه يا مايتا؟ أتحاول التفكير بصفاء؟ لا. فالوقت مبكر على ذلك لأن كل شيء ما يزال قريباً جداً. حين ينقضي كل هذا، سيكون لا بد من تحليل ما جرى منذ البداية، وبهدوء ورأس باردة، وتحديد إذا ما كان التمرد سيكون أوفر حظاً بمشاركة الرفاق في ح ع ث (ت)، أم أن ذلك ما كان سيؤدي إلا إلى تأخير الهزيمة لبعض الوقت وجعلها أكثر دموية. أحس بالأسى وبالرغبة في إسناد رأس أناتوليو إلى صدره، وسماع ذلك التنفس المتقطع، المتناسق، وشبه الموسيقي، حين يغفو منهوكاً فوق

جسده. أفلتت منه زفرة وانتبه إلى أن أسنانه تصطك. أحس بضربة من عقب بندقية في ظهره: «أسرع». كلما ظهرت صورة بايبخوس في ذهنه، يصبح البرد غير محتمل ويبذل جهداً لاستبعادها. إنه لا يريد التفكير به،ولا التساؤل إذا ما كان معتقلاً أو جريحاً أو ميتاً، وإذا ما كانوا يضربونه أو يجهزون عليه، لأنه يعرف أن الحزن سيُفقده قواه وقدرته على تحمل ما هو آت. سيحتاج إلى قدر من الشجاعة أكبر من تلك اللازمة لتحمل الريح الصرصر التي تصفع وجهه. إلى أين أخذوا بيريكو تيموتشي؟ أين هم الآخرون؟ أيكون بعضهم قد تمكن من الفرار؟ كان يمضي وحيداً، ما بين فصيلة من شرطة الحرس الأهلي. وكانوا ينظرون إليه أحياناً بطرف عيونهم مثلما ينظرون إلى حيوان نادر، ثم ينسون ما حدث للتو، ويسلون أنفسهم بتبادل الحديث، والتدخين وأيديهم في جيوبهم، مثل من هم عائدون من نزهة. وفكر: «لن أصاب بدوار المرتفعات مطلقاً بعد اليوم». حاول التعرف على المكان بتذكر الطريق الذي كانوا قد احتازوه صعوداً، ولكن المطر لم يكن يهطل الآن، وبدا المشهد مختلفاً: فالألوان أشد تبايناً، والخطوط أقل حدة. كانت الأرض موحلة وكان حذاؤه يفلت من قدمه بكثرة، فيضطر إلى التوقف لانتعاله، وفي كل مرة يدفعه الحارس الذي يسير وراءه. هل أنت نادم يا مايتا؟ هل تصرفت بتسرع؟ هل كنت متهوراً؟ لا، لا، لا. بل على العكس. فعلى الرغم من الإخفاق، ومن الأخطاء، ومن عدم الحذر والتبصر، فهو يشعر بالفخر. فللمرة الأولى يشعر بأنه قد فعل شيئاً يستحق الذكر،وبأنه قد دفع الثورة ــ وإن يكن بصورة طفيفة ــ إلى الأمام. ولن يعذبه، مثلما كان يعذبه في كل مرة يُسجن فيها، الإحساس بأنه قمامة. لقد أخفقوا، ولكن الدليل أصبح موجوداً: فأربعة رجال مصممين وحفنة من التلاميذ تمكنوا من السيطرة على مدينة، وتجريد قوات النظام من أسلحتها،

والاستيلاء على مصرفين، والهرب إلى الجبال. إن الثورة ممكنة، وقد أثبتوا ذلك. سيكون على اليسار من الآن فصاعداً أن يأخذ هذه السابقة بعين الاعتبار: فهناك في البلاد من لم يكتف بالتبشير بالثورة، بل حاول صنعها. وفكر: «ها أنت ذا تعرف ما هي» وأفلتت في الوقت نفسه إحدى فردتي حذائه، وبينما هو يحاول انتعالها تلقى ضربة عقب أخرى.

أيقظتُ دون أوخينيو الذي استغرق في النوم منذ منتصف الطريق، وأنزلته عند بيته على مشارف خاوخا وأنا أشكره على مرافقته لي، وعلى ذكرياته. ثم واصلتُ بعد ذلك إلى نزل باكا. ما يزال المطبخ مفتوحاً ويمكنني أن آكل شيئاً، ولكنني أكتفي بزجاجة بيرة. وأخرج لأشربها على الشرفة الصغيرة فوق البحيرة.تبدو المياه صافيه لامعة وأيائك الضفة مشعة تحت القمر الذي يبدو مستديراً وأبيض في سماء مفعمة بالنجوم. في الليل تُسمع في باكا كل أنواع الصخب: صفير الريح، نقيق الضفادع، شدو الطيور الليلية. ولكن لا شيء الآن. فالحيوانات صامتة في هذه الليلة. وزبونا النزل الوحيدان هما وكيلا مبيعات متجولان، يبيعان صنفاً من البيرة، وأنا أسمعهما يتحدثان في الجانب الآخر من الزجاج، في قاعة الطعام.

هذه هي نهاية الحدث المركزي في تلك القصة،وعقدتها الدرامية. إنه لم يدم اثنتي عشرة ساعة. فقد بدأ عند الفجر، بالاستيلاء على السجن، وانتهى قبل الغسق، بموت بايبخوس وكوندوري واعتقال البقية. أحضروهم إلى مفوضية خاوخا، حيث استبقوهم مدة أسبوع ثم نقلوهم بعد ذلك إلى سجن هوانكايو، وبقوا فيه شهراً. وهناك بدؤوا بإطلاق سراح الفتيان بتحفظ بناء على أحكام قاضي الأحداث الذي كان يعهد بهم إلى مسؤولية أسرهم، في نوع من الإقامة الجبرية. أما قاضي سلام كيرو فقد عاد بعد ثلاثة شهور إلى منصبه «نظيفاً من الغبار والقش» فعلاً.ونُقل مايتا وثينون غونثاليس إلى ليما،

وسُجنا في سجن سكستو،ثم في سجن فرونتون ثم أعيدا مرة أخرى إلى سجن سيكستو.وأفرج عن كليهما في عفو عام ـــ دون أن تجرى لهما محاكمة على الإطلاق ـــ، بعد بضع سنوات، حين تولى رئيس جديد منصبه في البيرو. ومازال ثينون غونثاليس يدير مزرعة آنيا منذ إعلان الإصلاح الزراعي عام ١٩٧١، وهو ينتمي إلى حزب العمل الشعبي وصار قائداً له في المنطقة كلها.

في الأيام الأولى،اهتمت الصحف كثيراً بالأحداث وكرست صفحات أولى وعناوين كبيرة وافتتاحيات ومقالات لما اعتبر محاولة تمرد شيوعية، وذلك بسبب سوابق مايتا. وظهرت في جريدة **لابرنسا** صورة له، لا يمكن التعرف عليه فيها، وهو وراء قضبان زنزانة. ولكن الحديث حول الموضوع توقف عملياً بعد أسبوع. وفيما بعد، عندما ظهرت في سلسلة الجبال وفي الأدغال بؤر حرب عصابات متأثرة بالثورة الكوبية في أعوام ١٩٦٣، ١٩٦٤، ١٩٦٥، ١٩٦٦، لم تتذكر أي صحيفة أن السابقة الأولى لتلك المحاولات لدفع الشعب إلى انتفاضة مسلحة من أجل إقامة الاشتراكية في البيرو قد جرت في محافظة خاوخا، وليس هناك من يتذكر اليوم أبطالها.

عندما توجهت للنوم، سمعت أخيراً صوتاً إيقاعياً. لا، ليست أصوات طيور ليلية؛ إنه صوت الريح التي تدفع مياه بحيرة باكا إلى شرفة النزل. هذه الموسيقى الناعمة وسماء ليل خاوخا ذات النجوم البديعة توحي ببلاد وديعة، أناسها متصالحون وسعداء. ولكنها تكذب، مثلما تكذب الروايات المتخيلة.

الفصل العاشر

المرة الأولى التي جئت فيها إلى سجن لوريغانتشو كانت منذ خمس سنوات. فسجناء العنبر الثاني دعوني لافتتاح مكتبة في العنبر، إذ خطرت لأحدهم فكرة إطلاق اسمي عليها، وقبلت الدعوة يدفعني الفضول إلى التأكد من صحة ما كنت قد سمعته عن الأوضاع في سجن ليما.

من أجل الوصول إلى هناك لا بد من المرور قبالة ميدان مصارعة الثيران، واجتياز حي ثاراتي، ثم المرور في ضواح هامشية فقيرة، وأخيراً المزابل التي تتغذى عليها الخنازير في ما يسمى «زرائب الخنازير السرية». الطريق تفقد الإسفلت وتمتلئ بالحفر. في ذلك الصباح الرطب،بدت عنابر السجن الإسمنتية المطموسة بالضباب،دون لون محدد مثل الرمال المحيطة بها. بل كان يظهر من بعيد جداً أن عدداً كبيراً من النوافذ قد فقدت كل زجاجها، هذا إذا كان لها زجاج في يوم من الأيام، وأن مبعث حيوية تلك المربعات المتناظرة هي الوجوه، والعيون التي تتطلع إلى الخارج.

ما أتذكره من تلك الزيارة الأولى هو الازدحام، أولئك السجناء الستة آلاف الذين يختنقون في أماكن مشيدة لاستيعاب ألف وخمسمئة، والقذارة التي لا توصف، وأجواء العنف الراكد الذي يوشك أن ينفجر تحت أي ذريعة في اشتباكات وجرائم. وبين تلك الكتلة منزوعة التفرد التي هي أقرب إلى عصابة رعاع أو قطيع ضوار منها إلى الجماعة البشرية،كان مايتا

آنذاك، وأنا متأكد من ذلك الآن. وربما أكون قد نظرت إليه، بــــل ربمــا تبادلت معه عبارة ما. هل كان حينذاك في العنبر الثاني؟ هل حضر افتتـــاح المكتبة؟

العنابر تصطف في صفين، العنابر ذات الأرقام الفرديـــة في المقدمــة وذات الأرقام الزوجية في الخلف. ويكسر التناسب عنبر منفرد، يســتند إلى الأسيجة والأسوار الغربية، حيث يعزلون المخنثين. العنابر الزوجية مخصصــة للسجناء أصحاب السوابق أو مرتكبي الجنايات الكبرى،بينما يشغل العنـــابر الفردية السجناء المستجدون، ممن لم يحكم عليهم بعد أو من يقضون أحكاماً خفيفة. وهذا يعني أن مايتا في السنوات الأخيرة كان من ساكني أحد العنابر الزوجية. والسجناء موزعون في العنابر حسب الأحياء التي ينحدرون منـــها: حي أغوسطينو، فييّا إل سلفادور، لافكتوريا، حي المستقبل. في أي حـــي صنفوا مايتا؟

السيارة تتقدم ببطء وأنتبه إلى أنني أخفف السرعة في كل لحظة، دون وعي مني،محاولاً أن أؤخر قدر الإمكان هذه الزيارة الثانية إلى لوريغانتشـــو. أترعبني فكرة المواجهةفي النهاية مع الشخص الذي كنت أستقصي أخبـــاره، وأستجوب الناس عنه، وأتخيل وأكتب عنه منذ سنة؟ أم أن اشمئزازي مـــن هذا المكان يفوق فضولي في التعرف على مايتا؟ عند انتهاء زيــــارتي الأولى تلك، فكرت: «ليس صحيحاً ما يقال عن أن الســــجناء يعيشـــون مثـــل حيوانات: الحيوانات لديها مجال أوســـع للحركـــة؛ وحظـــائر الكـــلاب، والمداجن، والإسطبلات فيها شروط صحية أفضل من لوريغانتشو.»

ما بين العنابر يوجد ما يسمى، بسخرية، جادة أونيون، وهو ممر ضيق ومزدحم يكاد يكون مظلماً في النهار وضبابياً في الليل، وفيه تحدث أشـــد

الصدامات دموية بين عصابات السجن وقتلته، وهناك يزايد القوادون على مخنثيهم. لقد كان ماثلاً في ذهني ما كان يمثله ممر الكوابيس ذاك،بين مملكة حيوانات المصائب المسرنمة، من زنوج شبه عراة ومولدين موشومين، وخلاسيين بشعور مجعدة، وبيض مخبولين وملتحين، وأجانب ذوي عيون زرق وقروح، وصينيين ضامرين وهنود متكورين إلى جانب الجدران ومجانين يكلمون أنفسهم. أعرف أن مايتا يدير منذ سنوات كشكاً للأطعمة والمشروبات في جادة أونيون. ومهما بحثت، لا تتوصل ذاكرتي إلى تذكر كشك البيع في الممر الخانق. أتراني كنت مضطرباً جداً فلم أنتبه؟ أم أن الكشك كان مجرد بطانية على الأرض، يعرض عليها مايتا بضاعته من العصير والفواكه والسجائر والمياه الغازية؟

من أجل الوصول إلى العنبر الثاني كان علي أن أمر حول العنابر ذات الأرقام الفردية وأجتاز حاجزين من الأسلاك. وقد قال لي مدير السجن وهو يودعني عند الحاجز الأول إنني سأواصل التقدم علىمسؤوليتي من هناك إلى الأمام،لأن الحراس الجمهوريين لا يدخلون ذلك القطاع كما لا يدخله أي شخص يحمل سلاحاً نارياً. وما كدت أجتاز سور القضبان الحديدية حتى انقض علي حشد كبير، وكانوا كلهم يومئون ويتكلمون معاً. فأحاط بي أفراد الوفد الذين دعوني، وتقدمنا هكذا: أنا في وسط الحلقة، وفي خارجها حشد من السجناء الذين ظنوا أنني أحد المسؤولين، فراحوا يعرضون قضاياهم، ويهذرون، ويحتجون على إجراءات التعسف، ويصرخون ويطالبون بالاهتمام بهم. كان بعضهم يعبر عما يريده بتماسك، ولكن معظمهم يفعلون ذلك بصورة مشوشة. ولاحظت أنهم جميعهم هائجون، عنيفون، طائشون. وبينما نحن نمشي، وجدت إلى يساري، تفسيراً للنتانة

الراسخة وسحب الذباب: فقد كانت هناك مزبلة يبلغ ارتفاعها متراً حيث تراكمت دون شك فضلات السجن على امتداد شهور وسنوات. وكان هناك سجين ينام دون اهتمام بين الفضلات. لقد كان أحد المجانين الذين يُوزّعون عادة على العنابر الأقل خطورة، أي العنابر ذات الأرقام الفردية. أتذكر أني قلت بعد زيارتي الأولى تلك، ليس الغريب هو وجود مجانين في سجن لوريغانتشو، وإنما الغريب هو أن يكون عددهم قليلاً إلى ذلك الحد، وأن الستة آلاف سجين لم يتحولوا جميعهم إلى الجنون في هذا العار المذل. وماذا لو أن مايتا قد جنّ في هذه السنوات؟

لقد عاد مرتين أخريين إلى السجن بعد أن أمضى أربع سنوات بسبب أحداث خاوخا، المرة الأولى بعد سبعة شهور من إطلاق سراحه في عفو عام. ومن الصعب جداً إعادة بناء قصته منذ ذلك الحين ـــ إنها قصة بوليسية وجزائية ـــ، لأنه على العكس من تلك الواقعة، لم يكن ثمة وثائق تقريباً حول الأعمال التي اتهم بالمشاركة فيها، ولا شهود يرغبون في فتح أفواههم. والنبذات الصحفية التي تمكنت من العثور عليها، في قسم أرشيف الصحف في المكتبة الوطنية،هي موجزة إلى حد من المستحيل معه معرفة الدور الذي لعبه في عمليات السطو تلك التي كان بطلها كما يبدو. ومن المستحيل كذلك معرفة إذا ما كانت تلك العمليات سياسية، أم مجرد جنح عادية. ومن معرفتي بمايتا يمكنني أن أفكر بأنه من غير المحتمل ألا تكون عمليات سياسية، ولكن ما الذي أعنيه بـــ «معرفتي بمايتا»؟ فمايتا الذي استقصيت عنه كان عمره حوالى أربعين سنة. وعمر من هو مايتا اليوم يزيد على الستين. أيكون هو نفسه؟

في أي عنبر من عنابر سجن لوريغانتشو أمضى يا ترى هذه السنوات العشر الأخيرة؟ أهو العنبر الرابع، أم السادس، أم الثامن؟ لا بد أن هذه

العنابر جميعها مماثلة تقريباً لذلك العنبر الذي عرفته: إنها حجرات منخفضة السقف، باهتة الضوء (عندما لا يكون التيار الكهربائي مقطوعاً)، باردة ورطبة، لها نوافذ مزودة بقضبان حديدية وفيها حفرة تشبه البالوعة، دون أثر لمراحيض ، حيث امتلاك فسحة للاستلقاء والنوم، مابين البراز والحشرات والفضلات، هو حرب يومية. وخلال احتفال افتتاح المكتبة ــ مجرد صندوق مطلي، فيه حفنة من الكتب المستعملة ــ رأيت عدداً من السكارى يترنحون. وعندما سكبوا في علب من الصفيح شراباً للنخب، عرفت أنهم يسكرون بخمر من اليكة المخمرة، وهي خمرة قوية جداً، تصنع في العنابر نفسها. هل يسكر بهذه الخمرة أيضاً زميل دراستي المزعوم في لحظات الاكتئاب أو الانشراح؟

الواقعة التي أعادت مايتا إلى السجن، بعد حادثة خاوخا، منذ إحدى وعشرين سنة، جرت في حي لافيكتوريا، بالقرب من الشارع الذي كان مصدر عار للحي، لأنه وكر يعج بالمومسات: إنه شارع هواتيكا. وتقول صحيفة **لاكرونيكا**، وهي الصحيفة الوحيدة التي تحدثت عن القضية، إن ثلاثة أوغاد استولوا على كراج يستخدم كورشة للميكانيكي تيودورو رويث كانديا. وعندما وصل هذا الأخير إلى المكان، في الساعة الثامنة صباحاً، وجد ثلاثة أشخاص ينتظرونه في الداخل وهم يحملون المسدسات. وبالطريقة نفسها وقع أسيراً في أيديهم كذلك صانعه المتدرب إليسيو كارابياس لوبيث. وكان هدف المهاجمين هو المصرف الشعبي. ففي عمق الكراج ثمة نافذة تنفتح على أرض خلاء تطل عليها من الجهة الأخرى البوابة الخلفية لذلك الفرع المصرفي. وقد كانت هناك شاحنة صغيرة تدخل إلى تلك الأرض الخلاء عند الظهيرة كل يوم، فيُخرجون من البوابة الخلفية

الأموال التي تودع في المصرف لنقلها إلى المكتب المركزي، أو يُدخلون إلى المصرف النقود التي يرسلها إليه المصرف الأم من أجل معاملاته. وقد بقوا حتى ذلك الموعد في الورشة مع أسيريهم. وكانوا يراقبون من خلال النافذة ويدخنون. وقد كانوا يغطون وجوههم، ولكن صاحب المحل وصانعه أكدا أن أحد المهاجمين هو مايتا. بل قالوا أكثر من ذلك: إنه هو من كان يصدر الأوامر.

عندما سُمع صوت محرك سيارة، قفزوا من النافذة إلى الأرض الخلاء. والحقيقة أنه لم يحدث إطلاق نار. فقد فاجأ المهاجمون السائق والحارس وجردهما من الأسلحة حين كان موظفو المصرف قد وضعوا في الشاحنة كيساً مختوماً يضم مبلغ ثلاثة ملايين سول. وبعد أن أجبروهما على التمدد على الأرض، فتح أحد الأوغاد بوابة الأرض الخلاء المؤدية إلى جادة ٢٨ تموز وتعلق راكضاً بالشاحنة التي كان رفيقاه قد صعدا إليها مع الغنيمة. خرجوا مسرعين. وبسبب العصبية أو بسبب خراقة السائق، صدمت الشاحنة مجلخ سكاكين وانحرفت لتصطدم بسيارة تكسي. وقد انقلبت الشاحنة، كما تقول جريدة **لاكرونيكا**، واستقرت مقلوبة وعجلاتها إلى أعلى. ولكن اللصوص تمكنوا من الخروج منها والهرب. تم إلقاء القبض على مايتا بعد ساعات من ذلك. ولكن الخبر لا يقول إذا ما جرى استرداد النقود، كما أنني لم أستطع أن أستقصي إذا ما تم اعتقال الشريكين الآخرين فيما بعد.

و لم أتمكن كذلك من معرفة إذا ما كان مايتا قد حوكم بسبب عملية السطو. وثمة تقرير بوليسي حصلت عليه من مخفر شرطة لافكتوريا يورد، مع بعض التفاصيل الزائدة وبعض التفاصيل الناقصة، ما أورده خبر

لاكرونيكا (وقد أتلفت الرطوبة ورقة التقرير بحيث صار من الصعب فك حروفه). ليس هناك أي أثر لمذكرة تحقيق قضائي. وفي ملفات وزارة العدل، حيث يُحتفظ بإحصاء المتهمين واستنطاقهم، تبدو القضية في ملف مايتا مشوشة جداً. ولكن هناك تاريخ مثبت ـ ١٦ نيسان ١٩٦٣ـ يجب أن يكون اليوم الذي نُقل فيه من مركز الشرطة إلى السجن، ثم تلي ذلك إشارة تقول: «محاولة سطو على مؤسسة مصرفية، مع وقوع جرحى ومصابين برضوض، إضافة إلى اختطاف، وحادث مروري وصدم عابر سبيل»، وأخيراً ذكر القاضي المسؤول عن القضية. وليست هناك معلومات أخرى. من المحتمل أن يكون التحقيق القضائي قد تأجل، أو أن يكون القاضي قد توفى أو فقد منصبه وتعطلت القضايا كلها، أو ربما يكون ملف التحقيق قد ضاع بكل بساطة. كم سنة بقي مايتا في سجن لوريغانتشو بسبب هذه الحادثة؟ لم أتوصل إلى معرفة ذلك أيضاً. فتاريخ دخوله السجن مسجل ولكن لا شيء عن تاريخ خروجه. هذا أحد الأشياء التي أحب أن أسأله عنها. وقد أضعت أثره على كل حال إلى ما قبل عشر سنوات، حين رجع مرة أخرى إلى السجن. وفي هذه المرة حوكم وفق الأصول وصدر بحقه حكم بالحبس خمس عشرة سنة بتهمة «الابتزاز، والخطف، والاعتداء الإجرامي الذي أدى إلى خسارة حياة». فإذا كانت التواريخ الواردة في الملف دقيقة، فإنه موجود منذ أقل من إحدى عشرة سنة بقليل في سجن لوريغانتشو.

لقد وصلتُ أخيراً. أنصاعُ للإجراءات: تفتيش من القدمين حتى الرأس يقوم به حراس جمهوريون، وتسليم وثائقي الشخصية التي ستبقى محجوزة في مركز الحراسة حتى انتهاء الزيارة. وكان مدير السجن قد وجه

تعليمات بتوصيلي إلى مكتبه. وقد قادني مساعد يرتدي الملابس المدنيـــة إلى هناك، بعد اجتياز فناء، خارج المنطقة المسورة، يمكن السيطرة منـــه علـــى السجن. هذا القطاع هو الأكثر نظافة والأقل اختلاطاً في السجن.

يقوم مكتب المدير في طابق ثان من بناء إسمنتي، بارد ومقشر الطـــلاء. إنه غرفة صغيرة لا يكاد يوجد فيها سوى طاولـــة حديديـــة وكرســـيين. الجدران عارية تماماً؛ وعلى المكتب لا يُرى أي قلم أو ورقة. المدير ليس هـــو نفسه الذي كان قبل خمس سنوات، بل رجل أكثر شباباً. وهو مطلع علـــى سبب زيارتي وقد أمر بإحضار السجين الذي أرغب في التحدث معـــه إلى المكتب. سيعيرني مكتبه من أجل المقابلة، لأنه المكان الوحيد الذي يمكنني أن أتمتع فيه بالهدوء. «لابد أنك رأيت بأنه لا يوجد هنا في لوريغانتشو مجـــال للتحرك بسبب الازدحام.» ويضيف بينما نحن ننتظر، بأن الأمور لن تســـير على ما يرام مطلقاً، بالرغم من الجهود التي تبـــذل. فالســـجناء الهـــائجون يهددون الآن بإضراب عن الطعام لأنه، حسب قولهم، ســـيجري تحديـــد الزيارات. لا يوجد أي شيء من هذا القبيل. فبكل بساطة، ومن أجل ضبط أفضل لهذه الزيارات التي هي السبب في إدخـــال المخـــدرات والكحـــول والأسلحة، جرى تحديد يوم لزيارات النساء ويوم آخر لزيارات الرجـــال. وهكذا سيكون هناك أناس أقل في كل مرة مما يتيح تفتيش كل زائر بدقـــة أكبر. لو أننا نتمكن على الأقل من كبح تهريب الكوكائين، فإننا ســـنحول دون موت الكثيرين. فمن المعروف أنهم يهاجمون بعضهم بعضـــاً بـــأدوات حادة بسبب المخدرات، أكثر مما يفعلون ذلك بسبب الكحول أو النقـــود أو المخنثين. ولكنه مازال من المستحيل حتى الآن الحيلولـــة دون إدخالهـــا. ألا يتاجر رجال الشرطة وحراس السجن كذلك بالمخدرات؟ فينظر إلي وكأنـــه يقول: «لماذا تسأل إذا كنت تعرف ذلك.»

ـــ وهذا أمر من المستحيل أيضاً تفاديه. فمهما ابتدعنا من أساليب المراقبة، فإنهم يتمكنون دوماً من تجاوزها. إذ أن إدخال ميليغرام من الكوكائين مرة واحدة، يتيح لأي حارس أن يضاعف راتبه. أتعرف ما الذي يتقاضاه هؤلاء الحراس؟ لذلك يجب عدم الاستغراب. هناك كلام كثير عن مشكلة سجن لوريغانتشو. ولكن هذه المشكلة لا وجود لها. فالمشكلة هي البلاد.

يقول ذلك دون مرارة، وكأمر جلي لا بد من أخذه بعين الاعتبار. يبدو أنه متحمس وطيب النوايا. والحقيقة أنني لا أحسده على منصبه. تقطع حديثنا طرقات على الباب.

ـــ سأتركك مع الشخص المطلوب إذن ـــ يقول لي ذلك وهو يمضي ليفتح الباب، ويضيف: ـــ خذ الوقت الذي تحتاجه.

الشخص الذي يدخل الغرفة هو رجل نحيل ذو شعر مفتل وأبيض البشرة، له لحية متفرقة الشعر، ويرتجف من رأسه حتى قدميه، وهو يرتدي سترة تتراقص عليه. وينتعل حذاء رياضياً ممزقاً وعيناه المذعورتان تدوران في محجريهما. لماذا يرتجف هكذا؟ أهو مريض أم خائف؟ لا أجد ما أقوله. كيف يمكن له أن يكون هو؟ إنه لا يشبه بأي حال مايتا الذي في الصور. ويمكن القول إنه أصغر منه بعشرين سنة.

وأتلعثم:

ـــ أنا أريد التحدث مع أليخاندو مايتا.

فيرد بصوت خرع:

ـــ أنا أدعى إليخاندرو مايتا ـــ. ويبدو أن يديه وبشرته وحتى شعره مصابة بالاضطراب.

فأقول بتردد:

ــ أأنت صاحب قضية خاوخا مع الملازم بابيخوس؟

ويهتف وقد أدرك الوضع:

ــ آه، لا، لستُ هو. إنه لم يعد موجوداً هنا.

يبدو وكأنه قد اطمأن،كما لو أن إحضاره إلى الإدارة يشكل خطراً قد تبدد للتو. يدور على عقبيه ويقرع الباب إلى أن يفتحوه ويظهر المدير يرافقه رجلان. ويوضح ذو الشعر المفتل دون أن يتوقف عن الارتجاف بأنه ليس من أبحث عنه وإنما هو مايتا الآخر. يغادر مسرعاً بحذائه الأبكم، وهو يرتعش.

ويسأل المدير أحد مرافقيه:

ــ هل تعرفه يا كاريّو؟

ــ بالطبع، بالطبع ــ يقول السمين الشائب ذو الشعر الحليق والكرش البارز فوق الحزام، ثم يضيف:ــ مايتا الآخر. ألم يكن سياسياً بعض الشيء؟

فأقول له:

ــ أجل. هذا هو الذي أبحث عنه.

ويوضح لي على الفور:

ــ لقد فقدته حضرتك بفارق صغير. فقد خرج في الشهر الماضي.

وأفكر في أنني قد فقدته، وبأنني لن أجده مطلقاً، وبأنه ربما كان ذلك أفضل. إذ يمكن للقاء من مايتا الذي من لحم وعظم أن يُفسد ما أفعله بدل أن يساعدني. ألا تعرفون إلى أين ذهب؟ ألا يوجد عنوان يمكن الوصول إليه؟ لا يوجد له عنوان وليست لديهم أية فكرة عن مكان وجوده. أقول

للمدير ألا يزعج نفسه بمرافقتي. ولكن كاريّو يأتي معي، وبينما نحن ننزل السلم، أسأله إذا ما كان يتذكر مايتا جيداً. إنه يتذكره بالطبع؛ فهو نفسه قد أمضى وقتاً طويلاً هنا باعتباره أقدم السجناء. لقد دخل السجن كأي مجرم عادي وهو الآن مساعد مدير السجن. يا للأمور التي رأتها عيناه!

ويقول لي:

ـــ لقد كان سجيناً جدياً وهادئاً جداً، لم يكن يتدخل في المشاكل قط. وكانت لديه رخصة بكشك مأكولات في العنبر الرابع. إنه شخص شغيل. لقد رتب أموره لتأمين حياة أسرته بينما هو يقضي محكوميته. وقد بقي هنا عشر سنوات على الأقل في المرة الأخيرة.

ـــ أتقول أسرته؟

فيضيف:

ـــ له زوجة وثلاثة أو أربعة أبناء. وكانت زوجته تأتي لزيارته كل أسبوع. إنني أتذكر التشولو مايتا جيداً. إنه يمشي وكأنه يدوس على بيض، أليس كذلك؟

كنا نجتاز الفناء ما بين الأسلاك، باتجاه مركز الحراسة عند المدخل، عندما توقف معاون المدير فجأة:

ـــ انتظر. يمكن أن يكون عنوانه لدى آريسبي. فقد ورث منه كشك المأكولات في العنبر الرابع. بل وأظن أنهما مازالا شريكين. سأستدعيه وربما تكون محظوظاً.

بقيت أنا وكاريّو في الفناء، قبالة حاجز الأسلاك. ومن أجل شغل الوقت رحت أسأله حول لوريغانتشو. ومثلما قال المدير، يقول هو إن المشاكل تبرز هنا دوماً. لأنه يوجد هنا أناس سيئون، أجل يا سيدي.. أناس

يبدون وكأنهم ولدوا لمجرد أن يلحقوا بالآخرين أشكالاً لا تخطر على بال من التنكيل. وفي البعيد، يظهر لنا جناح المخنثين مشوهاً تناسق العنابر الهندسي. هل مازلتم تحبسونهم هناك؟ أجل. مع أن ذلك لا ينفع كثيراً، فعلى الرغم من الحواجز والموانع مازال السجناء يدخلون إلى هناك والمخنثون يخرجون والحال هو مثلما كان على الدوام تقريباً. ولكن المشاكل صارت أقل منذ أن عُزلوا في عنبر خاص بهم. في السابق، عندما كانوا مختلطين بالآخرين، كانت المشاجرات وعمليات القتل من أجلهم أسوأ بكثير. أتذكر محادثة قصيرة أجريتها في زيارتي الأولى مع أحد أطباء السجن، حول اغتصاب القادمين الجدد. «الحالة الشائعة هي تقيح المستقيم، أو إصابته بالغرغرينا، أو تسرطنه.» وأسأل كاريّو عما إذا ما كانت عمليات الاغتصاب موجودة دائماً. فيضحك. «إنه أمر لا مفر منه حين يتعلق ذلك بأناس مكبوحين إلى هذا الحد، ألا تعتقد ذلك؟ عليهم أن يُخمدوا طاقاتهم بطريقة ما.» يأتي أخيراً السجين الذي بعث بطلبه. أشرح له سبب بحثي عن مايتا، هل تعرف أين يمكن العثور عليه؟

إنه رجل حسن المظهر، يلبس بصورة لائقة نسبياً. يستمع إلي دون أن يسألني شيئاً. ولكنني أراه مرتاباً وأنا واثق من أنه لن يقدم لي أي مساعدة. فأطلب منه عندئذ أن يعطي رقم هاتفي لمايتا عندما يراه في المرة القادة. فيحسم أمره بجفاء ويقول لي:

ـــ إنه يشتغل في محل مثلجات. في حي ميرافلوريس.

إنه محل مثلجات موجود منذ سنوات طويلة، في شارع بولوغنسي المشجر، وأنا أعرفه جيداً منذ أيام فتوتي، فقد كانت تسكن في تلك المنطقة فتاة جميلة جداً وذات اسم حدائقي: فلورا فلوريس. إنني واثق من أن دكان

المثلجات كان موجوداً منذ ذلك الوقت وأننا قد دخلنا إليه في إحدى المرات أنا وفلورا الجميلة لنتناول قمعاً من مثلجات الخوخ. إنه محل صغير، مجـــــرد كراج أو شيء من هذا القبيل، وهو شيء فريد في ذلك الشارع الـــذي لا وجود فيه لدكاكين، حيث لا يوجد سوى بيوت ميرافلوريس التقليدية الـتي ترجع إلى سنوات الخمسينيات، والمؤلفة من طابقين، مع حديقة عند المدخل ونبتات الجيرانيوم التي لا بد منها، ونبتات الجهنمية وشـــجيرات البونســـانا ذات الأزهار الحمراء. تسيطر علي عصبية لا يمكن التحكم بها عندما ألتـــف أخيراً من الكورنيش وأتقدم في شارع بولوغنسي. أجل المحل موجود حيـــث أتذكره بالضبط، على بعد أمتار قليلة من هـــذا المنـــزل الرمـــادي ذي الشرفات، حيث كنت أرى ظهور وجه فلورا العذب وعينيـــها المشـــعتين. أُوقف السيارة قبل أمتار من دكان المثلجات وأتمكن بصعوبة مـــن إغـــلاق السيارة بالمفتاح بسبب البلادة التي حلّت بيديّ.

لا يوجد أحد في المحل الذي هو ضيق بالفعل، ولكنه حديـــث، فيـــه مجموعة طاولات ذات مشمع مزين بأزهار ملتصقة بـــالجدار. والشـــخص الذي يقوم بالخدمة هو مايتا. إنه يلبس قميصا قصير الأكمام، وهو أسمـــــن قليلا، وأكبر قليلا مما يبدو في الصور، ولكنني قادر على التعرف عليه فـــورا بين عشرات الأشخاص.

أقول له وأنا أمد يدي:

ـــ أنت أليخاندرو مايتا. أليس كذلك؟

يتفحصني بضع ثوان ويبتسم فاتحا فما تنقصه بعض الأسنان. يرمـــش، محاولا أن يتذكرني. ثم يتخلى عن المحاولة أخيرا ويقول:

ـــ آسف، ولكنني لا أتذكر. تصورت أنك قد تكـــون ســـانتوس، ولكنك.. حضرتك، لست سانتوس، أليس كذلك.

وأقول له وأنا أستند بمرفقي على الكونتوار:

ـــ لقد بحثت عنك منذ زمن طويل. وأنا أنبهك إلى أنــــك ســـوف تُفاجأ كثيراً. إنني قادم للتو من لوريغانتشو. ومن أخبرني بكيفية الوصـــــول إليك هو آريسبي، شريكك في العنبر الرابع.

أراقبه بدقة، لأرى كيف ستكون ردة فعله. لا تبدو عليه المفاجـأة ولا القلق. ينظر إلى بفضول،وهناك بقية من ابتسامة ضائعة على الوجه الأسمـــر. إنه يرتدي قميصاً قطنياً،وألاحظ أن يديه غليظتان كأنهما يدا عامل خراطـــة أو فلاح. وأكثر ما يشد انتباهي فيه هو قصة شعره السخيفة: لقد قصوا لـــه الشعر بضربات مقص دون تشذيب، فبدا رأسه كنوع من المكنســـــة، إنـــه شيء مضحك.وقد ذكرني بسنتي الأولى في باريس، حين كنت أمر بضائقـــة اقتصادية كبيرة، فاعتدت أنا وصديق من مدرسة بيرلتز، حيث كنت أقـــوم وإياه بتعليم اللغة الاسبانية، الذهاب لقص شعرينا في معهد لتعليـــــم قـــص الشعر بالقرب من الباستيل. فكان المتدربون، وهم أطفال، يقصون لنا شعرنا مجاناً، ولكنهم يتركون رؤوسنا مثلما هو الآن رأس زميل دراستي المختلـــق. ينظر إليّ مضيقاً عينيه القاتمتين والمتعبتين ـــ كل ما حولهما ممتلئ بالتجـــاعيد ـــ وقد تولدت ومضة عدم ثقة في حدقتيه.

فأقول له:

ـــ لقد أمضيتُ سنة في الاستقصاء حولك، والتحدث مـــع النـــاس الذين عرفوك. والتخيل، بل والحلم بك. لأنني كتبت رواية لها علاقة، مــــع أنها علاقة نائية جداً، بقصة خاوخا تلك.

ينظر إلي دون أن يقول شيئاً، ولكنه فوجـــئ الآن بـــالفعل، دون أن يفهم، دون أن يكون متأكداً من أنه سمع جيداً، وها هو الآن يقلق. يتلعثم:

ـــ ولكن... لماذا خطر لك... كيف جرى ذلك...

ـــ لست أدري لماذا ولا كيف، ولكن هذا هو ما كنت أفعله طــوال هذه السنة ـــ أقول له مستبقا، وقد ارتعبت من رعبه، ومــــن أن يرفــض مواصلة هذا الحديث، ومن أن يتحول إلى حديث آخر. فأوضح لـــه:ـــ في الرواية هناك على الدوام أكاذيب أكثر من الحقائق، فالرواية ليست دائمــــا قصة وفية. وتلك التحريات، والمقابلات لم تكن من أجل رواية ما جـــرى حقا في خاوخا، وإنما لكي أكذب وأنا أعرف ما أكذب حوله.

ألاحظ أنني بدل أن أطمئنه، أزيد من بلبلته واضطرابه. يرمش عينيــه، ويبقى فمه مفتوحا وقد أصابه البكم. ثم يخرج من المأزق:

ـــ آه، أنت الكاتب. أجل، لقد عرفتك الآن. بل إنني قرأت إحـــدى رواياتك على ما أظن.. منذ سنوات.

في هذه الأثناء يدخل ثلاثة فتيان متعرقين، يمكن الحكم من خــــلال ملابسهم بأنهم قادمون من ممارسة الرياضة. يطلبون زجاجات مياه غازيـــة ومثلجات. وبينما مايتا يلبي طلباتهم أتمكن من مراقبته وهو يتحرك ما بـــين موجودات المحل. إنه يفتح الثلاجة، ويمـــلأ الأقمـــاع، ينـــزع أغطيـــة الزجاجات، يقدم الكؤوس بطلاقة وتآلف يكشفان عن خبرة عملية جيـــدة. أحاول أن أتصوره في العنبر الرابع من سجن لوريغانتشو، وهو يقدم عصـــير الفواكه، وعلب البسكويت، وفناجين القهوة، ويبيع الســـجائر للســـجناء الآخرين، كل صباح، وكل مساء، على امتداد عشر سنوات. من الناحيـــة الجسدية لا يبدو مهزوما: إنه رجل قوي البنية، يحمل بوقار سنوات عمــــره التي تزيد على الستين. بعد أن قبض الثمن من الرياضيين الثلاثة، يعـــود إلى جانبي، مبتسما ابتسامة اضطرارية.

يدمدم:

ـــ يا للعجب. هذا آخر ما كان يمكن أن يخطر لي. أتقول رواية؟

ويهز رأسه غير المصدق من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين.

فأؤكد له:

ـــ اسمك الحقيقي لا يظهر في الرواية بالطبع. وقد غيرت كذلك بالطبع التواريخ والأماكن والشخصيات، وقد خلطتُ الأمور، وأضفت وخذفت ألف شيء. كما أنني اختلقت بيرو قيامية، تعيث بها الحرب والإرهاب والتدخلات الأجنبية خراباً. ولن يتعرف أحد بالطبع على أي شيء وسيعتقد الجميع أنها محض خيال. وقد اختلقت كذلك أننا كنا زميلين في المدرسة، وأننا في السن نفسها وصديقان مدى الحياة.

ـــ بالطبع ـــ ينطق ذلك وهو يمعن النظر إليّ بارتياب، محاولاً حل ألغازي شيئاً فشيئاً.

وأُضيف:

ـــ أرغب في تبادل الحديث معك. في توجيه بعض الأسئلة،وتوضيح بعض الأمور. ما ترغب أنت في أن تخبرني به فقط بكل تأكيد. هناك أحجيات كثيرة مازالت تدور في رأسي. ثم إن هذه المحادثة ستكون الفصل الأخير. لا يمكنك أن تنكر علي ذلك، لأن روايتي ستبقى عرجاء.

أضحكُ ويضحك هو أيضاً ونسمع الرياضيين الثلاثة يضحكون. ولكنهم يضحكون لطرفة رواها أحدهم. وفي هذه الأثناء تدخل سيدة لتطلب نصف ليبرة من الفستق الحلبي والشوكولاتة، مناصفة، لتأخذها. وعندما ينتهي من خدمتها، يعود مايتا إلى جانبي. ويقول:

ـــ قبل سنتين أو ثلاث سنوات، ذهبت جماعة شبان من حزب **الطليعة الثورية** لمقابلتي في لوريغانتشو. كانوا يريدون التعرف على قضية خاوخا.. يريدون شهادة مكتوبة. ولكنني رفضت ذلك.

فأقول له:

ـــ الأمر مختلف. فاهتماماتي ليست سياسية، وإنما أدبية، أعني...

فيقاطعني رافعاً إحدى يديه:

ـــ أعرف، أعرف. لا بأس، سأهدي إليك ليلة واحدة. لا أكثر، لأنه ليس لدي وقت، والحقيقة أنني لا أحب التكلم في هذه الشؤون. أيناسبك يوم الثلاثاء القادم؟إنه الموعد الذي يناسبني، لأنني لا أبدأ العمل هنا في أيام الأربعاءحتى الساعة الحادية عشرة ويمكنني أن أنام متأخراً في الليلة السابقة. أما في الأيام الأخرى فأخرج من بيتي في الساعة السادسة، لأنه على أن أركب ثلاث حافلات من أجل الوصول إلى هنا.

اتفقنا على أن أحضر لأخذه عند خروجه من عمله، بعد الساعة الثامنة. وعندما كنت أغادر ناداني:

ـــ تناول شيئاً من المثلجات، على حساب المحل. وسترى كم هي جيدة. لعلك تصبح زبوناً عندنا.

قبل أن أعود إلى بارانكو، أقوم بجولة على الأقدام في الحي،محاولاً أن أعيد تنظيم الأمور في رأسي. أتوقف قليلاً تحت شرفات البيت الذي عاشت فيه الجميلة فلورا فلوريس. لقد كان لها شعر كستنائي، وساقان طويلتان، وعينان بزرقة ماء البحر. وعندما كانت تصل إلى شاطئ ميرافلوريس الحصوي، بثوب استحمامها الأسود وخفها الأبيض، كان الصباح يمتلئ بالضوء، والشمس تصبح أكثر دفئاً، والأمواج تندفع بسعادة أكبر. أتذكر أنها تزوجت من طيار مالبث أن قُتل بعد شهور قليلة حين اصطدم بإحدى قمم سلسلة الجبال، ما بين ليما وتينغو ماريا، وهناك مِن أخبرني بعد سنوات بأن فلورا قد تزوجت ثانية وأنها تعيش في ميامي. أصعد حتى جادة غراو.

عند هذه الناصية كان يوجد حي فيه فتيان يتنافسون معنا ــ نحن فتيان شارع دييغو فيرو وكولون، في الجهة الأخرى من ميرافلوريس ــ في مباريات كرة قدم حامية الوطيس في نادي تراثاس، وأتذكر اللهفة التي كنت أنتظر بها في طفولتي هذه المباريات وإحساسي الرهيب بالإحباط حين يضعونني في الاحتياط. عندما رجعت إلى السيارة، بعد نصف ساعة، كنت قد استعدت تماسكي بعد اللقاء بمايتا.

الواقعة التي أعادته إلى لوريغانتشو، والتي أمضى بسببها هناك هذه السنوات العشر الأخيرة، موثقة جيداً في الصحف وفي المحفوظات القضائية. لقد وقعت الحادثة في مجدلينا القديمة، غير بعيد عن المتحف الانثربولوجي، في فجر أحد أيام كانون الثاني (يناير) عام ١٩٧٣. كان مدير فرع مصرف بويبلو ليبري للاعتماد يسقي حديقته الداخلية ــ وهو ما يفعله كل صباح قبل أن يبدل ملابسه ــ عندما قُرع الجرس. وفكر في أن بائع الحليب قد حضر أبكر من عادته في الأيام الأخرى. ولكنه وجد عند الباب أربعة أشخاص يغطون وجوههم بطاقيات كالأقنعة ويصوبون إليه مسدساتهم. دخلوا معه إلى غرفة زوجته، فقيدوها في سريرها بالذات. وبعد ذلك ــ ويبدو أنهم كانوا يعرفون المكان ــ دخلوا إلى غرفة نوم ابنته الوحيدة، وهي صبية في التاسعة عشرة، تدرس السياحة. وانتظروا إلى أن ارتدت الفتاة ثيابها ثم حذروا السيد من أنه إذا أراد أن يراها ثانية، فعليه أن يأخذ خمسين مليون سول في حقيبة إلى حديقة لوس غاريفوس، بالقرب من الستاد الوطني. ثم اختفوا مع الفتاة في سيارة تكسي كانوا قد سرقوها في اليوم السابق.

قدم السيد فوينتيس بلاغاً إلى الشرطة، وانصاع لتعليماتها، فحمل حقيبة مملوءة بالورق إلى حديقة لوس غاريفوس. وكان قد انتشر فيما حول

المكان تحريون بملابس مدنية. لم يقترب منه أحد و لم يتلق السيد فوينتس أي خبر طوال ثلاثة أيام. وعندما كان اليأس قد سيطر عليه وعلى زوجته، تلقى مكالمة أخرى:إن الخاطفين يعرفون أنه قد أبلغ الشرطة. إنهم يمنحونه فرصة أخيرة. يجب عليه أن يأخذ النقود إلى ناصية معينة في شارع أبياثيون. أوضح لهم السيد فوينتس بأنه لا يستطيع الحصول على الخمسين مليوناً، لأن المصرف لن يعطيه مثل هذا المبلغ، ولكنه مستعد لأن يقدم إليهم كل مدخراته التي تبلغ حوالى خمسة ملايين. فأصر الخاطفون: إما خمسون وإما أن يقتلوها. استدان السيد فوينتيس أموالاً،ووقع كمبيالات وتمكن من جمع حوالى تسعة ملايين حملها في تلك الليلة إلى حيث أمروه، ودون أن يخبر الشرطة في هذه المرة. مرت سيارة بجواره، وتناول الشخص الذي كان إلى جانب السائق الحقيبة دون أن يتفوه بكلمة. وبعد ساعات عادت الفتاة إلى بيت أبويها. كانت قد استأجرت سيارة تكسي من جادة كولونيال، حيث تركها خاطفوها بعد أن أمضت ثلاثة أيام وهي معصوبة العينين وشبه مخدرة بالكلوروفورم. وكانت في حالة من الاضطراب استدعت إدخالها إلى مستشفى إيمبليادو. بعد أيام قليلة، نهضت في الغرفة التي كانت تتقاسمها مع مريضة أجريت لها عملية الزائدة الدودية، ودون أن تنطق بأي كلمة ألقت بنفسها في الفضاء.

انتحار الفتاة الذي استغلته الصحافة أثار هياج الرأي العام. وبعد أيام قليلة أعلنت الشرطة أنها قد اعتقلت زعيم العصابة ــ مايتا ــ وأن شركاءه على وشك الوقوع في يدها. وحسب ما قالته الشرطه، فإن مايتا قد اعترف بفعلته وكشف كل التفاصيل. ولكن لم يظهر أي أثر للشركاء ولا للنقود قط. وفي المحاكمة أنكر مايتا تدخله في عملية الاختطاف، بل قال إنه لم يكن

يعلم بأمرها، وأصر على أن الاعتراف المزيف قد انتزع منه تحت التعذيب. استمرت المحاكمة عدة شهور، وكان يحيط بها في أول الأمر غضب الصحف الذي ما لبث أن فتر. وصدر الحكم بالحبس مدة خمس عشرة سنة بحق مايتا الذي رأت المحكمة أنه مذنب في عملية اختطاف، وابتزاز، وقتل غير مباشر، على الرغم من صرخاته بأنه بريء. و لم يكن ممكناً تأكيد ما كان يكرره من أنه في يوم الاختطاف كان موجوداً في باكاسمايو للاستقصاء عن إمكانية حصوله على عمل. وقد أضرت به جداً شهادة الزوجين فوينتيس، إذ أكدا كلاهما بأن صوته ومظهره يتطابقان مع صوت وهيئة أحد المقنَّعين. أما محامي مايتا،وهو صياد قضايا غامض، فكان سلوكه طوال المحاكمة ينم عن الخراقة والضجر، وقد استأنف الحكم. ولكن المحكمة العليا أكدته بعد حوالي سنتين.وإطلاق سراح مايتا بعد قضاء ثلثي مدة الحكم يؤكد دون شك ما قاله لي السيد كاريّو في سجن لوريغانتشو: بأن سلوكه خلال تلك السنوات العشر كان مثالياً.

عندما مررت للبحث عنه في محل المثلجات يوم الثلاثاء في الساعة الثامنة ليلاً،كان مايتا ينتظرني وهو يحمل حقيبة لا بد أنها تضم ملابسه التي يستخدمها في العمل. كان قد غسل وجهه وسرح ذلك الشعر غير المتناسق؛ وكانت قطرات من الماء تسيل على رقبته. إنه يرتدي قميصاً أزرق مخططاً، وسترة رمادية ذات مربعات،باهتة اللون وفيها بعض الرقع، وبنطالاً خاكي اللون مجعداً، وحذاء ثقيلاً، من تلك الأحذية التي تستخدم للمسافات الطويلة. أهو جائع؟ أنذهب إلى أحد المطاعم؟ فيقول لي إنه لا يأكل أبداً في الليل،وإنه من الأفضل أن نبحث عن مكان هادئ. بعد بضع دقائق كنا في مكتبي، وجهاً لوجه، نشرب كأسين من المياه الغازية. لم يشأ أن يشرب بيرة

أو أي مشروب كحولي آخر. ويقول لي إنه توقف عن التدخين والشراب منذ سنوات عديدة.

كانت بداية الحديث كئيبة بعض الشيء. سألته عن مدرسة ساليسيانو. فقد درس هناك، أليس كذلك؟ بلى. لم يعد لرؤية زملائه منذ قرون وهو لا يكاد يعرف إلا القليل عن هذا أو ذاك، عندما يظهر في الصحف فجأة أن أحدهم مهني، أو رجل أعمال، أو سياسي. وهو لا يعرف شيئاً كذلك عن الرهبان الذين علموه في المدرسة، بالرغم من أنه، كما يخبرني، قد التقى منذ أيام بالتحديد بالأب لويس في الشارع. وهو من كان يعلم الصغار. إنه عجوز عجوز، وشبه أعمى، ظهره منحن، يجرجر قدميه مستنداً على عصا مكنسة. وقد قال له إنه قد خرج ليتمشى قليلاً في شارع البرازيل، وإنه قد عرفه، ولكنه ــ ويبتسم مايتا ــ لم يكن يدرك بالطبع مع من يتكلم. لا بد أن قد بلغ المئة سنة أو تجاوزها.

عندما عرضت عليه المواد التي جمعتها حوله وحول مغامرةخاوخا ــ قصاصات صحف، نسخ مصورة من ملفات التحقيق، صور، خرائط دروب، بطاقات حول أبطال المغامرة والشهود، دفاتر ملاحظات ومقابلات ــ رأيته يتشمم، يتصفح، يلمس كل تلك المواد بتعبير من الذهول والارتباك. لقد نهض عدة مرات ليذهب إلى المرحاض. ويوضح لي بأن لديه مشكلة في الكليتين، فهو يشعر دائماً بالرغبة في التبول، ولكنه يكون إنذاراً زائفاً في أغلب المرات ولا يتبول إلا بضع قطرات فقط.

ــ الانتقال في الحافلات من بيتي إلى دكان المثلجات هو مشكلة. فالطريق كما قلت لك تستغرق ساعتين. ومن المستحيل التحمل بالرغم من أنني أتبول قبل الصعود. وفي بعض الأحيان لا أجد مفراً من أن أبلل سروالي، مثل الأطفال.

أسأله ببلاهة:

ـــ هل كانت قاسية تلك السنوات في لوريغانتشو؟

فينظر إلي ذاهلا. هناك صمت شـــامل في الخـــارج، في كورنيـــش بارانكو. لا يسمع حتى صوت رجوع الأمواج.

ويجيب بعد بعض الوقت بنوع من الخجل:

ـــ لم تكن حياة باشا. إنها صعبة في البداية. ولكن المرء يعتاد علـــى كل شيء، أليس كذلك؟

ها هو أخيرا شيء يتفق فيه مع مايتا الشهادات التي جمعتـــها: هـــذا الحياء، والتكتم في الحديث عن مشاكله الشخصية، وفي الكشف عن أشياءه الحميمة. ويعترف لي على الفور بأن الشيء الوحيد الذي لم يستطع أن يعتاد عليه هو حراس السجن الجمهوريين. لم يكن يعرف ما معنى الحقـــد إلى أن اكتشف المشاعر التي يبعثونها في السجناء. إنه حقد مختلط برعب هســـتيري بالطبع. لأنهم حين يجتازون حاجز الأســـلاك ليضعـــوا حـــدا لمشـــاجرة أولإضراب، يفعلون ذلك على الدوام وهم يطلقون الرصاص أو يوجـــهون الضربات دون الاهتمام بما إذا كان من سيسقطون ظالمين أو مظلومين.

أقول له:

ـــ لقد حدث ذلك في نهاية العام الماضي، أليس كذلـــك؟ عندمـــا وقعت المذبحة.

فيوافق قائلا:

ـــ في ٣١ كانون الثاني (ديسمبر). لقد دخل نحـــو عشـــرة منـــهم للاحتفال بالأعياد. كانوا يريدون أن يتسلوا كما قالوا، وأن يأخذوا عيديـــة رأس السنة. وكانوا مخمورين جدا.

جرى ذلك في حوالى الساعة العاشرة ليلا. راحوا يفرغون أسلحتهم من وراء أبواب ونوافذ العنابر. انتزعوا من السجناء كل ما في السجن من نقود، ومشروبات، وماريجوانا، وكوكائين وبقوا يتسلون حتى الفجر، يطلقون عليهم النار، ويهشمونهم بأعقاب البنادق وهم يجبرونهم على القفز كالضفادع أو اجتياز ممر قاتم، أو يكسرون رؤسهم وأسنانهم بالركلات.

ويقول:

ـــ العدد الرسمي للقتلى هو خمسة وثلاثون. والحقيقة أنهم قتلوا ضعف هذا العدد أو أكثر. وقد قالت الصحف فيما بعد إنهم كانوا يمنعون محاولة فرار.

يقوم بحركة تنم عن التعب ويعود صوته هامسا. لقد كان السجناء يرتمون فوق بعضهم بعضا مثلما في لعبة الركبي، مشكلين جبالا من الأجساد البشرية ليحتموا. ولكن هذه الحادثة ليست أسوأ ذكرياته عن السجن.فربما كانت أسوأها في الشهور الأولى، عندما اقتيد من لويغانتشو إلى القصر العدلي من أجل التحقيق القضائي، في واحدة من تلك العربات المزدحمة ذات الجدران المعدنية. فقد كان على السجناء أن يبقوا مقرفصين ورؤوسهم تلامس الأرض، ولدى أدنى محاولة لرفع الرأس والنظر إلى الخارج، يتعرضون للضرب الوحشي. والشيء نفسه يحدث في طريق العودة. ومن أجل الصعود إلى العربة كان لا بد من المرور جريا بين صفين من الحراس الجمهوريين، وأن يختار السجين إما تغطية رأسه أو خصيتيه،إذ أنهم يتلقون طوال الطريق ضربات بالهراوات، وركلات، وبصقات. يبقى ساهما لبعض الوقت ـــ وكان قد عاد لتوه من الحمام ـــ ثم يضيف دون أن ينظر إلي:

ـــ عندما أقرأ بأنهم قد قتلوا واحدا منهم، أشعر بسعادة كبيرة.

إنه يقول ذلك بحقد مفاجئ،عميق، ما يلبث أن يتبخر بعد لحظة من ذلك، عندما أسأله عن مايتا الآخر، ذلك النحيل الأجعد الذي يرتجف بطريقة غريبة.

فيقول:

ـ إنه لص حقير ذاب رأسه من كثرة الكوكائين. لن يعيش طويلاً.

ويكتسب صوته ووجهه عذوبة عندما يتكلم عن كشك المأكولات الذي كان يديره مع آريسبي في العنبر الرابع.

ويؤكد لي بفخر:

ـ لقد قمنا بثورة حقيقية.وكسبنا احترام الجميع. كنا نغلي الماء من أجل عصير الفواكه، ومن أجل القهوة، ومن أجل كل شيء. وكنا نقوم بغسل الملاعق والكؤوس والأطباق قبل وبعد كل استخدام. فالنظافة أولاً. أجل، لقد كانت ثورة. ورتبنا نظام كوبونات للديون. وقد لا تصدقني إذا قلت لك إنهم لم يحاولوا سرقتنا سوى مرة واحدة.لقد تلقيت ضربة سكين هنا، في ساقي، ولكنهم لم يستطيعوا أخذ أي شيء. بل إننا أقمنا ما يشبه المصرف، لأن كثيرين كانوا يعطوننا نقودهم لنخبئها لهم.

من الواضح أنه لا يرغب في التحدث عما يهمني: أعني أحداث خاوخا. فكلما حاولت حمله على الحديث عنها، يبدأ بتذكرها، وسرعان ما يحرف الحديث بطريقة مزعجة إلى مواضيع معاصرة. عن أسرته مثلاً. فيقول لي إنه قد تزوج في فترة الحرية بين مرحلتي سجنه الأخيرتين في لوريغانتشو، ولكنه في الحقيقة تعرف على زوجته الحالية في السجن ، في المرة السابقة. فقد كانت تأتي لزيارة أخيها السجين الذي عرّفه عليها. وتبادلا الرسائل وعندما خرج طليقاً تزوجا.وقد شكل دخوله إلى السجن مرة أخرى ضربة

قاسية لزوجته. فاضطرت في السنوات الأولى إلى تحطيم روحها لكي توفر الطعام للصغار، إلى أن تمكن هو من مساعدتها بفضل إدارته للكشك. وفي تلك السنوات الأولى كانت زوجته تعمل في الحياكة وتعرض بضاعتها من بيت لبيت. وكان هو أيضاً يحاول أن يبيع شيئاً منها في لوريغانتشو، فالكنزات الصوفية كانت مطلوبة إلى حد ما.

وبينما أنا أستمع إليه، أقوم بمراقبته. فانطباعي الأول بأنه رجل في حالة جيدة، معافى وقوي، هو انطباع زائف. فحالته الصحية ليست على ما يرام. وليس ذلك بسبب كليتيه اللتين تضطرانه الذهاب إلى الحمام في كل لحظة فقط. بل لأنه يتعرق كثيراً ويتشنج في بعض اللحظات كما لو أن وعكة تلم به. إنه يمسح جبهته بمنديل، وبين حين وآخر ينقطع كلامه بسبب نوبة تشنج. أهو مريض؟ أيريد أن نوقف المقابلة؟ لا، إنه في أحسن حال، فلنواصل.

وأقول له بغتة:

ـ يبدو لي أنك غير راغب في تناول موضوع بابيخوس وخاوخا. هل يزعجك الموضوع بسبب ما يعنيه من إخفاق؟ أم بسبب النتائج التي أوصل حياتك إليها؟

ينكر ذلك بهز رأسه عدة مرات.

ـ يزعجني الحديث في الأمر لأنني ألاحظ أنك تعرف عن الموضوع أكثر مني ـ يبتسم ـ. أجل، لستُ أمزح. فقد نسيتُ أشياء كثيرة، وهناك أشياء أخرى غائمة في ذاكرتي. أود أن أساعدك وأروي لك. ولكن المشكلة هي أنني لم أعد أعرف جيداً كل ما حدث، ولا كيف حدث. لا بد أنك تلاحظ بأن وقتاً طويلاً قد مضى على كل ذلك.

أهي مجرد تعللات وتصنع؟ لا. إن ذكرياته مترددة، وأحياناً خاطئة. ويتوجب عليَّ أن أصحح له في كل خطوة. يذهلني ذلك، لأن سيطرة هذا الموضوع على عقلي طوال هذه السنة، جعلني أفترض بسذاجة أن بطل الحدث كان مشغولاً به أيضاً وأن ذاكرته مازالت تنقب وتنبش ما حدث في تلك الساعات، قبل ربع قرن. لماذا جرى ذلك؟ لقد كان الحدث بالنسبة إلى مايتا واقعة في حياة فيها ما قبل وما بعد، وكانت فيها أحداث أخرى مثل ذلك الحدث أو أخطر منه. ومن الطبيعي أن تحل هذه الأحداث محل ذاك أو أن تُضعفه.

أقول له:

ـ هناك مسألة تبدو لي غير مفهومة بصورة خاصة. هل كان ثمة خيانة؟ لماذا اختفى من كانوا ملتزمين معكم؟ هل أعطى الأستاذ أوبييوث أمراً معاكساً؟ ولماذا فعل ذلك؟ هل بسبب الخوف؟ ألأنه كان يرتاب بالمشروع؟ أم أن باييخوس، مثلما يؤكد أوبييوث، هو من قدم موعد الانتفاضة؟

يفكر مايتا بضع ثوان بصمت. ثم يهز كتفيه ويدمدم:

ـ لم يتضح ذلك ولن يتضح مطلقاً.لقد بدا لي الأمر خيانة في ذلك اليوم. ثم صار أكثر تعقيداً فيما بعد. فأنا لم أكن أعرف مسبقاً موعد الانتفاضة. لقد حدده باييخوس وأبييوث بمفردهما، لأسباب أمنية.وقد أكد الأخير منهما دوماً بأن الموعد كان محدداً بعد أربعة أيام وأن باييخوس قدمه لأنه علم بأنهم سينقلونه من موقعه بسبب حادث جرى له مع حزب الأبريستا قبل يومين من ذلك.

مسألة الحادث صحيحة، وهي موثقة في صحيفة صغيرة كانت تصدر في خاوخا في ذلك الحين. فقد كانت هناك مظاهرة للأبريستا في ساحة

السلاح، من أجل استقبال هايا دي لاتوري الذي ألقى خطابا مـــن فـــوق أدراج مدخل الكتدرائية. وقد وقف بابيخوس، بملابـــس مدنيـــة، ومعـــه الأفطس أوبييوث وجماعة صغيرة من الأصدقاء عند أحد مداخل الســـاحة، وعندما مر الموكب قذفوه ببيض فاسد. طاردهم جواميس حزب الأبريســتا، وبعد محاولة للمناوشة، التجأ بابيخوس وأوبييوث وأصدقاؤهما إلى صـــالون حلاقة السيد إثكيل. هذا هو الشيء الوحيد المثبـــت. وتقـــول أطروحـــة أوبييوث، وأناس آخرين من خاوخا، إنه تم التعرف على بابيخوس من قبـــل عناصر الأبريستا، وأن هؤلاء تقدموا باحتجاج شديد اللهجـــة لأن قـــائد السجن، وهو ضابط في الخدمة الفعلية، قد شارك في عمل ضـــد اجتمـــاع سياسي مرخص به. ونتيجة لذلك، جرى تحذير بابيخوس بأنه سيتم نقله من موقعه. ويقال إنه قد استدعي بصورة مستعجلة من قبل قيادته المباشـــرة في هوانكايو. فدفعه ذلك إلى تقديم موعد التمرد أربعة أيام، دون أن يخطـــر المشاركين الآخرين. ويؤكد أوبييوث بأنه لم يعلم بتبديل الموعد إلا عندمـــا كان الملازم قد مات والمتمردون قد اعتقلوا.

ويقول لي مايتا:

ـــ كان يبدو لي من قبل أن هذا غير صحيح، وأنهم قد تخـــاذلوا. ثم لم أعد أعرف شيئا فيما بعد. لأن بعض الأشخاص الذين كانوا سيشـــاركون راحوا يصلون، بعد شهور أو سنوات، إلى سجون سيكســـتو والفرونتـــون ولوريغانتشو. كانوا يسجنونهم في قضايا أخرى، قضايا نقابية أو سياســـية. وجميعهم كانوا يقسمون بأن التمرد قد فاجأهم، وبأن أوبييوث قـــد اتفـــق معهم على يوم آخر، وأنه لم يكن هناك أي تخاذل أو تراجع. وأقول لـــك بصراحة إنني لا أعرف ذلك. فبابيخوس وأبييوث وحدهما من كانا يعرفـــان الموعد المقرر. هل قدم بابيخوس الموعد؟ إنه لم يخبرني. ولكن ذلـــك ليـــس

مستحيلا. فقد كان نزقا ومندفعا جدا، ويمكن له أن يقدم على مثل هـــذا الأمر، حتى ولو جازف بالبقاء وحيدا. وهو ما كنا نسميه في ذلك الحـــين المشيئية.

أهو ينتقد الملازم؟ لا، إنه تعليق متأخر، وحيادي. ويخبرني أنه في تلك الليلة الأولى، عندما جاءت أسرة باييخوس لاستلام الجثة، رفض أبـــوه أن يسلم عليه. فقد دخل الأب عندما كانوا يحققون معه، فمد له مايتـــا يـــده ولكن السيد لم يصافحه، بل ونظر إليه بغضب ودمـــوع، وكأنـــه يحملـــه مسؤولية كل شيء.

ويكرر:

ـــ لست أدري، ربما هناك شيء من هذا. أو ربما هو سوء تفـــاهم. أعني أنه ربما كان باييخوس واثقا من أنه سيتلقى دعما لم يعده أحد بـــه في الحقيقة. ففي الاجتماعات التي أخذوني إليها، في ريكران، حيـــث اجتمـــع أوبييوث مع عمال المناجم، جرى الحديث عن الثورة، وكان الجميع يبـــدون موافقين. ولكن، هل وعدوا بحمل السلاح والخروج إلى الجبال منذ اليـــوم الأول؟ أنا لم أسمعهم يقولون ذلك. ولكن الأمر بالنسبة إلى باييخوس كـــان مؤكدا تماما، ولا يمكن الشك فيه. ربما يكون قد تلقى وعودا غامضة فقـــط بدعم معنوي، أو النوايا بالمساعدة من بعيد، على أن يواصل كل منهم حياته المعتادة. أو ربما أنهم قد التزموا، ثم تراجعوا بعد ذلك بسبب الخـــوف أو لأن الخطة لم تكن مقنعة. لا يمكنني أن أحدد ذلك. الحقيقة أنني لا أعرف.

أسأله:

ـــ هل شعرت بالندم يوما لأنك أدخلت نفسك في تلك المغـــامرة؟ أفترض أنك قد فكرت كثيرا بما جرى وأنت في السجن كثيرا طوال هـــذه السنوات.

ـ الندم هو من شؤون الكاثوليكيين. وأنا لم أعد كذلك منذ سنوات طويلة. فالثوريون لا يندمون. إنهم يمارسون النقد الذاتي، وهو أمر مختلف عن الندم. وأنا قمت بإجراء نقدي الذاتي. ـ يبدو غاضباً، ولكنه يبتسم بعد ثوان قليلة: ـ أنت لا تدرك مدى الغرابة التي أجدها في التكلم في السياسة. أشعر كما لو أن شبحاً يعود من أعماق الزمن ليريني الموتى والأشياء المنسية.

هل تخلى عن الاهتمام بالسياسة في هذه السنوات العشر الأخيرة فقط؟ أم في فترة سجنه السابقة؟ أم عندما اعتقل بسبب قضية خاوخا؟ يبقى صامتاً، مفكراً، محاولاً أن يستجلي ذكرياته. هل نسي ذلك أيضاً؟

ويدمدم وهو يمسح جبهته:

ـ لم يخطر لي أن أفكر بذلك إلا الآن. لم يكن الأمر في الواقع قراراً اتخذته. إنه شيء حدث وحسب، شيء فرضته الظروف. تذكر أنني عندما ذهبت إلى خاوخا للمشاركة في الانتفاضة،كنت قد قطعت صلتي برفاقي، وبحزبي، وبماضي. لقد بقيت وحيداً، أعني من الناحية السياسية. ورفاقي الجدد لم تستمر علاقتي بهم سوى بضع ساعات. فباييخوس مات، وكوندوري مات، وثينون غونثاليس رجع إلى قريته، والفتيان عادوا إلى مدرستهم. هل تلاحظ؟أنا لم أترك السياسة. من الأصح القول إنها هي التي تركتني.

يقول ذلك بطريقة لا أستطيع معها تصديقه: إنه يقوله بصوت خافت وعينين زائغتين بينما هو يتململ في مقعده.إنني واثق، للمرة الأولى في هذه الليلة، من أنه يكذب. ألم يعد مطلقاً إلى اللقاء مع رفاقه القدماء في ح ع ث (ت)؟

فيهتف:

ـــ لقد كانوا جيدين في سلوكهم معي حين كنتُ في السجن، بعد قضية خاوخا. فقد كانوا يزورونني، ويحملون إليّ السجائر، وتحركوا كثيراً من أجل إدراج اسمي في العفو الذي أصدرته الحكومة الجديدة.ولكن ح ع ث (ت) انحل بعد وقت قصير،بسبب حركة وادي كونفينشيون التي قادها هوغو بلانكو. وعندما خرجت من السجن لم يكن لـ ح ع ث (ت) ولا ح ع ث وجود. وكانت قد ظهرت جماعات تروتسكية أخرى أسسها أناس قادمون من الأرجنتين. و لم أكن أعرف أحداً منهم، كما أنني لم أعد أهتم بالسياسة.

ومع نطقه الكلمات الأخيرة ينهض للتبول.

وحين يرجع، أرى أنه قد غسل وجهه كذلك. ألا يريد حقاً أن نخرج لنأكل شيئاً؟ فيؤكد لي أن لا، ويكرر أنه لا يأكل شيئاً على الإطلاق في الليل. بقينا لبعض الوقت غارقين في تأملات خاصة، دون كلام. الصمت ما يزال شاملاً هذه الليلة في كورنيش بارانكو؛ لا وجود فيه إلا لأزواج عشاق صامتين، يحميهم الظلام، وليس هناك أحد من السكارى ومدمني الماريجوانا الذين يثيرون الضجيج في أيام الجمعة والسبت. أقول له إن شخصية روايتي هو ثوري سراديب، أمضى نصف حياته في التآمر والنضال ضمن جماعات سياسية صغيرة وغير ذات وزن مثلما كانت جماعته، وأنه يلقي بنفسه إلى مغامرة خاوخا ليس لقناعته بمخططات بايبخوس ـــ بل ربما كان يرتاب باحتمالات النجاح ـــ وإنما لأن الملازم فتح له أبواب العمل المباشر. إمكانية العمل بطريقة محددة، ولأن إحداث تغييرات عملية ومباشرة في الواقع كان يبهره.وأتى تعرفه على ذلك الضابط الشاب المتهور ليكشف له بأثر رجعي

قزمية نشاطاته الثورية السابقة. ولهذا السبب ينغمس في الانتفاضة بالرغم من حدسه بأنها أقل من الانتحار بقليل.

وأسأله:

ـــ هل تتعرف في شيء على مثل هذه الشخصية؟ أم أنه ليست لهـــا أي علاقة بك، من حيث الأسباب التي دفعتك للسير مع باييخوس؟

ينظر إلي، مفكرا، وهو يرمش، دون أن يدري بماذا يجيـــب. يرفـــع الكأس ويشرب بقية المياه الغازية. إن تردده هو رده.

ـــ هذه الأمور تبدو مستحيلة عندما تخفق ـــ ويفكـــر ـــ. أمـــا إذا نجحت فالجميع يرونها متقنة وجيدة التخطيط. خذ مثلا الثورة الكوبية. كـــم عدد الذين أبحروا مع فيدل في زوق غرانما؟ إنهم حفنة. وربما كانوا أقل عددا منا في ذلك اليوم في خاوخا. ولكن النجاح حالفهم بينما لم يحالفنا نحن.

يستغرق في التأمل لحظة، ثم يؤكد:

ـــ أنا لم أر في يوم من الأيام أن العملية كانت جنونـــا، ولم تكـــن انتحارا كذلك. لقد جرى التفكير في خطتها جيدا. فلو أننا نسفنا جســـر مولينوس وأخرنا وصول الشرطة لتمكنا مـــن اجتيـــاز سلســـلة الجبـــال. وبنـــزولنا إلى الأدغال ما كانوا سيجدوننا. كنا ســـ...

ينطفئ صوته. انعدام القناعة التي يتكلم بها كانت واضحة إلى حد بدا معه كما لو قال إنه لا معنى لمحاولة إقناعي بشيء لا يؤمن هو نفســـه بـــه. وبماذا يؤمن الآن زميل دراستي السابق المزعوم؟ فهناك في مدرسة ساليسيانو، قبل نصف قرن، كان يؤمن بالرب إيمانا متأججا. وفيما بعد، عندما مـــات الرب في قلبه، آمن بالحمية نفسها بالثورة، وبماركس ولينين وتروتسـكي. ثم جاءت بعد ذلك أحداث خاوخا، أو ربما قبلها، تلك النضـــالات الحزبيـــة

التافهة، فأضعفت ذلك الإيمان وأماتته. وأي إيمان حل محلها بعد ذلـــك؟ لا شيء. ولهذا فإنه يثير انطباعاً بأنه رجل خاوٍ، بلا انفعالات تدعم ما يقولــه. وعندما بدأ يسطو على مصارف ويختطف من أجل الحصول على فديـــة،ألم يعد قادراً على الإيمان بأي شيء سوى الحصول على المال بـــأي طريقـــة؟ هنالك شيء فيّ يرفض تقبل ذلك. وخصوصاً الآن، بينما أنـــا أتفحصـــه، بحذائه الثقيل ذاك، وملابسه البائسة؛ وخصوصاً بعد أن رأيت الطريقة الـــتي يكسب بها الآن لقمة عيشه.

أنبهه:

ـــ إذا أنت شئت فلن نتحدث في الموضوع. ولكنني سأقول لك شيئاً على الأقل يا مايتا. فأنا أجد صعوبة في فهم أنك بعد خروجك من السجن، بعد قضية خاوخا،انهمكتَ في السطو على المصارف واختطاف الناس. هـــل يمكننا التحدث في هذا الموضوع؟

ـــ لا، في هذه الموضوع لا ـــ يرد فوراً بشيء من القسوة. ولكنـــه يناقض نفسه حين يضيف: ـــ لم تكن لي أي علاقة بذلك. لقـــد زيفـــوا الأدلة، وقدموا شهود زور، وأجبروهم على الشهادة ضدي. لقد أدانـــوني لأنه كان لابد لهم من إيجاد مذنب، وكنت أنا صاحب سوابق. إن إدانـــتي هي وصمة عار للقضاء.

وينقطع صوته من جديد، كما لو أن الخمود، والتعب قد سيطرا عليه في هذه اللحظة،وكما لو أنه موقن من أنه من غير المجدي محاولة صرفي عـــن شيء اكتسب بفعل مرور الزمن تماسكاً لا يمكن دحضـــه. أتـــراه يقـــول الحقيقة؟ أيكون صحيحاً أنه لم يكن ضمن مـــن ســـطوا علـــى مصـــرف لافكتوريا، و لم يكن أحد الخاطفين في بويبلو ليبري؟ أعرفُ جيداً أن هنـــاك

أناساً أبرياء في سجون البلاد ـــ ربما بعدد ما هناك من المجرمين خارج السجن، ممن يتمتعون بالاحترام والتقدير ـــ وليس من المستحيل أن يُستخدم مايتا، بفعل سوابقه، كبش فداء للقضاة والشرطة. ولكنني ألحظ في الرجل الجالس قابلتي حالة من اللامبالاة، من عدم الاهتمام الأخلاقي، وربما من الصفاقة، فلا يبدو لي مستحيلاً كذلك عدم تواطئه في أسوأ الجرائم.

أقول له بعد قليل:

ـــ بطل روايتي شاذ جنسياً.

فيرفع رأسه وكأن دبوراً قد لسعه. ويأخذ الاستياء بتشويه ملامح وجهه. إنه جالس على مقعد منخفض ذي مسند عريض، وهو يبدو الآن فعلاً في الستين من عمره أو أكثر. أراه يشد ساقيه ويفرك كفيه متوتراً، ثم يسالني أخيراً:

ـــ لماذا؟

لقد فاجأني: أتراني أعرف السبب؟ ولكنني أرتجل له تفسيراً:

ـــ من أجل التشديد على هامشيته، ووضعه كرجل يغص بالتناقضات. وكذلك من أجل إظهار الأحكام المسبقة حول هذه القضايا بين من يُفترض فيهم أن يحرروا المجتمع من عيوبه. حسن، ولست أعرف بدقة لماذا هو كذلك.

تزداد حدة ملامح استيائه.أراه يمد يده، يمسك كأس الماء الذي كان قد وضعه فوق بعض الكتب، يداعبه بيده، وحين ينتبه إلى أنه فارغ، يعيده إلى مكانه. ثم يدمدم بعد لحظة من الصمت:

ـــ لم تكن لدي أحكام مسبقة ضد أي شيء على الإطلاق. أما بشأن المخنثين، فأظن أن لدي شيء منها. بعد أن رأيتهم َفي سجني سكستو والفرونتون. ولكنهم أسوأ بكثير في سجن لوريغانتشو.

بقي ساهماً للحظة. وكانت تكشيرة الاستياء تخف، ولكن دون أن تختفي تماماً. ليس هناك ظل من الشفقة في ما يقوله:

ـ كانوا ينزعون شعر حواجبهم، ويلفون رموشهم ويكحلونها بثقاب محروق، ويطلون أفواههم، ويرتدون تنانير، ويبتدعون باروكات شعر، ويسمحون للقوادين بأن يستغلوهم مثل المومسات. كيف لا يتقيأ المرء. لا أكاد أصدق أنه يمكن للكائن البشري أن ينحط إلى هذا الدرك. مخنثون مستعدون لمص عضو أي شخص مقابل عقب سيجارة... ـ يزفر، وقد امتلأت رقبته بالعرق من جديد. ثم يضيف وهو يضغط على أسنانه: ـ يقال إن ماو تسي تونغ قد رمى بالرصاص كل المخنثين الذين كانوا في الصين. هل ذلك صحيح؟

ينهض من جديد ليذهب إلى الحمام وبينما أنا أنتظر عودته، أتطلع من النافذة. في سماء ليما الضبابية على الدوام تقريباً، تظهر النجوم هذه الليلة، بعضها ساكنة وبعضها تطلق شرراً فوق هذه اللطخة السوداء التي يشكلها البحر. ويخطر لي أن مايتا عندما كان هناك في لوريغانتشو، في ليال مثل هذه الليلة، كان يتأمل النجوم المتلألئة وهو مُنوّم، فيرى مشهداً نظيفاً، هادئاً، وقوراً: إنه النقيض الدرامي للانحطاط العنيف الذي يعيش فيه.

عندما رجع قال لي إنه يتحسر لأنه لم يسافر مطلقاً إلى الخارج. لقد كان يراوده حلم كبير في كل مرة يخرج فيها من السجن: أن يسافر، ويبدأ من الصفر في بلاد أخرى. حاول ذلك بكل السبل، ولكن الأمر كان صعباً جداً: لعدم وجود النقود، أو الوثائق النظامية، أو الأمرين كليهما. لقد وصل في إحدى المرات حتى الحدود في حافلة كانت ستوصله إلى فنزويلا، ولكنهم أنزلوه في مركز جمارك الإكوادور، لأن جواز سفره لم يكن نظامياً.

ويهمهم:

ـــ لم أفقد الأمل في السفر على أي حال. لقد صار الأمر أصعب بوجود أسرة كبيرة. ولكن الذهاب إلى الخارج هو أكثر ما يعجبني. فهنا لا يوجد أمل بالعمل، ولا بأي شيء. لا يوجد. أينما تلفت أحدنا، لا يجد شيئاً ببساطة. ولهذا لم أفقد الأمل بالسفر.

وأفكر: ولكنك فقدت الأمل بالبيرو. فقدته بالكامل ونهائياً، أليس كذلك يا مايتا؟ أنت يا من كنت تؤمن كثيراً، كنت ترغب في الإيمان بمستقبل لبلادك التعيسة. لقد ألقيت السلاح،أليس كذلك؟ إنك تفكر، أو تتصرف كما لو أنك تفكر، بأن هذه البلاد لن تتبدل مطلقاً نحو الأفضل، وإنما نحو الأسوأ فقط. مزيد من الجوع.. مزيد من الحقد.. مزيد من القمع.. مزيد من الجهل.. مزيد من الوحشية.. مزيد من البربرية. وأنت أيضاً، مثل كثيرين غيرك، لم تعد تفكر الآن إلا بالهرب قبل أن نغرق نهائياً.

ـــ إلى فنزويلا، أو إلى المكسيك، حيث يقولون إن هناك عملاً كثيراً بسبب البترول. بل وإلى الولايات المتحدة، مع أنني لا أتكلم الإنكليزية. هذا هو ما أرغب فيه.

وينحبس صوته من جديد، بسبب افتقاره إلى القناعة بما يقوله. وأنا أيضاً أفقد بعض الشيء في هذه اللحظة اهتمامي بالمحادثة. أعرف أنني لن أحصل من زميل دراستي المزيف على أكثر مما حصلت عليه حتى الآن: اليقين الكئيب بأنه رجل محطم بالعذاب والحقد،وأنه قد فقد حتى ذكرياته. وإنه، باختصار، شخص مختلف جوهرياً عن مايتا روايتي، عن ذلك التفاؤل العنيد، عن رجل الإيمان ذاك الذي يحب الحياة على الرغم مما فيها من رعب وبؤس. أشعر بعدم الراحة، وبأنني أستغله، وأستبقيه هنا ـــ الوقت يقترب

من منتصف الليل ـــ من أجل محادثة لا أتوقع منها نتيجة. لا بد أنه يشعر بالغم من هذا النبش في الذكريات، وهذا الذهاب والإياب من مكتبي إلى الحمام، وهذا التبدل في روتينه اليومي الذي أتصوره رتيباً، حيوانياً.

أقول له:

ـــ لقد جعلتك تطيل السهر كثيراً.

ـــ الحقيقة أنني أنام باكراً ـــ يرد براحة وهو يشكرني بابتسامة تضع نقطة الختام لمحادثتنا، ويتابع قائلاً: ـــ مع أنني أنام قليلاً، تكفيني أربع أو خمس ساعات. أما في صباي بالمقابل، فكنت محباً للنوم.

ننهض، نخرج،وعندما نصير في الشارع يسألني من أين يمر الامنبوس الذي يصل إلى مركز المدينة. وعندما أقول له بأنني سأوصله، يتمتم بأنه يكفي أن أقربه قليلاً. وأنه يمكنه أن يركب ميكروباصاً من شارع ريماك.

ليس هناك حركة مرور تقريباً في جادة اكسبريسا.رذاذ خفيف جداً يبلل زجاج السيارة. وحتى الوصول إلى شارع خابيير برادو لا نتبادل إلا بضع عبارات متقطعة، حول الجفاف في جنوب البلاد والفيضانات في شمالها. وحول المشاكل على الحدود. وعندما نصل إلى الجسر، يهمس بانزعاج واضح بأنه مضطر للنزول قليلاً. أُوقف السيارة، فينزل ويتبول بجانب السيارة، متستراً بالباب. وحين يعود، يتلعثم بأن مشكلة كليتيه تزداد حدة في الليل، بسبب الرطوبة. هل ذهب إلى الطبيب؟ وهل يتبع علاجاً ما؟ إنه يحاول أولاً أن يرتب أمر ضمانه الصحي؛ وعندما يحصل عليه قريباً سيذهب إلى مستشفى إيمبليادو ليفحصوه، مع أن الأمر كما يبدو صار مزمناً، ولن يكون بالإمكان علاجه.

نبقى صامتين حتى ساحة غراو.وهناك أسمعه يقول فجأة، كما لو أن شخصاً آخر هو الذي يتكلم:

ـــ الحقيقة أنه وقعت عمليتا سطو. قبل عملية لافكتوريا تلك الـــتي حبسوني من أجلها. ما قلته لك هو الحقيقة: و لم تكن لي أي علاقة كذلـــك بعملية الاختطاف في بويبلو ليبري. بل أنني لم أكن موجودا في ليما حينذاك، وإنما كنت في باكاسمايو، في مسعى للعمل.

يصمت. لا أستعجله.. لا أسأله شيئا. أقود السيارة ببـــطء شـــديد، منتظرا أن يحسم أمره ويواصل الكلام، وخائفا من ألا يفعل ذلـــك. لقـــد فوجئت بالانفعال الذي في صوته، والنفس الذي لا يمكنـــني أن أخطئـــه. شوارع مركز المدينة مظلمة ومقفرة. والضجة الوحيدة هي ضجـــة محـــرك السيارة.

ـــ حدث ذلك لدى خروجي من السجن، بعد قضية خاوخا، بعـــد تلك السنوات الأربع التي أمضيتها داخلا ـــ يتكلم وهو ينظر إلى الأمام ـــ. هل تتذكر ما كان يحدث في وادي كونفينثيون، هناك في كوســـكو؟ لقـــد كان هوغو بلانكو قد نظم الفلاحين في نقابات، وقـــاد عـــدة تحركـــات للاستيلاء على الأراضي. لقد كان عملا مهما، ومختلفا تماما عن كل ما كان يقوم به اليسار. وكان لا بد لنا من تقديم الدعم، وألا نسمح بأن يحدث لهم مثلما حدث لنا في خاوخا.

أوقف السيارة عند إشارة مرور حمراء، في جادة آبانكايا، فيتوقف هو أيضا عن الكلام. أشعر كما لو أن الشخص الذي إلى جانبي مختلف عن ذاك الذي كان قبل قليل في مكتبي ومختلف عن مايتا قصتي. إنه مايتـــا ثـــالث، متألم، تعيس، و لم يصب ذاكرته أي عطب.

يقول مدمدما:

ـــ هكذا حاولنا أن ندعمهم بالمال. فخططنا لعمليتي مصادرة. لقـــد كانت هذه هي أفضل وسيلة لتقديم الدعم في ذلك الحين.

لا أسأله مع من اتفق للسطو على المصرفين؛ وما إذا كان قد فعل ذلك مع رفاقه القدماء في ح ع ث (ت) أم مع ح ع ث الآخر، أم مع ثوريين تعرف عليهم في السجن أم مع أناس آخرين. ففي تلك الفترة ـــ بداية الستينات ـــ كانت فكرة العمل المباشر تعبق في الهواء وكانت هناك أعداد من الشباب، إذا لم يعملوا بهذه الطريقة، فإنهم يتكلمون على الأقل ليلاً ونهاراً عن توجههم للعمل. ولا بد أن ماتيه لم يجد صعوبة في الاتصال بهم، وملئهم بالأوهام، وقيادتهم في عمل مقدس يسمونه تسامحاً بالمصادرة. ولا بد أن ما جرى في خاوخا قد أكسبه شيئاً من السمعة في أوساط الجماعات الراديكالية. ولا أسأله كذلك عما إذا كان هو نفسه العقل المدبر لتلك الهجمات.

ويضيف قائلاً:

ـــ سارت الخطة في العمليتين بدقة الساعة. لم تجر اعتقالات و لم يسقط جرحى. وقد نفذناهما في يومين متتاليين، وفي مكانين مختلفين في ليما. صادرنا... ـــ هناك تردد قصير، قبل أن ينطق الصيغة المتهربة:ـــ ... عدة ملايين.

يصمت مرة أخرى. ألاحظ أنه يركز بعمق، باحثاً عن الكلمات المناسبة لما يجب أن يكون أصعب ما سيرويه. إننا قبالة ساحة أتشو، هناك ظلال ضخمة متشحة بالضباب. من أين أواصل الطريق؟ أجل، سأوصلك حتى بيتك. فيشير لي باتجاه ثاراتي. إنه لتناقض مرير أن يعيش الآن وقد صار حراً في منطقة قريبة من سجن لوريغانتشو. الطريق هنا هو متوالية من الحفر والبرك والقمامة. السيارة تهتز وتقوم بطفرات.

ـــ وبما أنه كانت لي صحيفة سوابق فقد اتفقنا على ألا أحمل النقود بنفسي إلى كوسكو. حيث سنسلمها هناك إلى جماعة هوغو بلانكو.

وكعمل احتياطي أولي،قررنا أن أذهب أنا فيما بعد، منفصلا عن الآخرين. وقد سافر الرفاق في جماعتين. وأنا نفسي ساعدهم في السفر. جماعة في سيارة شحن، وجماعة أخرى في سيارة مستأجرة.

يعود إلى الصمت ويسعل.ثم يضيف بسرعة، بنبرة جفاء ورصيد من السخرية:

ـــ وبعد ذلك مباشرة اعتقلتني الشرطة. ليس بسبب عمليتي المصادرة. وإنما بسبب الهجوم في لافكتوريا الذي لم أكن مشاركا فيه، و لم أكن أعرف عنه أي شيء. وفكرت: يا للمصادفات. يا لهذا التوافق. وفكرت أيضا: يا للروعة، فللأمر جانبه الإيجابي. سينشغلون بي، وستتعقد أمورهم. ولن يربطوا مطلقا بيني وبين عمليتي المصادرة. ولكن لا، لم يكن الأمر توافقا ومصادفة...

وفجأة عرفت ما الذي سيخبرني به، أدركت بدقة تامة أين ستنتهي قصته.

ـــ لم أفهم الأمر بوضوح إلا بعد سنوات من ذلك.ربما لأنني لم أشأ أن أفهمه ـــ يتثاءب بوجه محتقن، ويمضغ شيئا ـــ. بل إنني رأيت في أحد الأيام وأنا في لوريغانتشو منشورامكتوبا بخط اليد أصدرته لا أدري أي فئة شبحية، وهاجمتني فيه. كانوا يتهمونني باللص، ويقولون إنني استوليت على مبلغ لا أدري مقداره من النقود في عملية السطو على مصرف لافكتوريا. لم أول الأمر اهتماما، وظننت أنها واحدة من تلك النذلات المعهودة في الحياة السياسية. وعندما خرجت من لوريغانتشو، بريئا من عملية لافكتوريا، كان قد مضى ثمانية عشر شهرا.فرحت أبحث عن الرفاق الذين شاركوا في عمليتي المصادرة. لأنهم لم يوصلوا إلي طوال تلك المدة ولو رسالة واحدة، ولأنهم لم يتصلوا بي. وأخيرا وجدت واحدا منهم. وتحدثنا.

يبتسم فاتحاً فمه ذا الأسنان غير المكتملة.لقد توقف الرذاذ الآن ومن خلال مخروط ضوء السيارة يظهر تراب، أحجار، فضلات، وحواف بيوت بائسة.

فأساله:

ـــ وهل أخبرك بأن النقود لم تصل مطلقاً إلى هوغو بلانكو؟

فيقول مايتا:

ـــ لقد أقسم لي بأنه قد عارض، وأنه حاول إقناع الآخرين بألا يقدموا على دناءة كتلك. وروى لي كومة من الأكاذيب وألقى بتبعة كل شيء على الآخرين. طلب منهم أن يستشيروني فيما سيفعلونه. فلم يوافق الآخرون على حد قوله. وادعى بأنهم قالوا له: «مايتا متعصب. إنه لا يفهم، وهو شديد الاستقامة ولا يصلح لهذه الأمور.» ومن بين الأكاذيب التي أخبرني بها يمكن استخلاص بعض الحقائق.

يتنهد ويرجوني أن أتوقف. وبينما أنا أراه بجانب باب السيارة،يفك ثم يزرر بنطاله، أتساءل عما إذا كان ممكناً تسمية مايتا الذي استخدمته كنموذج «متعصباً»، وإذا ما كان مايتا قصتي متعصباً. أجل، كلاهما متعصب. مع أنهما قد لا يكونان متعصبين بالطريقة نفسها.

ويقول بنعومة بعد أن رجع إلى جانبي:

ـــ صحيح. أنا ما كنتُ سأفهم. صحيح. كنت سأقول لهم: أموال الثورة تحرق الأيدي. ألا تلاحظون بأنكم إذا احتفظتم بالنقود فستتخلون عن كونكم ثواراً وتتحولون إلى مجرد لصوص؟

يتنهد من جديد، بعمق. إنني أمضي ببطء شديد، في شارع مظلم، تظهر على جانبيه أحياناً أسر كاملة تنام في العراء، مغطاة بجرائد. وتخرج كلاب قذرة ضامرة وتنبح، عيونها تتألق بانعكاس أضواء السيارة عليها.

ويكرر:

ـــ لم أكن لأتركهم يفعلون ذلك بالطبع. ولهذا السبب وشـــوا بي، ولهذا السبب اتهموني بعملية السطو على مصرف لافكتوريا. كانوا يعرفـون بأنني لن أتورع عن إطلاق النار عليهم قبل السماح لهم بفعل ذلك. وقـــد أصابوا عصفورين بحجر واحد حين وشوا بي. فقد تخلصوا مني ووجـــدت الشرطة مذنباً. وكانوا يعرفون أنني لن أشي برفاق كنت أظن أنهم عرّضـــوا حياتهم للخطر من أجل أن يوصلوا حصيلة المصادرتين إلى هوغو بلانكـــو. وعندما عرفت التهمة التي يوجهونها إلي في التحقيق، قلت لنفسي: «تمـــام، إنهم لا يشمون الحقيقة». ورحت أضللهم لبعض الوقت. وكنت أظن بـــأن الحظ قد حالفنا.

يضحك ببطء، وبوجه جديّ. ثم يصمت ويخطر لي بأنه لن يضيـــف أي شيء آخر. وأنا لم أعد بحاجة لأن يقول أي شيء كذلك. إذا كان مـــا قاله صحيحاً، فأنا أعرف الآن ما الذي حطمه، أعرف الآن لماذا صـــار إلى الشبح الجالس بجانبي. لم يكن السبب هو الإخفاق في خاوخا، ولا قضـــاء كل هذه السنوات في السجن، بل ولا التكفير عن جرائم ارتكبها آخـــرون. ما حطمه بكل تأكيد هو اكتشافه أن عمليتي المصادرة لم تكونا إلا عمليـــتي سطو، واكتشافه أنه ـــ حسب فلسفته الخاصة ـــ قد تصـــرف كمجـــرم عادي. أم لأنه كان ساذجاً وأحمق أمام رفاق أقل منه عمـــراً في سـنوات النضال وفي السجون؟ أكان هذا هو ما خيب أمله بالثورة، وما جعل منـــه هذه النسخة المتصنعة من شخصيته بالذات؟

ويقول:

ـــ لقد فكرت لبعض الوقت في البحث عنـــهم، واحـــداً فواحـــداً، ومعاقبتهم.

فأقاطعه:

ـــ مثلما في رواية **الكونت دي مونت كريستو**. هل قــرأت هــذه الرواية يوماً؟

ولكن مايتا لا يسمعني، ويواصل:

ـــ ولكن الغضب والحقد انزاحا عني فيما بعد. ويمكن أن نقــول إذا شئت إنني قد غفرت لهم. لأن أحوالهم جميعاً حسب ما بلغني كانت ســيئة مثل حالي وربما أسوأ. باستثناء واحد منهم، وصل إلى أن يكون نائباً برلمانياً.

يضحك ضحكة مريرة قبل أن يصمت.

وأفكر: ليس صحيحاً أنك قد غفرت لهم. بل انك لم تغفر لنفســك أيضاً ما جرى. هل يتوجب عليّ أن أطلب منه أسماء، وتفاصيل محـددة، وأن أحاول الحصول منه على المزيد؟ ولكن التشويش الــذي سـببه لي كــان استثنائياً، وربما سيندم على ضعفه إذا ما ألححت عليه. وأفكرُ بما كان يـدور همساً ما بين الأسلاك والإسمنت في لوريغانتشو، وبالسخرية التي كان هدفــاً لها. ولكن، ماذا لو كان هذا الذي رواه لي مجرد مبالغة ومحض أكاذيب؟ ألا يمكن أن يكون كل ذلك مجرد تمثيلية مدبرة لتبرئة نفسه من أمر يسبب لــه الخجل؟ أنظر إليه بطرف عيني. إنه يتثاءب ويتمطى، كما لو أنــه يشـعر بالبرد. وعند تفرع الطريق بمفترق يؤدي إلى لوريغانتشو، يشــير إلي بــأن أواصل قُدماً. ينتهي إسفلت الطريق الذي يمتد في أثر ترابي يتلاشى في أرض مقفرة.

يقول لي:

ـــ إلى الأمام قليلاً توجد القرية الفتية التي أعيش فيها. إنــني أمشــي حتى هنا كل يوم لأركب الامنبوس. هل تتذكر الطريق لتتمكن من الرجوع حين توصلني الآن؟

أؤكد له أنني أتذكر الطريق.أرغب في أن أسأله كم يكسب في محل المثلجات، وكم يذهب من أجره في الامنبوسات، وكيف يوزع ما تبقى لديه. وإذا ما كان قد حاول الحصول على عمل آخر، وإذا ما كان يرغب في أن أساعده، في أن أقوم بمسعى من أجله. ولكن الأسئلة كلها تموت في حنجرتي.

وأسمعه يقول:

ـــ لقد قيل في إحدى الفترات بأن هناك إمكانيات للعمل في الأدغال. وكنت أفكر في هذا الأمر أيضا. فإذا كان السفر إلى الخارج صعبا، فربما أذهب إلى بوكايبا أو إلى إيكيتوس.وقد قيل إن هناك شركات أخشاب، وبترول، وإمكانيات للعمل. ولكنه مجرد كلام. فالأمور في الأدغال مثلما هي الأمور هنا. في هذه القرية الفتية يوجد أناس رجعوا من بوكايبا. الحال هي نفسها. ومهربو الكوكائين وحدهم هم الذين يجدون عملا هناك.

بدأنا نخرج الآن من الأرض الخلاء، وبدأت تظهر في الظلام كتل من الظلال المبتورة المشوهة: إنها بيوت. بيوت من الطين، والتوتياء، والخشب، والحصر، وكلها تعطي انطباعا بأنها لم تكتمل، وأن العمل في بنائها قد توقف عندما بدأت تتخذ شكلا. لا يوجد إسفلت ولا دروب، ولا يوجد نور كهربائي، وليس هناك بالطبع ماء ولا مجارير.

أقول له:

ـــ لم أصل إلى هنا قط. كم كبير هو هذا الحي.

ـــ هناك، إلى اليسار،تظهر أنوار لوريغانتشو ـــ يقول لي مايتا بينما هو يقودني في وعورة الحي، ويضيف: ـــ لقد كانت زوجتي من مؤسسي هذه القرية الفتية. قبل ثمانية أعوام. شاركت في إنشائها مئتا أسرة تقريبا.

جاؤوا في الليل، في جماعات، دون أن يراهم أحد. وعملوا حتى الفجر في غرس الأعمدة وشد الحبال،وفي صباح اليوم التالي، عندما جاءت الشرطة، كان الحي قائماً. و لم تكن هناك طريقة لإخراجهم.

ـ أي أنك لم تكن تعرف بيتك عندما خرجت من سجن لوريغانتشو.

يقول لي لا بهز رأسه. ويروي لي أنه في يوم خروجه، بعد إحدى عشرة سنة تقريباً،وجد نفسه وحيداً يمشي عبر الأرض الخلاء التي اجتزناها للتو، وكان يُبعد عنه الكلاب التي تريد أن تعضه برميها بالحجارة. وحين وصل إلى أول البيوت بدأ يسأل: «أين تسكن السيدة مايتا؟» وهكذا وصل إلى بيته وقدم مفاجأة إلى أسرته.

إننا قبالة بيته، وقد حصرتُ البيت في مخروط ضوء السيارة. الواجهة مبنية بالآجر، والحائط الجانبي كذلك، أما السقف فلم ينته بعد، إنه توتياء غير مثبت نهائياً،وما يمنعه من الحركة هي أكوام صغيرة من الحجارة منضدة فوقه بفواصل متقاربة. أما الباب فهو لوح خشبي،مثبت إلى الجدار بمسامير وقطع حبال.

يقول مايتا:

ـ إننا نناضل الآن من أجل إيصال الماء. فالماء هو المشكلة الكبرى هنا. ومن أجل حل للزبالة أيضاً. هل أنت متأكد من أنك تستطيع الوصول إلى الطريق الإسفلتي؟

أؤكد له أنني أستطيع ذلك، وأقول له إنني سأحضر للقاء به بعد بعض الوقت، إذا كان ذلك لا يضايقه، لكي نتحدث ويخبرني ببعض الأشياء الأخرى عن قصة خاوخا. فربما تستعيد ذاكرته بعض التفاصيل. فيوافق وأودعه بمصافحة يشد فيها كل منا على يد الآخر.

لا أجد صعوبة في الخروج ثانية إلى الطريق الثابتة الـتي تـؤدي إلى ثاراتي. أفعل ذلك ببطء، متوقفاً لتأمل الفقر، والقبح، والخـذلان، واليـأس الذي ينضح من هذه القرية الفتية التي أجهل اسمها. ليس هنـاك أحـد في الشارع، ولا وجود حتى لأي حيوان. وبالفعل، فإن أكوام الزبالة تتراكم في كل مكان. يخيل إليّ أن الناس يكتفون بإلقائها من بيوتهم بإذعـان، وهـم يعرفون أنه ليس بإمكانهم عمل شيء، وأنه لن تأتي أي شاحنة بلدية لجمـع تلك القمامة، وليس لديهم حماس للاتفاق مع الجيران الآخرين وحمل القمامة إلى مكان أبعد، إلى تلك الأرض الخلاء، أو دفنها أو حرقها. لقد استسـلموا للواقع أيضاً وألقوا أسلحتهم. أتصور ما يكشف عنه ضوء النـهار، فمـن المؤكد أن أهرامات الفضلات المتراكمة قبالة الأكواخ، حيث يحوم أطفـال الجوار دون شك، تعج بالذباب والصراصير والفئران، وبما لا حصر له مـن الهوام. وأفكر بالأوبئة، بالنتانة، وبالميتات المبكرة.

وكنت ما أزال أفكر بالقمامة التي في حي مايتا الهامشي عندما لمحـت، إلى يساري، هيكل سجن لوريغانتشو، وتذكرت السجين المجنون والعـاري الذي كان ينام فوق المزبلة الهائلة، قبالة العنابر ذات الأرقام الفردية. وبعـد ذلك بقليل، عندما اجتزت شارع ثاراتي وساحة اتشو، وأصبحت في جـادة آبانكايا، في الطريق المستقيم الذي سيوصلني إلى شارع اكسبريسـا، وإلى سان إيسيدور وميرافلوريس وبارانكو، تخيلت مسبقاً كورنيش الحي الـذي حالفني الحظ بالسكن فيه، والمزبلة التي يكتشفها المرء ــ سأراها غداً، عندما أخرج للجري ــ إذا ما مدّ رقبته وأطل من حافة الكورنيش.. المزابل الـتي تحولت إليها تلك الشرفات الصخرية المطلة على البحر. وأتذكر عندئذ بأنني بدأت تخيل هذه القصة منذ سنة بذكر الزبالة، مثلما أنهيها الآن بذكر الزبالة التي راحت تغزو أحياء عاصمة البيرو.

الفهرس

الفصل الأول	٣
الفصل الثاني	٣٥
الفصل الثالث	٦٩
الفصل الرابع	١٠٩
الفصل الخامس	١٤٧
الفصل السادس	١٩١
الفصل السابع	٢٣١
الفصل الثامن	٢٦٧
ألفصل التاسع	٣١٥
الفصل العاشر	٣٥٥

٢٠٠٠ ط١/١٢/١٩٩٩

مايتا، المفترض انه عاش قبل ربع قرن في ليما، عاصمة البيرو. هو الثوري في براءته الأولى، يعرف الحركات الثورية كلها، الشيوعية منها والترتسكية ويرفضها ليقوم بثورة خاصة به لم تدم إلا ساعة واحدة.

يفترض الراوي مؤلف الكتاب انه يتقصى حياة مايتا ومغامراته لينتقل منها إلى حرب أهلية طاحنة مفترض فيها ان تقع في البيرو.

واضح ان المؤلف ينقد اليسار الأمريكي لتهافته ليجعلنا نتأمل في العنف، ينبثق من هاوية لاقرار لها.

مايتا أو ملحمة العنف رواية مُرّة غنية بالايحاءات، يزيد من روعتها أنها تُبكي حيث تُضحك.



الطباعة وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٩

سعر النسخة داخل القطر

في الأقطار العربية مايعادل